# محاضرات

# في تاريخ العرب

الدكتور صالح أحمد العلي



الجزء الاول

الدول العربية قبل الاسلام ، النظم البدوية ، حياة الرسول ،
والدعوة الاسلامية في مكة

الدكتور صالح أحمد العلي

استاذ بكلية الآداب ـ جامعة بغداد

# محاضرات في تاريخ العرب

## الجزء الاول

الدول العربية قبل الاسلام ، النظم البدوية ، حياة الرسول
والدعوة الاسلامية في مكة

الطبعــة

# شكـر

تشكر مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر في جامعة الموصل الاستاذ الفاضل الدكتور صالح احمد العلي لتفضله بالموافقة على اعادة طبع الكتاب خدمة للحركة العلمية في قطرنا .

# مقدمة الطبعة الاولى

ان هذا الكتاب هو في الاصل مجموعة المحاضرات التي القيت على طلاب كلية الآداب والعلوم ، ثم نقحت ووسعت بعض فصولها لتكون كتاباً منسجماً متناسقاً فيه تلخيص وعرض ، واضح بقدر الامكان ، للمحاولات التي قام بها سكان الجزيرة العربية لانشاء دول ذات نظام سياسي ، والحضارات والنظم التي ظهرت في هذه الدول أو عند القبائل العربية قبيل الاسلام ، وآثار كل حضارة ونظام على مجرى تاريخ الجزيرة ، وخاصة على أحوالها عند ظهور الاسلام الذي له الاثر الاكبر لا في تاريخ الجزيرة العربيـة وفي عقـائدنا ونظمنا فحسب ، بل في تاريخ الانسانية عموماً .

لقد نشر في اللغة العربية واللغات الاجنبية عن تاريخ الجزيرة قبـــل الاسلام وبعده ، عدد غير قليل من الابحاث التي تختلف في قدمها وفي مدى تفاصيل معلوماتها ، فبعض هذه الابحاث كتب عامة قديمـة كبلوغ الارب للالوسي وتاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ، وبعضها كتب عامـة حديثة مفصلة كتاريخ العرب لجواد علي ، أو مقتضبـــة كتاريخ العرب لفيليب حتي ، وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ، وتاريخ العرب قبل الاسلام لمبروك نافع . كما ظهرت في العربية بعض الدراسات المفصلة عن بعض نواحي حضارة تلك الفترة كفجر الاسلام لأحمد أمين ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي ، والمرأة العربية لمحمد أحمد الحوفي ، والنظم الاجتماعية والسياسية عند الساميين لمحمد محمود جمعة ، والاساطير العربية قبل الاسلام لمحمد عبدالمعيد خان ، والحيرة ليوسف غنيمة وآل غسان لنولدكه ، كما ظهر في اللغات الاوروبية عدد غير قليل من الدراسات المفصلة عن بعض هـــذه الدول . ولكن هذه الابحاث بعضها عتيق ، وبعضها يكاد يكـــون نادراً ، وبعضها مفصل أو مقتضب . فمحاولتي هذه هي تقديم بحث شامل منسجم

يرضى الطالب والمثقف الذي يريد أن يكون له فكرة عن تاريخ الجزيرة دون التبحر في الموضوع •

لقد أكدت ، بقدر ما تمكنني المصادر ، على نواحي الحضارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، أما النواحي السياسية فقد بحثت بقدر ما يظهر أمد كل من تلك الدول ومدى امتدادها الزماني والمكاني ، دون ايجاز مخل أو تفصيل مضلل • ولما كان سقوط أي دولة لا يعني فناء شعبها أو اندثار حضارتها ، فقد حاولت تتبع آثار حضارة كل دولة وتراثها ، وذلك كيما أبرز الاستمرار التاريخي وتطوره ، مما قد يساعد على القاء ضوء على جذور وأسس كثير من أفكارنا وثقافتنا ونظمنا ومؤسساتنا •

ولابد من التأكيد على أنه لا يمكننا رسم صورة كاملة لمختلف نواحي هذه الحضارات أو تتبع خطوات تطورها ، نظراً لأن معلوماتنا لما تزل غير وافية وغير موزعة بانتظام على الزمان والمكان ، فلدينا كمية من المعلومات طيبة نسبياً عن اليمن وبعض الدول الشمالية القديمة ، وعن أحوال العرب في الحجاز وبعض مناطق نجد والبحرين عند ظهور الاسلام ، ولكننا نكاد نجهل تماماً تاريخ المناطق الاخرى • وقد كان هذا الاختلاف في كمية المعلومات الموثوقة المتوفرة لدينا ، هي الدافع الرئيسي الذي حملني على أن لا أسمي هذا الكتاب تاريخاً ، بل اطلق عليه (محاضرات) التي تدل على انها ليست تاريخاً شاملا متسقاً ، بل هي بحث المواضيع التي تتوفر عنها المعلومات •

وقد بحثت مباديء الاسلام وخطوات الدعوة الاسلامية وانتشارها بتفصيل واف نسبياً ، نظراً لأهميتها الكبرى في كياننا الذاتي وفي تاريخ العالم • ويكاد يكون القسم الثاني من هذا الجزء وصفاً للاحوال التي ظهر فيها الاسلام ، والاسس التي قام على آثارها أو على انقاضها وكان لها تأثير في سيره ، وهذا هو السبب الذي فصلت فيه البحث عن الدين الجاهلي •

حاولت في بحثي عن الاسلام دراسة خطوات تطوره الزمني في فترة

نشوئه ،ووصف تاريخ نشوء وتطور وانتشار العقيدة الاسلامية ، دون تحليل هذه العقيدة ، لأن بحثي في التاريخ لا في العقائد • وقد كان اعتمادي الرئيسي على القرآن الكريم ، لأنه الكتاب الاعظم الذي يرسم معالم الدين ويوضح حدوده • وقد حاولت أن اجلو معانيه كما فهمت آنذاك وبصرف النظر عن التأويلات والتحليلات التي قام بها العلماء المسلمون المتأخرون •

لقد حاولت اعطاء الصورة التي اعتقد أن المصادر تصورها لتلك الفترة ، وان اقصر عملي على تنظيم المادة وعرضها ثم تحليلها ومحاولة ايجاد الصلة بينها وابراز ارتباطاتها مع الحوادث والمؤسسات الاخرى • واذا كانت بعض مظاهر هذه الصورة تخالف بعض ما ألفه الناس واعتقدوه ، فان ذلك راجع الى المصادر التي حاولت استيعابها واختيار ما أراه صحيحاً دون أن تكون لي فكرة سابقة احاول الدفاع عنها أو نقضها •

وقد حملني تحدد نطاق الكتاب وحجمه على الاقتصار على ايراد ما اعتقد بصحته أو بأنه أقرب الى الصواب ، وقد اغفلت ذكر كافة الامور أو الآراء والحوادث التي اعتقد أن معلوماتنا العامة وتفكيرنا ومنطق الحوادث لا تؤيد صحتها • لذا أهملت بحث العرب البائدة ، لأن الاخبار التي لدينا عنهم غير مضبوطة أو معتمدة • وقد قصرت عملي على الوصف والتحليل وتجنبت اصدار الحكم على حسن أو قبح أية حادثة أو مؤسسة ، كما تحاشيت مهاجمة أية مؤسسة أو الدفاع عنها •

وقد اتبعت في كتابة المصادر طريقتين متباينتين ، اولاهما اتبعتها في بحث الدول العربية القديمة ، عدا مكة ودولة المناذرة ، والثانية في بقية فصول الكتاب • ففي بحث الدول العربية القديمة اكتفيت بذكر المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها ، في هامش مطلع كل فصل ، أما باقي أجزاء الكتاب فقد ذكرت مصدر كل خبر أو حادثة أو رأي في هامش الصحيفة التي تحويه • ويرجع هذا التباين الى أن معلوماتنا عن الدول القديمة كاليمن وبطرا وتدمر

مستمدة من مكتشفات الآثار اولا ، ومن اشارات الكتاب الاغريق والرومان القدماء ثانياً ، وقد استوفى بحث كل منها بعض المؤلفين المحدثين •

اما كل من دولة الغساسنة وكندة والمناذرة فمع أن المصــادر الرئيسية لأخبارها هي الكتب العربية ، الا ان عن كل منها دراسة وافية قام بها واحد من المؤرخين المحدثين ، وليس هناك ما يمكن في الحال الحاضر اضافتــه وتعديله على أبحاثهم ، لذا اكتفيت بالاشارة الى هــذه الابحاث الرئيسيـة الحديثة في هامش بداية كل فصل •

أما الفصول الخاصة عن مكة وعن الحياة البدوية ونظمها فان اعتمادنـا الاول فيها على الكتب العربية التاريخية والادبية ، لذا أشرت الى مصدر كل خبر ، اللهم الا في بعض النقاط التي فصل البحث فيها بعض المؤلفين المحدثين، فاكتفيت بالاشارة الى مباحثهم دون أن أورد كافة المصادر التي اعتمدوا عليها، وقد أجلت فهرس أسماء الكتب وطبعاتها الى نهاية الجزء الثاني تحاشياً من التكـرار •

واني اذ أرجو أن يكون في هذا الكتاب بعض الفائدة للمهتمين بهــذه الفترة من التاريخ ، أرى من الصعب ذكر أسماء كافة من أعانني على اخراج هذا الكتاب سواء من رجال وزارة التربية أو اخواني وطلابي ، فلهم مني خالص الشكر والتقدير •

**كلية الآداب** **صالح احمد العلي**

**١٩٥٤**

# الفصل الاول
# الساميون

يتميز معظم سكان الشرق الاوسط منذ أقدم الازمنة ببعض الصفات المشتركة التي ميزتهم عن سكان البلاد الاخرى التي تقع وراء جبال طوروس وزاغرس • فاللغات التي يتكلم بها هؤلاء السكان تشترك في كثير من الخصائص وقواعد اللغة ، كما أن عاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية وأساليب حياتهم فيها كثير من التشابه منذ أقدم الازمان ، وهذا مما حمل الناس على الاعتقاد بأن هذا التشابه يرجع الى تحدرهم من أصل واحد ودعوهم بالجنس السامي[1] •

وسميتهم بالسامين ترجع الى أزمنة قديمة ، فقد جاء في التوراة[2] انه كان لنوح ثلاثة أولاد تحدر منهم البشر بعد الطوفان ، هم سام وحام ويافث • وقد سكن الساميون ، وهم أحفاد سام ، في الشرق الاوسط • وانقسموا بعد تكاثرهم الى أقسام فرعية وقبائل • ولا ريب ان هذا التصنيف يوضح قدم الخصائص المشتركة التي يتميز بها سكان الشرق الاوسط • غير انه من الصعب أن نجزم بالقيمة التأريخية لقصة التوراة وأولاد نوح ، خاصة وان الشرق الاوسط جاءته موجات متعددة من أقوام غريبة استوطنت فيه وتكلمت بلغة أهله وتعودت بعاداتهم •

غير ان ما جاء في التوراة عن أصل السامين ظل مقبولا عند الناس واعتمد عليه النسابون العرب في كتبهم عن الانساب ، فكرروا ما قالته التوراة مع اضافة بعض التعديلات الفرعية •

---

(١) راجع ما كتبه كوك في الفصل الرابع من الجزء الاول في تاريخ كمبردج القديم بالانكليزية •

(٢) سفر التكوين ١٠ـ١٢ •

وفي منتصف القرن التاسع عشر ألف المستشرق الافرنسي ارنست رينان كتاباً عن أديان الساميين أكد فيه على أن الساميين جنس منحدر من أصل واحد مشترك يتميز أفراده بتشابه لغاتهم وبتركيب عقليتهم وبنظرتهم الجزئية للاشياء وبتأثرهم بالغيبيات وميلهم الى البساطة في التفكير والوحدانية في الدين • وذكر أن ظهور الاديان الموحدة الثلاثة الكبرى (اليهودية والمسيحية والاسلام) بين الساميين يرجع الى طبيعة تفكيرهم • وقد أكد بأن هذه الميزات التي تتصف بها العقلية السامية ترجع الى عوامل بيولوجية ووراثية في الجنس وانهم بذلك يختلفون أساسياً عن الآريين[١] • ولا ريب أن رينان كان متأثراً بالنزعة القومية المتطرفة وبالروح الاستعمارية التي سادت الاوروبيين آنذاك ودفعتهم الى الاعتقاد بأن الساميين يختلفون في التركيب البيولوجي عن الغربيين ، وانهم أحط من الاوروبيين في العقلية • وقد أخذ بنظرية رينان هذه عدد غير قليل من الفلاسفة والعلماء والساسة • وظل كثيرون يعتقدون بها حتى السنوات الاخيرة •

غير ان علماء الانثربولوجيا ودارسي الشعوب المدققين انتقدوا نظرية رينان ومشايعيه وبرهنوا على أنه لا يوجد شعب يمكن أن يبرهن على نقاوة دمه • اذ أن الهجرات المستمرة والتزاوج قد أديا الى اختلاط دماء الشعوب• وهكذا فان الشعوب القاطنة في الشرق الاوسط أو في غيره من البلاد لم تكن منعزلة عن العالم كما انها لم تحافظ على نقاء دمها • أضف الى ذلك ان اختلاف طرق تفكير الشعوب لا يرجع الى اختلاف تركيب دماء أفرادها • بل الى الظروف الجغرافية والاجتماعية التي أدت بعقولها الى أن تعمل بالشكل الذي تعمل فيه[٢] •

فاذا ما تحدثنا عن الجنس السامي فاننا لا ندعي نقاء دمه ، كلا بل نقصد

---

(١) « تاريخ عام للغات السامية » باريس ١٨٥٥ (بالفرنسية) •

(٢) انظر في ذلك : كاسيرر « مقالة عن الرجل » (بالانكليزية) •
جوليان هكسلي وهدن « نحن الاوروبيين » بالانكليزية » •

مجموعة من البشر الذين يتميزون بحضارة ذات عناصر مشتركة تميزهم عن غيرهم من الامم . وخاصة في اللغة التي هي أهم ما يميز الساميين . وعلى هذا فان تقسيم الشعوب يستند على أسس لغوية وحضارية أكثر مما يستند على أسس بيولوجية .

ولا ريب أن الساميين يتكلمون بلغات مختلفة ، ولكنها تشترك في خصائص عديدة مشتركة تميزها عن غيرها من اللغات وتحمل على الاعتقاد بأنها منحدرة من أصل واحد . ومن أهم هذه الخصائص وجود عدد كبير من الكلمات المشتركة بينها ، وان الاساس فيها فعل الماضي ، وان تصريف الافعال يتشابه فيها ، وهي تعتمد على السواكن لا الحركات ، وأصل الكلمات مكون من ثلاثة أحرف في الغالب ، والفعل هو أساس الجملة ويعتمد عليه الاسم والضمير . هذا الى أن للاسماء فيها صيغتين : المذكر والمؤنث ، وليس فيها صيغة ثالثة Neuter gender الموجودة في اللغات الاوربية . واللغة بصورة عامة بسيطة ، مباشرة ، لا تستعمل الافعال المساعدة وقلما تستعمل حروف الربط[١] .

ولقد ظهرت نظريات متعددة عن أصل الساميين ، فمن أقدمها نظرية المستشرق الايطالي أغناص جويدي الذي قارن بين اللغات السامية المتعددة فوجد ان أغلب الكلمات التي تدل على السهول والمياه والنباتات مشتركة بين هذه اللغات . فاستنتج من ذلك ان هذه اللغات كان يتكلم بها في الاصل أقوام يسكنون في مناطق سهلية غزيرة المياه والنباتات ، وارتأى بأن العراق هو أقرب منطقة فيها هذه الظواهر ولذلك استنتج بأن أصل الساميين من العراق[٢] . ومما قد يؤيد نظريته هو ان التوراة تذكر ان سفينة نوح رست

---

(١) فيليب حتي : تاريخ سوريا ص ٦٢ (بالانكليزية) .

(٢) ان بحث جويدي عن الاصل الاول للشعوب السامية ، نشر اول مرة بالايطالية في مذكرات اكاديمية لنسى سنة ١٨٧٩ . أما بحث بارتون فقد نشر بالانكليزية في فيلادلفيا سنة ١٩٣٤ بعنوان «الاصول الاجتماعية =

بعد الطوفان على الجودي في شمال العراق ، ومنها انتشر الناس بعدئذ •

غير ان هذا الاستنتاج يثير عدة اعتراضات : فمن ذلك انه لا يبين لماذا يهاجر الناس من هذه المناطق الخصبة ، كالعراق ، الى المناطق الصحراوية الجرداء التي نجد انها آوت أنقى اللغات السامية منذ أقدم الازمان ؟ هذا الى انه منذ أقدم الازمنة التأريخية نجد أن الاقوام السامية تهاجر من الجزيرة الى العراق ، لا العكس كما يدعى جويدي • يضاف الى هذا ان جويدي لم يطلع على الاستكشافات الجغرافية الحديثة التي أظهرت ان في الجزيرة العربية مناطق كانت وفيرة المياه كثيرة المزروعات •

ومع سعة اطلاع جويدي على اللغات السامية الا انه كان يجهل فقه اللغات الاخرى وخاصة الحامية التي يتكلم بها سكان افريقية الشرقية والشمالية وتشترك مع اللغة العربية ببعض الخصائص •

وقد درس بارتون اللغة الحامية وقارنها بالسامية فوجدها تشترك في بعض الكلمات والصيغ ، فاستنتج ان الساميين والحاميين كانوا متحدرين من أصل واحد تفرعوا منه ، وادعى ان أنسب منطقة ملائمة لسكنى «الاصل» هي شرق افريقية ، في منطقة الصومال والاريتريا حيث يسهل عبور الساميين الى بلاد العرب من باب المندب ، وكذلك الانتشار في افريقية ، والواقع انه قد جرت اتصالات تأريخية مستمرة بين اليمن وافريقية الشرقية مما أكسب هذين الاقليمين بعض الصفات اللغوية والجسمية المتشابهة •

غير ان الكلمات والقواعد المشتركة بين السامية والحامية أقل مما تكفي لحملنا على الاعتقاد باشتراكهم في الاصل • واذا كان سكان اليمن يشبهون

---

= والحامية للساميين ، اما كايتاني فقد نشر بحثه بالايطالية بكتابيه «الحوليات الاسلامية» و «دراسات في التاريخ الشرقي» ميلانو ١٩٠٧، ١٩١١ .
وتجد خلاصة ونقدا لهذه الآراء بالفرنسية في كتاب « الساميون ودورهم في تاريخ الدين » للاستاذ ديلا فيدا ( بالفرنسية ) . كما تجد تلخيصا ونقدا لآراء كايتاني في كتاب « شمال نجد » لالواموزيل بالانكليزية وفي كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي الجزء الاول .

بعض الشبه سكان الصومال ، فان سكان العراق أبعد ما يكونون عن سكان افريقية والكلمات المشتركة قد يرجع أصلها الى الاتصـال التجاري لا الى الاشتراك في الجنس ، لذلك لم يسلم المفكرون بصحة هذه النظرية •

وقد اعتقد فريق من العلماء ان أصل الساميين من جزيرة العرب •ولعل أعظم من دافع عن هذا الرأى وأوضحه هو المستشرق الايطالي كايتاني الذي يتلخص رأيه بأن أصل الساميين من الجزيرة العربية • وهو يبني اعتقاده هذا على ان الآثار القليلة المدروسة في الجزيرة العربية تدل على وجود آثار المياه والنباتات فيها • وقد وجد برترام توماس بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض أبو بحر ، وآثار نباتات وحيوانات في جبل العترا • هذا الى ان وادي الرمة لا يزال مليئاً بالصخور الرسوبية والحصى مما يدل على انه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه ، كما ان الفيلة كانت تعيش في الالف الثانية ق•م• في شمال سوريا ، أما الاسود فكانت كثيرة في العراق ، وربما في شمال الحجاز • والواقع ان الجيولوجيين قد قرروا ان مناخ العـالم في العصـور الجيولوجية كان يختلف عما هو عليه الآن ، ففي عصر الميوسين كان منـاخ الجزيرة العربية يشبه مناخ الهند اليوم من حيث الدفء وكثرة الرطوبـة وغزارة المياه مما يساعد على سكنى البشر • فهو لذلك يرجح ان الساميين كانوا في الاصل يقطنون الجزيرة العربية ، فلما تغير المناخ تدريجياً نقص السكان وتحولوا الى حياة البداوة ، وهاجر عدد منهم الى أطراف الجزيرة حيث الخصب ووفرة المياه • والواقع اننا نجد ان العرب منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة كانوا أوفر الامم حظاً من الصفات والعادات الاجتماعية السامية الاصلية ولغتهم أقرب اللغات السامية الى الاصل وأنقاها •

لقد ظلت العلاقة بين سكان الجزيرة العربية وأطرافها وثيقـة طوال الازمنة التاريخية ، حيث كانت تجري هجرات متعددة ، من داخل الجزيرة الى اطرافها • وهذه الهجرات بعضها موسمية أو محدودة كهجرات الرعاة الذين يتجولون وراء المراعي فيدخلون العراق وسوريا لمدة موقتة خاصة في فصل الصيف والربيع ثم يعودون الى الجـزيرة ، وفي بعض الاحيـان

ينتشرون في اطراف الهلال الخصيب او يستوطنون في مناطق معينة فيه ، وخاصة عندما لا تعيقهم عن ذلك الظروف السياسية . وفي بعض الاحيان تجري هجرات واسعة تحمل عدداً كبيراً من الناس الى بلاد الهلال الخصيب . وأبرز هذه الهجرات الكبيرة هي :-

(١) هجرة الاكاديين الذين استوطنوا العراق حوالي سنة ٣٥٠٠ق.م. وكونوا الدولة الاكادية التي استطاعت في عهد ملكها سرجون الاول أن توحد العراق ، وتمد نفوذها الى أعالي دجلة .

(٢) هجرة العموريين الى العراق ، والكنعانين والفنيقيين الى سوريا (حوالي سنة ٢٢٠٠ ق.م.) .

(٣) هجرة الآراميين الذين انتشروا في سوريا وفلسطين وشمال العراق، والعبرانيين في فلسطين (حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م.) .

(٤) هجرة الانباط والتدمريين (حوالي سنة ٥٠٠ ق.م.) .

(٥) الموجة الاسلامية في القرن السابع الميلادي .

وبوصول الساميين الى بلاد الهلال الخصيب يبدأون بترك حياة البداوة والاستقرار تدريجياً ويختلطون مع الامم الاخرى التي تقيم في هذه البلاد ، مما كان يؤدي دائماً الى تصادم مؤسساتهم الاجتماعية وحضارتهم مع مؤسسات وحضارات الشعوب الاخرى ، وينتج من هذا التصادم ظهور مدنيات جديدة مزدهرة يطغي عليها الطابع السامي ، الا انها تصبح مختلفة الى حد غير قليل عن حضارة اخوانهم من أهل الصحراء . والواقع ان أزهى عصور الهلال الخصيب هي التي تعقب الهجرات السامية اليها .

ونظراً لتعقد حضارة الهلال الخصيب ووفرة المعلومات عن تاريخها ، فانها تدرس عادة بصورة مستقلة . أما بحثنا هذا فسيقتصر على تاريخ جزيرة العرب التي استوطنها العرب منذ الآف السنين وخرجت منها الموجات السامية وتغذي الشرق الاوسط بالعنصر السامي وحضارته ، والتي احتفظ سكانها بمظاهر الحياة السامية ، وخاصة اللغة وتقاليد البدو بدرجة أنقى مما هي في

بقية البلاد نظراً لقلة العناصر الدخيلة التي تأتي وتستوطن بلادهم • والتي ظهر فيها الاسلام ، ويتوجه اليها المسلمون في قبلة صلاتهم ويحجون اليها •

وشبه جزيرة العرب(١) مستطيلة الشكل ، يبلغ طولها من رأس الخليج العربي الى العقبة حوالي ألف ميل ، ومن البحر العربي الى أطراف الهلال الخصيب حوالي ألف ومائتي ميل • وهي هضبة مرتفعة في الغرب وتنحدر تدريجياً نحو الشرق ، حتى تصبح كالسهل عند سواحل الخليج العربي •

ويمتد على طول الجزء الغربي منها سلسلة من الجبال تدعى «السراة» توازي البحر الاحمر ، ويزداد ارتفاعها في الشمال حيث يبلغ معدل ارتفاعها ٢٠٠٠ متر ثم تنخفض في الوسط ، حتى تصبح كالتلال المتقطعة ، ثم تعود الى الارتفاع في الجنوب حيث يصبح ارتفاعها حوالي ١٢ ألف قدم كما تكون عريضة فتصبح كالهضبة • ويمتد من وسط الجزيرة سلسلتا جبال اجا وسلمى أو جبلي شمر ، وهي تبلغ حوالي ٥٥٠٠ قدم في الارتفاع • كما يمتد في وسطها جبل طويق الذي يبلغ طوله الف كيلومتر ، كما توجد سلسلة أخرى من الجبال التي تمتد موازية لساحل بحر عمان ، تدعى الجبل الاخضر ويبلغ ارتفاعها حوالي ١٠ آلاف قدم • وهناك سلاسل من المرتفعات الموجودة في الجزيرة مثل جبل النير

---

(١) لقد درس سبرنجر في كتابه «جغرافية الجزيرة العربية القديمة» (بالالمانية) ما ورد في كتب القدماء عنها وحاول تعيين أماكنها ، وتجد خلاصة لها في كتاب الدكتور جواد علي • كما درس لامنس في كتابه «مهد الاسلام» (بالفرنسية) اقليم الحجاز • ولعل أوفى ما كتبه العرب في العصور الوسطى هو كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني ، وقد اعتمد عليه كثيرا ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» •

ومع كثرة السياح والكتاب الحديثين عن جزيرة العرب الا أنه لا يوجد بحث مفصل شامل عنها ، ولكن تجد خلاصة لها في كتاب «دليل جزيرة العرب» (بالانكليزية) الذي نشرته الامبرالية البريطانية واعتمد عليه كثيرا حافظ وهبة في كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين» •

تجد خلاصة واضحة عنجغرافية الجزيرة في كتاب فيليب حتي (تاريخ العرب) ص ١٤ـ٢٢ • وفي دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة •

والصمان تحصر السلسلة الغربية (السراة) بينها وبين البحر الأحمر سهلا ساحلياً ضيقاً شديد الانحدار نحو البحر يقطعه عدد غير قليل من الاودية التي قلما يستفاد من مياهها الشتوية للزراعة ، نظراً لشدة انحدارها ، ولكن توجد في فوهات الوديان موانيء متعددة أهمها الحوراء ، وينبع ، وجدة في بلاد الحجاز ، والحديدة ومخا في بلاد اليمن .

أما سطح الهضبة الوسطى فيتكون من الدهناء وهي أرض صلبة تكسوها قشرة ترابية تنبت فيها بعض النباتات البرية والاعشاب وخاصة في الربيع بعد سقوط الامطار . وفي هذه الهضبة توجد منطقة النفود وهي اراض تكسوها تلول من الرمال الناعمة البيضاء والحمراء التي تغير مواقعها بتأثير العواصف والرياح ، وتكون قاحلة جرداء لا نبات فيها ولا ماء وهي تكون عريضة في الشمال الى الجنوب ١٤٠ ميلا ، ثم يمتد منها ذراع مواز للخليج العربي ، ويدعي الصمان ، ويبلغ عرضه حوالي خمسين ميلاً وهو يمتد حتى يتصل بالربع الخالي الذي يمتد في جنوب الجزيرة ، ولم يمر به أي أوربي حتى سنة ١٩٣٢ حيث مر به برترام توماس ثم فلبي ووصفاه بأنه منبسط من الارض الرملية والجيرية فيها بقايا بحيرات مالحة وآثار مياه البحر .

وفي القسم الغربي من الهضبة عدد غير قليل من البراكين الهامدة والخامدة ، وتدعى الحرات ، وأشهرها حرة خيبر ، وحرة سليم ، وحرة يثرب ، وأغلب هذه الحرات خصبة وهي مراكز للحضارة . كما تمتد وسطها سلسلة جبل طويق .

يقطع هذه الهضبة عدد من الوديان ، وأهمها وادي الرمة الذي يسير من قرب الزبير متجهاً نحو الغرب حتى ينتهي عند خليج العقبة . ووادي سرحان الذي ينحدر من الشمال الى الجنوب الغربي حيث ينتهي عند البحر الميت . ووادي بيشه الذي يجري في عسير من الشرق الى الغرب حتى ينتهي في البحر الاحمر . ووادي اليمامة التي يمتد موازياً للبحرين . والراجح ان هذه الوديان كانت في الازمنة القديمة مجاري أنهار .

ان مناخ الجزيرة صحراوي ، حار جداً في الصيف ، وبارد في الشتاء ، وتسقط الثلوج على جبال اليمن ، كما تتجمد المياه أحياناً في الطائف وفي اليمن . وأمطارها قليلة جداً ، وهي تسقط في فصول الخـــريف والشتاء والربيع ، بدفعات غير منتظمة ، أما اليمن فتسقط فيها أمطـــار غزيرة في الصيف تأتي بها الرياح الموسمية من منطقة شرقي افريقية .

ان مياه الامطار قليلة لا تكفي للزراعة ، بل تنبت الاعشاب والنباتـــات البرية وأهمها الاثل والغضا والطلح .

غير ان المياه الباطنية تتوفر في معظم أنحاء الجزيرة ، وتكون أحياناً قريبة من سطح الارض ووافرة لدرجة تكفي للزراعة ولاستيطان عدد غير قليل من الناس ، وتدعى هذه المناطق الواحات . وتتوفر المياه ايضاً في بطـــون الاودية وفي اليمن كذلك ، وهذا مما يساعد على الزراعة والاستقرار ونشوء الحضارات . ولعل أهم المزروعات هو النخيل الذي يوجد منبثا في مختلف الواحات ، ويكثر بصورة خاصة في خيبر والمدينة ، وفي البحرين (وخاصة عند هجر) وفي اليمامة ، كما تكثر زراعة الشعير في فدك ووادي القـرى وخيبر والمدينة والبحرين ، والحنطةفي اليمامة ، والذرة في عسير ، والكروم في الطائف واليمن ، واشجار الفاكهة في الطائف وفي عدد غير قليل مـــن أودية الحجاز وفي اليمن . وتعيش الافاويه كالمر والمر المكاوي والصمغ في أودية اليمن وحضرموت بكثرة .

يطلق على سكان الجزيرة العربية اسم العرب ، وقد ذكر هذا الاسم لاول مرة في التاريخ في نقوش ترجع الى زمن شلمانصر الثالث (سنة ٨٥٤ ق.م.) ثم يتردد ذكرهم منذ ذلك الوقت في النقوش الآشورية والبابليـة بأشكال مختلفة

**Arubu, Arebi, Aribi, Arbi Arabian, Arabyaya' Arabya**

وفي عدد من اسفار التوراة وقد ذكره ايضاً بعض الكتاب اليونان كايسخلوس وزينوفون . وهذه الكلمة تعنى في اللغات السامية الجدب او القحولـــة ،

وقد اطلقتها المصادر القديمة في الغالب على عدد من الامارات والدويلات الواقعة في اطراف بلاد الشام وشمال الحجاز ، وكان يرأسها ملوك ومشاريخ بعضهم من النساء ، اسماؤهم تشبه الاسماء المستعملة في الجزيرة عند ظهور الاسلام • كما اطلق اسم العرب في بعض النقوش السبأية على البدو القاطنين في اطراف صنعاء ثم اصبحت تطلق على كافة سكان الجزيرة •

غير ان هذه النصوص المستمدة من المصادر الخارجية لا تقدم تفاصيل وافية عن نشأة وتطور هذه المشيخات القديمة وما كان سائداً في داخل الجزيرة من نظم • وليست لدينا معلومات وافية نسبياً الا عن بعض الدول التي ظهرت في بعض اطراف الجزيرة ، والتي لها علاقة وثيقة بالدول العظمى التي حكمت الشرق الاوسط[١] •

---

(١) راجع في ذلك فيليب حتي « تاريخ العرب » ٣٧-٤٦ • ومادة « عرب » في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية •

# الفصل الثاني

## اليمن [1]

تقع اليمن في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية ، تمر بها من الشمال الى الجنوب سلسلتان جبليتان تحصران بينهما هضبة عريضة ، وينحدر سطحها نحو البحر بشدة تاركاً سهلا ساحلياً ضيقاً يقطعه عدد من الوديان المنصبة في البحر . وتسقط على هذه البلاد أمطار وافرة في الصيف تأتي بها الرياح الموسمية من شرقي افريقية ، وقد ساعدت هذه الامطار على نشوء النهيرات الصغيرة والسيول التي يستفاد منها في الزراعة التي ازدهرت في هذه البلاد . وقد أدى ذلك الى استقرار الناس ونشوء المدن والمدنية .

ومن أهم المنتوجات اليمانية العطور والافاويه والبخور التي كانت لهـا أهمية كبرى عند الناس في التاريخ القديم ، حيث كانت تستعمل في المعابـد والطقوس الدينية ، وللتحنيط ، كما كانت تستخدم أحياناً في الاطعمة ، هذا الى أن العطور كانت تستخدمها النساء بكثرة . ويكفي للاستدلال على مدى أهميتها أن نذكر ان معبداً لآمون في مصر استعمل في أوائل القرن الثـاني عشر ٢١٥٩ جرة في سنة واحدة ، وان الكلدانيين كانوا يحرقون سنويا في معبد بعل ببابل عشرة آلاف تالنت ، وان الاسكندر أرسل ٥٠٠ تالنت هدية لاستاذه أرسطو [2] . وكانت اليمن وحضرموت تزرعان أهم أنواع الافاويه والعطور العالمية وتعتبران أكبر مصدر لها في العالم القديم . وقد ساعـدت زراعة الافاويه على ازدهار تجارتها مع البلاد الاخرى ، وخاصة بلاد الهلال

---

(١) أهم مراجعنا في هـذا الفصل كتـاب « سناد الاسلام » لفلبي (الاسكندرية سنة ١٩٤٦) و « تاريخ العرب » لفيليب حتي و «جزيرة العرب قبل محمد » لاوليري (بالانكليزية) و « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجي زيدان و « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي .

(٢) فرياستارك « المداخل الجنوبيـة لجـزيرة العـرب » ص ١٠ (بالانكليزية) . ويعادل التالنت ٥٦ رطلا انكليزيا .

الخصيب وبلدان البحر المتوسط حيث كانت تصدر اليهم المنتوجات ، كما ان وقوعها على طريق الهند ساعد على جعلها مركزاً هاماً لتجارة الترانسيت، ولسيطرة بحاريها على ملاحة البحر العربي والبحر الاحمر • ومن المعلوم ان الملاحة في البحر العربي تعتمد على الرياح التي تسير من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في فصل الصيف ثم تسير بالعكس في الشتاء ، ولم يكن يعرف هذه التبدلات في اتجاه الرياح سوى الملاحين اليمانيين ، مما ساعدهم على احتكار الملاحة فيه حتى القرن الثاني قبل الميلاد ، وقد أدت هذه الاحوال الطبيعية الملائمة الى ظهور المدن وازدهار المدنية منذ أقدم الازمنة فظهرت فيها دول ، أقدم ما نعرفه منها هي الدولة المعينية التي تشكلت في الجوف وكانت عاصمتها قرناو أو معين •

وقد لاحظ بعض الباحثين ، وخاصة ونكلر وهومل ودوفرني ، ان بعض مظاهر الحضارة المعينية تشبه حضارة البابليين ، فالاله شماش وعشتروت البابلية ، يشبه اسمها الاله شمس وعثر اليمانية ، كما ان النقوش والاختام المعينية تشبه ما عند العراقيين القدماء ، والمكارب اليمانيين يشبهون الملوك الكهنة السومريين • وقد استنتجوا من ذلك ان اصل المعينيين من العراق • غير ان هذا التشابه الجزئي في مظاهر الحضارة لا يكفي أن يكون دليلا قاطعاً على كونهم جاءوا من العراق ، اذ يجوز أن يكون الساميون العراقيون قد جاءوا من اليمن ، أو قد يكون العراقيون واليمانيون قد جاءوا من أصل واحد في محل ما ، أو قد يكون التشابه في مظاهر الحضارة نتيجة الاختلاط الذي كان بين البلدين منذ أزمنة سحيقة •

وقد اختلف الباحثون في بداية نشوء دولتهم وذلك لان الآثار القليلة الباقية عنهم تذكر وجود خمس أسر معينية حكمت معين ، تتكون كل أسرة من عدد من الملوك المتسلسلين ، ولكن لا توجد أية صلة بين كل أسرة من هذه الاسر وبين الاسرة التي تليها • وقد اختلف الباحثون فيما اذا كانت هذه الاسر

متعاقبة ومتسلسلة أو ان هناك ملوكا حكموا المعينين لم تصلنا أخبارهم ٠

ويرجح المؤرخون ان أولى هذه الأسر بدأت في الحكم حوالي سنة ١١١٠ ق٠م٠ وكانت الظروف الدولية مؤاتية لها ٠ ففي مصر لم يتمكن ملوك الاسرة الحادية والعشرين الضعفاء من التدخل في شؤون الجزيرة العربية ٠ وفي العراق كان يحكم بابل ملوك ضعفاء ٠ وفي آشور كان تغلات فلاسر منشغلا في حروبه في شمال العراق ٠ وقد ساعدت هذه الظروف المعينين على تثبيت ملكهم ومد نفوذهم التجاري في الشرق الاوسط ، فامتد نفوذهم في عهد الأسرة الثانية الى حضرموت في الجنوب ، كما امتدت تجارتهم ونفوذهم الاقتصادي الى شمال الحجاز حيث أقيمت مستعمرة معينية يرجح انها كانت مرتبطة بدولة اليمن ٠ وقد أدى هذا التوسع الى احتكاك المعينين بآشور والفنيقيين ٠

ويظهر انه في نهاية عهد الأسرة الثانية بدأ احتكاكهم بحضرموت وقتبان في الجنوب ٠ كما بدأ يتردد في النقوش ذكر قبيلة خولان وذكر السبأيين الذين أصبحوا فيما بعد ورثة المعينين ٠

يرجع تاريخ القتبانيين الى سنة ١٠٠٠ ق٠م٠ على الاقل ، وكانوا يسكنون في الطرف الجنوبي الغربي من اليمن وعاصمتهم تمنا[١] ، وهي قرب باب المندب ، وقد كشفت آثارها قبل بضع سنوات ٠ ويذكر بعض كتاب الرومان انه كان فيها ٦٥ معبدا ٠

استفاد القتبانيون من موقعهم الجغرافي ومجاورتهم لحضرموت التي تنتج خير أنواع البخور ، فجنوا ثروة كبيرة وصارت لهم قوة عظيمة حددت من نفوذ المعينيين ٠ وكانت نظم ادارتهم تشبه النظم المعينية غير أن الضربة النهائية التي قضت على المعينين جاءت من السبأيين الذين ازدادت قوتهم حتى استطاعوا أن يقضوا على الدولة المعينية ويسيطروا على اليمن ويحدوا من نفوذ القتبانيين ٠ الا أن المعينيين ظلوا محتفظين بكيانهم الاجتماعي حتى بعد انقضاء دولتهم اذ وجد لهم ذكر في الآثار المصرية في القرن الثاني ق٠م٠

---

(١) أو تمنع ٠

وفي ديلوس حيث امتدت تجارتهم اليها •

يبدو من الوثائق القليلة الباقية أن نظام الحكم في معين كان ملكيا مقيدا ، فكان الملك يدعى مزود ، ومعناه المقدس ، والملك وراثي ، وقد يشارك الابن أباه في الحكم ، ولكن يحيطه مجلس استشاري يعاونه في الحكم ويحد من سلطانه •

وكانت المدن التابعة لدولتهم تتمتع باستقلال ذاتي ، أما ادارتها فكانت بيد رؤساء ينتخبون لمدة سنة قابلة للتجديد ويعاونهم مجلس من المشايخ • ويظهر انه كانت لهؤلاء الرؤساء مكانة سامية ، اذ كانت تدون أسماؤهم في سجلات المدينة أو المعابد ويذكرهم المؤرخون في وثائقهم ، حتى أن بعض الملوك كانوا يؤرخون توليتهم ويحددونها بذكر الرئيس الذي كان قائما آنذاك •

كان المعينيون يمتهنون الزراعة والتجارة ، وفيهم عدد من القبائل البدوية يرعون الماشية ولاتختلف نظمهم عن نظم البدو •

والمجتمع المعيني ارستقراطي يستخدم العبيد ، وفيه عدد من الطبقات التي تتميز عن بعضها • وهم متدينون يعيرون رجال الدين أهمية كبيرة • وللمرأة حرية واسعة •

لقد كان المعينيون يستعملون في كتابتهم الحروف • ومن المحتمل انهم أول من اخترع الألفباء ثم انتقلت منهم الى سيناء ، والفنيقيين ثم نقلت الى اليونان •

انتشر المعينيون في بلاد واسعة متبعين تجارتهم حتى بعد انقراض دولتهم • فقد وجد ذكر المعينيين في مصر والعراق وسوريا وديلوس • وقد ذكرهم الكتاب اليونانيون والرومان فأشار بليني الى وجودهم مع سبأ ، ووصفهم بطليموس بأنهم شعب قوي ، وقال ديودورس بأنهم كانوا يأتون بالافاويه • ولاريب ان ذكر هؤلاء الكتاب الاغريق والرومان لهم في القرون القريبة من ميلاد المسيح دليل على بقاء المعينيين محتفظين بنشاطهم الاقتصادي حتى بعد أن دالت دولتهم • وكانت لهم مستعمرة واسعة في شمال الحجاز •

اما السبأيون فقد ورد ذكرهم في النقوش الآشورية حيث يذكر كل من تغلات فلاسر (٧٤٥ ـ ٧٢٧ق٠م٠) وسنحاريب وأسر حدون (٧١٥ ـ ٦٨٥ ق٠م٠) بأنهم أخذوا الجزية من يثعمر وكرب ايلو ملوك سبأ ٠ كما ذكرت التوراة (في سفر التكوين × ٧) سبأ جنوب جزيرة يقطان تعطى المر والجوهر والذهب ، وان بلقيس التي تزوجت سليمان كانت ملـكة سبأ ، وان لم يكن هناك دليل قاطع بأن هذه المملـكة كانت في اليمن ٠

لا تذكر المصـادر التأريخية شيئا واضحا عن أصل السبأيين ٠ ومن المحتمل أنهم كانوا في الاصل قبائل بدوية تتجول في الشمال ثم انحدرت نحو الجنوب الى اليمن حوالي سنة ٨٠٠ ق٠م٠ كعادة العرب في التجوال ، أو نتيجة ضغط الآشوريين عليهم من الشمال ، واستقرت أخيرا في اليمن وأخذت تتوسع فيها مستفيدة من ضعف المعينين وقوتهم العسكرية فامتدت الى الجوف ٠

ويمكن تقسيم حكمهم في اليمن الى ثلاث فترات متميزة كان يطلق على رؤسائهم في الفترة الاولى لقب مكرب وهي كلمة دينية تعني المقدس ٠ ثم تلتها فترة أخرى أصبح يسمى الرؤساء فيهم ملوك سبأ ٠ ثم في الفترة الثالثة كانوا يلقبون ملك سبأ وريدان ٠

وأول مكارب سبأ هو سمح على (حوالي ٨٠٠ ـ ٧٨٠ ق٠م٠) الذي لا يعرف عن حكمه الا خبر واحد هو انه قدم هدية من البخور والمر للاله المقه الذي أرشد القبيلة بعد تجوالها الى « أرض فيها اللبن والعسل » ٠ وقد أعقبه ابنه يدع ايل ضريح الذي بنى معبدا للمقه في صرواح عاصمة مكارب سبأ ، كما بنى معبدا آخر للمقه وكذلك لعثر في مأرب ، وهذه أول اشارة لمأرب مما يدل على انها كانت آنذاك مدينة كبيرة مهمة ٠ وقد تلا هـــذا المـكرب يثعمر وتر الذي بنى معبدا لآله القمر حوباس في دابر التي كانت تقع بين مأرب والجوف في وادي حربد ٠ وقد ولى هذا المـكرب ابنه يدع ايل بين الذي حصن مدينة نشق في الجوف عند حدود الدولة المعينية ، مما يدل على أنه كانت هناك حروب مع المعينيين ٠ غير ان النقوش لا تذكر شيئا

من هذه الحروب . وقد تولى بعد هذا المكرب سمح على يناف ويثعمر وتر وكرب ايل بين الذين قدموا الجزية لسنحاريب وأسر حدون . ليست لدينا أخبار أخرى عن هؤلاء المكارب . مما قد يدل على انهم لم يقوموا بفتوحات تستحق الذكر وانهم انصرفوا الى الحياة السلمية واهتموا بالزراعة والاعمار والسدود .

وقد تولى بعد كرب ايل بين ابنه ( أو ابن أخيه ) ذمر على وتر الذي قام بتشييد سد مأرب الذي يعتبر أعظم سد شيد في الجزيرة العربية ومن أعاجيب العالم القديم . وقد ظل ذكره يتردد بين الناس وأشير اليه في القرآن فقال تعالى « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (سورة سبأ ١٥ ـ ١٩) وقد وصف هذا السد العالم اليماني الهمداني في كتابه « الاكليل » . كما وصف بقاياه عدد من السياح المحدثين منهم أرنو وهاليفى وكلازر .

والسد[١] طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعاً بنى على مقطع وادي أذنة الذي تتجمع فيه معظم مياه السيول التي تكون من الامطار الساقطة على الجبال الواقعة أطراف صنعاء ، وهو مبني بالتراب والحجارة ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى تمنع انجراف التراب عند تدفق المياه . ويستند هذا السد من طرفيه على جبلين ، وعند كل

---

(١) راجع كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجي زيدان ص ١٤١ ـ ١٤٨ وقد اعتمد فيه على وصف أرنو وتجد وصفا لبقايا السد في كتاب « رحلة في البلاد العربية السعيدة » لنزيه المؤيد العظم .

من هذين الجبلين تتفرع القنوات وتدعى ميزاب ، وعلى فتحة كل قناة سد آخر ذو فتحة مبنى بالحجارة ، فالسد يحصر المياه الآتية من السيل ويجمعها فتصبح كالخزان ، وترتفع الميـــاه حتى تصل مستوى عاليا يقارب مستوى الجبلين ، ثم تفتح فوهات القنوات فيدخل منها الماء لارواء سطح الجبلين ، فاذا اكتفوا سدوا هذه القنوات بأبواب من خشب وحديد •

على أن ما بنـاه ذمار علي لم يرو كل الاراضي ، لذلك أكمله ابنـه يثعمر بيان فأنشأ سدا جديدا يدعى حبادر ( أو حبابذ ) ووسع سد رحاب • وقد جعلت هذه السدود منطقة مأرب غنية بالزراعة •

وقد اضيفت الى السد اضافات متعددة حتى اتخذ تشكله النهائي على عهـــد شمر يرعش (٣٠٠م) غير ان اضطراب الاحوال في أواخر عهـــد الحميريين أدى الى اهماله وحدوث تصدع فيه ، وقد حاول ابرهة اصلاحه ولـكنه تخرب فيما بعد وكان لتخريبه تأثير في اغراق الاراضي • ويروي العرب عن سبب تخريبه أقاصيص خرافية ويعزون الى هذا التخريب سبب هجرات الغساسنة والمناذرة والازد • ولا ريب أنهم مغالون في هذا ، اذ أن تخريبه أدى الى تدمير الزراعة في المنطقة المزروعة حول مأرب فقط •

لقد ازدادت أهمية مأرب ببناء هذا السد وأصبحت عاصمة للسبأيين بدل صرواح واتخذها يثعمر بيان قاعدة عسكرية قام منها بفتوحات دون اخبارها في نقوش على السد ، فاخضع القتبانيين وقتل عددا كبيرا منهم ، ثم توجه شـمالا الى معين وأخضعها ، كمـا أخضع قبـائل أخرى في نجران كالمحامر وعامر فقتل عددا كبيرا من رجالهم وغنم منهم غنائم كبيرة ، غير انه لم يقض على معين •

وقد خلفه في الحكم ابن عمه ( أو ابن أخيه أو حفيده ) كرب ايل وتر (٦٢٠ ـ ٦١٠) الذي كان أول من اتخذ لقب الملك • وحالف هـذا الملك يدع ايل ملك حضرموت ودارو ايل ملك قتبـان واستعان بهمـا في حروبه ، فهاجم مملـكة أوسان التي كانت قد ظهرت في الجنوب الغربي من اليمـــن واستفادت من ضعف القتبانيين فوسعت رقعتهـا وتحكمت في

حضرموت وسيطرت على الطرق التجارية الآتية منها • وقد استطاع كرب ايل وتار القضاء على هــذه المملكــة واخضاع عدد من القبــائل التي كانت تحالفها كالمحامر ، وأمن له هذا الانتصار السيطرة على طرق تجارة البخور والافاويه الآتية من الجنوب •

ثم توجه كرب ايل وتر الى معين وحلفائها في الشمال ، فهاجم نشان والمناطق المجاورة لها • وقد حاول المعينيون أن يدرأوا خطره بالتحالف مع القبائل الموجودة في الشمال ضده ، ولــكنه عاجلهم وهاجم المحامر وعامر واوهاب الذين كانوا يسكنون نجران وغنم منهم غنائم كبيرة •

وقد ساعدت الظروف الدولية كرب ايل وتر على القضاء على خصومه ، ذلك ان مصر لم تكن قد استفاقت من تأثير غزو الآشوريين لها في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وكانت آشور منشغلة في صد هجمات البابليين والــكاشيين ، كما أن بابل كانت منشغلة في حروبها مع الآشوريين ثم مع اليهود في فلسطين كل هـــذا ساعد الملك السبائي على توطيد كيان الدولة السبأية وتأمين سلامتها وتوطيد السلم لأحفاده الذين ظلوا يتعاقبون في الحكم على البلاد حتى سنة (٣٧٥ ق٠م٠) •

لقد كان الملك في الدولة السبأية هو الذي يقوم بالحكم والقيادة العليا للجيش في الحروب، ويعينه على الحكم مجلس شعبي ، وهنــاك موظفون يرثون مناصبهم ويسمّى كل منهم « الــكبير » وهو مسؤول عن القانون ، وقد كونوا على مر الايام طبقة وراثية حلت محــل المجلس الشعبي ، ثم تطورت مكانتهم فصاروا طبقة اقطاعية ، وأدوا الى اضعاف نفوذ الملك •

وكانت الادارة تعتمد على ملــكية الارض ، وتفرض الضرائب على الارض والتجارة ، كما تفرض عادة ضرائب استثنائية لسد نفقات وتكاليف الحملات الحربية ، ويتوقف مقدارها على وضع المنتوج الزراعي والحصاد ، وعلى الوضع الاقتصادي العام للبلد •

وقد ازدهر فن البناء والعمران ، وكانت الاخشاب وأحجار الجرانيت متوفرة ، غير أن كثيرا من البيوت الشعبية كانت مبنية بالطابوق • وكان

النحت راقيا ، بحيث يصعب أحيانا تمييز القطع المتصلة ، وكثيرا ما تزخرف الحيطان والاعمدة وتطلى بالمعادن . وكانت كثير من الابنية مكونة من عدة طوابق . أما السدود والقنوات والكهاريز فقد رقي فن اقامتها رقيا عظيما .

وقد وصل فن الصياغة مستوى عاليا من الرقي ، كما تظهر ذلك الاواني الذهبية والفضية الباقية ، أما النقود فمتأثرة بالطراز الاغريقي[١] .

غير انه تعاقب على حكم الدولة السبأية فيما بعد ملوك ضعاف ، واستغلت ذلك القبائل التي تسكن الهضبة وخاصة حاشد وبكيل فرعي همدان ، وخولان وبني ذي ريدان ، وزادوا من نفوذهم وسطوتهم واشتبكوا فيما بينهم بحروب طويلة زادت في اضعاف نفوذ السبأيين ، وأدت الى استقلال حضرموت وأوسان . غير أن ظهور هذه القبائل أدى الى تناقص أهمية الهضبة الوسطى وانتقال مركز الحضارة منها .

وفي ذلك العهد كانت روما قد أخذت تمد نفوذها في الشرق الاوسط ، فاستطاع بومبي أن يستولي على سوريا وفلسطين ، ثم قضى يوليوس قيصر على دولة البطالسة في مصر ، فلما تولى اغسطس زمام الحكم في روما وأدرك ما تصرفه روما سنويا من الاموال على البخور والافاويه ، أراد أن يضم الى امبراطوريته البلاد التي تنتج هذه المنتوجات ، ويبدو انه اعتقد بضعف اليمانيين وعجزهم عن مقاومة الرومان ، فأوعز الى واليه في مصر اليوس كالوس بتجريد حملة لاحتلال اليمن سنة ٢٥ ق.م. ولا نزال نحتفظ بأخبار هذه الحملة بفضل ما دونه سترابو عنها . لقد سلكت الطريق البري ، وأخذت لها دليلا نبطيا سار بها عبر الحجاز الى حربد الذي هو الوادي الوحيد الذي تتوافر فيه المياه الدائمية ثم تقدمت الحملة فاحتلت اسكا ( نسا أو نشق ) واثرولا ( يثيل أو البيضاء ) وغنم منها غنائم كبيرة ثم تقدم الى مارسيابا ( مأرب ؟ ) التي كان يحكمها الرانيتيون وملكهم الاساروس ( على ما يقول سترابو ) . وقد لقي مقاومة شديدة اضطرته أن

---

(١) انظر موسكاتي . مدنية الساميين القدماء ص ١٩٠ (بالانكليزية).

يتركها ويعود راجعاً بعد أن حاصرها ستة أيام • وقد لاقى جيشه في طريق عودته الاهوال من الامراض والعطش • ويعزو الرومان سبب فشل الحملة الى عوامل المناخ • ولا ريب ان هذا تبرير لفشلهم ، اذ الراجح أن سبب فشلها مقاومة اليمانيين •

لم تستطع هذه الحملة أن تؤدي الغرض الذي جاءت من أجله ، فظلت اليمن خارج الامبراطورية الرومانية ، غير انها في نفس الوقت لم تؤد الى قطع العلاقات اذا استمرت تجارة الافاويه مع الرومان وكان يقوم بها اليمانيون • ويبدو ان حملة اليوس كالوس قد أحدثت بعض الانتعاش السياسي والعسكري في دولة سبأ ، فضعف خصومهم ، وزاد نفوذ الاسرة الحاكمة ، فلم يبق من يخاصمها سوى حاشد ، وقد استطاع ملوك سبأ أن يمدوا نفوذهم الى حضرموت كما يظهر من القابهم • غير ان الدمار الذي أصاب مأرب من جراء الحملة حملهم على نقل عاصمتهم الى ذمار فترة من الزمن •

لقد كان السبأيون يعتمدون في الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي على حركة الرياح الموسمية ويسيرون سفنهم حسب أوقاتها ، التي تتبدل حسب المواسم تبدلا تاما ، وقد احتفظوا لانفسهم بمواعيد هذه الرياح ، واعتبروها سرا لم يبوحوا به لغيرهم ، مما مكنهم من احتكار تجارة الهند التي كانت تأتيهم بأرباح طائلة • غير انه في أواخر القرن الثاني ق•م• استطاع هبارخوس ، وهو أحد الملاحين الرومان ، أن يتعلم مواعيد هذه الرياح الموسمية ثم علمها بدوره الى غيره من اليونانيين ، فأخذت السفن المصرية والرومانية تبحر في المحيط الهندي وتجلب البضائع من جنوب آسيا والهند من دون حاجة الى وساطة السبأيين • وهكذا لم يعودوا يحتكرون التجارة ، وأخذت البضائع الهندية تسير في الطريق البحري من المحيط الهندي الى البحر الاحمر وتنزل بضائعها في الموانيء المصرية أو في العقبة رأسا • وقد أدى هذا الى تناقص أهمية الطريق البري الذي كان يسير من عدن مخترقا الهضبة اليمانية الى وسط الحجاز ، كما أدى الى تضاؤل

أهمية الهضبة اليمانية الوسطى وانحطاط مدنها التي كانت تعتمد كثيرا على التجارة المارة بها ، ولكنه أدى في نفس الوقت الى ازدياد أهمية المدن اليمانية الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، فانتعش الحميريون الذين كانوا يسكنون في المنطقة الساحلية وازدادت قوتهم ، فكونوا لهم دولة عاصمتها ظفار ، استطاعت أن تمد نفوذها حتى تمكنت من القضاء على دولة سبأ • وقد تم تأسيسها تدريجيا •

وأول ذكر للحميريين في آثار اليمن يأتي من سنة ١١٥ ق•م• حيث تذكر النقوش « ملك سبأ وذوريدان » وريدان هي ظفار عاصمة الحميريين، ( وهي تقع على بعد مائة ميل من مخا ) وهذا يدل على ان الحميريين كانوا منذ ذلك الوقت ذوي كيان سياسي متميز • وكانوا يسكنون المنطقة الساحلية، وقد ساعدهم موقعهم الساحلي على المساهمة في الحركة التجارية وتوثقت علاقتهم بالاحباش • ثم صار لقبهم من سنة ٢٧٥م « ملك سبأ وريدان وحضرموت واعرابهم من الجبال وتهامة » مما يشير الى توسع نفوذ اليمن وامتدادها الى تلك المنطقه ، ثم استطاعت حمير أن تنتزع الحكم من السبأيين وتصبح أسرتها هي الحاكمة في اليمن •

ينسب بعض المؤرخين العرب للملوك الحميريين فتوحات واسعة فيروون أن فتوح ناشر النعم وصلت اسبانيا واوروبا ، وان شمر يرعش امتدت فتوحاته فشملت العراق وايران حتى وصلت الى تركستان ، وانه بنى سمرقند التي سميت بأسمه ، وان اسعد كرب فتح اذربيجان والقسطنطينية[١] • ولا ريب انتواريخ الدول المعاصرة لا تذكر شيئا عن هذه الفتوحات ، مما يدل على كونها أساطير ومختلفات ، غير انها تدل على الاثر الذي تركته قوة الحميريين العسكرية في النفوس • ومن الثابت ان الحميريين استولوا على بلاد الحبشة في القرن الاول قبل الميلاد •

---

(١) راجع في ذلك كتاب التيجان من ملوك حمير ، المنسوب لوهب ابن منبه •

وفي عهد الدولة الحميرية بدأت المسيحية تنتشر في اليمن ، وكان انتشارها تدريجيا على ايدي المبشرين المسيحيين وخاصة اليعاقبة الذين جاءوا من الحبشة وأنشأوا لهم كنائس في عدن وظفار ونجران وربما ساعد على نشر المسيحية أيضا الارساليات النسطورية من الحيرة وارساليات من سوريا[١] وأخذوا يبثون منها الدعاية المسيحية حتى استطاعوا أن ينصروا عددا من أهل اليمن • وفي سنة ٣٤٠م هاجم الاحباش اليمن واستولوا عليها ، ووجدت المسيحية فيهم سندا قويا لها •

غير أن الحكم الحبشي لم يدم طويلا ، اذ أن رجال الدين المتعصبين للوثنية تعاونوا مع اليمانيين على مقاومة الاحباش النصارى الغزاة ، واستطاعوا اخراجهم سنة ٣٧٨م واعادة الوثنية الى مكانتها الاولى • وقد كانت هذه الحملة الحبشية الاولى محاولة لانتزاع التجارة من اليمن ولنشر الدين المسيحي ، وهي بمثابة حركة استطلاع مهدت للاستعمار الحبشي فيما بعد •

أدى خروج الاحباش الى أن تفقد المسيحية سندا قويا لها ، كما ان الملوك الحميريين ، وكانوا قد لجأوا الى يثرب عند الغزو الحبشي ، تأثروا بالديانة اليهودية التي كانت منتشرة في يثرب • غير أنه ليس هناك دليل على اعتناقهم اياها فان ملك كرب الذي طرد اليهود كان يعبد « ذى سماوى بعل السماوات والارض » كما تنص النقوش التي بقيت من عهده • ويظهر من هذا النص ان اليمانيين قد أخذوا يعتقدون باله عظيم هو رب السماوات والارض ، الا أنهم لم يتركوا آلهتهم الاخرى كما انهم لم يدينوا باليهودية التي تعتبر الاهها يهوه ، لا بعل كما يدعوه هذا النقش •

وقد جاء بعد ملك كرب ابنه أبو كرب أسعد الذي يدعوه المؤرخون العرب أسعد كامل تبع وينسبون اليه فتوحات واسعة وصلت بها جيوشه الى تركستان • ولا ريب ان هذه الاخبار هي من باب الاساطير ، اذ لا توجد اشارة اليها في تواريخ الامم المعاصرة له ، ولكنها تدل على مدى ما تركته

---

(١) أنظر الفصل السابع من كتاب « جزيرة العرب قبل محمد » لاوليرى •

قوة الحميريين العسكرية في أذهان الناس من تأثير . ويبدو أن توسع أبو كرب لم يتجاوز يثرب التي زارها هذا الملك ردا لجميل أهلها الذين آووه ، وربما أراد بذلك أن يتعاون مع اليهود ضد الاحباش والنصارى . وقد أعقبه شرحبيل يعفر الذي عمر بعض ما خرب من سد مأرب سنة ٤٥٠ نتيجة الفيضانات والاهمال .

ثم تعاقب فيها على حكم اليمن بضعة ملوك لم تكن لهم آثار بارزة الى أن جاء ذو نواس الذي كان شديد التعصب على المسيحية فعزم على اجتثاثها من اليمن ، وطلب من النصارى ترك دينهم ، فلما أبوا أحرقهم بالنار في اخدود حفره لهم . وقد أشار القرآن الى هذه الحادثة « قتل أصحاب الاخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (سورة البروج ٤ - ٨) .

ويروى أن ذا نواس دان باليهودية وتسمى يوسف أو فنحاص وان مقاومته للمسيحية كانت نتيجة تعصب ديني . وقد تكون هناك دوافع أخرى لاضطهاده المسيحية : منها ان المسيحية في الشرق كانت تجد سندها في الدولتين البيزنطية والحبشية ، وأن انتشارها قد يؤدي الى تزايد نفوذ البيزنطيين والاحباش في اليمن ، أو على الاقل قد يكونون بمثابة رتل خامس للبيزنطيين عند حدوث أي غزو بينما لم يكون اليهود أي خطر للاستيلاء على اليمن . ولعل اليهود هم الذين حرضوا ذا نواس على اضطهاد المسيحية انتقاما من البيزنطيين الذين قاموا باضطهاد اليهود في بلادهم آنذاك . وجدير بالملاحظة أن ذا نواس أول ملك ذكر بأنه تهود ، وأنه لم يكن متعصبا لليهودية ، فلم يضطهد الوثنية التي ظلت منتشرة حتى ظهور الاسلام .

غير أن اضطهاد ذي نواس للمسيحيين أثار البيزنطيين الذين أوعزوا الى الاحباش بالهجوم على اليمن . فجهز الاحباش حملة بقيادة أرياط استطاعت أن تقضي على الدولة الحميرية وتنتصر للنصارى . وقد اتبع

الاحباش سياسة لينة مع اليمانيين ، واعتمدوا على الامراء المحليين في الادارة ، فعين أرياط سميفع اشوع الحميري على اليمن ، ولما مات أعقبه ابرهة الذي أراد اتباع سياسته فعين على كندة رجلا من أبنائها يدعى يزيد بن كبشة ، ولكن هذا ثار على ابرهة ، فجرد حملة ضده ، ثم القى القبض عليه وقتله .

واهتم ابرهة كذلك في اصلاح البلاد ، فعمر سد مأرب الذي كان قد تصدع ، وحشر للعمل فيه العمال من أهل البلاد ، وصرف على ذلك مبالغ طائلة ، فلما انتهى من اصلاحه أقام احتفالا عظيما دعا اليه مندوبين من كافة الدول المجاورة . وقد سجل جهوده واحتفالاته في نقش اكتشف في السنين الاخيرة ، والتى ضوءاً هاما على أحوال ذلك الزمن[١] .

ثم جرد ابرهة حملة للاستيلاء على مكة . ولكن الحملة تدمرت عند مكة ، ومات ابرهة . وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » ( سورة الفيل ) .

لم يرض بعض أهل اليمن باحتلال الاحباش بلادهم ، فاستنجدوا بالدولة الساسانية التي كانت عدوة البيزنطيين ، فانجدهم انو شروان بقوة أبحرت من الخليج العربي ونزلت في جنوب اليمن واستطاعت أن تطرد الاحباش منها ، وبذلك تحررت اليمن . وقد أصبح سيف بن ذي يزن حاكما عليها ، وكان هو الذي استنجد بانو شروان . وقد ظلت القوة الساسانية في اليمن ، وكانت تقيم في صنعاء[٢] .

---

(١) لقد كتب سدني سميث في نشرة مدرسة اللغات الشرقية (١٩٥٤) مقالة قيمة عن الاحباش وأحوال الجزيرة في القرن السادس الميلادي .

(٢) انظر في ذلك الطبري ج ٢ ص ١١٥ فما بعد . ابن هشام سيرة النبي ج ١ ص ٦٥ فما بعد .

ثم ان سيف بن ذي يزن قتل ، فتولى الحاكم الساساني أمر ادارة اليمن تسانده القوة الساسانية . غير ان الاضطرابات التي حدثت آنذاك في الدولة الساسانية جعلت مركز هـذا الوالي ضعيفا منعزلا ، فقوى نفـوذ العشائر والامراء المحليين ، وحصروا نفوذ هذا الوالي في صنعاء وما يجاورها.

ثم ادعى الاسود العنسي النبوة ، وحرض الناس ضد الفرس ، وتمكن من القضاء عليهم ، ولـكن هذا لم يدم طويلا اذ سرعان ما دهمه المسلمون وقضوا على حركته ، بعد أن اغتاله بعض اليمانيين المعارضين له . وهكذا أصبحت اليمن جزءاً من الدولة الاسلامية .

وقـــد ساهم كثير من اليمانيين في الفتوح الاسلامية ، فانضموا الى الجيوش الاسلامية منذ عهد أبي بكر ، ثم استوطنوا الامصار الاسلاميـة كالـكوفة والشام والفسطاط ، وشارك كثير منهم في فتح الاندلس واستقروا فيها ، وساهموا في تكوين الحضارة لاسلامية التي نبعت في هذه الامصار ، مما سنبحثه بالتفصيل في الجزء الثاني .

## قائمة أسماء الملوك المعينين حسب ترتيب فلبى[1]

اليفع وقه

وقه ايل صديق

أبو كرب يثع

عم يثع نبط

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها »

صدق ايل ملك حضرموت ومعين

اليفع يثع

---

(١) سناد الاسلام . الملحق الثاني ص ١٤١ .

صفن ذرح

اليفع ريام

حوف عثت

أب يدع يثع

وقه ال ريم

حفن صدق

اليفع يفش

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها »

يثع ال صديق

وقه ال يثع

اليفع يشر

حفن ريام ووقه ال نبت

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها »

أب يدع ريام

خال كرب صديق

حفن يثع

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها »

يثع ال ريم

تبع كرب

حكم اليفع وقه سنة ١١٢٠ ، ودام حكم كل ملك عشرين سنة .

وقد رتب البرايت قائمة ملوك معين بشكل آخر ، فان الملوك الاربعة الاول في قائمة فلبي ، يعتبرهم البرايت تولوا الحكم بين اليفع يفش ويثع

ال صدق ، كما انه يرى أن اليفع وقه حكم سنة ٢٥٠ ق٠م٠ ، وان اليفع يتع ( أول ملوك معين ) برأيه حكم حوالي سنة ٤٠٠ ق٠م٠[١]

## ملوك سبأ حسب ترتيب فلبى[٢]

| | |
|---|---|
| المكارب : | يدع ال وتر |
| سمه على | ذمر على بين |
| يدع ال ذرح | كرب ال وتر |
| يثعمر وتر | |
| يدع ال بين | «فترة عشرين سنة لا نعلم أسماء ملوكها» |
| يثعمر وتر | |
| كرب ايل وتر | الكرب يهنعم |
| ذمر على وتر | كرب ال وتر |
| كرب ال بين | وهب ال ( من بكيل ) |
| سمح على ينف | انمار يهنعم |
| يثعمر بين | ذمر على ذرح |
| كرب ايل وتر | نشا كرب يهنعم |
| الملوك : | |
| كرب ايل وتر | « فترة ثلاثين سنة » |
| سمح على ذرح | |

---

(١) نشر البرايت قائمته في نشرة مجلة المدرسة الامريكية في الشرق سنة ١٩٥٠ ٠



(٢) سناد الاسلام ص ١٤١ ٠

كرب ايل وتر
الشرح
يدع ال بين
يكرب ملك وتر
يثع امر بين
كرب ال وتر
سمح على ينف
الشرح
ذمر على بين
ملوك سبأ وذو ريدان :
يزل بيان
نشا كرب يمين يرحب
وتريهمن
ياسر يهصدق
ناصر يهنعم
وهب ال يحز
كرب ال وتر يهنعم
( ثم اغتصب العرش بريم ايمن
وابنه علهان نهفان )
مزعم ينهب
الشرح يحصب
( ثم تعقبه فترة ذكرت فيها أسماء
ملوك لانعلم ترتيبهم أو زمن حكمهم )
ذمار على يحابر
ثاران يعب يهنعم
ذمار على يحابر ( الثاني )
ذمار على بيان

وقد اعتبر بداية حكم سمح على سنة ٨٠٠ ق٠م ، وقدر حكم كل مكرب عشرين سنة وهو رقم كيفي ٠

تتفق قائمة فلبي لملوك سبأ مع قائمة هومل ، الا في بعض الامور ، منها أن هومل يضع كرب ايل وتر الاول بعد الشرح ، ويعتبر سمح على ينف مؤسسا لاسرة جديدة ، ويحذف اسم يدع ال وتر وذمر على بين ، ويرى ان الكرب يهنعم أعقب كرب ال وتر مباشرة[١] ٠

وقد نشر فلبي مقالة فيمجلة الميوزيون الفرنسية عدلفيها هذه القائمةعن المكارب ، فاضاف سمح على ينف بعد يدع آل ذرح ، وذمر على ذرح بعد

(١) نقلت قائمة هومل من كتاب الدكتور جواد علي ج ٢ ص ١٤٧ — ١٤٩ ٠

يدع ال بين ، وذمر على ينف بعد يثعمر بين ، كما اعتبر بداية حكم سمح على سنة ٨٢٠ ق٠م٠

## ملوك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات

| | |
|---|---|
| يريم يرحب | نوف |
| الاحتلال الحبشي الاول | لاهي عثت يتبن |
| ملـكرب يهمن | معد يكرب ينعم |
| أبو كرب أسعد | ذو نواس |
| ورو عمار ايمن | غزو الاحباش |
| شرحبيل يعفر | سميفع اشوع |
| معد يكرب | معد يكرب وابرهة |
| عبد كلال | غزو الفرس |
| شرحبيل يكيف | دخول الاسلام ٠ |

# الفصل الثالث

## بطرا[1]

لقد كان الهلال الخصيب منذ أقدم العصور التاريخية مركزا لحضارة راقية ، فقد ساعدت خصوبة أرضه ووفرة المياه فيه على رقي الزراعة وازدحام السكان وظهور المدن وتكوين الحكومات . وأدى هذا الى رقي المدنيـــة والصناعة والتجارة . ومع وفرة منتوجات بلاد الهلال الخصيب ، ورقي بعض صناعته ، الا أنه كان محتاجا لى استيراد بعض البضائع ، وخاصة من الهند وشرق افريقيا وجنوب البلاد العربية ، كالبخور والعطور والبهارات والافاويه والعاج والمصنوعات الحريرية . وكان يصدر بدوره بعض الفائض من منتوجاته وخاصه المنسوجات والمصنوعات الزجاجية .

ولما ازداد رقي الحضارة اليونانية والرومانية ، زاد الطلب على بضائع بلاد الهند وجنوب البلاد العربية ، وصار الهلال الخصيب مركزا لتجارة الترانسيت الى بلاد البحر المتوسط .

وكانت التجارة الهندية[2] تأتي عن طريقين أولهما طريق الخليج العربي فتفرغ بضائعها عند رأس الخليج العربي حيث تنقل الى العراق ومنها الى سوريا فالبحر المتوسط ، وفي بعض الأحيان كانت البضائع تفرغ

---

(١) رجعنا في بحث الانباط بصورة خاصة الى كتاب « بطرا والانباط » لكامير ( بالفرنسسية ) ، وكتاب « مدن القوافل » لروستوفزيف بالانكليزية و « بطرا : تاريخها وآثارها » لـكندي ( بالانكليزية ) هذا بالاضافة الى كتابي جواد علي وجرجي زيدان .

(٢) راجع عن طرق التجارة بالاضافة الى ما ذكر أعلاه كتاب ورمنجتن « تجارة الامبراطورية الرومانية مع الهند » ، وكتاب جالسورث « الطرق التجارية والتجارة في الامبراطورية الرومانية » . وسليمان حزين « جزيرة العرب والشرق الاقصى » وكذلك ما كتبه روستوفزيف في الجزء الاول من كتابه « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعالم الهليني » ، وكذلك ما كتبه في الجزء السابع من تاريخ كمبردج للعصوز القديمة .

في موانيء البحرين وخاصة كره Garrhae التي تقع في مكان لم يعين بعد في منطقة البحرين[١] ثم تنقل عبر الصحراء العربية الى العراق أو الى سوريا أو الى فلسطين ومصر •

أما الطريق الثاني فكان يأتي من البحر العربي فالبحر الاحمر ومنها الى الموانيء المصرية الواقعة على ساحل لبحر الاحمر الغربي ، أو الى ميناء العقبة حيث تنقل منها الى سوريا وموانيء البحر المتوسط • ولا ريب أن الطريق الاول المار عبر الخليج الغربي الى العراق كان أفضل لانه أقصر وأقل كلفة وليس فيه جزر مرجانية كالبحر الاحمر ، لذلك كان أكثر طروقا وخاصة عندما يكون الهلال الخصيب تحت حكم امبراطورية واحدة لا تتدخل في عرقلة الطرق التجارية •

الا أن الطرق البحرية كانت في العصور القديمة معرضة الى كثير من الاخطار الطبيعية أو البشرية كالعواصف والدوامات والحيوانات البحرية أو الشعاب المرجانية ، لذلك كان التجار يفضلون الطرق البرية بقدر المستطاع •

فكانت السفن الآتية الى الخليج العربي تفرغ أحيانا حمولتها عند البحرين في ميناء كره Garrhae وتنقل منها براً الى العرق ، و الى سوريا عبر الصحراء ، أما السفن الآتية الى البحر العربي فكانت تنهي رحلتها في ميناء عدن حيث تنقل بعدها البضائع عبر اليمن فالحجاز ومنها الى مصر وفلسطين أو الى سوريا • وكان لابد للطرق البرية أن تقطع صحراء البلاد العربية ، سالكة الوديان أو القفار ، وأهم المصاعب التي تلاقيها هي قلة المياه ، فالآبار هي العامل الاول الذي يقرر اتجاه القوافل ومحطاتها في الصحراء ، لذلك كانت كافة محطات القوافل حول الآبار • وتتوقف أهمية هذه المحطات على وفرة مياه آبارها والاراضي القاحلة التي تحيط بها أو وقوعها على تشعبات الطرق •

وقد كان شمال الحجاز منذ أقدم الازمنة ذا أهمية كبيرة لطرق

---

(١) ويذهب فيليب حتي الى انها العقير • تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ١ : ٢٩٩ ـ ٣٠٠ •

القوافل ، وذلك لان تلك المنطقة تقع عند طرف الهلال الخصيب ، تلتقي فيها الطرق الآتية من كره شرقا ، واليمن جنوبا ، وسوريا وفلسطين شمالا ، ومصر غربا • لذلك كانت تنشأ فيها مدن في محطات القوافل ، وتنتعش هذه المدن خاصة عندما يحدث اضطراب في الهلال الخصيب وينفصل العراق عن سوريا ، وقد رأينا كيف أن المعينيين أنشأوا لهم مستعمرة عند العلا في الطرف الشمالي من البحر الاحمر لتكون محطة لقوافلهم البرية التي تنقل تجارتهم الى الهلال الخصيب أو الى مصر •

وكثيرا ما كانت القبائل العربية التي تجوب تلك المناطق تترك حياة التجول وتستقر حول الآبار وتقوم بتموين القوافل المارة بها ، وقد تقوم بحراستها •

ومن هذه المناطق التي اتخذت محطة للقوافل ، وادي موسى في شرقي الاردن • فقد كانت هذه المنطقة تتوفر فيها المياه والآبار ، فتصلح لان تكون محطة للقوافل تحميها الجبال التي كانت تحيط بها • ولسنا نعلم عن تفاصيل تاريخها في القديم ، سوى أن الادوميين قطنوها منذ القديم ، وأنشأوا فيها بضعة مدن ، ولكن القبائل البدوية في الجزيرة قامت بعدة هجمات على الآدوميين فأقصتهم عنها تدريجيا وحلت محلهم • فلما قامت الامبراطورية الآشورية احتلت سوريا وفلسطين وبذلك وحدت الهلال الخصيب وجعلته خاضعا لامبراطورية واحدة قوية نشرت الامن والسلم في ربوعه ، الامر الذي ساعد على انتعاش الطريق التجاري المار بالعراق ، ولابد ان هذا أدى الى ضعف التجارة التي كانت تمر من غربي الجزيرة • وقد أدرك اليمانيون، وربما القبائل التي تسكن غربي الجزيرة قوة الآشوريين وخطرهم ، فراحوا يتوددون لهم ويرسلون لهم الهدايا ، ولعلهم كانوا يستهدفون من ذلك ضمان مرور تجارتهم في بلاد الامبراطورية الآشورية • ولكن ليس هناك دليل على ان الآشوريين احتلوا هذه الاماكن أو أدخلوها ضمن امبراطوريتهم• فظلت تلك المناطق تتمتع بالاستقلال ، ولابد أنهم أصابهم بعض الضعف لتحول التجارة الى طريق العراق ، اذ اننا لا نسمع شيئا عن سكانها سوى

أن آشور بانيبال أرسل ضدهم حملة ولكنه لم يخضعهم .

فلما جاء الاسكندر المكدوني أرسل ضدهم بقيادة أحد قواده حملة توغلت في بلادهم ولكنها لم تستطع اخضاعهم . فلما مات الاسكندر انقسمت امبراطوريته الى عدة أقسام ، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس وسوريا من نصيب سلوقس ، وكان هذان الحاكمان متنافسين فحاول سلوقس قطع التجارة عن مصر ، بلاد خصمه بطليموس ، لذلك أراد احتلال بلاد الانباط التي كانت تسيطر على طرق التجارة البرية ، فأرسل حملة مكونة من ٤٠٠٠ راجل و٦٠٠ فارس ، ولكنها شتتت ، واضطر الذين سلموا الى مصالحة الانباط . ثم أرسل السلوقيون حملة أخرى لعقابهم ، فانسحب الانباط الى معاقلهم في الجبال والصحارى ، ثم فاوضوا السلوقيين بالصلح ، ودفعوا لهم مبلغا من المال ، فوافق السلوقيون على الصلح بعد أن أدركوا أنه ليس بمقدورهم الاستيلاء على تلك البلاد .

وقد أدرك البطالسة أهمية بلاد الانباط وأثرها على التجارة الخارجية المصرية ، كما أدركوا صعوبة الاستيلاء على تلك البلاد الجبلية الصحراوية ، لذلك عزموا على أن يتركوا لهم استقلالهم ولكن يجعلوهم تحت نفوذهم ، فاستولوا على المدن الفنيقية وفلسطين التي كانت تنتهي اليها القوافل النبطية ، كما أرسلوا حملة احتلت أراضي اللحيانيين الواقعة في الطرف الشمالي من الحجاز ، ثم أنشأوا في الاردن ، عند أطراف بلاد الانباط ، عدة مستعمرات يونانية . وبذلك أحاطوا ببلاد الانباط وهيمنوا على منافذ الطرق التجارية[١] .

وبجانب هذا شجع البطالسة تجارة البحر الاحمر ، وأنشأوا على سواحله المصرية الموانىء والمحطات والطرق ، الامر الذي أدى الى اضعاف التجارة البرية المارة ببلاد الانباط . وقد أدرك الانباط هذا الخطر الذي يتهددهم فقاموا ببعض النشاط في القرصنة والانقضاض على السفن في البحر الاحمر بقصد عرقلة التجارة البحرية .

---

(١) راجع في ذلك مقال روستوفزيف بعنوان « بطليموس الثاني والجزيرة العربية » المنشور في مجلة الآثار المصرية سنة ١٩٢٧ .

ثم أن البطالسة ضعفوا في القرن الثاني ق•م• واسترجع منهم السلوقيون سوريا ، فحاول هؤلاء أن يجلبوا الانباط الى جانبهم • وقد استفاد الانباط من ذلك ، ونشطت تجارتهم مع سوريا ، وذهب تجارهم الى صور وبيبلوس ( جبيل ) حيث وجدت آثارهم هناك ، وربما امتد نشاطهم التجاري الى المدن السورية الاخرى •

ثم ضعف السلوقيون واضطربت أحوال الشرق الاوسط عامة والهلال الخصيب خاصة ، فاحتل البارثيون العراق واستقلت امارات متعددة في شمال الهلال الخصيب وسوريا ، وكانت هذه الامارات متخاصمة ، فاضطرب الامن وتعرقلت التجارة المارة بالعراق فاستردت طرق التجارة في غربي الجزيرة أهميتها ، وعادت بطرا الى الازدهار ، والواقع أن معظم أخبارها وآثارها المكتشفة تأتي من هذه الفترة •

حاول الانباط الاستفادة من عدم وجود دولة قوية في الهلال الخصيب وأرادوا بسط نفوذهم على البلاد المجاورة • واضطر ملوكهم الاول : الحارث الاول (١٦٩ - ١٤٦ ق•م•) والثاني (١١٠ - ٩٦ ق•م•) وعبادة الاول (٩٠ ق•م•) الى الاشتباك بعدة حروب مع دولة الهيروديين اليهودية التي تأسست في فلسطين • وقد استطاع هذا الملك الاخير أن يستولي على جنوب شرقي سوريا بما فيها حوران وجبل الدروز •

ومن أشهر ملوك الانباط الحارث الثالث (٨٧ - ٦٢ ق•م•) الذي استطاع أن يكسر اليهود في عدة مواقع ويحاصر القدس ، ثم استنجد به أهل دمشق وطلبوا منه أن يتولى أمرهم بدل السلوقيين المقوتين ، وقد لبى نداءهم وخلصهم من السلوقيين ، وقد رحب به أهل دمشق وسموه محب الهلينيين Philhellenic وهكذا استطاع أن يبسط سيطرته على قلب سوريا •

ولما جاء القائد الروماني بومبي الى الشرق حاول احتلال بلاد الانباط فأرسل حملة ضدهم ، ولكن الحارث الثالث استطاع صد تلك الحملة

والاحتفاظ باستقلال بلاده ، رغم أنه خسر ما كان قد حصل عليه في سوريا .

لقد أدخل الحارث الثالث الحضارة الهلنية في بلاد الانباط ، فقد سك النقود على الطراز الهلني وأخذ العيار البطليموسي للعملة ، وجاء بمعماريين سوريين شادوا له قبرا يعتبر حتى اليوم من آيات الفن الرائع ، وتسمى تلك البناية اليوم « الخزنة » كما أنشأ مسرحا ، وصارت بطرا في زمنه مدينة تشبه المدن الهلينية لها طرق عظيمة وأبنية جميلة .

ثم ان روما أخذت تمد نفوذها الى الشرق ، فاستولت على آسيا الصغرى فسوريا ثم مصر ، وبذلك استحوذت على حوض البحر الابيض المتوسط وسيطرت على موانيه التي هي منافذ للتجارة النبطية ، وقد أدرك الانباط خطر الامبراطورية الرومانية ، فسعوا الى التقرب منها ، لذلك نجد أن ملكهم مالك الاول (٥٠ - ٢٧ ق.م.) أنجد يوليوس قيصر بقوة عندما حاصر هذا الاسكندرية ، كما ساعد ابنه عبادة الثالث (٢٨ - ٩ ق.م.) حملة اليوس كالوس ضد اليمن وأمدها بادلاء من الانباط . ورغم فشل هذه الحملة ، الذي عزاه الرومان الى سوء نية الادلاء الانباط وتضليلهم لهم ، فقد ظلت العلاقات بين الانباط والرومان طيبة ، واستطاعوا أن يحافظوا على سلطانهم في جنوب فلسطين وشرقي الاردن وجنوب شرقي سوريا وشمال الجزيرة ، وأنشأوا بضعة خانات ومحطات للقوافل ، وقلاعا في وادي العربة لتكون مركزا للحاميات التي تحمي القوافل .

غير أن مجيء الرومان أدى الى نشر الامن في ربوع البلاد ، كما أن الاباطرة منذ عهد اغسطوس اتبعوا سياسة السلم ، واتفقوا مع البارثيين الذين كانوا يحكمون العراق . مما أدى الى عودة حياة السلم والطمأنينة في بلاد الهلال الخصيب ، وأخذت التجارة الخارجية تسلك تدريجيا طريق العراق ، وهو الاقصر ، الامر الذي أدى الى انتعاشه ، أما الطريق المار بغربي الجزيرة ، والذي تقع في نهايته بطرا ، فقد أخذت أهميته تتضاءل تدريجيا ، وقد تبع هذا انحطاط بطرا التي كانت تقع على الطرف الشمالي من هذا

الطريق ، والتي كانت تعتمد على التجارة الغربية في كيانها .

وفي سنة ١٠٦م جاء تراجان الى الشرق لاعادة تنظيمه ، فأرسل ضد بطرا حملة استطاعت أن تستولي عليها دون مقاومة ، وبذلك قضى على دولة الانباط ثم جعلهـــا جزءاً من المقاطعة العـــربية Arabia Provincia التي أنشأها في الطرف الجنوبي من سوريا لتحميها من هجمات البدو ، وجعل عاصمتها بصرى التي تحول اليها طريق التجارة ، فانتهت بذلك حياة بطرا ولم نعد نسمع لها دورا أو ذكرا في التاريخ .

## مدنية الانباط

لقد نشأت مدينة بطرا كمحطة للطرق التجارية ، فلا عجب أن تكون التجارة وخدمة القوافل العمل الرئيسي للانباط والاساس الذي قامت عليه مدنيتهم . وقد مدوا نفوذهم الى ما يجاورهم من البلاد والمدن فحصنوها وأقاموا فيها حاميات للقوافل وأماكن لاستغلال المناجم ، وأصبحت مدينتهم في القرن الاول قبل المبـلاد المدينة الرئيسية للقوافل ، وسـوقا عظيما ، فسيطرت على طرق غزة وبصرى ودمشق وأيلة . وقد حفروا الآبار ، وأقاموا مشاريع الميـاه ، وحولوا بعض المناطق الصحراوية الى اراضٍ زراعية .

ولا ريب ان القوافل في القديم كانت تتطلب كثيرا من الحاجات ، فانها فضلا عن اعلاف الحيوانات ومأكولات البشر ، كانت تتطلب السروج والأكسية للحيوانات والاكياس للبضائع والاسلحة للحراس ، وكل هذا يستلزم تزويدهم بمنتوجات النساجين والنجارين والحدادين والزراع . وهكذا كانت محطات القوافل أسواقا . وكثيرا ما كان يقوم أصحاب تلك المحطات ببعض المعاملات التجارية من بيع وشراء واقراض ، لذا كانت تنشط الحركة في هـذه المحطـات ، وتصبح مراكز تجارية . وهكذا سرعان ما

أصبحت بطـــرا مركزا تجاريا واقتصاديا ، يساهم أهلهـــا في التجارة والاقراض • وقد امتد نشاطهم التجاري الى مناطق واسعة ، اذ وجدت آثار تجارتهم في سلوقية وموانيء سوريا والاسكندرية وديلوس ورودس •

وأهم السلع التي كانوا يتاجرون فيها الافاويه ( من اليمن ) ، والحرير من الصين ، والحناء من عسقلان ، والزجاج ، وصبغ الارجوان من صيدا وصور ، واللؤلؤ من الخليج العـربي والخزف من روما ، هذا بجانب ما كانت تنتجه بلادهم من الذهب والفضة والقار وزيت السمسم •

ويروي ديودورس انه كانت لهم قوانين تمنع زراعة الاشجار وبناء البيوت أو استعمال الخمور لانها تؤدي الى الخضوع ، فاذا صح هذا فانه لابد وأن يمثل أدوار حياتهم الاولى حيث كانوا أقرب الى البداوة ، يمتهنون الرعي والتجارة ، أما في الادوار المتأخرة ، عندما اتسع حكمهم ، فقد أخذوا يشيدون البيوت والمسارح والابنية الفخمة للقصور والمعابد ودوائر الحكومة ، وكثير منها منقور في الصخر ، ولا تزال بقاياها موجودة في الرقيم موقع بطرا ، في وادي موسى ، وهي من أروع الابنية والآثار ، مشـــيدة على الطراز الهيليني ، وتشهد على مدى تأثرهم بالحضارة الهلينية التي كانت سائدة في الشرق الادنى آنذاك ، كما تدل على رقي الذوق الفني والرخاء وتقدم المدنية •

ان الانباط من عرب شمال الجزيرة ، ولعلهم أقرب الدول القديمة الى عرب الحجاز • فأغلب الاسماء التي كانت شائعة عندهم تشبه الاسماء المستعملة عند ظهور الاسلام مثل حارثة ومليكة وجذيمة وكليب ووائل ومغيرة وقصي وعدي وعائذ وعمـر وعميرة ويعمر وكعب ومعن وسـعد ومسعود ووهب الله وتيم الله وعلي •

كما ان تركيب لغتهم يشبه تركيب النحو العربي المعروف لدينا ، فالفاء تستعمل للترتيب (جاء بنوه فبناته) ومن للاسم الموصول (جاء من يعلم) والياء للمضاف اليه ( تيم اللهى ) • كما كانوا يستعملون صيغة الماضي في

الدعاء بدل المضارع فيقولون ( لعن ذو الشرى ) كما يفعل العرب ، وبذلك يختلفون عن الآراميين الذين يستعملون صيغة المضارع فيقولون ( يلعن ذو الشرى ) •

غير انهم كانوا يستعملون في الكتابة والمكاتبات الرسمية والمعاملات التجارية اللغة الآرامية التي كانت سائدة آنذاك في كل بلاد الشرق الاوسط ، فكأنه كانت لهم لغة للتخاطب ولغة أخرى للكتابة ، مثلما لدينا اليوم لغة عامية ولغة فصحى • والراجح ان كثيرا من تجارتهم كان يعرف الاغريقية واللاتينية •

لقد استعمل الانباط الخط الآرامي المشتق من الفنيقي ، ولكنهم حوروه وصقلوه تدريجيا ، حتى أصبح خطا قائما بذاته • ومنه انحدر الخط العربي الكوفي[١] •

عبد الانباط آلهة متعددة ، كان أعظمها لديهم ذو شرى ، وكان له صنم من صخرة سوداء مستطيلة ، ولا نعلم أصله ، وقد ذكر الكتاب الاغريق انه اله الشمس وانهم كانوا يقيمون له في عيده احتفالات يشربون فيها انخمور ، وكان يعتبر حامي ملوكهم •

وقد عبد الانباط أيضا اللات ( وكانت الاهة القمر ) والعزى ، كما عبدوا الاله هبل ، وكذلك اتاركيتس ( عشتروت ) • وقد أشار سترابو الى بعض الاحتفالات الدينية التي كان يقيمها الانباط ويقدمون فيها الخمور •

لقد ظلت عبادة ذو شرى حتى ظهور الاسلام في شمال الحجاز ، أما العزي واللات وهبل فقد عبدت في مكة والحجاز ، ويروي ابن الكلبي ان عمرو بن لحى هو الذي ادخل عبادة الاصنام الى مكة ، وانه جاء بها من الانباط[٢] ، وهو خبر يظهر مدى اعتقاد الناس بأثر الانباط في عبادة مكة عند ظهور الاسلام •

---

(١) انظر المقال الذي كتبه يحي خليل نامي في مجلة كلية الآداب للجامعة المصرية سنة ١٩٣٥ عن تطور الخط العربي •

(٢) الاصنام ص ٨ •

* الحارث الاول ١٦٩ ق٠م٠

مالك ؟ ١٤٦ ؟ ق٠م٠

* الحارث الثاني ١١٠ - ٩٦ ق٠م٠
* عبادة الاول ٩٦ - ٨٧ ق٠م٠
* ربيال الاول ٨٧ ق٠م٠
* الحارث الثالث ٨٧ - ٦٢ ق٠م٠
* عبادة الثاني ٦٢ - ٤٧ ق٠م٠
* مالك الاول ٤٧ - ٣٠ ق٠م٠
* عبادة الثالث ٣٠ - ٩ ق٠م٠
* الحارث الرابع ٩ - ٣٠م
* مالك الثاني ٤٠ - ٧٥ (أو ٣٨ - ٧١)م
* ربيال الثاني ٧١ - ١٠٦م

---

(١) اعتمدنا في هذه القائمة على كتاب بطرا وبلاد الانباط لـكامير ٠ وقد نقل جرجي زيدان في كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام (ص ٦٩) عن دوسو قائمة تشبهها الا في أمرين : اولهما هو انه وضع زيدايل مكان مالك ، وجعل آخر ملوك الانباط مالك الثالث الذي حكم ، في رايه من سنة ١٠١ - ١٠٦ ٠

# الفصل الرابع

## تدمر(١)

نشأت تدمر في بادية الشام حول منبع ماء يقع في منتصف المسافة تقريبا بين الفرات من جهة ، وبين دمشق وحمص من جهة أخرى ، وهو يبعد حوالي ١٥٠ ميلا عن كل منها • وقد أصبحت محطة للقوافل السائرة بين العراق والشام • ولا نعلم على وجه التحقيق منشأها ، فاسمها عند اليونان والرومان Palmyre مشتق من التمر وهو لا يبين أصل هذه المدينة •

وتدعى التوراة ان النبي سليمان قد بنى تدمر(٢) ، وقد اعتقد بعض العرب بذلك فقال النابغة الذبياني على لسان سليمان :

وخيس الجن اني قد اذنت لهم … يبنون تدمر بالصفاح والعمـــد

على انه لا يمكن الجزم بأن المدينة التي بناها سليمان يقصد منها هذه التي تقع في بادية الشام ، خاصة وان سليمان لم يمتد حكمه الى هذه البلاد •

والظاهر ان هذه المدينة نشأت منذ أقدم الازمان من استقرار بعض البدو في الواحة التي تكونت حول البئر ، وصارت محطة للقوافل • وقد ورد ذكرها في نقوش تغلات فلاسر التي دون فيها أخبار حملته ضد العموريين في سنة ١١١٥ ق•م• ، كما ذكر ملالاس بأن التدمريين ساعدوا نبوخذنصر في هجومه على القدس وأمدوه بـ ٨٠٠٠ من رماة النبال • وقد استفاد التدمريون من قيام الامبراطورية الاخامينية التي وحدت الشرق الاوسط فنشط بذلك الطريق التجاري بين الهند والعراق وتركيا وسوريا •

---

(١) بالاضافة الى كتب جرجي زيدان ، وفيليب حتي ، وجواد علي فقد اعتمدنا على كتاب « مقالة عن تاريخ تدمر » للاستاذ فيفريه (باريس ١٩٣٢) (بالفرنسية) وكتاب « مدن القوافل » لروستوفزيف (بالانكليزية) وكذلك المقالات التي نشرها سيريج في مجلة سوريا (بالفرنسية) •

(٢) حزقيال ٤٧ ـ ١٩ ، ٤٨ ـ ٢٨ •

وظلت هذه المدينة محتفظة بمكانتها الطيبة في عهد السلوقيين الذين وحدوا سوريا والعراق وشجعوا الطريق التجاري الذي كان يمر بالعراق وتدمر منافسة للبطالسة الذين أرادوا أن تمر التجارة الهندية عن طريق البحر الاحمر ومصر .

ولكن انقراض الدولة السلوقية وقيام الدولة البارثية في العراق وايران أضرا بها ، لانه فصل العراق عن سوريا وهدد التجارة . الا ان هذا لم يدم طويلا ، لانه سرعان ما جاءت الدولة الرومانية الى الشرق فسيطرت على سوريا وفلسطين ثم مصر . وقد حاولت هذه الامبراطورية في عهد اغسطوس ان تتبع سياسة السلم فهادنت البارثين ، وعادت التجارة الهندية تسير عن طريق العراق .

كانت علاقة تدمر بالرومانيين طيبة ، فتمتعت باستقلال ذاتي كبير . غير ان تراجان حاول الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها ، كما انه هاجم البارثين وعاد العداء بين الرومان والبارثيين ، فاضطربت التجارة وساءت أحوال تدمر . ولكن هذه الحال م تدم طويلا ، اذ أن تراجان توفى ، وتولى منصب الامبراطور هادريان الذي عاد الى اتباع سياسة أغسطوس السلمية ، واعطى أهل تدمر حقوق الايطاليين ، ومنحهم استقلالا ذاتيا ، وسمح لمجلس شيوخهم أن يقرر الضرائب التي يرتئيها ، ثم اعفيت تجارتها من الضرائب . لذلك أخذت تدمر تزدهر ، وصار التدمريون يكثرون من تسمية أولادهم بأسماء رومانية ، وقدموا للرومان قوات من الخيالة التي كانت تحارب بالنبال . واتسع نشاطهم التجاري وازدادت ثروتهم وكثر العمران في بلادهم ، حتى ان أكثر الابنية العظيمة المكتشفة في تدمر ترجع الى عهد هادريان . وقد وجدت نقوش تذكر « تدمر الهدريانية » الامر الذي يدل على العلاقة الوثيقة بين تدمر وروما .

ثم انشغل الرومان في مشاكلهم الداخلية وفي صد الغزوات الجرمانية التي كانت تهدد امبراطوريتهم في أوربا ، الامر الذي اضعف نفوذهم في

الشرق • وقد اغتنم التدمريون هذه الفرصة وأخضعوا القبائل المجاورة لهم ووسعوا رقعتهم • فلما قام الساسانيون واحتلوا العراق وحلوا محل البارثيين اتبعوا سياسة التوسع ، فجهز سابور الاول حملة احتلت تدمر وانطاكية وأسرت الامبراطـور الروماني فالريان سنة ٢٦٠م ثم توغلوا في آسـيا الصغرى ، الا ان أذينة قام ينصـر الرومان فهاجم الساسانيين وكسرهم وطاردهم فقدر الرومان أعماله ومنحوه لقب Dux orientis .

ثم انه استولى على الرها ونصيبين وحاول احتلال طيسفون ، ولعله كان يستهدف من ذلك تأمين السيطرة على طرق التجارة الهندية والعراقية التي اضطربت بعد ظهور الساسانيين ، الا أنه لم يستطع احتلال طيسفون ، ثم قتل في حمص نتيجة مؤامرة يقال ان ابن اخيه دبرها • والحق أنه كان حاكما قديرا ، كان يحترمه أهل تدمر لما له من شجاعة وبذل وسخاء ولما كان يقدمه من هدايا في الاعياد وغيرها •

وقد خلفه في الحكم ابنه وهب اللات وكان صغيرا فتولت الوصاية عليه أمه زنوبية • وهي من الشخصيات النسائية البارزة في تاريخ الشرق الاوسط القديم • فهي سورية الاصل تربت تربية راقية ودرست الفلسفة الافلاطونية المحدثة ، ثم جاءت بلاط تدمر ، فتزوجها أذينة • ولما قتل أصبحت وصية على ولدها وهب اللات وأخويه خيران وتيم الله وأمسكت أعنة الحكم في تدمر • وكانت تتقن الآرامية والاغريقية واللاتينية ، وترعى العلوم والآداب فعاش في بلاطها الفيلسوف لونجينوس وأخذت تقلد البلاط الساساني بما فيه من أبهة وفخفخة • وكانت قوية الجسم جميلة أنيقة تحب الصيد وركوب الخيل •

ارادت زنوبية أن تستغل ضعف الرومان في الشـرق وانشغالهم في الازمات الداخلية في روما وعزمت على توسيع حدود بلادها ، فأرسلت حملة بقيادة زبدا لغزو مصر وتأمين سيادتها على الشرق الاوسط ، والسيطرة على

تجارة شرق البحر المتوسط ، ولتحرم روما من الحنطة التي كانت تمونها بها مصر • ثم أعلنت نفسها امبراطورة فاستقلت عن الرومان • غير ان مصر قاومت هذه الحملة مقومة شديدة ، كما ان الرومان أرسلوا اسطولا الى انطاكية يهددون فيه مؤخرة هذه الحملة ، فاضطرت زنوبية الى سحب جيوشها من مصر •

ثم جردت زنوبية حملة أخرى على آسيا الصغرى ، واستطاعت أن تتوغل فيها ، وكانت الجيوش الرومانية منشغلة في حروبها مع الجرمان في حوض الدانوب ، فاضطر الامبراطور أورليان أن يهادن زنوبية ويعترف لها بما استولت عليه ، كما تدل على ذلك النقود ، ولـكنه بعد أن أنهى مشاكله في الغرب ، تقدم بجيش قوي الى الشرق لمحاربة زنوبية • وقد حاولت أن تدافع في جنوب آسيا الصغرى ، ولـكنها خشيت أن يهاجمها الساسانيون من الشرق • فاضطرت الى الانسحاب الى حمص واشتبكت مع الرومان في معركة انكسرت فيها ثم انسحبت الى تدمر • .وقد حاولت زنوبية أن تفلت من أسرها وتستنجد بالساسانيين ولـكنها لم تفلح •

أما تدمر فبعد أن فتحها اورليان عاملها معاملة حسنة مستهدفا بذلك أن يجعلها مركزا أماميا لمجابهة خطر الغزو الساساني ، فاكتفى بأن أبتى فيها حاكما رومانيا وحامية صغيرة وفرض عليها غرامة ، ولـكن تدمر سرعان ما ثارت ضده فاضطر الامبراطور الروماني الى أن يعود ثانية لفتحها ونهبها وأخذ زنوبية أسيرة الى روما حيث قضت بقية حياتها بالقرب منها •

وقد أدت هذه الحروب المستمرة الى اضعاف تدمر ، كما أن سيطرة الساسانيين على طرق التجارة الهندية أدى الى انحطاط تدمر ، فلم نعد نسمع لها ذكرا في التاريخ حتى الفتح الاسلامي حيث مر بها خالد بن الوليد فدانت له بالطاعة ، ثم لجأ اليها مروان بن الحكم واتخذها قاعدة لحركاته بعد أن اختاره الامويون خليفة على أثر عزل معاوية الثاني •

# الحضارة التدمرية

ليست لدينا معلومات واضحة عن تدمر الامنذ العصر الروماني ، حيث تكثر الوثائق التاريخية التي تعطينا تفاصيل عن التنظيمات التدمرية وتطورها.

ويبدو من هذه المعلومات ان سكان تدمر كانوا مكونين من المواطنين والعبيد والاجانب . فأما الاحرار فكانوا مكونين من عدد من العشائر ، ينتسب افراد كل منها الى جد واحد ، ولدينا من أسماء هذه القبائل : بنو انوبات ، بلتى ، بلعا ، برسعه ، جدبعل ، جنجن ، زيدبعل ، حتار ، هالا ، حنفى ، حشاش ، يديب ، قمر ، مجدات ، ميتة ، معـزيان ، عطـار ، بنى بعل ، شمعون ، شيزا ، تيم ، تيمرسون .

ولم تكن هذه القبائل متكافئة في مركزها الاجتماعي ، اذ كانت بعض القبائل تعتبر أشرف من غيرها وأسمى مكانة ، وقـد احتكرت الوظائف الادارية . الا أن كل قبيلة كانت تتمتع ببعض الاستقلال في شؤونها الخاصة ، ولها مجلس خاص ، وكانت الخصومات تحتدم أحيانا بينها . ولدينا أخبار عن منازعات حدثت بين بني قمر وبني متابول . وكثيرا ما كانت هـذه المنازعات تؤديّ الى تكوين محالفات بين القبائل المتنازعة . وأغلب أفراد العشائر كانوا يتسمون بأسماء سامية ، والقليل منهم يتسمى بأسماء اغريقية .

ولما نشطت الحركة التجارية في تدمر ، لم يقتصر التدمريون على نقل البضائع أو تزويد القوافل المارة بهم ، بل أخـذوا يقومون بالتجارة في أنفسهم . وهكذا ازداد عدد التجار فيهم ، وكونوا لهم وكلاء وجاليات في بابل وفولوكاسيا ( وهي مدينة بالقرب من الـكوفة على ما يظهر ) وكرخ ميسان ، وفي الشام والمدن الفينيقية ومصر وروما حيث كان لهم معبد خاص يقدمون فيه الذبائح . وامتد نشاطهم الى داسيا ( رومانيا الحالية ) والغال ( فرنسا ) واسبانيا . ولا ريب ان التجارة قد ساعدتهم على الاحتكاك بالاجانب ووسعت أفق نظرهم ، كما أدت الى استعمال عدة لغات في بلادهم ، فانتشرت

الآرامية والاغريقية التي كتبت بها معظم وثائقهم • كما استعملت الرومانية في مكاتباتهم الرسمية في العصر الروماني •

أما الاجانب فكان أغلبهم من الاغريق والعبيد المحررين ، ولم تكن لهم مكانة كبيرة في المجتمع ، غير أنه كان هناك عدد من الفرس ، كانوا يعتبرون من الارستقراطية ويعاملون كأنهم من أهل المدينة لا كاجانب ، كما كان هناك بعض الرومانيين وخاصة من الموظفين • وبجانب هذا كان يوجد عدد من التجار الذين يقيمون في المدينة لمدة موقتة في خانات خاصة ، ويكونون خاضعين الى موظف خاص • وتقيم الجاليات الأجنبية عادة بفنادق خاصة بها ، ولكل فندق رئيس يشرف على شؤون تلك الجالية •

وقد تأثرت أذواقهم وألبستهم وفنهم بالمؤثرات الخارجية ، فكانت ألبستهم من السراويل والاردية وهي تشبه الالبسة البارثية وزخرفتها متأثرة بالذوق الفارسي • كما أن فنونهم كانت متأثرة بكل من الفن البابلي والفارسي واليوناني •

وقد عبد التدمريون آلهة متعددة تزيد على الاربعين ، أعظمها ثلاثة هي الاله بعل الذي كان يعتبر الاهاً وطنيا ، وعبادته معروفة عند الساميين من أقدم الازمنة • ويتلو هذا الاله بعل سمين أي بعل السماء ، وكان يعتبر حامي الزراعة وأصله معبود الفنيقيين والسوريين • ثم الاله يرحيل اله القمر • وكانت هذه الآلهة الثلاثة ترسم في الغالب مجتمعة بحيث يكون الاله بعل في الوسط والاله بعل سمين في اليمين والاله يرحيل في اليسار ، وكانت تعبد عادة مجتمعة في معبد واحد • وفي زمن الرومان ازدادت مكانة الاله بعل سمين ، وصار يوصف بالاله الطيب الرحيم ، وأخذ يناص بعلاً في مكانته ، وهناك اشارة الى ملك بعل وهو كالرسول للآلهة •

وبجانب هذه الالهة عبد التدمريون الاله شماش وعشتروت وانينا ونرجال وهي آلهة بابلية الاصل • كما عبدوا الالهين حداد وعشتروت

السورية ، والشمس واللات وغى القوم وارسو ( وكان يعتبر حامي القوافل ويرسم على هيئة جمل ) كما عبدوا الاله العزيز ( وكان يمثل نجمة الصباح وشكله جميل ويعبد عادة مع اله الشمس ) واكلبول •

اما رجال الدين فقد كونوا طبقة قوية معقدة كان بعض أفرادها يقيم في المعابد الرئيسية والبعض الآخر يقيم في الحرم القبلية ، وكانت وظائفهم شرفية لا وراثية • وهناك اشارات الى رجال دين يرأسون الموائد الدينية ولهم عدد كبير من الاتباع • وكانت تقام عادة حفلات دينية فخمة في بعض الاعياد ، تشرب فيها الخمور وتعد فيها موائد فخمة للطعام ، كما كان دفن الموتى يجري باحتفالات تنصب فيها موائد الأكل •

ليست لدينا عن تنظيمات تدمر معلومات واضحة قبل القرن الاول حيث تكثر الوثائق • وتظهر هذه الوثائق انه كان في تدمر مجلس للشيوخ يدعى boule ومجالس للعشائر يدعى كل منها demos ، وان الاسماء اليونانية لهذه المجالس تدل على مدى تأثر تنظيم المدينة بالنظم الاغريقية • وكان مجلس الديموس يضم كافة أفراد العشائر البالغين ؛ أما البولى فكان يضم من كان يتميز بالجاه والثروة والسن ، ولهذا المجلس رئيس وسكرتير ، وللرئيس مركز هام في تمشية أمور الدولة • وفي القرن الثاني ازداد نفوذ مجلس البولى وتناقص نفوذ مجلس العشائر • ولكن في زمن أذينة تناقص نفوذ كلا المجلسين •

وكان للمدينة رئيس ( أراخون ) يتولى ادارتها وموظف يدعى متقن المدينة ، وموظف للمالية يدعى procurator ، وموظف مسؤول عن الاسواق Agoranomos وظيفته تشبه وظيفة المحتسب في الاسلام ، وموظف مسؤول عن المنازعات والشؤون القضائية Juridicus وقائد للحامية Argapad وقائد للجيش strategos ومعلوماتنا عن اختصاصاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم قليلة جدا ، وأكثرها من عهد هادريان ، فلا نعرف عن تطورها شيئا كثيرا •

كانت السلطة عادة في يد الاراخون الذي كثيرا ما كان يجمع بين هذا المنصب ومنصب الستراتيجوس • وقد ركز أذينة معظم السلطات بيده وبيد ورود الذي كان يشغل منصب متقن المدينة ويشرف على ادارة دوائر المدينة • وقد أدى تركيز السلطات بيد أذينة وورود الى اضعاف سلطة مجلس العشائر والبولى والى اضعاف نفوذ الارستقراطية •

وكانت للمدينة قوة من البوليس لحماية القوافل والطرق من غزوات البدو الذين كانوا يهددونها دائما • وهي مكونة من رماة النبال والخيالة أو الهجانة ، وتسند رئاستها عادة الى الزعماء والاغنياء • ولا نعلم فيما اذا كانت قوة البوليس هذه تجمع من أهل تدمر أم انها كانت تجمع من المتطوعه المأجورين • وهي على كل حال كانت توضع تحت حماية الالهين أرسو والعـــزيز •

وبجانب هذا كانت توجد قوة من المليشيا تعسكر عند الآبار والمناطق الهامة من الصحراء • وفي عهد الاضطرابات والحروب كانت تنشأ قوة أخرى يقودها الستراتيجوس لتشترك في الحروب والدفاع عن المدينـــة والقيام بحملات • ولدينا نقش يذكر أن الـكردوس الواحد والعشرين كان مرابطا في دورايوروبوس ( الصالحية ) ، ولـكننا لا نعلم فيما اذا كان معنى هذا انه كان للتدمريين أكثر من عشرين كردوسا أم ان كلمـــة الـكردوس لها مفهوم خاص عندهم ، أو ان الـكردوس الواحد والعشرين لا يعني انه كان هناك ٢١ كردوسا •

لا تزال بقايا تدمر قائمة بين دمشق والفرات في منتصف الطريق بينهما تجتلب السياح اليها • وأبرز ما في هذه الآثار معبد بعل ، وهو مقام على مرتفع من الارض أمامه قوس هائل وطريق عريض طوله ١٢٤٠ ياردة وعلى جوانبه ٣٧٥ عمودا طول كل منها ٥٥ قدما ، ولا يزال قائما منها ١٥٠ عمودا منحوت معظمها من المرمر الابيض وبعضها من الجرانيت السماقي ،

وكانت هذه الاعمدة مرتبطة ببعضها • وهذا الطريق هو الشارع الرئيسي في المدينة وتتفرع منه الطرقات الفرعية وعلى جوانبه الحوانيت والمخازن المفعمة بالبضائع •

ولا ريب ان معبد بعل لم يكن المعبد الوحيد في المدينة ، بل هناك عدة معابد أخرى منبثة فيهـــا كانت مبنية بالحجارة وتزينها مختلف النقوش والصور وبعض التماثيل • كما أن هناك عددا من الخانات التي تنزل فيها القوافل ويقيم فيها الاجانب ، وهي أبنية ضخمة واسعة • اما المقابر فلا تزال بقايا بعضها قائمة في أطراف المدينة كالابراج العالية ، وفيها غرفاً منقوشة وصور ملونة ومنحوتات كثيرة • والعادة أن يدفن الميت في أعلاها • ومعظم أبنيتها الفخمة على الطراز الهلنستي •

أما بيوت الشعب فالراجح انها كانت مبنية بالطين فلم يبق من آثارها شيء •

لقد كان التدمريون يشربون من مياه الآبار ، وكانت الزراعة عندهم قليلة • ولـكن بعد تقدمهم في المدنية أعاروا الزراعة بعض الاهتمام ، فبنوا بعض السدود لحصر مياه السيول وجمعها ، ولا يزال من آثارها سد يبلغ طوله نصف ميل بنى بين تلين لحصر مياه الامطار وتكوين مستودع من الماء يكفي للزراعة •

الا ان اهتمامهم الاكبر كان منصرفا الى التجارة • وقد تحدثنا عن امتداد تجارتهم وجالياتهم في ميسان ( عند البصرة الحالية ) وفولوكاسكرته ( عند النجف ) وسلوقية ( سلمان باك ) ودورايوربوس ( الصالحية ) والشام والمدن الفينيقية ومصر وروما وداسيا ( رومانيا ) والغال ( فرنسا ) واسانيا • كما أنهم عقدوا معاهدات مع القبائل المقيمة على ضفاف الفرات ، وأعطوا بعض شيوخهم الهدايا والاموال لتأمين مرور القوافل بسلام ، ولعل دولة المناذرة قامت في الاصل بتشجيعهم لحماية الطرق التجارية خاصة بعـــد ضعف البارثيين •

وقد اكتشف نقش يبين مقـدار ضرائب الـكمرك المفروضة على البضائع التي تمر بتدمر • ويتبين من هذا النقش ان أهم هذه البضائع هي الانسجة الصوفية وصبغ الارجوان والحرير والزجـاج والعطور وزيت الزيتون والفواكه المجففة كالتين والجوز والجبن والخمر • ويستنتج من هذه القائمة المنوعة أن تجارتهم كانت تشمل منتوجات دول متعددة كالصين والهند وبابل والمدن الفنيقية وبلاد الجزيرة •

# الفصل الخامس

## الغساسنة[1]

لم يكن من الممكن لروما ، حتى بعد استيلائها على تدمر ، أن تبسط سيطرتها التامة على بادية الشام نظرا لطبيعتها الصحراوية وقلة المياه فيها ، لذلك ظلت هذه المنطقة ميدانا للقبائل العربية التي كانت تتجول فيها وتتخذ من مرابعها ديارا لها • وقد لجأ الى هذه المنطقة بعض القبائل العربية التي هاجرت من العراق فرارا من حكم الساسانيين الذين يبدوا أنهم لم يحسنوا معاملة العرب ، فهاجرت تنوخ واستقرت في الشمال ، كما سكنت قضاعة في أطراف حوران والجولان • ولسنا نعلم عن تاريخ هذه القبائل في سوريا ما يمكن الوثوق بصحته • غير أنه يبدو أن الرومان لم يسيئوا معاملتهم بل استعان بهم بعض الاباطرة في حروبهم ضد الفرس ، الا أنهم لم يعترفوا لهم بتشكيل دولة سوى الغساسنة الذين هاجروا ، على ما تقول المصادر العربية ، من اليمن ، وبعد أن أقاموا مدة في جنوب الحجاز وفي يثرب ، تقدموا الى سوريا الجنوبية وأزاحوا الضجاعمة الذين كانوا مقيمين في تلك المنطقة وعاونوا الرومان في حروبهم معاونة فعالة حملت الرومان على أن يمنحوا أمراءهم ألقابا رسمية عالية ويعترفوا لهم ببعض السيادة في المناطق التي يقيمون فيها •

وقد أراد الرومان بذلك أن يستفيدوا منهم في ضبط حدود سوريا الشرقية المفتوحة ، وأن يمدوا بواسطتهم نفوذهم على القبائل العربية ، ويجعلوهم دولة حاجزة بين سوريا والساسانيين ، ويستخدموهم لمساعدتهم في حروبهم وحملاتهم في الشرق الاوسط •

---

(١) اعتمدنا في بحث الغساسنة على كتاب نولدكه « أمراء غسان » الذي ترجمه بندلى جوزي وقسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣) بالاضافة الى كتب جرجي زيدان وفيليب حتي وجواد علي •

وليس لنا عن أصلهم وتاريخهم الاول معلومات يوثق بهـــا ، فان المؤرخين العرب غير مجمعين على تاريخهم وعدد ملوكهم وسني حكمهم ، اذ أن بعض هؤلاء المؤرخين يذكرون قائمـــة طويلة من أسماء ملوكهم لا تذكرها المصادر البيزنطية ، ولعل المصادر العربية كانت تدخل في هذه القائمة الطويلة اسماء الامراء القدماء ومشايخهم . أما البيزنطيون فاكتفوا فقط بذكر من كان له علاقة بهم ومن اعترفوا بسلطانه .

وقد أجمعت الاخبار التاريخية على أن جد هذه الأسرة هو جفنة . ولـكن لا ريب أن جبلة هو أول ملوكهم البارزين الذين اعترف بهـم البيزنطيون ، وتروى المصـــادر البيزنطية ان جبلة هذا غزا فلسطين في سنة ٤٩٧م .

وقد تلاه ابنه الحارث بن جبلة ، ويطلق عليه العرب أحيانا الحارث بن أبي شمر . وقد حارب الحارث هذا المنذر بن ماء السماء ملك الحـــيرة وانتصر عليه في سنة ٥٢٨م ، كما انه أبلى بلاءاً حسنا في قمع ثورة السامريين سنة ٥٢٩م ، وعلى أثر هذه الخدمات منحه جستنيان لقب فيلارك وبطريق ، وأقر له سلطته على القبائل العربية في أطراف سوريا ، وكان غرضه من ذلك أن يقيم خصما بوجه المنذر بن ماء السماء الذي سرعان ما هاجم سوريا وعاث فيها . وكان لقب بطريق من أسمى الالقاب البيزنطية ، اذ أن طبقة البطارقة كانت تعد عند البيزنطيين أعلى الطبقات الاجتماعية بعد الامبراطور ، وعلاقتهم بالقيصر تشبه علاقة الـكرادلة بالبابا .

وفي سنة ٥٣٨ نشبت بين الحارث وبين المنذر أمير الحيرة حرب على الارض المعروفة بـ Strata وهي الارض الواقعة قرب الطريق الممتدة من دمشق الى تدمر حتى مدينة سروج . فقد ادعى أمير الحيرة ان القبائل العربية النازلة في تلك الاراضي خاضعة لسلطته وهي تدفع له الجزية ، فنازعه الامير الغساني هذه السلطة ونشب القتال بينهما وكانت هذه الحرب

من الاسباب التي عادت فأججت نار المنازعات بين الدولتين بعد أن كادت تنطفيء •

وفي سنة ٥٤١م حارب الحارث في العراق بجانب الروم وعبر نهر دجلة على رأس جيشه ثم عاد فارتد الى مركزه السابق عن طريق أخرى غير الطريق التي اتبعها معظم الجيش البيزنطي ، ولم يحصل في حملته هذه على نتائج تذكر الامر الذي أثار شكوك البيزنطيين في اخلاصه •

ثم تجددت الحرب في سنة ٥٤٤م بينه وبين المنذر ملك الحيرة ووقع في هذه الحرب أحد أبناء الحارث في يدي المنذر فقدمه ضحية للعزي • وقد استمر القتال في فترات متقطعة بين الغساسنة والمناذرة الى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصارا حاسما في سنة ٥٥٤م في معركة قرب قنسرين قتل فيها المنذر وهي الموقعة التي يدعوها العرب يوم حليمة •

سافر الحارث في سنة ٥٦٣م الى القسطنطينية لمفاوضة البيزنطيين فيمن يخلفه من أولاده في عمالته على سوريا وفي ما يجب اتخاذه من التدابير لمقاومة عمرو بن هند ملك الحيرة • وقد اثرت مظاهر البذخ والترف في القسطنطينية تأثيرا كبيرا على الحارث ، كما انه أحدث بدوره تأثيرا قويا على سكان العاصمة وبالاخص على جوستين ابن اخي القيصر الذي كان مضطرب العقل • ولما تسنم جوستين هذا منصب الامبراطورية كان أهل البلاد يخوفونه بالحارث بن جبلة كلما أساء التصرف •

وكان الحارث بن جبلة من المؤيدين للمذهب اليعقوبي ، واستطاع أن يقنع البيزنطيين بتعيين يعقوب البردعي وثيودورس ( وهما منشئا هذا المذهب ) أساقفة في المقاطعات السورية العربية فتوطدت بذلك دعائم المذهب اليعقوبي وربما كان في تأييده لهذا المذهب مدفوعا بعوامل سياسية لان أكثرية رعيته كانوا من اتباع هذا المذهب •

وقد توفى الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩ بعد أن حكم أربعين سنة • وأعقبه في الحكم ابنه المنذر الذي بدأ حكمه بالهجوم على المناذرة وانتصر عليهم في موقعة عين أباغ التي تبعد ثلاث مراحل عن الحيرة • غير ان البيزنطيين لم يحسنوا السياسة معه وخاصة لتطرفه في تأييد المونوفستية ودبروا مؤامرة لاغتياله فثار عليهم • واغتنم المناذرة الفرصة فهاجموا سوريا وعاثوا بها فاضطر الروم على مفاوضة المنذر ومصالحته سنة ٥٧٨م •

ثم زار المنذر القسطنطينية سنة ٥٨٠م ، فاستقبل فيها بكل احترام وتبجيل ، وأنعم عليه القيصر طيباريوس بالتاج ، مع ان الروم لم يكونوا ينعمون قبلا على عمالهم من العرب الا بالاكليل • وقد وصل خبر هذه الحادثة الى اسبانيا فذكره بعض مؤرخيها المعاصرين • وقد اغتنم فرصة وجوده في عاصمة الروم فسعى للحصول على العفو عن أصحاب مذهبه وعمل على توطيد السلام بينهما •

غير أن رجال الدين في الدولة البيزنطينية ، وهم من المذهب الارثودكسي كانوا يمقتون المذهب اليعقوبي ، لذلك أخذوا يحرضون الامبراطور على المنذر وكان يساعدهم في ذلك بعض كبار رجال الدولة من المتمسكين بالمذهب الارثودكسي • وقد حدث أن قام موريسيوس حاكم سوريا بهجوم على الفرس يعاونه المنذر ، ولكنه لم ينجح فيه فعزى فشله الى خيانة المنذر ، فزاد هذا من ايغار صدور البيزنطيين عليه ودبروا مؤامرة ضده ، فأوعز الامبراطور الى ماجنوس حاكم الروم في سوريا بالقبض على المنذر ، فارسل الحاكم البيزنطي يدعو المنذر لحضور حفلة تدشين بعض الكنائس في حوارين ، فلما جاء المنذر القى القبض عليه وأرسله منفيا الى القسطنطينية ونقل منها الى صقلية حيث قضى نحبه فيها بعد أن أمضى في الحكم ثلاث عشرة سنة •

لم يكتف الروم بنفي المنذر فحسب بل عمدوا أيضا الى قطع الاعانة السنوية التي كانوا يقدمونها لاسرته ، فكان ذلك دافعا آخر لاثارة الغساسنة

فقام أبناء المنذر الاربعة وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، ثم أوغلوا تحت قيادة أخيهم الاكبر ـ النعمان ـ في الصحراء وأخذوا يشنون منها الغارات على أراضي الدولة ويسطون على أموالها وينهبونها ويعيثون في داخل البلاد فسادا ووجهوا هجمات عنيفة موفقة ضد بصري التي كانت أكبر قاعدة عسكرية بيزنطية في جنوب سوريا .

وقد اضطر القيصر طيباريوس أزاء هذا الى تجهيز حملة بقيادة ماجنوس للقضاء على ثورة النعمان ولكن ماجنوس استعمل الحيلة والدهاء فأرسل يطلب من النعمان مفاوضته ثم القى القبض عليه وأخذه أسيرا سنة ٥٨٤م .

وعلى أثر هذا الحادث تصدعت أحوال العرب في سوريا وتفككت عرى وحدتهم ، حتى اختارت كل قبيلة منهم أميرا لها . ولا ريب في أن هؤلاء الامراء كانوا من المشايخ الذين تقلص قسم كبير من سلطتهم ونفوذهم في أيام الحارث والمنذر فانسحبوا الى الصحراء أو انتقلوا الى بلاد الامبراطورية الفارسية .

ولد زوال دولة الغساسنة بعض الاخطار في سوريا ، اذ أن القبائل العربية البدوية أخذت تتطاحن وتتنازع فيما بينها ، كما أخذ بعضهم يهاجم السكان المتحضرين فينهبون مواشيهم ويدمرون مزارعهم . وقد حملت هذه الاحوال الروم على التفكير في اعادة تعيين عامل جديد مكان المنذر ، وفضلوا أن يكون هذا العامل من آل جفنة نظرا لما كان لهؤلاء الامراء في الماضي من الهيبة في قلوب جميع القبائل البدوية . غير أن المؤرخين السوريين والبيزنطين انقطعوا عن رواية أخبار آل جفنة بعد المنذر . لذلك فان المصدر الوحيد لاخبارهم هو ما جاء في دواوين الشعراء المعاصرين رغم ما في هذه الدواوين من الابهام وعدم تحديد زمان كل أمير يذكرونه .

من المصادر التي تحفظ لنا شيئا من نسب آل جفنة بضعة أبيات تنسب الى النابغة الذبياني يقول فيها :

هـــذا غلام حسن وجهه · مستقبل الخـير سريع التمام
للحارث الاكبـــر والحارث · الاصغر والاعرج خير الانام
ثم لهنـــد ولهنـــد وقـــد · أسرع في الخيرات منه امام
خمسة اباء همو ما هـــم · هم خير من يشرب صوب الغمام

فمن هذا نرى ان الشاعر يذكر في هذه الابيات ثلاثة رجال من آل جفنة وامرأتين وتختلف الروايات في البيت الثاني فمنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاعـرج والاصغر ، ومنهـم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاعرج والحارث ، ومنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاصغر والحارث الاعرج ، ومنهـــم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاصغر والحارث ، ومنهم من يذكر الحارث الاصغر والحارث الوسـط والاكبر ، مما قد يحملنا على الاعتقاد ان الاعرج هذا كان اسمه الحارث فاما اسم المرأتين فلعلهما أم الممدوح وزوجته والراجح ان الحارث الاكبر المقصود به هو ابن الحارث ابن جبلة وان الحارث الاصغر ابنه أما الاعرج فهو ابن الاصغر وأبو الغلام الممدوح •

والحارث الاصغر هذا هو الحارث الوهاب الذي مدحه علقمة في قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

طحا بك قلب في الحسان طروب · بعيـــد الشباب عصر حان مشيب

ويبدو من هذه القصيدة ان الحارث كان قد انتصر على بعض القبائل العربية وأسر كثيرا من رجالها منهم أحد أخوة الشاعر نفسه •

وقد مدح النابغة عمرو بن الحارث الاصغر في قصائد منها التي مطلعها :

اهاجك من أسماء رسم المنازل · بروضة نعمى فـذات الاجاول

وفي قصيدة :

كليني لهم يا أميمـــة ناصب · وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وقد أشار النابغة في القصيدة الاولى الى ان الحارث تهدد بني مرة بن

عوف التي كانت تنزل في شمال الحجاز • كما أشار النابغة في قصيدة أخرى الى أحد ملوكهم الذي أراد الاستيلاء على وادي القرى :

اتطمع في وادي القرى وجنابه　　وقد منعوا فيه جميع المعاشر

وهذا يدل على امتداد نفوذ الغساسنة الى شمال الحجاز وأطراف نجد•

ومن أمراء غسان كذلك النعمان بن الحارث الذي مدحه النابغة بعدة قصائد منها التي يقول فيها :

وان يرجع النعمان نفرح ونبتهج　　ويأت معداً ملكها وربيعها

كما رثاه بقصيدته التي يقول فيها :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل　　وكيف تصابى المرء والشيب شامل
بكى حارث الجولان من فقد ربه　　وحوران منه موحش متضائل

ويشير النابغة في بعض هذه القصائد الى ان النعمان فتك بقبيلة أسد ، وأراد غزو فزارة ، وكلتا القبيلتان كانتا تسكنان شمال الحجاز وفي أطراف خيبر •

وقد تلا النعمان ولداه عمرو وحجر اللذين مدحهما النابغة وأشار اليهما حسان بقوله :

ملكا من جبل الثلج الى　　جانبي أيلة من عبد وحر
اتيا فارس في دارهم　　فتناهوا بعد اعصام بقر
ثم صاحا بين غسان اصبروا　　انه يوم مصاليت صبر

ويبين البيت الاول مدى امتداد سلطانهم ، وهو دليل على مدى قوتهم •

ولما احتل الساسانيون سوريا سنة ٦١٣م قضوا على ملك بني جفنة ، ففر بعض امرائهم الى بلاد الروم والتجأ البعض الآخر الى داخل الصحراء•

ويبدو ان هرقل لما استعاد سوريا من الفرس سنة ٦٢٩م لم يرجع للغساسنة حكمهم ، وظلت الحدود السورية الجنوبية مفتوحة ، فاعتدت بعض القبائل على التجارة البيزنطية دون أن تلقى مقاومة تذكر •

تروي المصادر العربية ان الغساسنة حاربوا المسلمين مرارا بجانب الروم وان خالد بن الوليد أوقع بهم سنة ٦٣٤م في مرج الصفر جنوبي دمشق وان جبله بن الأيهم قاتل خالد بن الوليد في دومة الجندل ، واشترك في موقعة اليرموك ، الا أن الراجح ان جبلة كان أميرا من بقايا أمراء الغساسنة ولم يكن له ملك كبير ، وقد انضم فيما بعد الى العرب ، ثم عاد وانضم الى الروم بعد أن حكم عليه عمر بأن يلطم قصاصا للطمه اعرابيا عند الطواف حول الكعبة في الحج •

لقد كانت سلطة أمراء غسان تمتد على كل القبائل البدوية التي كانت تنزل في فلسطين ومنطقة الاردن وأطراف الشام •

على اننا لا نرى قط اشارة الى أن الغساسنة كانوا يمتلكون أيا من الاماكن المحصنة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش كدمشق وبصرى أو كتدمر التي حصنها جستنيان •

كانت الجابية بالجولان قاعدة ملكهم وفيها معسكرهم ومقرهم ، ومع ان المؤرخين البيزنطيين والسريان كانوا يذكرون حرثا الغساسنة أو معسكر الغساسنة ، الا انه ليس هناك دليل على أن معسكرهم هذا أصبح مدينة كالحيرة اذ كانوا يتنقلون أحيانا ، وقد اتخذوا جلق عاصمة لهم أمدا من الوقت •

يذكر حمزة الاصفهاني عددا من الابنية والقصور وقنوات الماء التي أقامها الغسانيون غير ان المصادر الاخرى لا تؤيد قائمته • ويذكر حسان بن ثابت في شعره فخامة الحياة في قصور الغسانيين ولكن لم تكشف الحفريات القليلة حتى الآن عن هذه الآثار ، ومن الجدير بالملاحظة انه لم يظهر فيهم أي شاعر ، كما ان الشعراء الذين قصدوهم قليلون ، ومع انهم دانوا المسيحية ورعوا المذهب اليعقوبي ، الا اننا نشك في عمق فهمهم لهذا الدين •

* * *

# الفصل السادس

## المناذرة[1]

لقد كانت حدود العراق الغربية مفتوحة للصحراء ، لذا كانت القبائل العربية تستطيع التوغل فيه دون أن تصادف حاجزا جغرافيا يصدها • وكانت مثل هذه الهجرات تزداد بصورة خاصة عندما تكون الحكومات القائمة في العراق ضعيفة • ولم يكن يعيق هذه القبائل حاجز ، الا نهر الفرات الذي يفصل الصحراء عن المناطق الخصبة في العراق • غير ان نفوذ هذه القبائل لا يصبح واضحا الا عندما تكون الحكومات المسيطرة على العراق ضعيفة ، حيث تستطيع القبائل العربية آنذاك التوغل الى الداخل والتمتع بنفوذ قوى ، أو أن تؤثر في أحوال السكان وطرق التجارة • ومع انه ليست لدينا أخبار دقيقة مفصلة عن هذه القبائل الا أن الاشارات القليلة المبعثرة في الكتابات تدل على مدى أثرهم •

ويبدو ان القبائل المقيمة في غربي الفرات استفادت من ضعف الدولة البارثية في أواخر عهدها ، فاخذت تتمتع باستقلال كبير • ولما كانت الطرق التجارية المارة بين سوريا والعراق عبر وادي الفرات تمر من منطقتها ، لذا اضطر التدمريون والتجار وأصحاب القوافل أن يسترضوا هذه القبائل فيدفعوا لرجالها مبالغ كبيرة لقاء حمايتهم للقوافل ، أي انهم اعترفوا ضمنيا بنفوذهم وسلطانهم •

ويروي الرواة العرب ان هذه القبائل التي استوطنت أطراف الفرات

---

(١) لا ريب أن كتاب الحيرة ليوسف غنيمة ( بغداد ١٩٣٦ ) هو أوسع ما كتب عنها باللغة العربية وعليه كان اعتمادنا •

هم من التنوخيين[١] الذين هاجروا من اليمن بعد انكسار سد مأرب • ولا ريب ان أدعاءهم هذا غير صحيح ، لان سد مأرب بقي الى منتصف القرن السادس الميلادي ، كما ان الأزد كانت تسكن بعيدا عن منطقة سد مأرب ، وليس لدينا دليل ثابت على ان أصلهم من اليمن ، أو انهم كانوا ينتمون جميعا الى قبيلة واحدة • والارجح انهم كانوا قبائل عدة استقرت « تنوخت » في وادي الفرات ، برئاسة شخصيات قوية واستغلت ضعف الدولة البارثية ، فتمتعت باستقلال ذاتي ، وقامت بحماية القوافل المارة في وادي الفرات ، وانشأت لها علاقات وثيقة مع تدمر •

ويذكر المؤرخون العرب من ملوكهم الاول مالك بن فهم وعمرو بن فهم وجذيمة الابرش[٢] الذي عاش في أواخر عهد الدولة البارثية وشهد انحلالها وسقوطها ، وقد استفاد من ذلك فوسع نفوذه على الضفة الشرقية للفرات ، كما حاول أن يمد نفوذه الى البحرين جنوبا والى بادية الشام غربا • فلما ظهرت الدولة الساسانية لم يخاصمها كما فعلت معظم القبائل العربية المقيمة بالعراق ، بل حالفها • وقد أقر له الساسانيون بالسلطة ، وتركوه يتمتع بالحكم في منطقة غرب الفرات • ولعل الساسانيين أدركوا ما يجنونه من هذه المحالفة في تأمين حدودهم الغربية وايقاف توغل البدو في العراق ، كما يحتمل أنهم أرادوا استخدامه في حروبهم المنتظرة ضد الروم •

وقد استفاد جذيمة بدوره من محالفته الساسانيين ، فأمن لنفسه صداقة الدولة القوية التي أصبحت منذ ذلك الوقت أعظم دولة في الشرق مدة أكثر من ثلاثة قرون ، وهكذا نجا من المصير الذي آلت اليه الحضر أو القبائل العربية التي قاومت حكم الساسانيين كقضاعة فأخرجت من العراق •

ويبدو ان جذيمة تأثر بالاوضاع المحيطة به فأراد أن يصبغ ملكه

---

(١) طبري ج ٢ ص ٢٧ •

(٢) طبري ج ٢ ص ٢٨ ــ ٢٩ • المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٠ فما بعد • السكري : المحبر ص ٣٥٨ •

بصبغة دينية فتنبأ وتكهن على ما يروي الطبري • وأوجد لنفسه صنمين هما الضيزنان • غير أن حكمه لم يدم طويلا ، اذ قتل غيلة على يد ملكة عربية تدعى الزباء • ومن المحتمل أن الزباء المقصودة هي ملكة تدمر ، وان كانت الروايات العربية لا تنص على ذلك صراحة • وتنسج حول مقتله قصصا طريفة لعلها أساطير مختلفة[١] •

وبموت جذيمة انتقل الملك الى ابن أخته عمرو بن عدي[٢] بن نصر الذي يعتبر مؤسس أسرة آل لخم أو آل نصر التي انحدر منها ملوك المناذرة • وقد اتبع عمرو بن عدي سياسة جذيمة في الانضمام الى جانب الساسانيين ، واستفاد من سقوط الحضر ، وهي الدولة العربية الاخرى في العراق • فأصبح أكبر أمير عربي بجانب الساسانيين ، وزاد نفوذه على العرب في العراق واتخذ مقرا له في الحيرة التي أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة المناذرة • ولا ريب ان لموقع الحيرة اهمية كبرى ، فهي تقع في مكان تقترب فيه الصحراء من طيسفون ، هذا الى انها تقع قريبة من المكان الذي يصب فيه الفرات بالبطائح ، فهي لذلك مهمة من الناحية العسكرية والتجارية حيث تتحكم في الطريق التجاري بين الصحراء وطيسفون وفي الطريق النهري المار في نهر الفرات •

وقد أعقب عمرو ابنه امرىء القيس[٣] **(٢٨٨ - ٣٢٨)** وكانت أحوال الدولة الساسانية مضطربة ، اذ هاجمها الرومان واقتطعوا منها بعض المقاطعات ، كما جرت فتن كثيرة وخلافات على العرش ، كما ان الدولة الرومانية كانت تعاني اضطرابات كثيرة • وقد ساعدت هذه الاحوال أمرىء

---

(١) الميداني : مجمع الامثال ج ١ ص ٢٤٣ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٠ فما بعد • جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٩٨ - ١٠١

(٢) طبري ج ٢ ص ٥٩ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ١٣٧ •

(٣) طبري ج ٢ ص ٦٥ •

القيس على ازدياد نفوذه وتوسيع سلطانه ، فأخضع القبائل العربية في بادية الشام والجزيرة ، كما يدل على ذلك النقش الذي اكتشف على قبره في وادي الصفا بسوريا والذي يذكر فيه انتصاراته وترجمته « هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ، الذي تقلد التاج ، وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج الى اليوم ، وقاد الظفر الى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معداً ، واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه الى اليوم • توفى سنة ٢٢٣ في يوم ٧ بكسلول • وفق بنوه للسعادة » ويقابل تاريخ وفاته سنة ٣٢٨م[١] •

وقد أعقب امرىء القيس عدة ملوك لم تكن لهم أعمال بارزة ، الا أن جاء النعمان الأعور أو السائح[٢] الذي كون له جيشا قويا مؤلفا من كتيبتين هما الشهباء والدوسر[٣] ، وقد اشتهرت الاخيرة بقوة بطشها ، ومن المحتمل انها نظمت على أسس تنظيم الجيش الفارسي • وكانت تقيم عنده في الحيرة قوة فارسية مكونة من ألف جندي ، ولا ريب أن هذه القوة العسكرية قد أعانته على تقوية نفوذه عند القبائل العربية •

وقد بنى النعمان الخورنق ، وهو قصر فخم تردد ذكره في كتب الشعر والادب العربي ، والارجح ان اسمه فارسي معناه موضع الاكل وقد ظل الى العصر العباسي ، كما بنى السدير وهو أصغر من الخورنق[٤] •

وقد دفع يزدجرد بابنه بهرام جور الى النعمان ليشرف على تربيته ، فقام بذلك خير قيام وأصبح من مهرة الصيادين • فلما مات يزدجرد وأراد

(١) جرجي زيدان ص ١٩٠ •
(٢) طبري ج ٢ ص ٧٢ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ •
(٣) الميداني ج ١ ص ١٢٤ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ طبري ج ٢ ص ٧٢ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ •
(٤) ياقوت الحموي • معجم البلدان مادة خورنق ومادة سدير • انظر أيضا ما كتبه لامنس عن الخورنق في دائرة المعارف الاسلامية ، كذلك يوسف غنيمة : الحيرة ص ١٩ ـ ٢٤ •

الفرس اقصاء بهرام جور ، أنجده النعمان بقوة مكنته من استرداد العرش ، وبذلك زادت مكانته في البلاط الساساني •

لا نعلم شيئا محققا عن نهاية النعمان ، اذ تروى الروايات العربية انه في نهاية عمره صدف عن زخرف الحياة الدنيا ، فغادر الحيرة وانطلق سائحا ، فلم يعلم أحد عن مصيره شيئا •

ولما توفي النعمان أعقبه عدة ملوك ساعدوا الساسانيين في حروبهم مع البيزنطيين ، وحاولوا توطيد نفوذهم على قبائل الجزيرة العربية ، واشتبكوا مع بعض هذه القبائل في عدة معارك • ومن أبرز هؤلاء الملوك هو المنذر بن ماء السماء[١] (٥١٤ ـ ٥٦٣) الذي عاصر حكم قباذ وساعده في حروبه الاولى ضد البيزنطيين ولكن العلاقة ساءت بينهما ، ولعل ذلك راجع الى أن قباذا كان قد ناصر المزدكية واتخذها دينا رسميا[٢] فأراد فرضها على المناذرة ، فأبى المنذر بن ماء السماء الاعتراف بها ، الأمر الذي أغضب قباذ ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو بن حجر الكندي على الحيرة • وقد لجأ المنذر الى القبائل العربية في الصحراء ، وظل عندهم الى أن مات قباذ وتولى مكانه أنوشروان فقاوم المزدكية ، ثم أرجع المنذر الى حكم الحيرة • وقد انتقم المنذر بن ماء السماء لنفسه فتتبع الكنديين ، وأثار عليهم القبائل وأوقع بهم في يوم مرينا وفي يوم أوارة • والواقع أن دولة كندة كما سنتحدث عنها فيما بعد ، انقسمت على نفسها وتفككت بعد موت الحارث ، وأتاح تفككها للمناذرة فرصة في التوسع في الجزيرة حتى أصبحوا أقوى الدول العربية في الجزيرة وأصبح اسم ملوكهم يتردد ذكره عند الشعراء •

اشترك المنذر بن ماء السماء في الحروب التي وقعت بين الساسانيين

---

(١) طبري ج ٢ ص ٨٦ ـ ٩٢ •

(٢) راجع عن حكم قباذ والمزدكية • كرستنسن : ايران في العهد الساساني : الفصل السابع (بالفرنسية) وكذلك حكم قباذ والمزدكية (بالفرنسية) •

والبيزنطيين ، فأيد الساسانيين واشتبك مع الحارث بن جبلة في عدة حروب انكسر في أولها ولكن ثأر لنفسه وأعاد الهجوم على الغساسنة فانتصر عليهم وأسر منهم أربعمائة امرأة قدمهن ضحايا للألاهةالعزى . ثم تجددت الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة الذي هاجم المناذرة واستطاع ابنه أن ينتصر على المناذرة في موقعة عين أباغ التي قتل فيها المنذر نفسه كما تحدثنا من قبل . وفي زمنه قوى نفوذ النصرانية في الحيرة ، فكانت زوجته هند نصرانية واليها ينسب دير هند ، ويقال ان المنذر نفسه تنصر . وينسب الى المنذر الغريبان ويوم البؤس والنعيم[١] .

وقد تلاه ابنه عمرو بن هند ، وكان ملكا طموحا قوي الشكيمة ، عاون الساسانيين في حروبهم ضد البيزنطيين ، واستغل اضمحلال دولة كندة ، فوسع نفوذه وسلطانه في الجزيرة ، واشتبك مع تغلب وتميم وطي بمعارك كسرهم فيها . وقد قصده عدد من الشعراء الجاهليين كطرفة والاعشى والنابغة ومدحوه بقصائد عدة ، ولكنه قتل أخيرا على يد الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم الذي لم يتحمل ، فيما يقال ، محاولة عمرو بن هند اذلال أمه .

وقد تلا عمرو بن هند على امارة الحيرة عدد من اخوته أبرزهم أبو قابوس النعمان بن المنذر[٢] الذي عاش النابغة الذبياني في كنفه ومدحه بعدة قصائد مشهورة ، كما قصده عدد من الشعراء البارزين وخاصة المنخل اليشكري وطرفة بن العبد ، ويبدو من قصائد هؤلاء مدى روعة بلاط النعمان وأثره في نفوس العرب .

وقد امتد سلطان النعمان جنوبا الى منطقة البحرين ، ولعله امتد غربا

---

(١) الميداني : مجمع الامثال ج ١ ص ١٠٧ . سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان مادة عزي .

الى جبلي طي حيث بسط نفوذه عليهم ، ويبدوا انه استفاد في ذلك من وهن أمر منافسيه الغساسنة وكانت قوافله ولطائمه تذهب الى الحجاز . وقد أدى هذا التوسع الى احتكاكه مع كثير من القبائل العربية فاشتبك مع بني يربوع في يوم طخفة كما اشتبك مع بني عامر بن صعصعه[١] .

وقد ساءت العلاقة بين أبي قابوس وبين بلاط كسرى لاسباب يختلف المؤرخون في ذكرها فمنهم من يدعي انها بسبب سجن النعمان أبي قابوس لرجل اسمه عدي الذي كان من مقربي كسرى ثم قتله ، فاستغل ذلك خصوم النعمان واوغروا صدر كسرى عليه[٢] . ولكن أبو حنيفة الدينوري ينقل في كتابه الاخبار الطوال كتابا منسوبا الى كسرى ابرويز يقول فيه « ... فان النعمان وأهل بيته واطأوا العرب وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم وقد كانت وقعت اليهم في ذلك كتب فقتلته ، ووليت الامر اعرابيا لا يعقل من ذلك شيئا » ولعل الدافع الاساسي هو ما جاء في هذا الكتاب ، وان قصة عدي ، ان صحت فقد اتخذت حجة عليه[٣] .

ألقى كسرى القبض على النعمان وسجنه وبذلك انتهى حكم المناذرة في الحيرة ، وعين مكانه رجلا من طي اسمه أياس بن قبيصة[٤] ، ويبدو ان أياساً لم يكن محبوبا ولم يتمكن من املاء مركز المناذرة ، اذ كان هؤلاء قد ثبتوا سلطانهم ونفوذهم في الحيرة ، فلم يطق أهل الحيرة احتمال أياس ، لذلك اضطر الفرس الى اسناده بحامية فارسية قوية تشد أزره ، ولكن يبدو انه لم يستطع أن يجلب القلوب اليه ، فظلوا كارهين للفرس .

أدى زوال أسرة المناذرة الى خسران الساسانيين الواسطة المهمة التي

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٤٦ - ٧ .

(٢) طبري ج ٢ ص ١٥٠ ، الاغاني ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) الدينوري : الاخبار الطوال ص ١٠٧ - ٩ .

(٤) طبري ج ٢ ص ١٥٢ ، أغاني ج ٢ ص ٢١ .

كانت تقف أمام العرب وتسيطر عليهم وتمنعهم من الاعتداء على الامبراطورية الساسانية • فلما زال هذا الحاجز وقفت القبائل العربية وجها لوجه أمام الامبراطورية الساسانية ، ولم تعد هناك قوة تصدهم ، فأخذوا يقومون بالغزوات على أطراف الحدود العراقية ، وساعدهم على ذلك الاضطراب الداخلي والحروب المتعددة والفتن والمنافسات على العرش وضعف الاكاسرة ، فتوغل بعضهم الى داخل بلاد العراق •

ولعل أهم هذه الحروب هي حرب ذي قار التي وقعت بين الفرس وبين العرب من بني بكر وخاصة شيبان • ويذكر العرب انها وقعت عقيب زوال أسرة المناذرة من الحيرة وكنتيجة مباشرة لها ، وذلك لان النعمان أودع سلاحه عند هانيء بن مسعود الشيباني فأراد كسرى استرجاعه بالقوة ولكن هانيء رفض ونشب القتال بينهما وكانت نتيجته انكسار الجيش الفارسي[١] •

ورغم صغر القوة الفارسية التي اشتبكت في القتال ، الا أن أهميتها كبيرة فهي أول اصطدام مسلح مباشر بين العرب والفرس ، وهي أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي ، مما أعطاهم الثقة بأنفسهم فجرأ القبائل الاخرى على الهجوم المباشر على بلاد الساسانيين الغنية ، وكانت بمثابة حركة استطلاعية ومقدمة للفتوح الاسلامية التي اكتسحت امبراطورية الساسانيين • فلا عجب أن يروى عن النبي انه قال « هذا يوم انتصف فيه العرب من العجم » •

وعلى أثر معركة ذي قار التي وقعت في أطراف بادية الحيرة ، أقصى الفرس أياس بن قبيصة عن حكم الحيرة ، وعينوا عليها حاكما فارسيا يحكمها بصورة مباشرة[٢] ، الا ان هذا لم يؤد الى تحسين العلاقة بين العرب والفرس •

(١) طبري ج ٢ ص ١٤٧ ، أغاني ج ٢ ص ١٣١ فما بعد ابن الاثير ج ١ ص ١٩٦ ـ ٧ •

(٢) طبري ج ٢ ص ١٥٦ ، ابن الاثير ج ١ ص ١٩٩ •

أما المناذرة فقد حاول أحد أولاد النعمان واسمه المنذر الغرور أن يؤسس له دولة في البحرين وقد نجح فعلا في ذلك وحد من توغل النفوذ الفارسي في الجزيرة العربية ، ولـكن نفوذه لم يكن مكيناً ، اذ كان لرؤساء القبائل سلطان قوي حد من سلطان المنذر ، ولما جاء الاسلام يبسط سلطانه على الجزيرة قاومه المنذر ولـكن المسلمين تمكنوا من دحـره وتشتيت قواته • فانصاعت البحرين الى الاسلام ولم نعد نسمع منذ ذلك الوقت عن المناذرة شيئا كما سنفصل ذلك في الجزء الثاني •

أما الحيرة فلم يعد لها ذكر حتى جاء خالد بن الوليد العراق فهاجمها وتمكن من احتلالها بعد مقاومة بسيطة وفرض عليها مبلغا من المال تؤديه للمسلمين • يذكر المؤرخون انه ٩٠ ألف درهم[١] وهو مبلغ ضئيل بالنسبة الى واردات العراق التي كانت تبلغ مائة مليون درهم • والواقع انهم لم يبدوا مقاومة فعلة وأسرعوا في مفاوضة خالد والاستسلام له ، وليس في الاخبار ما يظهر أنه كانت تقيم فيها آنذاك جالية فارسية ، بل ان وفـد المفاوضة مع خالد كانوا من الحيريين النصارى •

ويبدو من حوادث غزوات خالد ان الحيرة كانت آنذاك مدينة صغيرة وفيها بعض القلاع والحصون والقصور المنبثة حولها وفيها كانت المقاومة ، كما كان حولها عدد كبير من الأديرة المسيحية • هذا الى بعض الترع والقنوات التي كانت تمتد حولها والتي لابد انهـا كانت تروي الحقول والمزارع حولها •

وقد تأثرت الحيرة من انشاء الـكوفة قربها ، ولـكنها لم تندثر اذ ظلت الحياة فيها قائمـة نشطة فأفاد أهلهـا من الفتوح الاسلامية ومـن نصرانيتهم • فقاموا بكثير من الاعمال التجارية وشراء الغنائم والصيرفة وربما أعمال البنوك[٢] ، كما كانت مدينتهم مركزا للهو ومحلات شرب الخمور

---

(١) طبري ج ٤ ص ٥ •

(٢) ابن سلام : كتاب الاموال ص ٢٥٣ ، البيروني : الجمـاهر في معرفة الجواهر ص ٦٨ ـ ٦٩ •

والأنس . هذا الى أن الصناعة فيها ظلت قائمة وخاصة صناعة البسط والوشي . وقد نزلها عدد من الخلفاء العباسيين عند مجيئهم الكوفة ونظم الشعراء كثيرا من القصائد في وصفها[١] .

ولما أنشئت الدولة العباسية وبدأت حركة الترجمة قام سكان الحيرة بقسط وافر من ترجمة الكتب الى اللغة العربية ، وبهذا قدموا أساس الحركة العلمية في الاسلام ، كما أنهم قاموا بالتعليم . وتظهر الكلمات التي استعملوها في الترجمة مدى تفهمهم للغة العربية وأسرارها . ومدى قابلية اللغة العربية على الاستعمال في الفلسفة والعلوم والفنون .

## حضارة المناذرة

تقع الحيرة عاصمة دولة المناذرة في أطراف العراق في منطقة سهلة منبسطة قريبة من الصحراء ، هواؤها جاف عذب صحي ، ويجري بالقرب منها نهر الفرات الذي يتفرع في أطرافها الى عدة فروع وتأخذ منه جداول وترع تروي تلك المنطقة ، فتجعلها من أخصب مناطق العراق وأكثرها انتاجا . وكانت بعض هذه الانهار تصل الى الحيرة وخاصة نهر الحيرة ونهر برسف ونهر كافر . وتتجمع هذه الانهار في مجتمع الانهر . أو ما يدعوه الآراميون فرثا والعبرانيون حاشير[٢] وهي تصب في بحر النجف الذي كان مليئا بالماء وتصل اليه السفن البحرية فيما يذكر المسعودي[٣] . وهكذا اجتمعت في هذه المنطقة نقاوة هواء الصحراء وخصب العراق وتجارة البحر . فلا عجب أن اتخذ المناذرة مقرهم فيها ، وقد دعي هذا المقر الحيرة . وهو في الاغلب مشتق من الكلمة الآرامية حرتا ومعناها المعسكر والمقام . وهي قد تشير الى أنها كانت في البداية معسكرا لهم .

---

(١) أنظر يوسف غنيمة : الحيرة ص ١٢ فما بعد .

(٢) راجع المقال الذي كتب عن الحيرة في دائرة المعارف الاسلامية ، وما كتبه الواموزيل في كتابه « الفرات الاوسط » ص ٢٨٧ فما بعد (بالانكليزية) .

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ١٠٣ .

وقد اتخذها آل لخم عاصمة لهم . وليست لدينا تفاصيل عن أصلها أو عن تطوراتها التاريخية ، ولكن يبدو من ثنايا الاخبار عن تاريخ المناذرة ان أغلب سكانها من العرب البدو . ويقسم المؤرخون سكانها الى ثلاثة أقسام عرب الضاحية والعباد والاحلاف[١] فأما عرب الضاحة فهم من القبائل العربية التي استقرت في الحيرة أو في أطرافها . وكانت تسكن اما بيوت الشعر والخيام وتمتهن الرعي ، أو تستقر وتبني البيوت . ويطلق النسابون عليهم تنوخ ، والراجح ان تنوخ ليست في الأصل قبيلة واحدة كما يزعم النسابون . بل هي مجموعة قبائل تجمعت و « تنوخت » وكونت وحدة وعلى ممر الايام ظن النسابون انها قبيلة تربط أفرادها رابطة الدم . ولا نعلم بالضبط من هي القبائل التي اشتركت وكونت تنوخ وان كان من المحتمل أن يكونوا من مختلف القبائل المجاورة كطي وتميم وأسد وصعاليك القبائل الاخرى .

أما العباديون فهم قوم من النصارى على الارجح ينتمون الى قبائل شتى ويجمعهم الدين وعبادة الله والزهد ، ويبدو انه يشيع في تسميتهم اسم عبد . وقد عرفوا فيما بعد بنصرانيتهم وبظهور بعض الشعراء منهم كعدي ابن زيد . وقد لعب العباديون دورا كبيرا في مفاوضة خالد بن الوليد وفي مساعدة المسلمين عند الفتح الاسلامي[٢] .

أما الاحلاف فهم القبائل العربية التي حالفت المنادرة واعترفت بسيادتهم وتجولت في أطراف الحيرة أو استقرت عندها . وهم غير ثابتين ، ويتوقف عددهم على مدى امتداد حكم المناذرة وتجول القبائل ، والراجح انه في أواخر أيام المناذرة كان أهم الاحلاف تغلب التي هاجرت بعد حرب

---

(١) طبري ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) أنظر الاغاني ج ٢ ص ١١٦ ج ٨ ص ٧٦ ج ١١ ص ١٥٦ ابن أبي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ١ ص ١٣٥ ، ١٨٤ يوسف غنيمة ص ١٦ .

البسوس في أيام عمرو بن هند واستقرت على ضفاف الفرات شمال الحيرة ، وكذلك بكر وخاصة بني عجل وشيبان .

وبجانب هؤلاء فقد كان النبط وهم سكان العراق الاصليون من بقايا البابليين والسريان وكانوايمتهنون الزراعة والفلاحة[١] .

يضاف الى ذلك اليهود الذين استقروا بعد السبي البابلي في هذه المنطقة وأنشأوا لهم مدارس وكان لجاليتهم رئيس خاص ( راس جالوتا ) وفي هذه المنطقة كتب التلموذ البابلي الذي يعتبر من أعظم كتب الفقه اليهودية[٢] .

وبجانب هذا فقد أقام الفرس جالية لهم في الحيرة ، ولعل عددا من اصحاب المهن والتجار أقام فيها أيضا .

وبامتداد التجارة الحيرية انتشر الحيريون في مختلف البلاد ويروي بعض المؤرخين العرب « انك لا ترى بلدا في الارض ليس فيه حيري[٣] » . ولعل هذا الانتشار قديم ولكن مصادرنا عنه قليلة .

وقد أبدى المناذرة للساسانيين مساعدات فأيدوهم عند تأسيس دولتهم وساعدوهم في الحروب ضد البيزنطيين ، وصدوا القبائل العربية وضبطوها وحاولوا جلبها الى جانب الفرس . وقد قدر الفرس هذه الخدمات العظيمة وهذا الاخلاص ، فمنحوهم قسطا وافرا من الاستقلال ولم يتدخلوا في شؤونهم الداخلية أو يعرقلوا أعمالهم وأباحوا لهم أن ينشئوا لبلاطهم كثيرا من التقاليد والمراسيم بل أن يزدجرد أرسل ولي عهده بهرام جور ليتربى في الحيرة ، الامر الذي قوى من مركز المناذرة ومتعهم بنفوذ خاص في البلاط الساساني . بل انهم كانوا في بعض الاحيان يلعبون دورا هاما في

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) نيومان : الحياة الزراعية ليهود العراق حسب ما جاء في التلمود (بالانكليزية) .

(٣) الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص ٥١ .

الشؤون الساسانية . وقد رأينا كيف ان المناذرة كانوا العامل الاول في تغلب بهرام جور على خصومه وتسنمه عرش الاكاسرة .

وقد عزز هذا جانب ملوك المناذرة وقوى من مركزهم ونفوذهم ، وكانوا يلبسون التيجان ولعلهم كانوا يقيمون ستارة تحجبهم عن زوارهم ، فلا يظهرون شخصيا الا لأشد المقربين اليهم ، وقد اتخذوا لهم حجاباً، وكانت تحيتهم الخاصة بهم ( أبيت اللعن ) . وكانت لهم روادف وهم كالوزراء في الاسـلام . فكان الملك اذا ركب يركب الرديف وراءه واذا جلس جلس الرديف عن يمينه ، واذا شرب سقى الرديف بكأسه بعده ، واذا غاب خلفه ، وكانت الردافة مقصورة على بني يربوع . ولما أراد النعمان أبو قابوس تحويلها الى الحارث الدارمي ثار بنو يربوع عليه مما يدل على أهميتها[1] .

أما جيشهم فقد رأينا ان النعمان السائح اتخذ جيشا نظاميا كون منه كتيبتين هما الدوسر والشهباء ، فأما الدوسر فيبدو انها نظمت على الطراز الفارسي وانه كان لها قائدان كما قد يستدل من اسمها ، وقد ظلت الى عهد أبي قابوس حيث كانت تعتبر أخشن الكتائب وأشدها بطشا ، وكانت تجمع من مختلف القبائل العربية وخاصة من قبيلة بكر .

وأما الشهباء فلا نعلم عن أصلها شيئا . ويرى المؤرخون العرب ان اسمها مشتق من البياض لان جنودها كانوا بيض الوجوه . ولكن يوسف غنيمة يرى انها مشتقة من شاه باي أي موطأ الملك . فكأنها قد نظمت على الطراز الفارسي أيضا وانها كانت كالحرس الملكي . والواقع ان هذه الكتيبة كانت في زمن أبي قابوس مكونة من أخوته وبني عمه وأتباعهم وأعوانهم .

وبجانب هذا فقد كان للمناذرة الرهائن وكانوا حوالي خمسمائة رجل يأخذهم الملك رهائن من قبائل العرب ليقيموا عنده سنة ويستعملهم في حروبه وغزواته . وهم يتبدلون كل سنة .

---

(١) اغاني : ج ١٢ ص ١١ . ياقوت ج ٣ ص ٥١٩ .

ثم الصنائع وكانوا خواص الملك والمقربين اليه وهم من بني قيس بن ثعلبة وبني تيم اللات من بكر ولابد ان هؤلاء قد نشأوا مؤخرا أي بعد هجرة بكر الى أطراف العراق .

ثم الودائع وهم حوالي ألف رجل من الفرس يضعهم كسرى تحت تصرف ملك المناذرة في الحيرة ويبدلون كل سنة[١] .

لقد رقيت الصناعة في الحيرة رقيا كبيرا فازدهرت فيها صناعة الانسجة . وقد ذكر عدد من الشعراء في أشعارهم نساجي الحيرة فقال عمرو بن كلثوم :

واذ لا ترجى سليمى أن يكون لها   من بالخورنق من قين ونساج

كما اشتهرت الحيرة حتى العهد الاسلامي بالوشي بالقصب والتطريز بخيوط الذهب واشتهر عندهم أيضا نسيج الانماط والنطوع الحارية وقد ذكرت في الشعر أيضا فقال النابغة :

والأدم قد خيست فتلا مرافقها   مشدودة برحال الحيرة الجدد

وقال آخر :

عقما ورقما وحاريا يضاعفه   على قلائص أمثال الهجانيع

وقال امرؤ القيس :

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا   الى كل حاري جديد مشطب

واشتهرت أيضا صناعة الاسلحة فاكتسبت السيوف الحيرية سمعة بين العرب . كما ان الصاغة لابد وانها ازدهرت لتموين بلاط المناذرة بحاجاته من الحلي والزينة والأدوات وكذلك لتموين الناس بما يحتاجونه . . . .

وقد عرفوا كذلك في النجارة والتنجيد ، وفي صناعة الخزف وأواني الفخار والنقوش[٢] . وان المكتشفات التي ظفرت بها بعثات الآثار في الحيرة وخاصة بعثة تالبوت رايس ورتلنكر لخير دليل على تقدمها فالآثار

---

(١) الميداني : ج ١ ص ٨٧ انظر ايضا غنيمة ص ٩٨ .
(٢) راجع عن صناعة الحيرة ما كتبه يوسف غنيمة ص ٨١ ـ ٩٥ .

التي كشفوها في أطلال الحيرة سنة ١٩٣١ وجدوا أن معظم الغرف مزينة بزخارف من جص منقوش نقوشا جميلة ، ومصبوغ بألوان لطيفة بهية ، وأغلبها زخارف من رسوم الازهار والفواكه والبقول • وهي مزيج من الطراز الفارسي والروماني(١) •

أما البناء فقد رقى رقياً عظيما ، فبنوا كثيرا من القصور وأهمها الخورنق الذي بناه النعمان الاعور لكي يقيم فيه بهرام جور • وقد أكثر الشعراء والكتاب من ذكره ونسجوا حول بنائه الأساطير • وقد بقي هذا القصر حتى العصر العباسي ولكن ليست لنا تفاصيل وافية عنه •

أما السدير فقد تردد ذكره أيضا مقرونا بالخورنق وكان على ما يقال مكونا من ثلاث غرف ولعله أساس طراز البناء الاسلامي المعروف بالحيرى ذي الكمين • والذي يتكون من ايوان في صدره غرفة وفي جانبيه غرفتين وهو الذي ظل مستعملا في العراق حتى السنوات الاخيرة •

وبجانب هذا توجد قصور أخرى منها قصر سنداد • والقصر الابيض وقصر الفرس وقصر الزوراء التي بناها النعمان المنذر • وقصر العدسيين وهو أول ما فتحه المسلمون(٢) ، وقصر بني بقيلة ، هذا بجانب عدد كبير من الاديرة(٣) • وقد ذكرت معظم هذه القصور عند الفتح الاسلامي •

عبد سكان الحيرة الاول الاصنام ، فقد روي أن جذيمة الابرش قد تكهن وكان له صنمان يدعيان الضيزنين(٤) • وقد ظل هذان الصنمان

(١) لقد نشر تالبوت رايس نتائج حفرياته في مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسط سنة ١٩٣٢ •

(٢) طبري ج ٤ ص ٥ فما بعد • انظر ايضا ياقوت : معجم البلدان مادة قصر ويوسف غنيمة ص ١٩ ـ ٢٩ •

(٣) عن أديرة الحيرة انظر الشابشتي : كتاب الديارات طبع كوركيس عواد ، وياقوت الحموي مادة دير ويوسف غنيمة ص ٤١ ـ ٤٩ •

(٤) طبري ج ٢ ص ٢٩ ـ ٣٠ •

حتى أيام المنذر بن ماء السماء حيث نقلهما وأقامهما على باب الحيرة[١] ، ينحني لهما الداخلون الى المدينة • كما كانوا يحلفون بسند وهو صنم كان في الحيرة[٢] • ولا نعلم تفاصيل عن هذه الآلهة أو عبادتها • وبجانب هذا فقد كانوا يعبدون العزى ، وقد رأينا كيف ان المنذر بن ماء السماء ضحى لها بأربعمائة من الاسيرات الغسانيات •

وقد امتدت اليهم بعض الاديان الفارسية ، فقد حاول قباذ نشر الديانة المزدكية ، ولما حاول المنذر مقاومته اقصاه عن الملك وأتى بالحارث الكندي مكانه كي يعينه هذا على نشرها ، ولكن ذلك لم يدم اذ أن أنو شروان أعقب قباذ فاضطهد المزدكية وأعاد المنذر الى العرش • ومن المحتمل أن الزرادشتية كانت موجودة خاصة بين الجالية الفارسية وربما دان بها بعض سكان الحيرة •

على ان أهم الديانات التي انتشرت في الحيرة هي المسيحية • ولاشك ان بداية التبشير المسيحي في العراق ترجع الى القرن الاول المسيحي ، حيث جاء اثنان من تلامذة المسيح لنشر الدعوة فيه ، وانشآ لهما مقراً في كسكر ( عند واسط ) •• وقد أخذت المسيحية تنتشر ببطء نظرا للعقبات التي كانت تواجهها ، وقد امتدت الى الحيرة • ويدعي الطبري ان امرىء القيس أول من تنصر من ملوك الحيرة • ولكن أخبار تنصر الملوك لا تأتي واضحة الا من عهد المنذر بن ماء السماء الذي يقال انه تنصر وبنى عددا من الاديرة وتزوج بهند وهي نصرانية ينسب اليها دير هند •

وقد حدثت منافسة بين النساطرة واليعاقبة على اجتذاب الحيريين اليهم ، ولكن النساطرة تفوقوا على اليعاقبة ، فانتشر مذهبهم ، وكان لهم في الحيرة اسقفية واشتركوا في المجامع الكنسية التي كانت تعقد في طيسفون مركز

---

(١) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٠٤ •

(٢) اغاني : ج ٢ ص ٢٠ •

البطريركية • على ان اليعاقبةأنشأوا لهم أيضا مركزا دينيـــا في عاقولا ( الـكوفة ) في طرف الحيرة[١] •

ومن مظاهر انتشار المسيحية في الحيرة كثرة الاديرة التي كانت منبثة في أطراف الحيرة وقد ذكر في الاخبار أكثر من عشرين ديراً فيها • وقد كشف الحفريات عن آثار عدد من هذه الاديرة والآثار المسيحية • وكانت هذه الاديرة مراكز للتعليم الديني ، فتخرج منها عدد من رجال الدين المسيحيين الذين احتلوا مكانة عظيمة في تاريخ الـكنيسة ، ولابد ان هذا قد ساعد على رقي نظام التعليم عندهم ، ولدينا بعض الاوصاف للنظام التعليمي في الحيرة من القرن الثاني الهجري حيث كان يتميز باستعمال المختصرات وطريقة الاسئلة والاجوبة[٢] •

وكان التعليم الديني يتطلب معرفة للفلسفة ومباحثها التي تتعرض للخالق وطبيعته وصفاته وطرق المعرفة ، لذلك أخذوا يتداولون الابحاث الفلسفية ويدرسون الفلسفة اليونانية التي كانت قد عالجت هذه المواضيع • والواقع انهم درسوا وترجموا كثيرا من الـكتب الفلسفية والدينية الى اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم • ولما بدأ العرب بحركة الترجمة الى العربية في العصر العباسي الاول ، قام سريان الحـيرة بالدور الاول فيها • فنقلوا مئات الـكتب ، حتى ان حنين وحده ينسب اليه ترجمة أكثر من مائة كتاب الى العربية • ولم يكن عملهم مقصورا على الترجمة فحسب بل

---

(١) عن المسيحية في الحيرة أنظر : لابور : المسيحية في الشرق في العهد الساساني •
ناو : العرب النصارى في الجزيرة وسوريا في القرن السابع والثامن •
كرستنسن : ايران تحت حكم الساسانيين (وكلها بالفرنسية) •
يوسف غنيمة : الحيرة ص ٢٦ فما بعد •
اوليري : جزيرة العرب قبل محمد ص ١٢٥ ـ ١٥٠ (بالانكليزية) •

(٢) أنظر ما كتبه ماكس مايرهوف في مقدمة كتاب المقالات العشـر في العين لحنين بن اسحق والفصل الذي كتبه في كتاب تراث الاسلام عن الطب والعلوم •

وعلى الشرح والتأليف والدرس ســواء في الفلسفة أو الطب أو العلوم الاخرى ، وهكذا كان لهذه المدينة الأثر الاول في نقل تراث الفكر اليوناني الى العــرب وفي ترويض اللغــة العربية وجعلها أداة ممتازة للتعبير عن الفلسفة والعلوم[1] .

## ملوك المناذرة اللخميين[2]

| اسم الملك | مدة حكمه | |
|---|---|---|
| | يوسف غنيمة | كوسن دي برسمال |
| ١ - عمرو بن عدي | ٢٦٨ - ٢٨٨ | ٢٦٨ - ٢٨٨ |
| ٢ - امرىء إلقيس الاول | ٢٨٨ - ٣٢٨ | ٢٨٨ - ٣٣٨ |
| ٣ - عمرو الثاني | ٣٢٨ - ٣٧٧ | ٣٣٨ - ٣٦٣ |
| ٤ - أوس بن قلام العمليقي | ٣٧٧ - ٣٨٢ | ٣٦٣ - ٣٦٨ |
| ٥ - امرىء القيس الثاني | ٣٨٢ - ٤٠٣ | ٣٦٨ - ٣٩٠ |
| ٦ - النعمان الاول السائح | ٤٠٣ - ٤٣١ | ٣٩٠ - ٤١٨ |
| ٧ - المنذر الاول | ٤٣١ - ٤٧٣ | ٤١٨ - ٤٦٢(**) |
| ٨ - الاسود | ٤٧٣ - ٤٩٣ | ٤٧١ - ٤٩١ |
| ٩ - المنذر الثاني | ٤٩٣ - ٥٠٠ | ٤٩١ - ٤٩٨ |

(١) راجع الفهرست لابن النديم ففيه قائمة طويلة بأسماء ما ترجم الى العربية .
ماكس مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد (فصل في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية) .
احمد أمين : ضحى الاسلام : الجزء الاول

(٢) نقلنا هذين الجدولين من كتاب الحيرة ليوسف غنيمه ص ٢٤٢ - ٣ ، وهي تطابق القائمة التي اوردها جرجي زيدان في كتابه (ص ١٨٥ - ١٨٦) .

(**) يضيف برسيفال ملكا اسمه النعمان قبل حكم الاسود (٦٢ - ٤٧١) حكم الحارث الكندي بين ٥٢٩ - ٥٣١ .

| اسم الملك | مدة حكمه | |
|---|---|---|
| | يوسف غنيمة | كوسن دي برسفال |
| ١٠- النعمان الثاني | ٥٠٠ – ٥٠٤ | ٤٩٨ – ٥٠٣ |
| ١١- أبو يعفر علقمة | ٥٠٤ – ٥٠٧ | ٥٠٣ – ٥٠٥ |
| ١٢- امرىء القيس الثالث | ٥٠٧ – ٥١٤ | ٥٠٥ – ٥١٣ |
| ١٣- المنذر الثالث بن ماء السماء | ٥١٤ – ٥٦٣ | ٥١٣ – ٥٦٢ |
| ١٤- عمرو بن هند | ٥٦٣ – ٥٧٨ | ٥٦٢ – ٥٧٤ |
| ١٥- قابوس | ٥٧٨ – ٥٨١ | ٦٧٤ – ٥٧٩ |
| ١٦- فيشهرت | ٥٨١ – ٥٨٢ | —— |
| ١٧- المنذر الرابع | ٥٨٢ – ٥٨٥ | ٥٨٠ – ٥٨٣ |
| ١٨- النعمان أبو قابوس | ٥٨٥ – ٦١٣ | ٥٨٣ – ٦٠٥ |
| ١٩- المنذر الغرور | ٦٢٨ – ٦٣٢ | ٥١٤ – ٦٣١ |

# الفصل السابع

## كندة[1]

لقد نشأت كندة في الجزيرة العربيـــة وبسطت نفوذها على القبائـل الموجودة فيها بالمحالفات والمصاهرات أو بالقوة • وحاولت توحيد هـــذه القبائل ونشر السلم والامن • وقد امتد حكمها فترة من الزمن الى الحيرة نفسها ، كما ظهر فيها أعظم شاعر جاهلي وهو امريء القيس •

ويبدو من اسمائهم «شرحبيل ومعد يكرب» • أنهم في الاصل من جنوب الجزيرة العربية ، ويؤيد هذا قول امريء القيس :ـ

تطاول علينا الليل دمون    دمون انا معشر يمانون    وانا لاهلنا محبون

وليس لدينا معلومات عن أصلهم أو البلد الذي جاءوا منـه ، اذ أن النقوش والمصادر الاغريقية لا تذكر بوضوح اسم قبيلة كندة في الجنوب ، سوى نقش في مأرب يذكر قبيلة اسمها (كدت) تقطن حضرموت ، الا أنـه من الصعب الجزم بأن المقصود بهم قبيلة كندة • ومع اننا نعلم ان قبيلة كندة كانت تسكن عند ظهور الاسلام في حضرموت ، الا ان هذا لا يستلزم حتماً أن يكون أصل كندة من حضرموت اذ يجـوز أن تكـون قد جاءت الى حضرموت بعد سقوط دولتهم •

أما الاخبار العربية عن نشأتهم فمتباينة اذ أن ابن خلدون يروي أن

---

(١) اعتمدنا في البحث عن كندة على ما كتبه أبو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني ج ٨ ص ٦٠ ـ ٧٣ وابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء ص ٣٧ ـ ٥٦ ، واليعقوبي في كتاب التاريخ ج ١ ص ١٧٦ ـ ١٨١ ، وعلى كتاب أو ولندر عن « مملـكة كندة وأسرة آكل المرار » (بالانكليزية) •

التابعة حاربتهم ، وأما ياقوت الحموي فيروى ان حرباً نشبت بين حضرموت والسكون وكندة انكسرت فيها كنـــدة واضطرت الى الانسحاب • وقـد أدى انكسارها الى التفافها حول ملك واحد[1] ، ولكن ليس في النقوش ما يؤكد هذه الاخبار • ولعل الكنديين كانوا في جنوب اليمن ثم هاجروا بعد الانحطاط الذي أصاب اليمن من جراء تحول الطريق التجاري • غير اننا لا نستطيع أن نعين بالضبط زمن هجرتهم سوى اشارة في معجم البلـدان لياقوت يذكر فيها عدة ملوك سبقوا حجر بحوالي قرن أو قرن ونصف من الزمن ، ولما كان حجر قد ظهر في القرن الخامس ، فتكون أول هجـــرة الكنديين في منتصف القرن الثالث الميلادي •

وليس لدينا من أخبار ملوكهم الاول شيء سوى أسماء وسني حياتهم التي يذكرها اليعقوبي • فهو يقول بأن مرتع بن معاوية حكم (٢٠) سـنة وابنه ثور مات في سن مبكرة ثم تلاه معاوية ثم الحارث الذي حكم (٤٠) سنة ثم وهب الذي حكم (٢٠) سنة •

ويجمع المؤرخون العرب على أن حجراً كان أول ملوكهم ، ولكننـا لا نعلم شيئاً ثابتاً عن كيفية تعيينه فان ابن الكلبي يقول بأن تبعاً عينه عندمـا كان في طريقه الى العراق • ويروى ايضاً بأن حسان تبع هو الذي عينه ، غير اننا لا نعلم بالضبط من هو حسان تبع • ولعـــل كلمـــة تبع كانت لقباً للملوك العظام ، ومهما يكن فان هذه الروايات تدل على وجود علاقة قوية بين كندة ودولة حمير •

ويبدو أن حجراً وسع سلطته بطريق الزواج ، فيروى ابن الكلبي بأنه تزوج هند بنت ظالم بن وهب بن الحارث ، كما تزوج بامرأة من حمير وبزوجة ثالثة هي أم أياس بنت عوف بن محلم الشيباني •

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٧ •

وكان موضع مملكة حجر الكندي بنجد ما بين طحيه وهي هضبة بنجد الى حمى خربة الى دارة جلجل ثم العقيق الى بطن نخلة الشامية الى حزنه الى اللقط الى افيح الى عمايه الى عمايتين الى بطن الجريب الى بملحوب[1] .

يبدو أن حجراً اتخذ مقره في غمر كندة . وقام منها بحملات ضد القبائل الساكنة في الحجاز وشمال الجزيرة العربية والبحرين بل وصل في فتوحاته الى حدود دولة المناذرة منتزعاً منها بعض أراضيهم[2] . كما أنه بسط نفوذه على بعض أجزاء اليمامه حيث عين ابنه معاوية حاكماً عليها . ومن المحتمل أن بعض الفتوحات التي روى أنه قام بها قد نسبت اليه خطأ . وانها في الحقيقة فتوحات حفيده الحارث .

ليس لدينا دليل على تاريخ حكم حجر سوى أن حفيده مات سنة ٥٢٨م ، ويمكننا أن نقدر على أساس هذا التاريخ انه عاش في الثلث الاخير من القرن الخامس الميلادي .

وقد أعقبه ابنه عمرو المقصور الذي سمي بهذا الاسم لاقتصاره على ملك أبيه ، على ما يقوله ابن الكلبي ، أي ان سلطته كانت محدودة جداً ومقصورة على قبيلة كندة ، اذ فقد سلطته على قبائل ربيعة التي ظهر فيها في هذا الوقت قائد جديد هو كليب التغلبي . على انه حافظ على علاقته الطيبة مع الحميريين ، كما كان مرتبطاً مع المناذرة بأواصر الصداقة والقربى ، فكانت ابنته زوجة المنذر بن ماء السماء وأم النعمان الاسود الذي حكم الحيرة مدة أربع سنوات .

الا أن علاقته مع الغساسنة كانت غير وثيقة . فقد اشتبك مع الحارث ابن أبي شمر في حروب قتل فيها .

وقد أعقبه الحارث بن عمرو الذي يعتبر أقوى ملوك كندة وأبرزهم ، كما ان معلوماتنا عنه أوسع وأوضح ، وقد ورد ذكره في الكتب البيزنطينية ،

---

(١) ياقوت ٢ : ٧٤٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٣٧٥ .

فيقول ثيوفانس بأن رومانوس حاكم فلسطين في عهد الامبراطور انستاسيوس كسر سنة ٤٩٧م قائدين عربيين ، فطرد الحارث بن جبلة وأسر الحارث ، وبعد أربع سنين قام أخوه معد بكرب بهجوم انتقامي على فلسطين ، الامر حمل انستاسيوس على أن يعقد صلحاً مع الحارث بن عمرو لتأمين المدن السورية • ولعل هذا الحلف موجه ضد الساسانيين والمناذرة ، ويشير ملالاس الى تاريخ وفاة الحارث •

وقد حكم الحارث مدة طويلة من الزمن تزيد على الاربعين عاماً ، وتوسط بين بكر وتغلب وعقد بينهما صلحاً انتهت بـه حرب البسوس التي دامت بينهما أربعين سنة انهكتهما جميعاً ، وقد بسط سيادته على قبيلة بكر بعد ذلك •

استغل الحارث فرصة ضعف ملوك المناذرة وسوء علاقتهم مع الساسانيين في زمن قباذ • فاستطاع أن يصبح ملكا على الحيرة مدة من الزمن بتأييد من قباذ • ويبدو أن قباذا كان يريد أن يستغل نفوذ الحارث لاخضاع القبائل العربية ، وخاصة بكر وتغلب التي أخذت تنزح الى أطراف العراق، على ان الحارث لم يتخذ الحيرة مركزاً له بل كان يتجول أطرافها ولعل ذلك راجع الى كره أهل الحيرة له ، والواقع انهم لم يذكروا اسمه في قائمة ملوكهم • ويقال أن قباذا حاول اقناعه باعتناق المزدكية ولكنه لم يفلح ، فعزله •

ثم حاول على أثر ذلك أن يتفق مع البيزنطيين ، كما تدل على ذلك الاقوال التي وصفه بها ثيوفانس وملالاس عند موته ، ولكن ليست لدينا معلومات واضحة عنه وعن علاقته بالحارث بن جبلة الذي عينه جستنيان ملكاً على العرب في دولة البيزنطيين • ويشير امرؤ القيس الى مطاردة أنو شروان له •

الا يا عين بكى لي شنينا ... وبكى لي الملوك الذاهبينا

ملوكاً من بني حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا

فلو في يوم معركة اصيبوا ... ولكن في ديار بني مرينا

وقد ارتبط الحارث مع عدة قبائل برابطة الزواج فتزوج أم قطام بنت سلمة بن الحارث بن معاوية فولدت له حجراً ، واختها أسماء فولدت له شرحبيل ومعد يكرب ، وجاريتهما فولدت له سلمة ، كما تزوج بنت عوف بن محلم فولدت له عمرو •

ولى الحارث ابان حكمه أولاده على القبائل التي يحكمها بعد أن احتفظ لنفسه بحكم كندة • وتتفق أغلبية الروايات على انه :

عين حجراً على أسد وكنانة وغطفان ، وهم يقطنون عند وادي الرمة بين جبل شمر وخيبر •

وعين شرحبيل على بكر وحنظلة والرباب وتميم ، وهم يقيمون في شرقي نجد بين الفرات والبحرين •

وعين سلمة على تغلب والنمر بن قاسط ومساكنهم بادية الشام •

ومعد يكرب على قيس عيلان وهم يقطنون في تهامة وأطراف الحجاز •

ومن هذا يتجلى مدى سعة سلطان الحارث وامتداد حكمه الى نجد وأطراف الحجاز والبحرين واليمامة •

لقد كانت مناطق حجر ومعد يكرب عند حدود الدولة البيزنطية ، لذا كانت لهما علاقة بها ، وقد ذكر ثيوفانس بأنهما قاما بحملة ضد فلسطين•

لقد كان حجر أكبر اخوته ، وكانت له بعض الاقدمية عليهم كما تدل على ذلك رواية ابن الكلبي التي يقول فيها بأن حجرا تقدم بجيش من كنانة وربيعة لاخضاع قبيلة أسد التي ثارت عليه •

وتختلف الروايات في كيفية مقتله ، فيروى ابن الكلبي والشيباني وابن السكيت ان حجراً أرسل جباتاً لأخذ الاتاوة من أسد ، فرفضت هذه القبيلة ، فتقدم اليهم حجر بجيش من ربيعة وقيس وكنانة ، وأسر رؤساءهم وقتل كثيراً منهم بالعصا ، فسموا عبيد العصا ثم نهب أملاكهم وأمرهم بترك تهامة ، ولكن عبيد بن الابرص ألقى بين يديه قصيدة استعطفه فيها ، فعفا

عنهم • ثم أن كاهناً لأسد تنبأ بموت حجر فقويت معنوياتهم وركبوا خيولهم وأعادوا عليه الكرة فقتلوه ، ودعوا كنانة وقيسا لمناصرة اخوانهم بدل أن يناصروا أجنبياً فثارت هاتان القبيلتان ونهبت متاع حجر • ويقول أبو عمرو الشيباني بأن حجراً شعر بخطر أسد فأرسل ثقله الى بعض التميميين ووعد قبيلة أسد أن يتركها اذا سمحت له بمغادرة البلاد فرضوا بذلك ولكن بعض الاسديين قتلوه في طريق عودته • ويروى ابن السكيت ان حجراً زار أباه عند موته ، ثم عاد الى بني أسد فظلمهم ، فلما سمع بنو أسد بموت الحارث أبي حجر ثاروا ضد حجر وأسروه ثم قتله علباء • ويروى ابن الهيثم أن حجراً جهز جيشاً ليحارب أسدا ولكن علباء عاجله فقتله • ويروي اليعقوبي ان علباء هذا هو قائد الاسديين •

أما ابن قتيبة فيقول بأن حجراً ظلم أسد فتذمرت منه ، وشعر بالخطر فطلب من قبيلة حنظلة المساعدة ولكن هذه اتخذت موقف الحياد ، مما أضعف مركز حجر فانكسر في المعركة ولكنه قتل أثناء هروبه • وقد أشار امرؤ القيس الى قتل علباء لحجر بقوله :

وقصده علباء بن قيس بن كاهل منية حجر في جوار ابن جدان

أما شرحبيل وسلمة فقد حكما ربيعة وتميم اللتين كانتا تقطنان شرقي نجد • وقد دب الخلاف بين الاخوين بعد موت أبيهما ، وربما كان للمنذر بن ماء السماء أثر في توسيع شقة الخلاف بينهما ، اذ يروي انه دس لكل من الاخوين من يفهمه أن الآخر يريد الاتفاق مع المنذر مما أثار ضغينتهما وقد أدى هذا الخلاف الى اشتباكهما في القتال •

أما معد يكرب فيقال أنه جن •

وقد حاول امرؤ القيس ، وهو أصغر أولاد حجر ، أن يثأر لمقتل أبيه ويسترجع الملك ويعيد شتات الكنديين ومن الغريب أن المؤرخين لا يذكرون أي أحد من اخوته حاول الثأر لمقتل حجر • وامرؤ القيس لقب به • أما اسمه الاصلي فمختلف فيه ، فهو يروي حندج أو عدي أو

مليكة أو سليمان ، وأمه مختلف في اسمها فمنهم من يقول انها فاطمة أخت كليب والمهلهل التغلبيين ومنهم من يقول ان اسمها علباء . وقد ولد في بني أسد كما تدل على ذلك كثرة ورود أسماء بلادهم في شعره . وقد غضب عليه أبوه لسبب يختلف الرواة في ايراده فابن الكلبي يروي ان أباه غضب عليه لأنه أحب الشعر وابن قتيبة يروي ان سبب ذلك ما ذكره امرؤ القيس بما حدث في يوم دارة جلجل . ولعل سبب غضبه عليه تكلمه في زوجات أبيه ، فانضم الى صعاليك العرب من طي وبكر وكلب . ويروى ابن سلام بأنه التجأ بعد طرده الى عمه شرحبيل في بني دارم وظل هناك الى أن قتل شرحبيل ، أما ابن الهيثم فيدعى بأن امرىء القيس كان مع أبيه عند هجوم بني أسد عليه وانه فر على حصانه ، ويروي ابن الكلبي بأنه ذهب الى دمون في اليمامة بينما يذكر الهمداني انها في حضرموت حيث كان الكندة ثأر فيها . وقد ذكر امرؤ القيس دمون في شعره مرتين .

كأني لم ألهو بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوماً بعندل

تطاول علينا الليل دمون دمون انا معشر يمانون وانا لاهلنا محبون

ويضيف ابن الكلبي الى انه عند مقتل أبيه أرسل اليه رسول يبلغه الخبر وقد أشار الى ذلك بشعره :

أتاني وأصحابي على رأس صيلع حديث أطال النوم عني فأنعما

فقلت لعجلي بعيند ما به ابن لي وبين لي الحديث المجمجما

فقال أبيت اللعن عمرو وكاهل أباح حمى حجر فأصبح مسلما

وصيلع على قول ياقوت تقع في جنوب جزيرة العرب .

أما الهيثم بن عدي فيقول بأن امرىء القيس كان في حنظلة عند قتل أبيه ويلاحظ أن بقية أولاد حجر لم يحاولوا الثأر لأبيهم ولم ينضموا الى امرىء القيس في محاولته .

حاول امرؤ القيس أن يجلب تغلبا وبكرا الى جانبه وقد أشار الى الصعب بن عكابة في شعره :

يحملننا والأسـد النواهـلا     وحي صعب والوشيح الـذابلا

ويقول ابن قتيبة انه استنجد بذي جدان الحميري ولكن يلاحظ ان امرىء القيس لا يشير في شعره الى أي حميري •

ومهما يكن فقد عرفت قبيلة أسد باستعدادات امرىء القيس ، وحاولت تفادي الحرب ، فأرسلت كبار رجالها يسترضونه ولكنه امتنع عن مقابلتهم ثلاثة أيام فلما سألوا عن السبب أخبروهم بأنه يستعد للحرب • ويقول ابن الكلبي بأن بني أسد لما قطعت أملها من استرضائه هاجرت من دارها فلم يلقها امرؤ القيس وهاجم كنانة للثأر من أبيه وقد اشار الى ذلك بشعره :

ألا يا لهف هند أثر قـوم     هم كانوا الشـفاء فلم يصابوا

وقاهـم جدهم ببني أبيهـم     وبالاشقين ما كـان العقـاب

وأفلتهـن علبـاء جريضـا     ولو أدركـه صنر الوطـاب

وقد لحق امرؤ القيس بأسد وقتل بعضهم ، ولكن بكرا وتغلبا أبتا أن تستمرا بمطاردتهم لانهما رأتا انه قد أخذ بثأره • وقد ذهب امرؤ القيس الى أزد شنوءة يطلب معونتها فرفضت معاونته ضد حليفتها أسد فذهب الى مرثد ذو جدن أحد أقيال اليمن • ولكن مرثدا مات وخلفه قرمل الـذي تلكأ في ذلك وحاول أن يصده فقال :

واذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا     واذ نحن لا ندعى عبيداً لقرمل

وقد اضطر قرمل بعد هذا أن ينجده بقوة سار بها للانتقام من أسد • وقد مر بوادي بنشة فوقف يستخير ذا الخلصة • فلما كانت الاستخارة ضد ما يريد ضرب الصنم وقال :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا     مثلي وكـان شـيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ولكنه لم يستطع أن ينتقم من أسد لان المنذر بن ماء السماء كان قد

بسط نفوذه على الجزيرة فاحتمت به أسد ، وخشي من معه من الجيش بطش المنذر وتفرقوا الا عدداً قليلاً من المخلصين ، فأخذ يتنقل في القبائل يطلب معونتهم وعونهم دون جدوى ، فذهب الى أياد وطي وجديلة ونبهان والى السموأل الذي أشار عليه بالذهاب الى امبراطور البيزنطيين . وقد أشار في شعره الى استنجاده بالعشائر ، وخاصة المعلى الجديلي :

كأني اذ نزلت على المعلى  نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى  بمقتدر ولا الملك الشامي
أصد نشاص ذي القرنين حتى  تولى عارض الملك الهمام
أقر حمى امريء القيس بن حجر  بنو تيم مصابيح الظلام

وقد سار الى القسطنطينية مارا ببعلبك وحمص وحماه وشيزر كما ذكر ذلك في شعره :

لقد انكرتني بعلبك وأهلها  ولابن جريج كان في حمص أنكرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى  عشية جاوزنا حماة وشيزرا

لا يذكر امرؤ القيس فيما حفظ من شعره شيئاً من مقابلته للقيصر ولكن الكتب العربية تروي بأن قيصر تلكأ في مساعدته ، وكان في القسطنطينية بعض أنصار بني أسد أثاروا عليه القيصر ، فأعطاه حلة مسمومة تسمم جسمه منها بعدما لبسها . ولا ريب ان على حديثهم هذا مسحة اسطورية وهو يدل على ان القيصر لم ينجده فمات هناك . ولعل القيصر لم يرد أن يغامر بارسال جيش مع عربي ليس له من يسنده ليحارب لمصلحة هذا العربي فقط ، لا لمصلحة الروم أنفسهم . هذا الى ان الغساسنة كانوا لما يزالوا محالفين للروم يقومون لهم ببسط النفوذ على القبائل ويعينوهم في حربهم ضد المناذرة والساسانيين .

لا تدل الاخبار على انه كان لكندة مستوى راق من الحضارة المادية ، أو انهم ادخلوا الى الجزيرة دينا أو ثقافة جديدة . كما ان نظمهم البدوية

لم تكن تختلف كثيراً عن نظم القبائل الاخرى . غير انهم انتجوا أعظم شاعر عربي جاهلي هو امرؤ القيس الذي أدخل في الشعر العربي فنوناً وأبواناً جديدة . ولا ريب ان ظهوره في كندة يدل على ان الحركة الادبية ونظم الشعر كان راقياً فيها ومن المحتمل انهم كانوا موئل الشعراء وملجأهم . فلما انقرضت دولتهم توجه الشعراء صوب المناذرة يقصدونهم . والواقع ان كل الشعراء الجاهليين البارزين نشأوا في مناطق كانت كندة تبسط نفوذها عليها . هذا الى أن هؤلاء الشعراء لم يقصدوا المناذرة الا بعد سقوط دولة كندة .

لم يحاول الكنديون في تنظيمهم السياسي أن يغيروا النظم السياسية القبلية ، فتركوا كل قبيلة تحتفظ بتنظيماتها وتقاليدها بل ورؤسائها مكتفين بالاعتراف برئاستهم العليا، وبذلك كونوا نوعاً من الاتحاد Confederation كانت كندة رأسه ومنظمته وموجهته ، فنظامها الذي اتبعته اقرب الى مجلس هيئة الامم ، أدى الى نشر الامن والسلم والحد من الخصومات والحروب الطاحنة في الجزيرة . فلما انقرضت دولة كندة حلت دولة المناذرة محلها مدة قصيرة ثم سقطت فتفككت القبائل البدوية واستقل كل منها في شؤونها الداخلية وأخذت تتبع مصالحها الخاصة ، وكثيراً ما كانت تحارب القبائل الاخرى . مما أدى الى اضطراب الامن والنظام وأرهاق كثير من القبائل وتركها بحالة اعياء الامر الذي ساعد الاسلام في محاولته لضم الجزيرة العربية اليه .

# الفصل الثامن

# مكـــة

**اهميتهـــا :**

لمكة أهمية كبيرة في التاريخ العربي والاسلام ، فقـد ولد فيها النبي وعاش وبلغ رسالتـه لمدة عشـــر سنوات ، وكـان لأوضاعهـا الدينيـــه والاجتماعية الاثر الأكبر في تكوين آرائه ومعتقداته • فقــد أقر الاسلام بعضها ، وعدل بعضاً ، وهاجم الكثير مما كان سائـــداً فيها من معتقـدات وأوضاع • فمعرفة أحوالها اذاً ضروريـــة لفهم الاساس الذي قام عليـه الاسلام الاول • وقد كانت في مكة عند ظهور الاسلام ادارة خاصة لا تعتمد على السلطة التنفيذية بل على الاقنـاع ، كما كانت مركزاً تجـــارياً نشطاً وسع أفق نظر أهلها وأعانهم على الاطلاع على البلاد المجاورة واحوالهـا ، هذا الى انها كانت من أكبر المراكز الدينية في الجزيرة ، يؤمها عدد كبير من مختلف انحاء الجزيرة من القبائل المختلفة ، وقد ساعد هذا على اكساب أهلها سعة نظر ومرونة في معاملتهم الناس • فكانت مكـــة مدرسة دربت اداريين استطاعوا بعد الفتح الاسلامي أن يديروا الامبراطورية الجـــديدة بنجاح وتوفيق •

**مناخهـــا :**

وتقع مكة في منطقة جافة مناخها قاري حار جداً في الصيف كـــان القرشيون يعذبون بعض المسلمين الاول بايقافهم في رمضاء الصيف يبأً لهم • غير ان جفاف المناخ أدى الى جعلها صحية فكانت خالية من الأوبئة ، وخاصة الملاريا التي كان يعـــاني منها سكان المناطق ذات الميـاه الرفـيرة كخيبر ويثرب •

وأمطارها قليلة ، وقد تمر سنوات بدون أن يسقط أي مطر لذلك كانت مياهها شحيحة ، وأعتمد سكانها على مياه الآبار للشرب ، ولكن معظم هذه الآبار ذات مياه مالحة ، ومنها بئر زمزم . وقد ألقت قلة المياه على المسؤولين عن ادارة مكة عبء ايجاد المياه لها ، فحفروا فيها كثيراً من الآبار[١] ، وعينوا رجلا أودعوا له مهمة تدبير سقاية الحجيج ، وكثيراً ما كانوا يضطرون الى مزج الماء بالزبيب كيما يجعلوه صالحاً للشرب[٢] .

غير انه اذا سقطت الامطار ، وخاصة في الشتاء وأوائل الربيع ، فانها تكون غزيرة وتسيل المياه من الجبال الى الوديان والشعاب ، مكونة سيولا قوية جارفة تهدد الابنية في بطون الوديان ، وكثيراً ما كانت تجرف الكعبة، وقد حاول البعض اقامة بعض السدود لايقاف السيول كي تقي محلاتهم ، فمن ذلك ردم بني جمح وردم آل عبدالله ، ثم أقام عمر بن الخطاب سداً كبيراً استعان في بنائه بمهندسين وبنائين من الفرس[٣] .

لا تكفي هذه المياه للزراعة ، لذلك كانت مكة «في واد غير ذي زرع» الا انه قد تنبت بعض الاعشاب مدة قصيرة من السنة فتكفي لرعي المواشي ، وقد تنبت بعض الشجيرات الصحراوية في الجبال المحيطة بها . ويروى ان قصياً عندما أراد بناء الكعبة اقتطع شجيرات كانت قائمة هناك[٤] . غير ان هذه لم تكن تكفي لسد حاجة السكان في المواد الغذائية . لذلك كانوا يضطرون الى استيراد الاغذية من البلاد الاخرى وخاصة من الطائف واليمامة ، مما حعل المواد الغذائية تتوفر فيها ، وقد أشار القرآن الى ذلك « رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات » (البقرة ١٢٦) .

---

(١) الازرقي : اخبار مكة ج ١ ص ٦٤ ـ ٦٥ ج ٢ ص ١٧٢ ـ ١٨٣ خاصـة .

(٢) كذلك ج ١ ص ٦٥ .

(٣) راجع عن السدود : الازرقي ج ٢ ص ١٤٢ ـ ٤ اما عن الردم فراجع ما ذكره في ص ١٦٥ ـ ٦ .

(٤) ابن اسحق : في الطبري ج ٢ ص ١٨٤ سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٧ .

**التجـــارة :**

وقد أدت هذه الاحوال الجغرافية الى اتجاه سكانها نحو التجـارة ، وساعدها على ذلك كونها واقعة على الطريق التجـــاري البري بين اليمـن والهلال الخصيب ، وهو يفضل طريق البحر الاحمر المعرضة سفنه لخطر الجزر المرجانية الكثيرة • وقد اصبحت منطقتها حرماً مقدساً منع فيه قتل الحيوان أو قطع الشجر ، وكانت مساحته عند ظهور الاسلام تبلغ حوالي ١٢٥ ميلا مربعاً[١] • وكانت تتخذ محطة للقوافل منذ قديم الزمن ، ولا أدل على قدسية هذا المكان من تسميته في كتب اليونان باسم مكـارابو التي تعني بلغة الحميريين المقدس •

ويبدو ان أهميتها التجارية قد جلبت أنظار الدول المجاورة ، وخاصة البيزنطيين اليها ، فاستولى عليها أليوس كالوس في طريقـه الى اليمن[٢] ، كما ان قصيا عندما قام بانتزاع ملك مكة من خزاعـة ، استعان بقضاعة[٣] التي نشأ فيها والتي كانت ضمن نطاق حكم البيزنطيين ، وقد حاول أبرهة الاستيلاء عليها بتحريض من البيزنطيين كمـــا ان عثمان بن الحـويرث الاسدي اعتمد على مساندة البيزنطيين عنـــدما حاول ان يضع مكـة تحت نفوذهم[٤] • ويروي الطبري في تفسير آية « ألم غلبت الروم وهم مـن بعد غلبهم سيغلبون » ، بأن قريشاً كانت تميل الى الفرس[٥] ولعل ذلـك راجع الى ارتيابهم في نوايا الروم •

وقد أخذت أهمية مكة بالازدياد منذ القرن الخامس عندما ســقطت الدولة الحميرية بيد الاحباش ونشبت بين الفرس والبيزنطيين حروب دامية

---

(١) انظر في حدود الحرم : الازرقي ج ٢ ص ١٠٤ •

(٢) أنظر ص ١٧ •

(٣) الازرقي : ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨ طبري ج ٢ ص ١٨٣ • ويقول ابن قتيبة ان قيصر ( ملك البيزنطيين ) هو الذي أعانه ، ( المعارف ص ٢٧٩ ) •

(٤) مصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢١٠ • شفاء الغرام للفاسي ص ١٤٣ ـ ٤ •

(٥) الطبري : تفسير القرآن ج ٢١ ص ٣ ـ ٤ •

مما عرقل التجارة العالمية المارة بالعراق ، وحمل البيزنطيين على الاهتمام بطريق البحر الاحمر الذي لم يكن تحت النفوذ الساساني . ومع ان أنو شروان ارسل حملة احتلت اليمن ، الا أنه لم ينجح في ايقاف التجارة ، لان اليمن كانت بعيدة عن بلاد الفرس فلم يكن بمقدور الملك الساساني أن يوطد نفوذه فيها ويقضي على تجارة البيزنطيين . لذلك ظلت التجارة نشطة بين اليمن وسوريا تمر في مكة .

على ان المكيين لم يكتفوا بأن تكون مدينتهم ممراً للقوافل فقط ، بل ساهموا بأنفسهم في النشاط التجاري ، ولا أدل على ذلك من كثرة التعابير المالية والتجارية التي استعملها القرآن كالحساب والميزان والقسطاس والذرة والمثقال والقرض[1] ، وقد ساعدها ذلك كونها مركزاً دينياً يحج اليه سنوياً عدد كبير من العرب ، وبذلك يتيحون للمكيين سوقا تجارية للمبادله والاستهلاك . كما انهم مدوا تجارتهم الى الاقطار الاخرى في سوريا واليمن والحبشة والعراق .

**العراق :**

فأما مع العراق فقد كانت تجارتهم بصورة خاصة مع الحيرة ، والواقع ان المناذرة استطاعوا أن يمدوا نفوذهم التجاري الى أواسط وجنوب وغربي الجزيرة العربية ، وكانوا يرسلون قوافل تجارية الى الاسواق الرئيسية ومنها عكاظ ، وكانت تسمى اللطائم وهي تحمل المسك والمنسوجات ، وربما بعض المنتوجات التي يستعملها العرب . وكانوا يأخذون لها الادلاء والخفراء ويؤمنوها من هجمات القبائل الساكنة على طول الطريق التجاري[2] . وبجانب هذا فقد كان التجار المكيون أنفسهم

---

(١) لقد جمع توري وحلل « التعابير التجارية في القرآن » بكتاب موسوم بهذا الاسم (بالانكليزية) .

(٢) راجع مصعب الزبيري ص ١٣٦ الاغاني ج ١٩ ص ٧٥ ج ٢٠ ص ١٣٤ ابن سعد ج ٢ ص ٦ وقد بحث لامنس في كتابه « مكة في أيام الهجرة » (بالفرنسية) وفي مقالته عن مكة في دائرة المعارف الاسلام أحوال مكة ونشاطها التجاري بالتفصيل .

يذهبون الى الحيرة ليتاجروا معها حتى بعد انقراض دولة المناذرة ، ولدينا أسماء بعض من ذهب كأبي سفيان وابن جدعان وغيلان بن سلمة والمغيرة بن شعبة ومسافر بن ابي عمرو والحارث بن كلدة الذي يقال إنه درس الطب هناك .

**الشـــام :**

فأما مع الشام فقد كانت علاقتهم وثقى حيث كانوا يصدرون لها بضائع الهند واليمن ويستوردون منها الزيت والحبوب والخمر وربما الاسلحة والجواري والمنسوجات . والواقع انه كان في مكة عند ظهور الاسلام عدد من الاغريق العبيد والمحررين منهم صهيب وسنان وزيد بن حارثة ربيب النبي . وكانت القوافل التجارية تذهب سنوياً في الصيف ، وكل قافلة تضم اعداداً ضخمة من الرجال ، وكانت تجاراتهم تذهب الى غزة حيث دفن هاشم جد النبي ، والى أيلة وبصري ، فكانت الاولى ميناء فلسطين وربما كانت الثانية مركزاً تنقل منه البضائع الى مصر ولا يخفي انه كان للعرب تجارة مع مصر وكان المكيون يذهبون اليها كما نعلم ذلك من حياة عمرو بن العاص .

**الحبشـــة :**

ولم تؤثر غزوة أبرهة على تجارة مكة مع الحبشة كثيراً ، بل سرعان ما عادت الى الانتظام الذي كانت عليه في السابق ، فكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ورفاغا من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً[١] وكانوا يصدرون لها الادم[٢] وقد اختارها المسلمون الاول ملجأ لهم من اضطهادات قريش ، كما ذهب وفد من أهل مكة الى النجاشي يطلب ردهم.

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣١٨ .
(٢) طبري ج ٢ ص ٢٣١ .

وقد ذهب اليها عمرو بن العاص كذلك[١] . وكانت هذه التجارة تجري بطريق البحر ، فكانت الجار ميناء المدينة[٢] والشعيبة ميناء مكة[٣] . وقد تردد ذكر السفن والجواري المنشآت في البحر في القران ، كما تردد فيه ذكر تجارة البحر وما اليها . والراجح ان المكيين لم يكونوا ملاحين أو ملاكين للسفن ، ويبدو أنهم كانوا يجهلون الملاحة ويتهيبون ركوب البحر ، فأغلب السفن في البحر الاحمر لابد وان كانت مصرية أو حبشية أو عدولية[٤] (ميناء الصومال) وقد بنى القرشيون الكعبة بأخشاب سفينة حبشية تحطمت على ساحلهم[٥] ، وجاء عدد غير قليل من أهل اليمن الى الحجاز بالبحر .

**اليمن :**

أما تجارة اليمن فكانت تجري في الشتاء وكانت أغلبها من العطور والجلود والاقمشة والسيوف .

**التجارة :**

لقد اشتهر المكيون بالتجارة فمن لم يكن تاجرا لم يكن عندهم بشيء[٦] ، وقد قيل ان تسعة أعشار الرزق في التجارة . وكانت تجاراتهم متنوعة . وقد عدد بعض المؤرخين التجارات التي كان يمتهنها أشراف مكة

---

(١) طبري ج ٢ ص ٢٢٥ ج ٣ ص ١٠١ أغاني ج ٨ ص ٥٢ . سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣١٨ .

(٢) ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٥ ، البكري : معجم ما استعجم ص ٣٢٥ . ابن حوقل : المسالك والممالك ج ١ ص ٣١ .

(٣) انظر عن الملاحة البحرية عند ظهور الاسلام كتابي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٢٢٤ فما بعد .

(٥) طبري ج ٢ ص ٢٠٠ الازرقي ج ١ ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ .

(٦) أغاني ج ١١ ص ٦٧ .

فهي منوعة فمنهم تاجر الارز والحبوب والخياطة والحياكة والخمر والزيت والاسلحة والسيوف والنبال[١] . ولم تكن التجارة مقصورة على الرجال بل شاركت فيها النساء ، ولعل أبرز مثل على ذلك خديجة زوجة النبي وهند بنت عبدالمطلب . وقد نقل المهاجرون مهارتهم في التجارة معهم الى المدينة فجعلوها مركزاً تجارياً ينافس مكة بعد أن كانت بلداً زراعياً . وقد ضرب المثل بمهارة بعضهم في التجارة فقيل عن عبدالرحمن بن عوف انه كان يحصل الذهب من الحجارة[٢] . ورغم انهم جاءوا المدينة ولا مال لهم فقد استطاعوا بمدة وجيزة أن يحصلوا على ثروات طائلة ، فاستطاع عثمان ان يجهز في حملة تبوك الف بعير[٣] ، وجهز عبدالرحمن بن عوف عدداً من الجمال كذلك .

وكان بعض هؤلاء التجار يقوم بالتجارة لنفسه مستقلا ، ولكن الغالب ان التجارة الخارجية كان يساهم فيها عدد كبير ، فالقافلة التي هاجمها المسلمون في ذي قرد بلغ خمسها عشرين الفاً[٤] ، اي ان تجاراتها كانت حوالي مائة الف ، كما ان القافلة التي هاجمها المسلمون في بواط كانت مكونة من الفين وخمسمائة بعير[٥] ، ويقال ان القافلة التي أرادوا مهاجمتها في بدر « لم يكن من قريش بيت الا وله فيها شيء[٦] » . وكان أصحاب التجارة يسيرون مع القافلة أو يرسلون شريكاً لهم أو أجيراً ، أو عبداً ، على أن القوافل كانت تنظم بصورة اجماعية ، فيعين لها رئيس وحراس وأدلاء وأناس يعملون فيها ، هذا الى عدد من التجار الذين يرافقونها ، ويمهد لسيرها عادة باتفاقات دبلوماسية مع رؤساء القبائل التي تمر فيها

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٩ .
(٢) ابن حنبل : المسند ج ٣ ص ٢٧١ ج ٦ ص ١١٧ .
(٣) أغاني : ج ١٣ ص ١ ـ ٥ .
(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ قسم ٢ ص ٢٥ . المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢١٠ .
(٥) ابن سعد : ج ١ قسم ٣ ص ٢ . المسعودي : ص ٢٠٢ .
(٦) ابن سعد : ج ١ قسم ٢ ص ٢ .

لكي لا تنهب أو يعتـــدي عليها • وكـــذلك تجري اتصالات مع الدول التي تقصدها ، وتدعى هذه الاتفاقات بالايلاف ، وقد ذكـــرها القرآن في سورة خاصة ، ويروى ان أول من أخذ الايلاف هاشم[١] •

وكان بعض التجار يتخذون لهم شركاء بشروط مختلفة[٢] لا نعلم عن تفاصيلها شيئاً سوى شركة القراض التي يعطى فيها الغني مالا لرجـل يستعمله في التجـــارة على أن يقتسما الربح بنسبة يتفقان عليهـا • ومن المحتمل أن بعضهم انشأ له فروعا تجارية في البلاد التي كان يتاجر معهـا ، هذا الى أن بعض أهل البلاد الاخرى انشأوا لهم في مكة فروعا تجاريـــة مستقله أو بالاشتراك مع المكيين • والراجح ان أغلب الحلفاء في مكة كانوا من هؤلاء الوكلاء التجاريين ، ولدينا أسماء عدد منهم •

**الصـــيرفة :**

لم يقتصر نشاط أهل مكة على التجارة فقط بل قاموا بأعمال الصيرفة كذلك • وقد استفادوا من موقعهم المتوسط بين الامبراطورية الساسانيـــة التي تستعمل الفضة ، والبيزنطيين الذين كانت عملتهم ذهبيـــة ، فأخذوا يقومون بأعمال الصيرفة • وكان لاستقلال مكـــة أثر في اعطائهـا حريـة واسعة في مبادلة العملة بدون قيد ، اذ لم يكن يفرض على العملـة سعر رسمي ، بل كانت تقدر قيمتها بحسب وزنها باعتبارها معدناً • وهكذا كانت النقود ، وخاصة الكميات الكبيرة منها تقـــدر بالوزن كالقنطار والاوقيـة والنش والمثقـال ، وأغلب ما ورد في القرآن عن الثروات ، كان يقـــدر بالوزن لا بالعدد كالقناطير والمثاقيل • وكانت النقود التي ترد مكة فضيـة

---

(١) طبري : ج ٢ ص ١٨١ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٧ • المحبر : ص ١٦ ــ ١٧ •

(٢) ابن سعد : ج ٤ ص ٣٢ ، ٥١ ابن حنبل : ج ٤ ص ٦ • طبري : ج ٣ ص ٩٦ •

من الساسانيين واليمن ، أو ذهبية من الدولة البيزنطية(١) • ولا ريب أنه كان للدينار البيزنطي أهمية كبرى لدقة عياره وسكه وأهميته في التجارة الخارجية ، وخاصة مع الهند حيث كان يستخدم الذهب فقط في التبادل•

ولم تكن مهمة الصراف هينة • اذ كان عليه أن يكون ذا معرفة بالمعادن ليميز جيدها من رديئها ، كما كان عليه أن يعرف وزنها ، وأن يعرف الأسعار العالمية لكي يقدر سعر التبادل ، وهذا أمر ليس بالسهل •

**الربـــا :**

لقد كان المثرون يقومون بأعمال التجارة والصيرفة بمفردهم أو يكونون شركات ولم تكن أعمالهم مقصورة على نوع واحد من التجارة • بل حيثما وجدوا الربح • وفي كثير من الأحيان يقومون بالاقراض ولم يكن لهم على اقراضهم ضمان الا الثقة • اذ لم تكن هناك سلطة تجبر المدين على دفع دينه وهذا قد يحمل المدين على العصيان وعدم الدفع• لذلك قلما كانوا يقرضون البدو لصعوبة استرجاع دينهم منهم • هذا الى أنهم كانوا يفرضون فوائد عالية على ديونهم ، وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » ( آل عمران ١٣١ ) كما حرمه ووصفه « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ( البقرة ٢٧٥ ) « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله » ( الروم ٣٩ ) •

لقد كان على الدائن أن يسترجع دينه بنفسه ، وهذا لا يتم الا بعد الحاح شديد • وقد حفظ الادب العربي كثيرا من الاقوال والاشعار التي تصور الحاح الدائن وتهرب المدين •

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥١ فما بعد •

يؤمنك منها طارق كل ليلة   حثيث كما وافى الغريم المداين[١]

وكل غريم حظه جحد ماله   اذا شح يوما أو أساء التقاضيا[٢]

من أفلس الناس من دين ومن حسب   وأظلم الناس طـراً للمساكين[٣]

وقد حملت هذه المعاملة البعض على وصم التجار بأشنع الاوصاف فقالوا ان التجار هم الفجار •

**الطوبوغرافيا :**

تقع مكة في وادي طويل تحيطه الجبال من معظم الجهات وتخفيه ، حتى ان أبنيتها لا ترى للقادم الا اذا اقترب منها وأطل على الوادي ، وقد سهلت هذه الجبال على أهلها مهمة الدفاع عنها[٤] • غير ان في هذه الجبال ودياناً وشعاباً تجري فيها السيول بعد الامطار ، وكثيرا ما تهدد أبنية مكة ، وقد اغرقت الكعبة وهدمتها عدة مرات • كما ان هذه الشعاب كانت ملجأ لمن يكره أهل مكة أو يكرهونه ؛ وقد اتخذ المسلمون من بعض هذه الشعاب لهم مركزا يقيمون فيه طقوسهم الدينية وعباداتهم بمأمن من أعين النظار[٥] ، كما لجأوا اليها عندما قاطعهم القرشيون •

**السكان :**

ويرجع تاريخ مكة الى عهود قديمة ، فقد ذكرها بطليموس باسم مكرابو[٦] ، أي المقدسة مما يدل على قدم قدسيتها ، ويزعم بعض النسابين

---

(١) البكري : معجم ما استعجم ص ١٢٦٨ •

(٢) اغاني : ج ١ ص ١٣ ، ٣٧ •

(٣) البحتري : الحماسة ص ١٤١٥ •

(٤) الازرقي : ج ١ ص ٣٨ •

(٥) ابن هشـام : السيرة ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ الطبري : ج ٢ ص ٢٣١ ( عن ابن اسحق ) •

(٦) جغرافية بطليموس الكتاب السابع ( نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية مادة مكة ) •

العرب ان آدم نزل فيها ، ويذكر القرآن ان ابراهيم نزل فيها ودعا « رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات » ( البقرة ١٢٦ ) .

وقد ورد ذكرها في القرآن باسم مكة ( الفتح ٢٤ ) ، وبكة ( آل عمران ٩٦ ) ، وأم القرى ( الانعام ٩٢ ) ( الشورى ٧ )[١] كما سماها البلد ، وقد أشار القرآن الى المناطق التابعة لها وسماها حاضري المسجد الحرام ( البقرة ١٩٦ ) .

ويذكر الطبري في تفسير هذه الآية ان حاضري المسجد الحرام هم عرفة وعرنة ومرو ضجنان والرجيع ونخلتان[٢] .

وتروي المصادر العربية انه كانت السيادة في مكة في القديم لجرهم ، ثم انتزعها منهم خزاعة ، ثم انتزع قصي السيادة من خزاعة[٣] ، وبذلك جعل لقريش المكانة الاولى ، ولكنه ترك بعض الوظائف الدينية بيد أصحابها القدماء كما سنتحدث في آخر هذا الفصل .

**قريش :**

لا نعلم تفاصيل عن مكانة قريش ونشأتها في القديم ؛ فان النسابين العرب يذكرون ان أصلهم يرجع الى ابراهيم الخليل ، حيث تحدروا من ابنه اسماعيل الذي أسكنته أمه في هذا الوادي غير ذي الزرع . ويختلف النسابون اختلافا كبيرا في شجرة النسب[٤] : ويظهر البعض ارتيابهم في القيمة التاريخية للاسماء التي تذكر بين عدنان واسماعيل .

ومهما يكن فان القبائل الشمالية كلها تحدرت من نسل اسماعيل ، كما اختلفوا في تعين أول من سمي باسم قريش ، وفي معنى هذه الكلمة ،

---

(١) انظر أيضا عن أسماء مكة : ابن المجاور ، المستبصر : ج١ ص٢ .
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن : ج ٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .
(٣) الازرقي : ج ١ ص ٥٩ ـ ٦١ ، ابن سعد : الطبقات ج ١ ص ٤٠ ، ابن هشام : ج ١ ص ١١٧ ، ١٣٠ .
(٤) راجع في اختلاف النسابين الطبري ج ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٤ .

وقد اجمل الطبري ذلك في قوله « وقيل سميت قريش قريشا بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة ، وبه سميت قريش قريشا لان عير بني النضر كانت اذا قدمت قالت العـــرب قد جاءت عير قريش ؟ قالوا وكان قريش هـــذا دليل بني النضر في أسفارهم وصاحب ميرتهم ، وكان له ابن يسمى بدرا •• وقال ابن الـكلبي انما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنة ، وقال آخرون انما سمي بنو النضر بن كنانة قريشا لان النضر بن كنانة خرج يوما على نادي قومه فقال بعضهم لبعض انظروا النضر كأنه جمل قريش ، وقيل انما سميت قريش قريشا بدابة تكون في البحر تدعى القرش ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها لانها أعظم دواب البحر قوة ، وقيل ان النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس فيسدها بماله ، والقرش فيما زعموا التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يبلغهم •• وقيل ان النضر بن كنانة كان اسمه قريشا ، وقيل بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصي بن كلاب فقيل لهم قريش من أجل ان التجمع هو التقرش فقالت العرب تقرش بنو النضر أي قد تجمعوا ، أو قيل انما قيل قريش من أجل انها تقرشت عن الغارات •• وعن محمد بن سعد •• سميت قريش قريشا حين اجتمعت الى الحرم من تفرقها فذلك التجمع التقرش ، قال عبدالملك ما سمعت هذا ولـكن سمعت ان قصياً كان يقال له القرشي ولم يسم قريشي قبله[١] » •

ويتبين من هذا النص ان قريشاً ليس اسم شخص بل هو اسم سمكة أو طوطم ، أو صفة أطلقت اما على (١) قريش بن بدر بن يخلد ، ويؤكد هذه الرواية مصعب الزبيري[٢] وابن حزم[٣] • أو على (٢) النضر ويؤيد

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٧ •
(٢) مصعب الزبيري : نسب قريش ص ١٢ •
(٣) ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٠ •

ذلك ابن دريد[١] وابو الفــرج الاصبهاني[٢] والازرقي[٣] • أو على (٣) فهر ويؤيد ذلك ابن الـكلبي[٤] ، ومصعب الزبيري وابن قتيبة[٥] وأخيرا يدعى البعض انها تطلق على قصي[٦] •

**قصــــي :**

ولا ريب ان أول رئيس بارز هــو قصي الذي اســتطاع أن ينتزع السيادة والادارة المـكية من خزاعة ، بعد أن عاونته كنانة وقضاعة كمـا ستتحدث عند البحث عن نسب الرسول • وينسب اليه انه أول من قسم قريش الى بطون ، وميز بين قريش الظواهر والبطاح[٧] ، وعلى اننا لا نعلم بالضبط طبيعة وماهية هذا التقسيم ، ولا الاساس الذي استند عليه ، ولا فيما اذا كان قد اقتبسه من البلاد الاخرى أم أنه كان قائما على تنظيم القبائل القائمة في عصره ، على انه من المؤكد ان الاسماء التي ترددها كتب النسب لمن تحدر من النضر أو فهر عددها أقل مما يكفي للاعتماد عليه في القيام بحركات مؤثرة لانتزاع السيادة من خزاعة ، فان الاسماء التي يذكرونها هي أجـداد العشائر التي كانت في زمن النبي ، ولابد ان عــددا كبيرا من الاشخاص أغفلت اسماؤهم •

لقد كانت قريش عنـد ظهور الاسلام منقسمة الى قسمين : قريش البطاح وقريش الظواهر •

**البطــاح :**

فاما قريش البطاح فهي البطون التي كانت تسكن في مكة نفسها ، ويحتكر

---

(١) ابن دريد : الاشتقاق ص ١٨ •

(٢) الاغاني : ج ١ ص ١٢ •

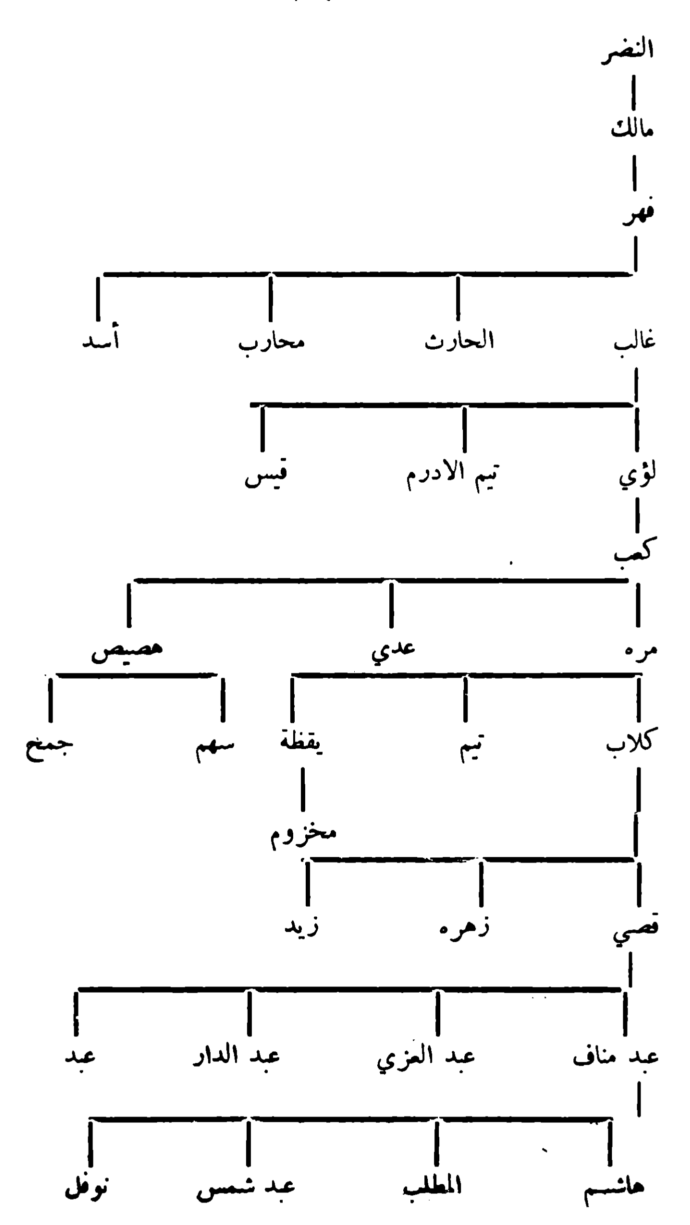
(٣) الازرقي : ج ١ ص ٦١ •

(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٨٦ •

(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ٣١ •

(٦) الازرقي : ج ١ ص ٦١ •

(٧) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ١ ص ٣٥ • المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٨ •


النضر
مالك
فهر
غالب
الحارث
محارب
أسد
لؤي
تيم الادرم
قيس
كعب
مره
عدي
هصيص
كلاب
تيم
يقظة
سهم
جمح
مخزوم
قصي
زهره
زيد
عبد مناف
عبد العزي
عبد الدار
عبد
هاشم
المطلب
عبد شمس
نوفل

رجالها الادارة والوظائف الـكبرى ، ومنهم التجار والرأسماليون والمثرون الذين كانوا يقومون بالحركة التجارية وهم فيما يروي محمد بن حبيب السكري بنو عبد مناف ، وبنو عبدالدار ، وبنو عبد بن قصي ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم ، وبنو جمح أبناء عمرو بن هصيص ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤي ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر[١] • ويحذف المسعودي من هذه القائمة بني هلال بن أهيب ، وهلال بن مالك ، ولـكنه يضيف في مكان آخر من كتابه[٢] بني هاشم بن عبد مناف ، وبني المطلب بن عبد مناف وبني الحارث بن عبد مناف ، وبني أمية بن عبد شمس ، وبني نوفل بن عبد مناف ، وبني الحارث بن فهر • ومما لاشك فيه ان هذه الاضافة الاخيرة تنطبق على عصر النبي ، وان قائمة البكري لا تنطبق كلها على زمن قصي اذ أن عبد مناف وعبدالدار وعبدهم أولاد قصي ، فلابد أنهم لم يكونوا عشائر في زمنه •

ولا ريب أنه كان هناك تداخل كبير بين هذه العشائر بنتيجة التزاوج ، وسنأخذ عن عبدالمطلب وأولاده ، عند بحثنا عنه في حياة الرسول ، مثلا يوضح مثل هذا التداخل •

كما اننا لا نستطيع أن نقدر عدد أفراد كل عشيرة ، فان كتب النسب لا تذكر لـكل عشيرة الا أفرادا قليلين ، وبعضهم لا يتجاوز أصابع اليد ، كبني عبد بن قصي ، الامر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن ما ورد في كتب الانساب من أسماء ، هي ناقصة جدا ، ولـكن المصادر التي بين أيدينا ليس فيها أي دليل على عدد من حذف أو سبب حذفه •

---

(١) المحبر : ص ١٧٦ •

(٢) مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ ، ١٧٦ •

**الظواهـــر :**

أما قريش الظواهر فهي التي كانت تسكن أطراف مكة وهم بنــو معيص بن عامــر بن لؤي ، وتيم الادرم بن غالب بن فهر ، ومحارب ، والحارث ابنا فهر ؛ ويلاحظ انه ليس لهم صوت في الاحداث التي جرت عند ظهور الاسلام أو بعده ، غير انهم على ما يقول الزبير بن بكار كانوا في الجاهلية يفخرون على أهل الحرم بظهورهم للعدو واصحارهم للناس[1] أي انهم يساهمون بالدفاع عن مكة .

وبجانب هذا كانت الاحلاف ، وهم قبائل بدوية لم تتمثل في النظام القائم بمكة ، ولم تنضم الى قبائلها ، وهم خاصة من كنانة وكانوا يشاركون المكيين في معظم حروبهم ، ويسمون الاحابيش[2] .

كما كان يقيم في مكة عدد غير قليل من الاجانب المنتمين الى عشائر أو أمم منوعة ، ولــكنهم استوطنوا مكة لاسباب متعددة ، وكثيرا ما يسكنون الشعاب ، ولبعضهم حق دخول دار الندوة[3] .

**التنظيم السياسي والرؤساء :**

لقد أدى اجتماع الناس في مكة واستقرارهم في مكان واحد الى تضحية بعض مظاهر التكتل القبلي والى ظهور الفردية ، كما يتجلى ذلك في انتشار الاسلام بين مختلف القبائل رغم معارضة المشركين كما سنتحدث في الفصل الخاص بالدعوة الاسلامية ؛ وقــد أدى الاستقرار والمصالح المشتركة الى تكيف الناس نحو المجتمع الجديد ، وخاصة في أوقات الشدائد والازمات التي تمس الغالبية العظمى ، حيث كانوا يجتمعون ويتناقشون . ومع أنفة الناس من السلطة العليــا وعدم رغبتهــم للانصياع والخضوع في الاوقات العادية ، الا أنهم عند الشدائد كانوا لا يعارضون إتباع شخص أو أشخاص

---

(١) البكري ص ٢٥٧ .
(٢) انظر ص ١١٦ .
(٣) النهاية : ٤٤ ، ٥٩ أسد : ٣٨١ .

تقدمهم مواهبهم وقابلياتهم الى الصف الاول ليقودوا الناس • وقد أشارت الاخبار الى بعض هؤلاء الرؤساء ، كقصي ، وعبد مناف ، وعبدالمطلب ، الذين سنتحدث عنهم بتفصيل أوفى عند البحث عن الرسول • وقد أشارت الاخبار الى هشام بن المغيرة الذي كان سيدا مطعاما ، ولما هلك نادى مناد بمكة اشهدوا جنازة ربكم[١] ، وقيس بن عدي بن سهم الذي كان سيد قريش في زمانه[٢] وعبدالله بن جدعان التيمي سيد قريش في الجاهلية وفي داره كان حلف الفضول[٣] وكان عتبة بن ربيعة « كبير قريش وسيدها المطاع[٤] » ، كما كان أبو سفيان شيخ قريش وكبيرها وسيدها المطاع الذي كان يقود القوافل ويتزعم الحروب ضد الرسول[٥] • ويقول محمد بن حبيب السكري « فلما هلك حرب بن أمية ، وكان حرب رئيسا بعد عبدالمطلب ، تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف ، فكان في بني هاشم : الزبير وأبو طالب والحمزة والعباس بنو عبدالمطلب ؛ وفي بني أمية : أبو احيحة وهو سعيد بن العاص بن أمية وهو ذو العمامة كان لا يعتم أحد بمكة بلون عمامته اعظاما له • وله يقول الشاعر :

فتاة أبوها ذو العمامة منهم ومروان ما اكفاؤها بكثير

وفي بني المطلب : عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وعبد يزيد هنا هو المحض لاقذى فيه ، وفي بني نوفل المطعم بن عدي بن نوفل ، وفي بني أسد بن عبدالعزى : خويلد بن أسد ، وعثمان بن الحويرث بن أسد[٦] » •

---

(١) المحبر : ص ١٣٩ ، ٤٢٧ الاشتقاق : ص ٦٣ ، ٩٤ المعارف : ص ٣٢ ولمحمد حميدالله مقالة قيمة عن ادارة مكة نشرها في مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٣ (بالانكليزية) •

(٢) جمهرة النسب : ص ١٥٦ ، الاشتقاق ص ٥٧ •

(٣) اشتقاق : ص ٨٨ نسب قريش : ص ٢٩١ ، أغاني : ج ٨ ص ٢ - ٣ •

(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٢ ، الطبري : ج ٢ ص ٢٨٨ •

(٥) الطبري : ج ٣ ص ٤٤ ، ٧٧ •

(٦) المحبر : ١٦٤ •

ولما لم يكن من السهل عمليا في الاوقات الاعتيادية جمع كافة الناس ومناقشتهم في الامور العامة ، لذا كان لابد من اختيار ذوي القابليات الخاصة ليقوموا بأمر بحث الامور العامةومناقشتها ، وقد أشار اليهمالقرآن باسم الملأ .

**دار الندوة :**

كان هذا الملأ يجتمع منذ زمن قصي في دار الندوة التي كانت تقع قرب الكعبة من جهة الشمال[١] ، ولعل الغرض من اقامتها قرب الكعبة هو اسباغ شيء من الحرمة عليها . ولو لم تكن دار الندوة من الابنية العامة، بل هي ملك خاص لبني عبدالدار ، توارثوها حتى صارت لعكرمة بن عامر ابن هشام الذي باعها لمعاوية بن أبي سفيان بمائة الف دينار[٢] . وليس في الكتب اشارة الى سلطة مالكي دار الندوة أو الرسوم التي كانوا يتقاضونها .

لقد كانت قريش لا تقضي أمرا الا في دار الندوة ، فهي أشبه بمجلس الشيوخ ، تجري فيها المناقشات والمباحثات في الامور المهمة كالاشتراك في الحروب أو عقد المعاهدات والاتفاقات أو تجهيز القوافل وتنظيمها ، ويروي أيضا ان الفتيات اذ بلغن أدخلن فيها فشقت جيوبهن[٣] ومعنى هذا انه كان يجري فيها ما يشبه عند الاغريق الاقرار بالوصول الى سن المواطنة .

يروي ابن جريج وابن اسحق انه لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي الا ابن اربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصي كلهم اجمعون ، وحلفاؤهم[٤] . ولا ريب ان هذا النص قد ينطبق على الاوضاع

---

(١) الازرقي : ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٤ عن ابن الكلبي ، ويقول مصعب الزبيري ان حكيم بن حزام اشتراها من هشام ثم باعها لمعاوية ( نسب قريش ص ٢٥٤ ) ، ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٤٥ . انظر أيضا ابن الاثير : أسد الغابة ج ٢ ص ٤١ ، وياقوت ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٤٢ . الاشتقاق : ص ٩٧ .

(٤) الازرقي : ج ١ ص ٦١ .

أيام قصي حيث كان عدد أولاده محدوداً ولا يمكن أن ينطبق على أيام ظهور الرسول حيث أصبح عدد أحفاد قصي كبيرا . ويلاحظ ان كتب السيرة روت عن أحد اجتماعات دار الندوة للنظر في أمر المسلمين ، فقد حضرها ، حسب ما روى ابن اسحق ، من بني عبد شمس عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ؛ ومن بني نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدي وجبير بن مطعم والحرث بن عامر بن نوفل ؛ ومن بني عبدالدار النضر بن الحارث بن كلدة ؛ ومن بني أسد بن عبدالعزي أبو البختري بن هشام وزمعة بن الاسود بن المطلب وحكيم بن حزام ؛ ومن بني مخزوم أبو جهل ؛ ومن بني سهم نبيه ومنبه أبنا الحجاج ؛ ومن بني جمح أمية بن خلف[١] ، أي من كل قبيلة بين الواحد والثلاثة .

ولكن ذلك لم يكن ليراعى بدقة ، فقد دخلها حكيم بن حزام وعمره خمسة عشر سنة[٢] . ودخلها أبو جهل وعمره ثلاثون سنة[٣] .

لم تكن للملأ سلطات تنفيذية ، فكان لابد أن تكون قراراته بالاجماع اذا أريد تنفيذها ، ولكن بمقدور الاكثرية اذا أقرت قرارا أن تقاطع معارضيها أو تستخدم الضغط الاجتماعي ضدهم .

وبجانب هذا فقد كان لكل قبيلة ناد أو مجلس خاص تجري فيه المسامرات والمناقشات ، وقد أشار القرآن الكريم الى النوادي في بعض الآيات « فليدع ناديه سندع الزبانيه » ( العلق ١٧ ) « تأتون في ناديكم المنكر » ( العنكبوت ٢٩ ) ؛ ويبدو ان لكل قبيلة رئيس فكان نبيه ومنبه ابنا الحجاج سيدي بني سهم[٤] .

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٤٣ . ابن هشام : ج ٢ ص ٩٣ .
(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٤ ص ٤١٩ .
(٣) الاشتقاق : ص ٩٧ .
(٤) الاشتقاق : ص ٧٨ .

**الوظائف الدينية :**

ونظرا لان مكة مركز ديني مهم يحج اليه سنويا عدد كبير من الناس، فان هذا دعا الى ظهور عدة وظائف للقيام بما يتطلبه الحج ؛ ومع ان هذه الوظائف متصلة بالدين وأموره ، الا انهـــا ليست وظائف دينية بالمعنى الدقيق ، بل تتطلب مهارة وأسلوبا خاصا وقابلية منظمة ومالا للقيام بخدمات العدد الـكبير من الحجاج .

وكانت أغلب هذه الوظائف قديمة جدا ، ولما ظفر قصي بسيادة مكة أبقى بعضها بيد أصحابها القدماء ، ويقول الطبري انه بعد جرهم ( وليت خزاعة البيت ، غير انه كان في قبائل مضر ثلاث خلال : الاجازة بالحج للناس من عرفة وكان ذلك الى الغوث بن مر وهو صوفة ، فكانت اذا كانت الاجازة قالت العرب اجيزي صوفة ، والثانية الافاضة من جمع غداة النحر الى منى ، فكان ذلك الى بني زيد بن عدوان ، فكان آخر من ولى ذلك منهم أبو سيارة عميلة بن الاعزل بن خالد بن سعد بن الحارث بن وابش بن زيد ، والثالثة النسيء للشهور الحرم فكان ذلك الى القلمس وهو حذيفة بن فقيم بن عدي من بني مالك بن كنانة ثم بنيه ، حتى صار ذلك الى آخرهم أبي تمامة وهو جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن حذيفة ، وقام عليه الاسلام وقد عادت الحرم الى أصلها فأحكمها الله وابطل النسيء )[١] . ويروي الطبري أيضا عن ابن اسحق ان قصياً قد أقر للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه لانه كان يراه دينا في نفسه لا ينبغي له تغييره ، وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقرضت صوفة فصار ذلك من أمرهم الى آل صفوان

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٩٩ . التفسير : ج ٢ ص ١٦ . المسعودي : ج ٢ ص ٥٧ . ابن هشام : ج ١ ص ٤٥ ، ويروي ياقوت (ج ١ ص ٩١٧) ان الاجازة كانت في خزاعة ثم الى عدوان ثم الى صوفة ، ويروي ابن قتيبة ان « من عدوان ابو اسامة الذي كان يفيض بالناس (المعارف ص ٣٦) » .

ابن الحارث بن شجنة ورائة ، وكانت عدوان على ما كانت عليه ، وكانت النسأة من بني مالك بن كنانة على ما كانوا عليه ومرة بن عوف على ما كانوا عليه فلم يزالوا على ذلك حتى قام الاسلام فهدم الله به ذلك كله[١] . ويقول محمد بن حبيب السكري ان أئمة العرب بعد عامر بن الضرب ( العدواني ) في مواسمهم وقصائدهم بعكـــاظ ( بنو تميم ) .. وكان ذلك يكون في أفخاذهم كلها ، ويكون الرجلان يليان هذا من الامرين جميعا ، عكاظ على حدة ، والموسم على حدة ، فكان من اجتمع له الموسم والقضاء سعد بن زيد مناة بن تميم ، ثم تولى ذلك حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، ثم تولاه ذؤيب ابن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، ثم ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ثم معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، ثم الاضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ، ثم صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جردة بن أسيد ، ثم سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة ؛ فكان سفيان آخر تميمي اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ ، فمات سفيان فافترق الامر ، فلـم يجتمع الموسم والقضاء لاحد منهم حتى جـاء الاسلام ، فكان محمد بن سفيان بن مجاشع يقضي بعكاظ ، فصار ميراثا لهم فكان آخر من قضى بينهم الذي وصل الى الاسلام الاقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان وأجاز بالموسم بعد صلصل بن أوس العلاق بن شهاب بن لؤي ، من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة ، فكان آخر من أفاض بهم كرب بن صفوان بن جناب بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة[٢] .

**النســـيء :**

أما الافاضة فسنتحدث عليها عند الـكلام عن الحـج ، وأما النسيء

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ . أنظر أيضا نسب قريش ص ٣٣ المعارف : ص ٣١ .

(٢) المحبر : ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .

فوظيفة يعلن فيها القائم عليها الاشهر الحرم . ومن المعلوم انه كانت هناك أربعة أشهر حرم لا يجوز فيها الحرب والقتال ، بل يسود السلم والامن ، وهي أحوال ضرورية للتنقل وممارسة التجارات وغيرها . وكانت أشهر الحرم في قريش هي ذو القعدة ذو الحجة والمحرم ( المحج الاكبر ) وصفر ( المحج الاصغر والعمرة ) . وقد أشار القرآن الكريم الى الاشهر الحرم بقوله تعالى « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها أربعة حرم » ( التوبة ٣٦ )[١] ويظهر انه كان لقريش دور كبير في جعل العرب تحترم هذه الاشهر الحرم ، ولكنها لم تنجح نجاحا تاما في ذلك ، فلم تكن خثعم وطي لترعاها[٢] ، كما كانت لبعض القبائل الاخرى أشهر[٣] حرم غير هذه ، فكان لغطفان البسل وهي ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب .

ولما كانت العرب تستخدم الاشهر القمرية ، وهي تختلف عن الاشهر الشمسية ، لذلك كان الاعتماد عليها قد يخل بأمور التجارة التي تجري حسب فصول السنة ؛ لذلك « كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسيء[٤] » ، أي انه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات لكي تتطابق السنة الشمسية مع القمرية ، وهذا يؤدي الى تغيير في الاشهر الحرم ، وكان المختص بالنسيء هو الذي يعين الشهر المضاف .

يروي الازرقي ان النسيء كان في كندة ثم صار في بني مالك بن كنانة ؛ ولبني القلمس منهم خاصة ، وقد ظلوا يقومون فيه حتى جاء الاسلام فحرمه[٥] بعد فتح مكة على ما يظهر حيث نزلت الآية « انما النسيء زيادة

---

(١) تفسير الطبري : ج ١٠ ص ٨٨ فما بعد .

(٢) المحبر : ص ٣١٩ . اليعقوبي : ج ١ ص ٢٢٧ ، الطبري ج ٣ ص ٦٠٣ .

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٤٣ .

(٤) المسعودي : ج ٢ ص ٢١٤ وانظر عن النسيء ما كتب عنه في دائرة المعارف الاسلاميه .

(٥) الازرقي : ج ١ ص ١١٨ .

في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما انزل الله » ( التوبة ٣٧ ) ولا نعلم بالضبط الامور الاخرى الناجمة عن النسيء والتي أوجبت اعتباره زيادة في الكفر •

يروي ابن اسحاق ان قصياً كانت اليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء[١] ، أي انه أخذ لنفسه الامور المالية والادارية والعسكرية ؛ وهناك اشارات في الكتب الى وظائف أخرى لا نعلم ما موقف قصي منها ، وهل انههو الذي أوجدها أم أقرها أم ظهرت بعده •

**الحجابة :**

فأما الحجابة فكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة ، أي انه كان يأذن للناس بالدخول في الكعبة ، والراجح انها لا تتطلب أن يكون صاحبها عالما في الدين ؛ كما لا ريب في انها كانت مورد رزق للقائمين بها • وقد أخذها قصي من خزاعة ، ثم صارت من بعده لابنه عبد الدار ثم لأولاد عبدالدار من بعده ، وقد أرجعها الرسول الى بني عبدالدار[٢] بعد فتح مكة تطبيقا لحكم الآية التي نزلت في ذلك « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » ( النساء ٥٨ ) •

**عمارة البيت :**

وقد أشار القرآن الى وظيفة أخرى هي عمارة البيت فقال تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله » ( التوبة ١٩ ) • ويروي ابن حجر ان السقاية والعمارة كانت في الجاهلية للعباس[٣] •

---

(١) الطبري : ج ١ ص ١٨٤ • ابن هشام : ج ١ ص ١٣٧ •
(٢) الازرقي : ج ١ ص ٦٢ ، ٧٧ ج ٢ ص ١٢ • نسب قريش : ص ٢٥١ • المعارف : ص ٣٢ • ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٠ ، ١٦ •
(٣) الاصابة ج ٢ ص ٣٦٣ (٤٥٠٧) •

**الرفـــادة :**

أما الرفادة فكانت « خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى قصي بن كلاب فيصنع منه طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم ، وذلك ان قصيا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وان الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شرابا وطعاما أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه اليه فيضعه للناس أيام منى فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية حتى قام الاسلام ، ثم جرى في الاسلام الى يومنا هـذا فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينفض الحجيج[١] » ؛ ويبدو ان مقدار هذه الضريبة يختلف تبعا لثروة الدافعين وهي قد تصل مائة دينار[٢] . وكانت هذه الوظيفة لبني عبدالدار ، ثم أخذها منهم هاشم فكان « يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش ، كان يشتري بما يجتمع عنده دقيقا ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها فيجمع ذلك كلـــه ثم يحرز به الدقيق ويطعمه للحجاج ، فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس في سنة جدب شديد، فخرج هاشم بن عبد مناف الى الشام ، فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقا وكعكا فقدم به مكة في الموسم »[٣] .

ونظراً لقلة الاخبار ، لا نستطيع أن نعين مقدار ما كـان يجبى منها أو من كانت تسند اليه ، فيروي ابن سعد أن وهب بن عبد بن قصي كان

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٥ . ابن هشام : ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٦ . الازرقي : ج ١ ص ٦٢ ، ١٢٧ . ويروي المسعودي ان عبدالمطلب أول من أقام الرفادة والسقاية للحاج (ج ٢ ص ١٢٧) .

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٥ .

(٣) الازرقي ج ١ ص ٦٣ .

صاحب الرفادة[١] ، كما يروي مصعب الزبيري ان الرفادة كانت في يد حميد بن زهير من بني أسد بن عبدالعزى[٢] • ويروي البلاذري انها صارت من بعد هاشم للمطلب ثم لعبدالمطلب ثم للزبير ثم لأبي طالب ، ثم أخذها العباس وظلت في أولاده[٣] •

وما دام بحث الرفادة يتصل بالمالية ، فجدير أن نشير الى مصادر أخرى من الواردات ، منها ما كان يؤخذ من الحجاج ، مما يمكن استدلاله مما رواه ابن دريد من أن بني لؤي بن شمخ ( من ذيبان ) ومن رجالهم ظويلم ويلقب مانع الحريم ، وانما سمي بذلك لانه خرج في الجاهلية يريد الحج فنزل على المغيرة بن عبدالله المخزومي ، فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ولذلك سمي الحريم ، وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر فامتنع عليهم ظويلم[٤] • ولعل هذه هي من الضرائب التي كانت تؤخذ من تأجير ثياب الحاج من الحلة ، اذ كان على الحجاج من غير قبائل الحمس ( وهم قريش وحلفائها ) أن يؤجروا ثيابا خاصة ، أو يحجوا عرايا كما سنتحدث عن ذلك عند البحث عن الدين •

ومن مصادر ماليتها كذلك ضريبة العشور على التجارات[٥] ، وقد يعفى منها البعض لظروف خاصة مثلما اعفوا منها بحارة السفينة التي بنيت الكعبة من حطامها •

ومن مصادر ماليتها كذلك العطايا التي كانت تقدم للكعبة ، وكانت تودع في بني سهم[٦] •

---

(١) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٥٢ •
(٢) نسب قريش : ص ٢١٢ •
(٣) أنساب الاشراف : ج ٣ ص ٥٢٣ (مخطوطة القاهرة) •
(٤) الاشتقاق : ص ١٧٢ •
(٥) الازرقي : ج ١ ص ١٠١ • المسعودي : ج ٢ ص ٥٨ •
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣ •

**السـقاية :**

اما السقاية فهي حياض من ادم كانت في عهد قصي توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفه ، وتملأ بالماء العذب من الآبار على الابل ويسقاه الحاج[١] . وهي لا ريب مهمة في بلد كمكة يقل فيها المـاء العذب الصالح للشرب ، وكانت مثل هذه الوظيفة تدر في تدمر ثمانمائة دينار سنويا ، ولعلها كانت تدر في مكة أيضا أرباحا طيبة ؛ ومن المحتمل ان السقاية كانت تقتصر على الحجيج ، أما أهل مكة فلم يكونوا يدفعون شيئا عن الماء ، وكانت السقاية عند ظهور الاسلام مودعة للعباس الذي كثيرا ما كان يمزج الماء بالزبيب[٢] .

وكانت مشكلة الامن من الامور الهامة التي توجب الاهتمام في مكة نظرا لـكثرة الخلعاء والصعاليك وسراق الحجيج الذين تدفعهم نزعاتهـم الخاصة وسوء الاحوال الى ارتكاب الجرائم كالسرقة أو عدم مراعاة قدسية الحرم ، يضاف الى ذلك الاخطار الخارجية التي قد تهدد مكة من الغزوات ، أو قد تقوم مكه نفسها بحرب ضد أعدائها . لذلك كانت مضطرة الى اعداد جيش لمواجهة الاخطار ، ومع ان أهل مكة كان أغلبهم تجارا ، الا أنهم لم يغفلوا عن الاستعداد العسكري ، فكانوا يساهمون في الحروب التي تقوم بها مكة ، فضلا عن انهم عقدوا محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة والحيا والمصطلق وبني الحارث بن كنانة لكي تعاونهم في الحروب التي ينشبونها . ويسمى هؤلاء الحلفاء الاحابيش[٣] .

وبجانب هذا فقد كان المـكيون يستخدمون المرتزقة وخاصـة من السودان والاحباش الذين اشتهروا بحسن استعمالهم للحراب والسكاكين

---

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ ، ٤٥ .

(٢) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ١٦ . الازرقي : ج ١ ص ٦٥ ـ ٦٦ ، ج ٢ ص ٤٧ . .

(٣) نسب قريش : ص ٩ . الاشتقاق : ص ١١٩ . ابن سعد : ج٢ ص٤٧ وص٧٠ وفي انساب ابن حزم ، نشر عبدالسلام محمد هارون ، ص ٢٦٣ : ومن بني ثعلبة بن بهثه بن سليم : حكيم بن امين بن حارثة بن الاوقص بن مره بن هلال بن فالج بن ذكران بن ثعلبه بن بهثه كان بمكة في الجاهلية محتسبا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وفي ذلك يقول بعض سفهاء قريش :

التي ترمى من مسافة ، ويدعي لامنس ان هؤلاء هم القسم الاعظم من الجيش المكي ، وانهم هم الاحابيش[١] . ويستنتج من هذا ضعف شجاعة قريش وانعدام الروح العسكرية ، وهو رأي بعيد عن الصواب لان أخبار الحروب بين أهل مكة تظهر بوضوح ان قريشاً كانت تكون القسم الاكبر من الجيش وتقوم بالقسط الاعظم من الحرب . وكان منها المهاجرون الذين حاربوا مع الرسول في عدة وقائع ، كما ظهر منها عدد كبير من الرجال الذين قادوا الجيوش الاسلامية في معارك ناجحة ضد الروم والساسانيين في بلاد نائية .

ومما يتعلق بتنظيم الحروب عدة وظائف ، منها اللواء والقيادة والأعنة والحكومة .

فأما اللواء فكان العلم الذي يحمل في المعارك ، وتدور حوله المعركه ، وكان يسند الى بني عبدالدار ، وقد قتل منهم في غزوة أحد سبعة وهم يدافعون عنه[٢] .

أما القيادة فهي غير اللواء ، وكانت القيادة بيد بني أمية[٣] ، فقد قاد حرب بن أمية الناس في الفجار وفي ذات نكيف ، كما قاد الناس في بدر عتبة بن ربيعه ، لان أبا سفيان كان في القافلة التي سببت المعركة ، وقاد أبو سفيان قريشا في أحد والخندق .

وهناك ذكر للاعنة ، ويكون صاحبها المقدم على خيول قريش في الحرب[٤] . والحكومة وهي الاموال التي يسمونها لآلهتهم ، وكانت عند ظهور الاسلام للحارث بن قيس السهمي[٥] .

---

(١) انظر في ذلك مقال لامنس عن الاحابيش والتنظيمات العسكرية في مكة الذي نشره في كتابه ( العربية الغربية عند ظهور الاسلام ) (بالفرنسية) .

(٢) نسب قريش : ص ٢٥١ ـ ٢ . الازرقي : ج ١ ص ٦٣ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ٦٣ ، ٦٦ .

(٤) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٢ ص ١٠١ .

(٥) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٠٦ الاصابة ج ١ ص ٢٨٧ .

لم تكن في مكة وظيفة لقاض أو حاكم يفصل في القضايا التي تنشب بين الناس . فاذا حدث خلاف بين أفراد عشيرة واحدة فان رئيس العشيرة هو الذي يحكم فيه . أما اذا حدث خلاف بين أفراد قبائل متعددة فانهم كانوا يلجأون الى الكاهن أو الهاتف أو العايف أو الاستقسام بالانصاب والايسار . وكان تقدير قيمة الخسائر يدعى الاشناق وهي وظيفة كانت تقوم بها أسرة أبي بكر[1] . وقد أورد محمد بن حبيب السكري أسماء عدد من الحكام في قريش[2] .

غير انه حتى في حالة حكم الحكم بقضية ما فانه كان يترك ذلك لتراضي الناس وموافقتهم ، اذ لم تكن هناك سلطة تنفذ قرارات الحكام وقد أدى هذا الى غبن الضعفاء وكثرة المظلومين . وقد استفزت هذه الحالة الخطرة بعض الناس فكونوا حلف الفضول لمساعدة المظلومين وحمايتهم من الظالمين . وكاد هذا يتطور الى تكوين سلطة تنفيذية . ولكن مجيء الاسلام عوض عنه وحل محله في العمل .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣٠٣ ، انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) المحبر ص ١٣٢ ـ ٣ انظر أيضا نسب قريش ص ٢٩١ . شفاء الغرام للفاسي ص ١٤١ ـ ٢ .

# القسم الثاني

# الحياة البدوية ونظمها

# الفصل التاسع

# النظم البدوية قبيل ظهور الاسلام

**أهميتهـــا :**

لقد انحلت قبيل ظهور الاسلام الدول العربية التي حاولت أن تقيم نظاما سياسيا عاما لا يقتصر على مجموعة صغيرة • وأصبح النظام القبلي هو السـائد لا في الصحراء فحسب ، بل حتى في أغلب المدن الموجودة في أطراف الجزيرة •

**في الدين الاسلامي :**

ولم تقتصر النظـم البدوية على تأثيرها في نظم الحياة عنـد ظهور الاسلام • بل كان لها تأثير في الاسلام نفسه • والواقع ان الاسلام وقف موقفا معاديا للبدو بصورة عامة فوصفهم بأنهم أشد كفرا ونفاقا • وأجدر ألا يعلموا حدود الله ( التوبة ٩٧ ) « قالت الاعراب آمنـا قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » ( الحجرات ١٤ أنظر أيضا سورة التوبة ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ الاحزاب ٢٠ ، الفتح ١١ ، ١٦ ) والواقع ان الاسلام حارب كثيرا من معتقداتهم ونظمهم الاجتماعية ومثلهم الاخلاقية • غير انه في نفس الوقت أقر بعض هذه العادات واعترف بهـا حرفيا ، أو بعد تعديل بسيط ، كما سيظهر لنا من سياق البحث • وهكذا دخلت كثير من النظم البدوية كجزء من الاسلام ، وأصبحت قانونا يسير عليه المسلمون حيثما كانوا ومتى عاشوا •

**في الدولة الاسلامية :**

غير انه حتى المظاهر والنظم التي شن عليها الاسلام حربا ، لم يقض عليها تماما ، بل ظل العرب يدينون بها أمدا طويلا ، ذلك ان هؤلاء البدو

كونوا مادة الاسلام الاولى والجزء الاعظم من الجيوش الاسلامية التي دحرت الفرس والروم وانشأت الامبراطورية الاسلامية ، حتى لقد كان الاسلام مقرونا بالعرب ، في أدواره الاولى ، وكان من الصعب التمييز بينهما . وكان للدور الذي لعبه هؤلاء البدو في الفتوح والانتصارات أثر في زيادة اعتدادهم بنفسهم وبمثلهم الاخلاقية والروحية وبلغتهم وبثقافتهم . فأصبحت هذه جزءا هاما من المدنية الاسلامية ومثلها .

**في الفكر الاسلامي :**

ثم ان اللغة العربية والشعر الجاهلي كانا صدى لحياة البداوة وممثلين لها ، يرسمان مثل البدو وغاياتهم كما كانت اللغة تعبر عن عواطفهم وخيالاتهم[١] ، وقد أصبحت اللغة العربية أداة التعبير في الامبراطورية الاسلامية ، وصار الشعر الجاهلي مثالا يحتذى في طريقة نظمه وأسلوبه وأخيلته وأفكاره وظل كذلك أمدا من الزمن . وبهذا أدخل المثل البدوية في الحياة الثقافية الاسلامية .

**في تاريخ الاسلام :**

ويلاحظ كذلك ان البدو كانوا أهم عنصر في الامصار الاسلامية التي كانت أهم قواعد عسكرية وادارية في الامبراطورية الاسلامية . وقد تأثرت نظم هذه الامصار بالانظمة البدوية سواء في النواحي الادارية أو المالية أو السياسية أو القانونية . ولما ظهر الفقهاء في هذه الامصار دونوا معظم مظاهر الحياة فيها ، وبذلك سجلوا كثيرا من النظم البدوية باعتبارها جزءاً من النظم الاسلامية ، وقد صارت بذلك هذه النظم البدوية جزءاً من الشريعة الاسلامية المقدسة التي يسير عليها المسلمون . والتي يقوم القسم الاعظم منها على ما دونه فقهاء الامصار الاول[٢] .

---

(١) أنظر في ذلك أحمد امين : فجر الاسلام ص ٦٢ فما بعد .

(٢) لقد وصفت في كتابي « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري » تنظيمات احدى هذه الامصار وأشرت في مواضع مختلفة الى علاقتها بالفقه .

**في التاريخ عامة :**

والواقع ان النظم البدوية لم تقتصر على الفترة التي سبقت ظهـور الاسلام ، بل يبدو أن تاريخها أبعد . اذ أن الاخبار القليلة التي لدينا عن نظم سكان الجزيرة في العصور السحيقة توحي بأن نظمها كانت نظما بدوية ، ولم تقتصر على سكان الجزيرة فقط بل وامتدت الى الشعوب السامية ، ففي شريعة حمورابي وحياة العبرانيين كثير من مظاهر النظم البدوية التي تشبه نظم البدو قبيل ظهور الاسلام ؛ كما اننا لما نزل في الوقت الحاضر متمسكين بكثير من نظم البداوة في العراق لا في الصحارى والارياف فحسب بل في المدن كذلك .

فدراسة النظم البدوية اذاً مهمة جدا لفهم حياة الساميين عامة ، وكذلك لفهم القرآن والاسلام والمدنية الاسلامية والشعر والثقافة العربية بل ولفهم حياتنا الحاضرة أيضا .

**عزلة الصحراء :**

ونظرا لبيئة البدو الصحراوية التي لم تتغير منذ الازمنة التاريخية ، فقد أصبح البدوي منعزلا عن الامم الاخرى ، فلم يؤثر احتكاكه المحدود بالامم الاخرى بعاداته وأساليب حياته ، اللهم الا اذا خرج من الصحراء وسكن المناطق الغزيرة المياه وشيد له الحضارة بعد ترك البداوة . والواقع ان المؤثرات الاجنبية على الجزيرة العربية والتي وصفها وصفا طيبا كل من اوليرى في كتابه عن الجزيرة العربية قبل محمد وأحمد أمين في فجـر الاسلام ، كانت مقصورة على أطراف الجزيرة وفي المناطق الزراعية التي تحضر أهلها ؛ كما ان هذه المؤثرات لم تتوغل في المدنية البدوية ، بل ظلت في الغالب سطحية محدودة ، فلم تنفذ الى الاعماق ، وظلت حياة البداوة تتسم بطابع خاص لا يزول الا بعد استقرار طويل في أرض معينة وممارسة الزراعة والاتصال الدائمي مع الامم الاخرى .

**صفات البدوي :**

ويتسم البدوي بصفات عامة تميزه عن غيره ، ولكن يجدر قبل ذكرها أن نؤكد انها نتيجة وراثة اجتماعية لا بيولوجية ، وانها تولدت في الغالب نتيجة حياتهم الطويلة في الصحراء • هذا الى انها صفات عامة ، وبجانبها فوارق فردية كبيرة •

فأما صفاتهم الجسمية فهم في الغالب نحاف الاجسام ، متوسطو القامة ، ذوو أنف أقنى ، وعيون سوداء لوزية مفتوحة ، وشعر مسترسل وجمجمة مستطيلة ، غير ان عرب الجنوب هم ذوو رؤوس مستديرة وشعر اجعد ؛ ولهم قابلية كبيرة على الصبر وتحمل المشاق الجسمية من مشي طويل وغذاء يسير ، وهم يتميزون كذلك بالشجاعة والاقدام وانجاد الضعيف وحماية المرأة •

والبدوي عصبي المزاج ، مرهف الحس ، سريع التهيج ، يحب الحرية والمساواة ،•ويتميز بالنظرة الواقعية ودقة النظر وقوة الذاكرة وقلما يهتم بما وراء الطبيعة والافكار الفلسفية العميقة ، هذا الى أنه يميل الى وصف المرئيات ، وما البراعة التي اشتهر بها البدوي في القيافة الا مظهر من مظاهر دقة الملاحظة والاهتمام بالمظاهر المادية • • • • • • • • • • •

ثم ان البدوي دقيق الملاحظة والحس ، يهتم بالجزئيات دون الكليات ، ويتميز تفكيره بالتنقل دون أن يهتم بالروابط بين الاشياء ، فاذا وصف بعيرا مثلا فقد يبدأ بذكر اذنه ثم ذيله ثم يعود الى وصف رأسه ورجله وسنامه ، وهو يدقق في وصف كل من هذه الاجزاء تدقيقا رائعا ، ولكنه لا يتبع طريقا منطقيا في تسلسل الاجزاء التي يصفها ؛ هذا الى انك لو قرأت وصفه للبعير ولم تكن قد رأيته فانك قلما تستطيع أن تتصوره من وصفه • ولا أدل على ما نقول من الشعر البدوي الذي نجده في قصائده الطويلة يطرق عدة مواضيع لا رابط بينها ولا تسلسل •

وخيال البدو من نوع خاص فهو خيال تصوري لا سمعي ، صوره منتزعة من الواقع لا من ابتكار الخيال وأوضح مثل على هذه التشبيهات التي كانوا يذكرونها :ـ

فيقول امرؤ القيس :

له ايطلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل

ويقول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد

ويقول امرؤ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وهذه التشبيهات تختلف عن تشبيه الشاعر الهندي مشية البقر بمشية المخمور بسكرة الشباب المغرور • أو تشبيه الولد ذاهبا الى أمه ساكنا كدبيب الخيال • أو قوله مخاطبا النجم « تعال مع مركبك الذي هو أسرع من طروق الخيال » وتشبيه شيلي القبرة بالفرح مجردا عن المادة •

ان هذه التشبيهات تختلف عن تشبيه شعراء البدو بعر الآرام بحب الفلفل ، والشحم بهداب الدمقس المفتل ، وجيد الفتاة بجيد الريم ، وفرع الشعر بقنو النخلة المتعثكل ، وآثار الطلول بالوشم ، أو الرماح بأشطان البئر •

حقا ان هذه صور جديدة جميلة ، ولكنها مستمدة من الواقع وليس فيها ابتكار ؟ انها أقرب الى المقارنة واستثارة الذاكرة عن شيئين متباعدين ؟ بل حتى الاشخاص الخرافيون لم يتصورهم العرب خارقين في شكلهم أو قدرتهم •

ونعيد الذكر بأن تصورهم بصري وقلما يهتمون بالتصور السمعي كأصوات الطيور وغيرها[١] •

---

(١) انظر في ذلك أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٧ فما بعد •
محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٢٢ فما بعد •

**القبيـــــلة :**

لقد كان النظام البدوي قائما على أساس القبيلة ، وهي جماعة من الناس ينتمون ، أو يزعمون انهم ينتمون ، الى جد واحد مشترك انحدروا منه ، ويسكنون عادة في منطقة واحدة ، واذا انتقلوا ساروا سويه ، وهم يحملون واجبات مشتركة في الدفاع ودفع الدية • ومع ان خير ما يميز القبيلة عن غيرها هو اشتراك أفرادها في دفع الدية ، الا انه من الصعب جدا تحديد عددها ، والارجح ان عددها يتوقف على قدرتها على الدفاع وعلى قابلية المراعي على اعاشة مواشيها • فالقبيلة التي تقطن في أرض ممرعة ، يمكن أن يتزايد عدد أفرادها مع الاحتفاظ بوحدتها ، أما اذا زاد عددها وعدد مواشيها عما يمكن أن تحتمله الارض ، فانه ينخزع منها بعضهـا ويكونون لانفسهم وحدة مستقلة تتخذ لها أرضا خاصة ، وتكون بذلك قبيلة مستقلة • الا انها تبقى متصلة بالقبيلة الأم برابطة النسب التي تعتز بها • أما اذا كانت هذه الوحدة المنخزعة صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها أو الاحتفاظ بكيانها ، فانهـا تندمج بالقبائل الاخرى ، والغالب انها تفضـل الاندماج بأقرب القبائل نسباً منها • وهكذا فان عدد القبائل غير ثابت ، بل قد يزيد أو ينقص وقد تظهر قبائل جديدة ، أو تندثر قبائل أخرى أمـا بانقسامها الى قبائل أصغر منها ، اذا كانت كبيرة ، أو بانضمامها الى قبائل أخرى اذا كانت صغيرة لا تستطيع الدفاع عن كيانها •

ولا يمكن تحديد عدد أفراد كل قبيلة بالضبط ، فبعض القبائل صغيرة جدا ،وقد ذكر السكري عددا من القبائل لا يزيد أفراد كل منها على أصابع اليد[١] ، كمـا أن هنالك قبائل كبيرة العـدد ؛ والغالب ان القبائل الـكبيرة تقسم الى أجزاء تدعى العشيرة والبطن والفخذ والفصيلة والرهط والحي ، ولـكن حتى هذه الاقسام لا يمكن تحديدها بالضبط •

---

(١) المحبر ص ٢٥٦ •

**تطورها في الاسلام :**

لقد حافظ العرب على نظامهم القبلي عندما استوطنوا الامصار الاسلامية. فكانت هـذه الامصار مقسمة الى قبائل ، ولـكل منها خطة خاصة يسكن أفرادها معاً فيها ، كما كانوا يستلمون عطاءهم سوية ، وعلى كل قبيلة عريف خاص بها ؛ والغالب ان أفرادها يحملون مسؤوليات مشتركة . فيدفعون دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبه أحد أفرادها ، كما تكون لهم الشفعة أو حق الافضلية في شراء البيت الذي يباع في خطتهم ، ويرثون مال من لا وارث له في عشيرتهم ، ويتحملون مسؤولية أعمال المشاغبين والمتمردين في عشيرتهم . وهكذا صار نظام القبائل هو أساس التنظيم الاجتماعي والاداري والمالي والجنائي في الامصار الاسلامية .

غير انه نظـرا لان كلا من هذه الامصار الاسلامية كانت تضم قبائل كثيرة متنوعة ، فقد اضطر الولاة أحيانا الى دمج القبائل الصغيرة بالـكبيرة ، وعلى مر الايام أخذت هذه الوحدات الصغيرة تفقد كيانها المستقل . غير انه اذا كانت أفراد الوحدات المندمجة شديدة التماسك فانها تحافظ على كيانها ، ولـكن تصبح من الناحية الادارية مندمجة في القبائل الـكبيرة . واذ ذاك يقال ان عدادها مع القبيلة الـكبيرة[١] . ومن هذا يتبين ان الامصار وان كان تنظيمها قد قام على أسس قبلية ، الا أنه دخل فيها تعديلات غير قليلة .

**نظرية سميث :**

وقد حملت هذه التغيرات بعض المستشرقين وخاصة روبرتسن سميث على الاعتقاد بأن الانساب العربية مختلفة كلها منذ زمن عمر لـكي ينظم توزيع العطـاء[٢] . وممـا يقوي الشكوك في شجرات الانساب ان جميع

---

(١) في الفصل الاول من كتابي « عن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » شرح واف عن هذه التطورات .

(٢) روبرتسن سمث : القرابة والزواج عند العرب الفصل الاول (بالانكليزية) .

ما خلف الينا منها كتب منذ منتصف القرن الثاني فما بعد ٠ فهي اذاً متأخرة ، كما انها متأثرة بأحوال المدن التي كتب فيها وخاصة الكوفة والبصرة ، فهي لاتعطي تفاصيل وافية أو مضبوطة عن قبائل وأنساب النواحي الاخرى من الجزيرة العربية كاليمن مثلا ، هذا الى انها قد لا تمثل الاحوال التي كانت عليها قبل الاسلام ، يضاف الى ذلك ان شجرات النسب التي يذكرها هؤلاء النسابون قلما تذكر أكثر من ستة آباء بين أفراد القبيلة الذين عاشوا عند ظهور الاسلام وبين الجد الاعلى لكل قبيلة ، واذا افترضنا ان كل جيل كان ٢٥ سنة ، كانت القبائل العربية حسب شجرات النسب أو أغلبها قد تفرع منذ القرن الرابع الميلادي وهو أمر لا تقره الادلة التأريخية ٠

على أنه اذا كان ما ورد في كتب الانساب المتداولة بين أيدينا عما يتعلق بالعصور السحيقة قبل الاسلام غير مضبوط أو مغلوط ، فانه يجب أن لا ننكرها تماما ، أو نعتقد انها اختلقت كلها في زمن عمر لكي تخدم المسلمين في توزيع العطاء ، وذلك لان الاخبار التأريخية عن حياة النبي وحروب الردة تؤيد وجود هذه القبائل كوحدات مستقلة في معظم أنحاء الجزيرة ، هذا الى أن الشعر العربي الجاهلي يرد فيه أسماء هذه القبائل ويلقي ضوءاً هاما على العلاقات بينها ، بل نذهب أبعد من هذا فنقول ان التوراة قد ذكرت بعض القبائل العربية كسليم مثلا ، كما ان النقوش اليمانية التي ترجع الى القرون الاولى قبل الميلاد تذكر الادوار المهمة التي لعبتها القبائل اليمانية كبكيل وحاشد وهمدان والتي ظلت الى العصر الاسلامي محتفظة بوحدتها ٠

**اهمية النسب :**

لقد كان الاهتمام بالنسب مهماً منذ العصر الجاهلي ، اذ هو المرآة التي تظهر فيها نقاوة دم الفرد وارتباطه بالقبيلة ٠ وقد ظل الاهتمام به حتى بعد مجيء الاسلام فأصبح أساسا للتنظيم المدني والاجتماعي في الامصار العربية

وعند العرب ، بل حتى غير العرب كثيرا ما اضطروا عند سكناهم الامصار الى الانتساب الى القبائل العربية باعتبارهم موالي لها ، ثم أصبح كثير منهم على مر الايام يدعون بأنهم صرحاء في النسب . ولا أدل على الاهتمام بالنسب في الاسلام من الاحاديث التي تنسب الى النبي والتى يحض فيها على حفظ النسب[١] .

ولا ريب ان للاهتمام بالنسب في الاسلام أهمية كبيرة ، فهو يوضح علاقة الانسان بالعرب الفاتحين الارستقراطيين ، ويوضح العلاقة بالنبي وأصحابه الذين أصبح الانتساب اليهم فخراً ، أو بالخلفاء والولاة الذين قد يؤدى الاقتراب منهم الى بعض المنافع ، هذا الى اهميته في الوراثة اذ ان الارث يتقرر حسب النسب ، هذا الى أن الزكاة تعطى للاقربين الذين هم أولى بالمعروف[٢] . والمعروف الذي يحسن بالاغنياء أن يدفعوه الى الاقرباء تبعا لما أمر الرسول « تعلموا أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم » .

وان الاهمية الزائدة التي كانت للانساب في صدر الاسلام جعلتها تمتد الى غير العرب فرتبت لهم على مر الايام شجرات من النسب أوصلتهم بأجداد العرب القدماء جدا .

**أسماء القبائل :**

ان أسماء القبائل العربية مستمدة اما من الآلهة الوثنية القديمة كزيد اللات ووهب اللات وسعد مناة وعبد شمس ، أو من أسماء أشخاص ؛ ولكن أغلبها مستمدة من أسماء حيوانات مثل بكر ، أسد ، بهثة ( بقر الوحش ) ، ثعلبة ، ثور ، جحش ، جعدة ( غنم ) ، جعل ، حداء ، حمامة ، حنش ، الأرقم ، دؤل ، دب ، ذئب ، ضبة ، ضبيعة ، عنزة ، غراب ، فهد ، قرد ، خندف ، فهد ، كلب ، نعامة ، غبر ، هوازن ، يربوع ، جراد ، طبيان ، عقاب ، أوس ، قريش ، حمير ، حنظلة ، صخر ، بدن .

---

(١) ابن حنبل : المسند ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٣ ـ ٦ .

**الطوطميـــة :**

ان كثرة أسماء الحيوانات في تسمية القبائل حملت المستشرق الانكليزي روبرتسن سميث الى الاعتقاد بأنها مظهر من مظاهر الطوطمية التي كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام(١)

والطوطم كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين أحد منها يسميه طوطمه . والطوطم قد يكون حيوانا أو نباتا ، وهو يحمي صاحبه ويبعث إليه الاحلام اللذيذة ، كما ان صاحبه يحترمه ويقدسه ، فاذا كان حيوانا فلا يقدم على قتله ، واذا كان نباتا فلا يقطعه ولا يأكله الا في الازمات الشديدة . والقبيلة تتسمى باسم الحيوان ، وتعتبره أباً لها وتعتقد انها من سلالته ، وهي تحترمه وتحرم لمسه أو النظر اليه والتلفظ به ، وتحتفل بدفنه عند موته ، وتعتقد انه يدافع عن القبيلة عند الملمات(٢) .

وللتدليل على أن تسمية القبائل العربية بأسماء حيوانات هو مظهر من مظاهر الطوطمية يقول روبرتسن سمث بأن العـــرب اعتقدوا بأن بعض الحيوانات أصلها انســـان ثم مسخت كالقردة والخنازير ولذلك حرمت أكلها ، ثم ان العرب عبدت بعض الاصنام التي تمثل الحيوانات ، فكان يغوث بشكل أسد ، ويعوق بشكل حصان ، ونسر بشكل نسر ، كما عبد الاسبذيون الفرس ؟ ولعل اسم ربيعة الفرس يدل على أن ربيعة كانت تعبد الفرس . كما ان الحمام كان بمكة مقدسا لا يجوز قتله(٣) .

على ان روبرتسن سمث متطرف في استنتاجاته ؟ فانه لم يعرف عن العرب انهم عبدوا الحيوانات نفسها أو اعتقدوا أنهم منحدرون منها ، وليس مسخ الحيوان دليل على قدسيته ، كما ان نحت الصنم على شكل حيوان

---

(١) روبرتسن سمث : القرابة والزواج عند العرب الفصل السابع .
(٢) راجع الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٥٥ ـ ٨٥ .
(٣) جمعة : ص ١١٦ فما بعد .

لا يعني انهم عبدوا الحيوان نفسه ، ما عدا الاسبذيين . وليس هناك دليل على أن القبائل التي كانت تعبد النسر أو الفرس وغيرها كانت تسمى بأسماء هذه الحيوانات أو تدعي انها متحدرة منها[١] .

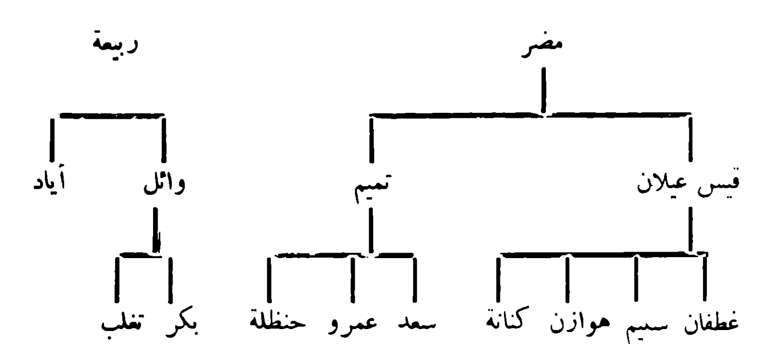
يقسم النسابون القبائل العربية الى قسمين كبيرين هما القبائل القحطانية أو العاربة وأصل موطنها جنوب الجزيرة ، وخاصة اليمن ، والمستعربة وموطنها وسط وشمال الجزيرة ويذكر بعضهم ان بين هـذين الفرعين خصومات منذ أيام الجاهلية . والواقع ان الاجزاء الجنوبية من الجزيرة يختلف سكانها بعض الاختلاف عن سكان الاجزاء الشمالية ، حيث ان رؤوسهم مستديرة وشعرهم مجعد وفي أنوفهم بعض الفطسة متأتية من اختلاطهم في الازمنة القديمة بسكان شرق افريقية ؛ بينما يتميز سكان الشمال بأن جماجمهم مستطيلة وشعرهم مسترسل وأنفهم أقنى ولهجاتهم تختلف بعض الاختلاف عن لهجة سكان الجنوب[٢] . الا أنه ليس هناك دليل على الخصومات بين الطرفين بل ان الخصومات تنشأ عادة بين القبائل المتجاورة في محل السكن حتى ولو كانت من فرع واحد . بل الواقع ان أغلب أيام العـرب التي ذكرت لنا في التاريخ[٣] نشبت بين قبائل يعدهـا النسابون متقاربة مع بعضها في النسب . ثم ان التقسيم الذي يذكره النسابون ليس دقيقا دائما ، فهناك بعض القبائل كقضاعة كانت في الاسلام تنتسب مرة الى قحطان ومرة الى عدنان ، ولـكن مثل هذه القبائل محدودة والغالب ان سبب تغير نسبتها ترجع الى العصـر الاموي حيث اشتدت الخصومة بين المضريين واليمانيين فأخذت بعض القبائل تنحاز الى أحد الجوانب لاسباب خاصة مدعية بأنها ترتبط فيها بصلة النسب .

---

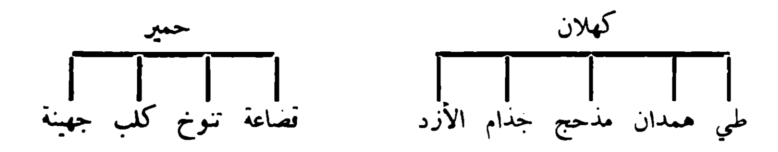
(١) راجع : جرجي زيدان : الانساب العربية القديمة .
(٢) فيليب حتي : تاريخ العرب ص ٣٠ (بالانكليزية) .
(٣) راجع عن أيام العرب : ابن الاثير : الـكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٨٨ .

ان أهم القبائل على ما تقوله كتب النسب الشائعة هي المبينة في الجدول التالي(١) :ـ

## القبائل الشمالية ( العدنانية )




## القبائل الجنوبية ( القحطانية )




---

(١) انظر في كتب النسب : نسب قريش لمصعب الزبيري ، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، الاشتقاق لابن دريد ، والانباه على قبائل الرواة لابن عبدالبر . وقد نظم وستنفيلد جدولا مفصلا في أنساب القبائل وتفرعاتها .

# الفصل العاشر

# التنظيمات الاجتماعية عند البدو

**الصـــليبة :**

تعتبر القبيلة الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها النظام البدوي • وهي تتكون من العرب الصليبة والحلفاء والعبيد • فأما العرب الصليبة فهم جميعا متحدرون من أصل واحـــد مشترك هو الجد الأعلى للقبيلة ؛ لذا كانوا يعتبرون أنفسهم متساوين ، نظـــريا على الاقل • وكان كل فرد يعتـــز بشخصيته وفرديته ويرى لنفســـه مكانته في القبيلة • الا أنهم في الواقع يتباينون في صفاتهم الجسمية والخلقية ، مما يجعل للبعض مكانة خاصـــة يعترف لهم بها الناس • وأهم الصفات الخلقية التي تكسب المرء مكانة هي المروءة والشرف[1] ، وهي تعبيرات خلقية يصعب تحديدها بالضبط ، ولكن أهم متطلباتها هي الشجاعة وحب الحرية والثأر وحماية الجوار والدفاع عن العرض • وهذه لا ريب صفات شخصية تكسب صاحبها الشرف والرفعة وتميزه عن الذليل المهان • ولـــكنها لا تورث ، فلا يكون ابن الشريف شريفا الا اذا حافظ بأعماله على صفات المروءة ومتطلباتها •

**الحلفـــاء :**

أما الحلفاء فهم ليسوا متحدرين من الجد الأعلى للقبيلة ولا تربطهم بأفرادها رابطة الدم ، ولـــكنهم لجأوا الى القبيلة ووضعوا أنفسهم تحت حمايتها أو حماية أفرادها • وقد يكون الحليف فردا أو قبيلة • فأما حلف

---

(١) بشر فارس : الشرف عند العرب (بالفرنسية) ، مباحث عربية ص ٩٣ فما بعد •

القبيلة للقبيلة فسنتحدث عنـــه في الفصل التالي • أما حلف الأفراد فان الغرض منه أن ينال حماية القبيلة التي يحالفها ويستطيع أن يعيش في كنفها بأمان • ومثل هؤلاء الحلفاء عادة غرباء يأتون الى القبيلة ليتاجروا معها ، أو ليتزوجوا احدى نسائها ويسكنوا مع قبيلة المرأة ؛ ولـكنهم في الغالب من الخلعاء وهم الذين ارتكبوا جرائم القتل في قبائلهم الاصلية ، أو اساءوا السلوك لدرجة أصـبح وجودهم بين القبيلة غـير مرغوب فيه ، فتخلعهم وتطردهم • ولما كان من الصعب على الفرد أن يعيش بمفرده في الجزيرة ، لذلك كانوا مضطرين الىالالتجاء الى قبيلة أخرى يقعون في دخالتها ويطلبون حمايتها[١] ويكفي للفرد أن يدخل خيمة رجل أو يمسك حبل الخيمة[٢] ( الطنب ) أو يرتمي بين يدي المرأة[٣] أو يذكر بأنه أصبح دخيلا لـكي يظفر بالدخالة والحماية • وكان على رجل القبيلة أن يحميه ويدافع عنه ، اذ أن رد الدخالة ليس من المروءة • ولـكن يجوز للحامي أن يفسخ الجوار متى شـــاء ، على أن يعلن ذلك في المحلات العـــامة ويعطي الدخيل مهلة ليدبر أمره •

والحلف قد يكون موقتا أو دائميا وتدافع القبيلة عن حلفائها باعتبارهم أفرادا منها ، وترثهم ان لم يكن لهم وارث في القبيلة[٤] ، وتعينهم في دفع دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبونه • كما انها تطالب بديتهم ان قتلوا ، ولـكن ديتهم عادة نصف دية الصرحاء ، كمـــا أن الحليف لا يقتـــل بالصريح[٥] •

ويتم الحلف عادة بالقسم ليكتسب صبغة قدسية وقد يصحبه لعق الدم

---

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء الساميين ص ١٤٨ فما بعد ( وسنرمز اليه جمعة ) ، محمد أحمد الحوفي : الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ٣١٧ فما بعد •

(٢) أغاني : ج ١٩ ص ٨٠ •

(٣) المحبر : ص ٤٣٣ •

(٤) الاغاني : ج ٢ ص ١٦٧ •

(٥) الاغاني : ج ٣ ص ٤١ •

ليعوض الدم الملعوق عن الدم الموروث[١] • وقد يغمس في الطيب كما حدث في حلف المطيبين في مكة[٢] •

لا يكون الحلفاء عادة مشاكل للقبيلة ، لان قبائلهم الاصلية قد تركتهم ونفضت أيديها منهم ، فلم تعد لهم علاقة بها ، ولذلك فهم يستطيعون تكوين علاقات جديدة مستقلة مع القبيلة الجديدة •

**العبيــــد :**

أما العبيد فأغلبهم من أسرى الحروب ولـكن بعضهم نتيجة الشراء وخاصة من أفريقية ، أو الولادة أو الدين ، أو القمار ويعملون عادة في الاعمال اليدوية والحلب ولا يشتركون في الحروب ويعاونون أسيادهم في الاعمال التي تسند اليهم • ولما كان الرق المتولد من الاسر له حالة خاصة فان الرقيق فيه يكون من العرب وقد تكون له مكانة في قبيلته ، والغالب انه يحسن معاملتهم • كما أن قبائلهم الاصلية تفكهم بالفداء أو بمبادلة الاسرى، اذ ليس من الشـــرف للقبيلة أن تترك أفرادهـــا المأسورين ارقاء عنـــد القبائل الاخرى •

**المـــرأة :**

لقدكان المجتمع البدوي يتبع نظام الابوة Patrimonial system[٣] ، فللرجل السيادة والسلطة على البيت وعلى المرأة وعلى الاولاد قبل البلوغ • ولـكن مع هذه الحقوق كانت للمرأة مكانة كبيرة تتناسب مع الخدمات التي تقوم بها اذ انها كانت تقوم بقسط كبير من العمل في البيت وخاصة في ذلك المجتمع القاسي الذي كان الرجال فيه يمتهنون الحرب والرعي ، ثم ان المرأة هي الوسيلة الوحيدة لانتاج الرجال الذين يزيدون قـوة القبيلة في

---

(١) الاغاني : ج٧ ص٢٦ وكذلك ابن منظور : لسانالعرب مادة سم•
(٢) سيرة ابز هشام : ج ١ ص ١٤٢ ـ ٣ •
(٣) جمعة : ص ١٢ •

السلم والحرب • وخاصة اذا كان أولادها « نجباء » قادرين على أن يكونوا لانفسهم مكانة مرموقة في المجتمع • ولا ريب ان المرأة كانت تقوم بنفسها بدور في الحروب ، كتضميد الجرحى ورعايتهم وتزويد المقاتلين بالزاد والماء ؛ هذا الى أن المرأة قد تكون مصدر ربح لوليها الذي يأخذ عند زواجها صداقا • وأخيرا فان المرأة قد توحي للشعراء بالخيال وللرجال بالطموح وقد تدخل في البيت بهجة وحياة روحية جميلة[١] •

وقد أعطتها هذه الخدمات مكانة مرموقة في المجتمع ، فكانت تعتبر من أهم عناصر الشرف ، والدفاع عنها من المروءة التي تستحق الفخر ، كما لا يجوز رفض من يستجير بها • ولا أدل على احترامها من مخاطبتها بالحرمة من الاحترام وبربة البيت كدليل على تقدير مكانتها فيه •

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي اليك رجال القوم والقربا[٢]

**الـوأد :**

والواقع ان المرأة كانت تلقي على الرجال أعباءاً ثقيلة في مداراتها والمحافظة عليها من اعتداء الآخرين أو من الفقر أو عاديات الزمن • وقد أدى بهم هذا الى الاغتياظ من ولادتها وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » ( النحل ٥٧ ـ ٩ ) « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين • واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » ( الزخرف ١٦ ـ ١٧ ) • وقد أدى هذا بالبعض الى أن يئد البنات تخلصا مما قد تلقيه من مسؤوليات •

---

(١) الحوفي : الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ١٥٧ • وعن مساهمة نساء قريش في بدر راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٥ ـ ٦ ، وعن مساهمتهم في أحد ج ٣ ص ٧ ، ٥٨ •

(٢) الحوفي : المصدر السابق ص ١٥٥ ـ ٦ • المرأة العربية ص ١٦٠ فما بعد •

يروي البعض ان الوأد حدث قبيل الاسلام عند بني تميم عندما حاربهم النعمان بن المنذر فأسر نساءهم ، ولما أرادوا افتداءهن رفضت بنت قيس بن عاصم شيخ بني تميم ، أن تفدى من الأسر وفضلت البقاء مع آسرها ، فقرر مع قبيلته أن يئد كل بنت تلد[١] . ولا ريب ان هذه النسبة غير دقيقة ، فهناك روايات تشير الى وجودها في قبائل أخرى ، فيروي الميداني عن الهيثم ابن عدي انه كان في قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الاسلام وقد قل الا في بني تميم فانه تزايد فيهم قبيل الاسلام ، رغم ان جد الفرزدق بذل مجهودا في ابطاله حيث كان يشتري البنات التي يريد أهلهن وأدهن[٢] ، ويقول السكري بأنه اشترى أربعمائة وأربعة جوار لافتدائهن من الوأد[٣] ؛ ويذكر القرطبي ان الوأد كان في مضر وخزاعة[٤] ، وقد تردد ذكر الوأد في القرآن الى درجة توحي بأنه كان مألوفا في الحجاز «واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » ( النحل ٥٧ ـ ٩ ) « يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » ( الممتحنة ١٢ ) « واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » ( التكوير ٨ ـ ٩ ) « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون .. » ( الانعام ١٣٦ ) « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءا على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ( انعام ١٤٠ ) « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق . نحن نرزقهم واياكم » ( الاسراء ٣١ ) « ولا تقتلوا أولادكم من املاق . نحن نرزقكم واياهم » ( انعام ١٥٠ ) .

---

(١) الاغاني : ج ١٢ ص ١٤٤ .
(٢) الاغاني : ج ١٩ ص ٢ ـ ٥ .
(٣) المحبر : ص ١٤١ .
(٤) تفسير القرطبي : ج ٩ ص ١١٧ .

ان الآيتين الاخيرتين ( الاسراء ٣١ ، الانعام ١٥٠ ) تظهران ان الوأد كان لعامل اقتصادي أما الآية الاولى ( النحل ٥٧ ـ ٩ ) تدل على ان الدافع اليه اجتماعي ، أما الآية ( ١٣٦ ، ١٤٠ من سورة الانعام ) فواضح منها ان الدافع ديني ؛ والواقع ان تقديم الضحايا البشرية للآلهة أمر معروف لدى الساميين ، فقد ذكر القرآن تقديم ابراهيم ابنه قربانا الى الله ، كما أشرنا من قبل الى تقديم المنذر بن ماء السماء الاربعمائة أسرى ضحايا للعزى[١] ، وأراد عبدالمطلب أن يقدم ابنه عبدالله ضحية وقربانا[٢] • وربما كان مما يتصل بالدين أن البنت توأد عادة عند ولادتها أو عندما تبلغ السادسة من العمر •

وكثيرا ما تعارض الأم في وأد البنت فيهددها الاب ، ويروي الطبري عن عكرمة في تفسير آية سورة الانعام انه « كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتئد أخرى ، فاذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها انت على كظهر أمي ان رجعت اليك ولم تئديها فتخدلها في الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها حتى اذا بصرته راجعا دستها في حفرتها ثم سوت عليها[٣] •

**مكانة المرأة :**

على ان الوأد لا يمكن أن يكون دليلا على احتقار العرب للمرأة ، فان بعض الآلهة كن بنات • والواقع ان المرأة كانت لها حقوق غير قليلة ، فكان لها الحق أن تمتلك أملاكا خاصة ، وخير مثل على هذا خديجة زوجة النبي ، وجليلة بنت المهلهل التي كان لها غنم يرعاها آخوها زيد الخيل[٤] • وهي

---

(١) انظر ص ٥٥ •
(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٧ وانظر أيضا سمث : القرابة والزواج ص ٢٩١ فما بعد •
(٣) تفسير الطبري : ج ٨ ص ٣٨ •
(٤) الاغاني : ج ١٦ ص ٤٩ ـ ٥٠ •

لا تفقد هذه الحقوق حتى بعد الزواج ، لان عقد الزواج كان يبيح للزوج حق الحياة مع الزوجة وحق انجاب الاولاد له ، لا حق تملكها . والغالب انها لا تزوج الا بعد أخذ موافقتها ولها الحق في رفض من لا تريده ممن يطلب يدها[١] . كما انها تظل حتى بعد زواجها مرتبطة بقبيلة أهلها التي تحميها وتدافع عنها[٢] ولبعضهن حق الطلاق[٣] ولذلك فهي تشعر بأن لها شخصيتها التي لا تذهب بعد الزواج رغم الحقوق الواسعة التي يتمتع بها الزوج . على انه لا ريب ان سلطتها تضعف كلما بعد محل سكنى زوجها عن قبيلتها .

**الامــــومة :**

وقد حملت هذه المكانة السامية بعض الباحثين ، وخاصة روبرتسن سميث[٤] ، على القول بأن العرب كانت تتبع في الازمنة القديمة نظام الامومة ، وهو النظام الذي تكون فيه المرأة هي صاحبة السيادة والسيطرة في المجتمع ، ويكون عادة سائدا في المجتمعات التي يمتهن رجالها الرعي والصيد ويقضون معظم أوقاتهم خارج بيوتهم . وقد استدلوا على ذلك من أن المجتمع البدوي العربي يمتهن أهله الرعي والصيد ، وانه يمكن أن نرى في اللغة العربية آثاراً لنظام الامومة : فالرحم تدل على القرابة فهم يقولون « وصل وقطع رحمــه » ، والبطن تطلق على احــدى الوحدات الاجتماعية في القبيلة ، وان كثيرا من القبائل تسمى بأسماء مؤنثة كخندف ومزينة وعاملة وعائدة ، كما ان كثيرا من الناس كانوا يسمون باسم أمهم . وقد ألف محمد بن حبيب السكري كتابا قيما فيمن سمى باسم أمه من

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٧٦ سمث : القرابة والزواج ص ١٦٦ فما بعد .

(٣) المحبر : ص ٣٩٨ .

(٤) سمث : القرابة والزواج ص ١٤٥ فما بعد أنظر أيضا ولــكن : الامومة عند العرب ( ترجمة بندلي جوزي ) محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٦٥ جمعة : ص ٧٩ فما بعد . الحوفي : المرأة العربية ص ٥٦ ـ ٦٧ .

الشعراء • بل يروى ان عوف بن محلم شرط على عمرو بن حجر عندما خطب هذا أم أياس بنت عوف أن « أزوجكها على أن أسمي بنيها وأزوج بناتها فقال عمرو بن حجر أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا وأما بناتنا فينكحهن اكفاؤهن من الملوك[١] » وجدير بالذكر ان أغلب الاشياء المهمة في الحياة كالشمس والارض مؤنثة[٢] • هذا الى أن شخصيات نسوية بارزة ظهرت في المجتمع الجاهلي في الدين والسياسة كالزباء التدمرية وسجاح التميمية وهند زوجة أبي سفيان وخديجة زوجة النبي • كما انه كان للخال مكانة كبيرة في النسب وكان يعتقد ان أغلب صفات الولد تورث من خاله فالعرب تقول نزعه عرق الخال[٣] ، ويقول الفرزدق « نزعتك والام اللئيمة تنزع » • ويقول جرير :

لا تطلبن خـــؤولة في تغلب      فالزنج اكرم منكم اخـــوالا

غير ان الادلة التي يسوقها ولـكن وسميث غير كافية لاثبات وجود الامومة عند العرب بل هناك دلائل تنقض ذلك : فالمجتمع السامي منذ عرف في التأريخ كان يعتبر الاب هو رأس الاسرة • والبعل أو الزوج هو السيد ، والقبائل المنسوبة الى أمها قليلة جدا اذا قورنت بمن دعي باسم أبيه ، كما ان أصلها قد يكون سببه الزواج بامرأتين مما يجعل الاولاد ينتسبون لامهاتهم لـكي يتميزوا ، يضاف الى ذلك ان صيغة التأنيث للفظ القبيلة لا لاسمها • وان زواج المباضعة والمتعة أحوال شاذة[٤] •

## الـــزواج :

لقد ذكرنا ان الوظيفة الرئيسية للمرأة هي انجاب الاولاد ، وانه

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٩١ •

(٢) فنسنك نظرية الجنس في اللغات السامية (بالانكليزية) انظر في الزواج أيضا : شترن الزواج في العهود الاسلامية الاولى •

(٣) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٣٣٥ •

(٤) انظر : جرجي زيدان : الانساب العربية وجمعة ص ٧٥ فما بعد ، ناشد سيفين : الامومة عند العرب (المقتطف سنة ١٩٣١) •

يتوقف عليها مستقبل العشيرة ومكانة الجيل الجديد ، فهي قد تنجب النجباء والسامين أو بالعكس ، هذا الى انها قد تقوم بدور سياسي واجتماعي هام فالزواج يؤدي الى ترابط الاسر البعيدة ، وقد يؤدي الى ترابط العشائر مع بعضها ؛ فان رابطة الفرد مع عشيرة أخواله قد لا تقل قوة عن رابطته مع أعمامه وفي هذا أثر كبير على تقارب الناس وتعاونهم •

لذلك كانت العرب تهتم باختيار الزوجة ، وكانوا يهدفون دائما أن تكون زوجتهم كفوءاً وأن تكون من النجيبات المتوفرة فيهن النجابة والذكاء والجمال • ويمكن أن نستنتج من أوصاف النساء المعجبات للشعراء بأن العربي كان يستذوق المرأة اذا كانت طويلة العنق فارعة القامة لينة الجسم ممتلئة الذراعين والساقين عظيمة الوركين ناعمة البشرة طيبة رائحة الفم •

**الزواج بالاباعد :**

لقد كانت العرب تعتقد ان الزواج بالاباعد أدعى الى انجاب النجباء من الاولاد[١] ، الا انهم قلما يميلون الى الزواج خارج العشيرة ، لان هذا يستلزم منهم أن يأخذوا من ترضى بترك عشيرتها وأهلها لتسكن مع عشيرة زوجها الغريبة البعيدة عنها ، والا فان الرجل اما أن لا يرى زوجته الا فترات قصيرة يزورها خلالها ، أو ان عليه أن يسكن مع عشيرة زوجته الغريبة عنه والتي قد لا تعطف عليه • لذا فان مثل هذا الزواج كان في الغالب مقصورا على رؤساء القبائل الذين يريدون مثل هذا الزواج لاسباب سياسية أو لكي يصاهروا من هو كفوء لهم • وقد يتزوج الخلفاء أيضا مثل هذا الزواج من خارج قبيلتهم الاصلية ، ويختارون زوجاتهم من القبيلة التي تجيرهم ، وهو أغلب شيوعا • وتستطيع المرأة الطلاق لمجرد تغيير باب خبائها او تضع عليه حجابا •

**الزواج الداخلي :**

فالزواج الشائع عند العرب اذاً هو الزواج في داخل العشيرة ، فهو

(١) الحوفي : المرأة العربية ص ١٢٦ •

أدعى الى أن تحافظ العشيرة على انسجامها ووحدتها ، ويتم عادة بأن يخطب الرجل ، أو من يرسله ، البنت من أبيها أو وليها وهو أقــرب أقربائهــا الكبار • وتستشار المرأة عادة في الزوج ، وقلما تجبر على الزواج بمــن لا ترغب • وليس من الضروري أن تكون موافقتها بالنطق ، بل ان سكوتها يكون دليلا على رضاها • وقد تخطب الفتاة عند الطفولة ، وتكون ملزمــة أدبياً بالزواج عندما تكبر ، ولكن يحق لها أن ترفض من يتقــدم لطلب الزواج منها •

**المهــر :**

وعلى الخطيب أن يدفع بعد الموافقة مهراً لأبيها ، ويختلف مقـداره باختلاف مركز الخطيب وابيه أو الفتاة وأبيها[١] • ولا ريب ان العــرب كانت تراعي في تزويج بناتها الاكفاء • وقد تعطى المرأة صداقاً أو هديــة لها • ولا يحق للرجل استرداد الصداق ، ولكن يحق له رد المهر اذا لم يتم الزواج ، بل انه كان الزوج أحياناً يطلب رد المهر اذا ماتت زوجتــه ، أو قد يطلب من أبيها أن يزوجه باختها بعد موتها •

واذا مات الرجل فلابنه الاكبر حق التزوج بها من دون مهر لان الاب كان قد دفع المهر • ويدعى هذا الزواج زواج الضيزن وقد حرمه القرآن بقوله تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم الا ما قد سلف انه كــان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ( النساء ٢٢ )[٢] » •

كما ان القرآن منع استرداد مايعطى للمرأة (الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله •• (البقرة ٢٢٩) « وان طلقتموهن من قبل

---

(١) الحوفي : المرأة العربية ص ١٤٩ ، ١٥١ جمعة : ص ٤٤ فما بعد ، سمث : القرابة والزواج عند العرب القدماء ص ٥٠ فما بعد •

(٢) تفســير الطبري : ج ٤ ص ٢١٧ • مصعب الزبيري : نسب قريش ص ١٠ ، ٩٩ • ابن قتيبة : المعارف ص ٥٠ ـ ٥١ • المحبر : ص ٣٢٥ •

أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » (البقرة ٢٣٧) « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً واثماً مبينا • وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا » ( النساء ٢٠ ) •

وقد يستعاض عن المهر بأن يدفع الخطيب أخته لأخ خطيبته بدل المهر ، ويدعى مثل هذا الزواج زواج الشغار ، وقد حرمه الاسلام فقال تعالى « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه فكلوه هنيئاً مريئاً » ( النساء ٤ )[١] •

**تعدد الزوجات :**

وللرجل حق الزواج بأكثر من واحدة • ولا ريب ان تعدد الزوجات موجود عند معظم الشعوب القديمة والابتدائية ، وله أهمية كبرى في تكثير عدد المولودين ، وتصريف النساء الفائضات في المجتمع الذي يزيد فيه عدد النساء على الرجال ، هذا الى أنه قد يحل مشكلة العقم • أي ان الرجل يحتفظ بزوجته العاقر اذا كان راضياً عنها ، ويتزوج بجانبها من تنتج له نسلا • ويقول الطبري نقلا عن الضحاك انه كان للرجل أن يتزوج عشراً[٢] ؛ ويعدد السكري أسماء عدد من الثقفيين تزوج كل منهم عشراً[٣] • وقد حدد الاسلام عدد الزوجات بأربعة « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » (النساء ٣) • وكان يجوز الجمع بين الاختين فحرم الاسلام ذلك « حرمت عليكم امهاتكم •• وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف » ( النساء ٢٣ ) •

---

(١) تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٦٢ • أما عن الاحاديث النبوية عن الشغار فانظر فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة شغار، جمعة : ص ٤٠ ـ ٤١ •

(٢) تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٥٧ •

(٣) المحبر : ص ٣٥٧ وانظر أيضا جمعة ص ٥٩ فما بعد •

**التسـري :**

وللرجل أن يمتلك ما شاء من الاماء • وقـد أقر الاسـلام تملك الجواري « وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكـم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعـدلوا فواحـدة أو ما ملكت أيمانكم » (النساء ٣) « حرمت عليكم امهاتكم •• والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم •• ومن لم يستطع منكـم طـولا أن ينكـح المحصنات المؤمنات فمما ملـكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (النساء ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) (انظر ايضاً النساء ٣٦ ، النحل ٧١ ، المؤمنون ٦ ، النور ٣١ و ٣٣ ، ٥٨ ، الروم ٢٨ ، الاحزاب ٥٠ ، ٥٢ ، المعارج ٣٠ ) • ولكن مكانـة الامـاء والسراري أقل من مكانة المرأة الحرة ، وأولادها احط مكانـة من أولاد الحرائر •

غير انه رغم فوائد تعدد الزوجات ، فانه لم يكن عاماً ، لأنـه كـان يلقي على الرجل عبئاً اقتصادياً ، فضلا عما يخلقـه من مشاكل عائليـة واجتماعية ، وما يحدثه من خصومات بين الضرائر •

**نكاح الرهط :**

والسائد في الجاهلية أن يختص المرء بزوجته ، ولكن هناك نوعاً من الزواج يدعى زواج المشاركة أو الرهط يشترك فيه عدة رجال بزوجـة واحدة • ولعل أصل منشئه الاسرى وصعوبة توزيعهن فتعطى لكل جماعة فتاة من الاسرى يشتركون فيها • وقد يكون منشؤه الصعوبات الماليـة في الزواج فيشترك الاخوة ف[illegible]حة واحدة • أو قد يكون بسبب الوراثـة ، اذ يرث الاولاد زوجة أ[illegible] يشتركون فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة انها ذكرت أربعة أنواع من الزواج ، أحدهما هو نكـاح الرهط وهـو ( أن يجتمع الرجال ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهـم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم قد عرفتم الذي من

أمركم وقد ولدت فهو ابنك يافلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق بـــه ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل [١] ) • وفي مثل هذا الزواج تختار الام عادة الاب من بين أزواجها المتعددين ، أو قد يسمى الولد باسم أمه •

ولا ريب ان هذا النوع من الزواج كان قليـل الانتشار وشـاذاً ، وكان يتطلب من الرجل تضحية كبيرة في عواطف الابوة ، والانانية التي هي عماد الحياة الزوجية •

**المتعـــة :**

والزواج عقد دائم بين الرجل والمرأة ، غير أنه كان في بعض الاحيان يحدد الزواج بمدة معينة يكون خلالها الاتصال حلالا ، فاذا انتهت المـدة حرم اتصال الرجل والمرأة • وتختلف مدة العقد حسب رضاء الطرفين ، ولكن يجوز تمديده بموافقة المرأة ، ويكون الاولاد تابعـين عادة لأمهم ، فهي التي تسميهم وتنسبهم •

وفي القرآن آية قد يفهم منها المتعة ، وان لم تكن صريحة في ذلـك « والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكـم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم بـــه منهن فآتوهن أجورهن فريضة و لاجناح عليكم فيما تراضيتم من بعــد الفريضة » (النساء ٢٤) •

وقد أباح الرسول المتعة فترة من الزمن ، في غزوة بني المصطلق وفي فتح مكة لمدة ثلاثة أيام[٢] ، ثم حرمت فيما بعد[٣] • والمتعارف ان الـذي

---

(١) البخاري : كتاب النكاح الباب الخامس عشر • وانظر ايضـا سمث : القرابة والزواج عند العرب القدماء ص ١٤٥ فما بعد ، جمعة : ص ١٤ فما بعد •

(٢) عــن ترخيص الرسول بنكاح المتعة انظـــر كتب النكاح في البخاري : الباب ٣١ ، النسائي الباب ٧١ ، مسلم ٣ ــ ١٥ ، ابن ماجة الباب ٤٤ ، الدارمي الباب ١٦ ، ابن حنبل ج ١ ص ٤٢٠ ، ٤٣٢ ج ٣ ص ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٣٩٣ ، ٣٧٠ ج ٤ ص ٤٧ ، ٥١ •

(٣) البخاري : كتاب المغـــازي : الباب ٣٨ ، كتاب النكاح : =

شدد في تحريمها هو عمر الذي استند على شهادة شهود في تحريم الرسول لها[١] • ولا ترى الشيعة ان هناك دليلاً ثابتاً على تحريم الرسول لهـا ، ولا تعترف بصحة الاحاديث المنسوبة الى النبي في تحريمها ، كما لا تعترف بأن تحريم عمر لها يقر الالتزام الشديد في المنع ، فهي لذلك لا تنكرها • والواقع ان المتعة تحل مشكلة العلاقات الجنسية وخاصة في المجتمعات التي تتخذ موقفاً صلباً تجاهها كالاسلام ، وخاصة في الاحوال التي يضطر فيهـا المرء الى الاقامة موقتا بعيداً عن أهله • ولكنها لا تحقق الغاية الاساسية من الزواج وهو ايجاد حياة اجتماعية مستقرة دائمية •

لقد كان الطلاق مباحا وهو أنواع : منه الطلاق المعروف ، والعـادة أنه يتم الاتفاق بين الزوج وابي الزوجـــة لكي يسترد الزوج الصداق • ولكن الزوج أحق بمطلقته من غيره اذا أراد الزواج بها • ويقول السكري: ( انه كانت عند الجاهلية ثلاث تطليقات • وقد أقر الاسلام ذلك ، وحرم جواز الرجوع الى الزوجة بعد التطليقات حتى تنكح زوجا غيره ) « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان •• فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حـدود الله يبينها لقـــوم يعلمون » ( البقـــرة ٢٢٩ - ٢٣٠ ) •

وهناك أنواع أخرى من الطلاق منها الظهار[٢] ، وهو أن يقـول

---

= الباب ٣١ ، كتاب الذبائح : الباب ٢٨ ، كتاب الحيل : الباب ٤ ، مسلم : كتاب النكاح ٢١ - ٣٢ ، ابن حنبل : ج ١ ص ٧٩ ، ١٠٣ ، ١٤٢ ج ٢ ص ٩٥ ، ١٠٣ ج ٣ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ج ٤ ص ٥٥ •

(١) مسلم : كتاب النكاح ص ١٦ - ١٧ • ابن حنبل : ج ٣ ص ٣٠٤ ، ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٣٨٠ • المسعودي : مروج الذهب ج ٥ ص ١٨٦ - ٩ • ويذكر السكري ان خالد بن عبد الانصاري وزيد بن ثابت وسلمة بن الاكوع وعبدالله بن عباس كانوا من أصحاب النبي ويرون المتعة ( المحبر : ص ٢٨٩ ) •

(٢) البخاري : كتاب الطلاق : الباب ٢٣ • ابن حنبل : ج ٤ ص ٣٧ ، ج ٦ ص ٤١٠ •

الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي أو اختي فتحرم عليه ، وقد أشار اليها القرآن « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا » ( المجادلة ٣ ، ٤ ) « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن امهاتكم » (الاحزاب ٤) .

ومن أنواع الطلاق الايلاء وهو أن يقسم الرجل يميناً بألا يمسها[١] ؛ وقد أقره الاسلام ، ولكن حدده بأربعة أشهر يقرر بعدها الرجل فيما اذا كان يبقي المرأة أم ينفصل عنها « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فان فاؤا فان الله غفور رحيم ، وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » ( البقرة ٢٢٦ - ٢٢٧ ) .

وقد تبقى الزوجة في عصمة الرجل ولكنه لا يمسها ، يريد بذلك أن يحرجها ويستغلها مادياً لترجع ما دفعه لها وقد حرم القرآن ذلك « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهن بالمعروف » ( البقرة ٢٣٠ - ٢٣١ ) « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة » (النساء ١٩) .

واذا مات الرجل فلا يحق للمرأة الزواج الا بعد أن تتربص سنة فلا تتزين خلالها[٢] ، وقد اشار القرآن الى ذلك باسلوب يفهم منه اقراره لذلك « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف » (البقرة ٢٤٠) .

---

(١) البخاري : كتاب الطلاق : الباب ٢٣ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ٣١٦ - ٣١٩ ، ٣٦١ . المحبر : ص ٣٣٨ .

ويبدو ان صداقة النساء للرجال ومخادنتهن كانت معروفة عند العرب ، ذكرها القرآن في معرض الانكار « محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان » (النساء ٢٥) . كما ان القصص الكثيرة التي يرويها الشعراء عن أيام الانس التي قضوها مع صديقاتهم اللواتي كثيراً ما تذكر اسماؤهن ، وخاصة في شعر امرىء القيس ، انما هو دليل على الحرية الواسعة التي كانت تعطى لمثل هذه العلاقات . والغريب اننا قلما نسمع بشاعر قتل أو هدد لوصفه ليالي الانس وتمتعه بخديناته ، وقد ظلت آثار ذلك بعد الاسلام كما يظهر من دراسة حياة عمر بن أبي ربيعة وغيره من شعراء الحجاز .

أما الزنا فقد كان موجوداً ، وان كنا لا نعلم مدى انتشاره ، وقد ذكره القرآن وشدد في تحريمه بعدة آيات « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء ٣٢) « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » النور (٢ - ٣) « يا ايها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » (الممتحنة ١٢) « والذين لا يدعون مع الله الاها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما » (الفرقان ٦٨) .

وفي القرآن تعبير آخر عن الفاحشة ، وقد تكررت في القرآن اربعاً وعشرين مرة ، مقرونة بالكبائر وبأنها من عمل الشيطان ، وان الله لا يأمر بها ، وهم يفعلونها لانهم وجدوا آباءهم عليها ، وتأتي النساء بالفحشاء ، « واللائي يأتون الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا »

(النساء ١٥) و « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن . الا أن يأتين بفاحشة مبينة » (النساء ١٩) « ومن يأت منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » (الاحزاب ٣٠) « يا أيها النبي اذا طلقتهم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله » ( الطلاق ١ ) وكل هذه الآيات تدل على ارتكاب بعض النساء الفحش الذي هو عمل وجدوا آباءهم عليه ( انظر الاعراف ٢٨) ويدلهم عليه الشيطان (انظر البقرة ١٦٩ ، ٢٦٨) وهي حرام (الانعام ١٥١ ، ٣٣) ؛ ومع أن الزنا فاحشة ومقت وساء سبيلا (الأسراء ٣٢) الا أنه يصعب الجزم بأن الفاحشة مرادفة للزنا ، بل الارجح ان اسم الفاحشة اسم عام لرذائل اجتماعية كانت موجودة ولا نعرف تفاصيلها .

وقد أشار القرآن ايضاً الى السفاح وهو الاتصال الجنسي غير الشرعي ، وتردد ذكره مقابل المحصن « واحل لكم ما وراء ذلك أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » (النساء ٢٤) « .. اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين و لامتخذي اخذان » (المائدة ٥) « وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات » (النساء ٢٥) .

لقد كان البغاء موجوداً ، وقد ورد ذكره في القرآن « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً » (النور ٣٣) وقد وردت كلمة الفتيات في آية اخرى بمعنى الامة « فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (النساء ٢٥) ، ويورد الطبري في تفسير هذه الآية اسماء عدد من البغايا ومن كان يملكهن ، مما يدل على وجوده[١] . والراجح انه يكثر في الاسواق والمدن كمكة والطائف ، وكان لبيوت البغايا عادة رايات يعرفن بها

---

(١) تفسير الطبري : ج ١٨ ص ١٠٠ ـ ١٠٤ . أنظر أيضا أغاني ج ١٣ ص ١٣٤ . الفاكهي : أخبار مكة ص ٣ . ياقوت ج ٢ ص ١٧٥٣ .

ولذا كان يطلق عليهن احياناً اصحاب الرايات[١] • ولا ريب انه لم يكن ينظر اليهن نظرة احترام ، والراجح ان اصل معظمهن من الجواري أو العبيد • وينسب ولد البغي عادة الى أمه • ولكنه قد ينسب الى من تختاره امه ممن اتصل بها ، ولعل اشهر ولد بغي هو زياد الوالي المشهور الذي كان يسمى باسم امه سمية ، ثم استلحقه معاوية بنسبه فصار يسمى زياد بن ابي سفيان •

---

(١) المحبر : ص ٣٤٠ • تفسير الطبري ج ١٨ ص ٥٥ ـ ٥٧ •

# الفصل الحادي عشر

# التنظيمات السياسية عند البدو

**القبيــــلة :**

القبيلة هي الوحدة السياسية عند البدو ، وهي كما رأينا ، جماعة من الناس ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون الى أصل واحد مشترك ، ويرحلون ويقيمون سوية ، وتربطهم رابطة العصبية وهي كما قال ابن خلدون :

« ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد ، لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم ، اذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم ، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم[1] » .

ويتضح من تعريف ابن خلدون هذا أن العصبية هي شعور التماسك بين من تربطهم رابطة دم نقية ، فهي لا توجد الا حيث يوجد المجتمع المعزول ، وانها دافع غريزي في الانسان ، قائمة على أساس رابطة الدم ، فهي دائمية ثابتة ، طبيعية لا مكتسبة ، وفيها عنصر أخلاقي يجعلها قوة اجتماعية وسياسية ، ولها أهمية كبرى ، اذ انها قوة سياسية دفاعية تربط بين الناس وتكتلهم فتعمل بذلك على بقاء المجتمع وتحفظ كيانه . فالعصبية اذاً تشبه الشعور القومي في عصرنا الحاضر . ولكن رابطة الدم فيها أقوى وأوضح مما في القومية .

وتستوفي القبيلة كافة مقومات الدولة سوى الارض المعينة الحدود . ذلك ان فيها شعباً يرى انه ينتسب الى أصل واحد ، ولها سيادة تامة ، كما

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٢ .

ان لها تقاليد وعرفاً تتبعه كالدستور ولا ينقصها الا أرض مثبتة الحدود • اذ أن القبيلة قلما تثبت في مكان واحد أمادا طويلة • بل تتجول من مكان الى آخر ، وان كانت في غالب الاحيان تكون لها منطقة خاصة تتجول في نطاقها وهي ما تدعى بالدار • أو قد تنشيء لنفسها حمى أي منطقة ثابتة من الارض لا يجوز لغيرها أن يخترقها أو يستعملها[١] •

**الفردية والتماسك :**

والبدوي يعتز بفرديته وشخصيته ، ويرى نفسه مساوياً لغيره من الافراد في الاصل والحقوق والواجبات ، وينفعل اذا حاول أحد مس هذه الفردية أو جرح شعوره بالمساواة • الا أن فرديته منسجمة مع الجماعة فهو متماسك مع جماعته ينصر اخوانه ظالمين أو مظلومين ويلبي دعوتهم اذا طلبوا النجدة أو اذا دهم القبيلة خطر يهددها بل انه يرضى عن طيب نفس أن يتحمل بعض مسؤولية أعمال غـيره فيساهم في دفع الدية عنهم ويشارك في الحروب التي قد تنشب نتيجة سوء تصرف أحد أفراد قبيلته أو نتيجة الاعتداء عليهم • والواقع أن الباقين ينظرون اليه كجزء لا ينفصل عن القبيلة ، فقد يحملونه جريرة غيره ويقتلونه مقابل قتيل لهم قتله أحد أفراد قبيلته[٢] •

ففردية البدو اذن ليست مظهرا للتفكك السياسي بل هي في نفس الوقت يرافقها الشعور بالجماعة الذي يزداد قوة وقت الخطر فيحمل البدوي أن يتناسى هذه الفردية تجاه المجموع ، وبدون هذا التعاطف لا تستطيع القبيلة أن تعيش وتدوم •

على انه رغم ان أســاس التماسك في القبيلة هو العصبية أو الشعور برابطة الدم ، الا أن هذا لا يجعلها ثابتة جامدة ، كلا بل هي قابلة للتوسع

---

(١) انظر لوكجارد : الضرائب الاسلامية في الازمنـــة الاولى ص ٢٠ ـ ٣٧ •

(٢) انظر في طبيعة البدوي : أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٧ فما بعد • بشر فارس : مباحث عربية ص ٧٥ فما بعد • لامنس : مهد الاسلام القسم الثالث (بالفرنسية) •

أو الانقسام • اذ أن حجم القبيلة يتوقف على المراعي ، وان عددها اذا ازداد لدرجة لا تتحمله مراعي مواشيها ، فانها تنشطر الى أجزاء صغيرة • وبجانب هذا فان القبيلة يمكن أن تقبل في عضويتها بعض الغرباء ليكونوا أحلافا فيها • ويحملون واجبات وحقوق مشتركة • ولـكنهم يحق لهم مغادرة القبيلة متى شاءوا فدرجة عصبيتهم أضعف وحقوقهم أقل •

**العلاقات السياسية :**

والعلاقات السياسية البدوية ذات صبغة أخلاقية ، فهي تتمثل بالشعور التعاوني الذي يعبر عن نفسه بواجب العصبية والاخوة وتحمل الفرد ، وأن يرحم الضعيف ويزور المريض ويطعم الفقير ويرعى الارملة ويشيع الموتى ويبذل في أيام القر والضنك لاطعام الضعيف • وواجباته تكون في الدرجة الاولى نحو أقربائه ثم نحو العشيرة التي يجب عليه أن يلبي نداءها في الحق والباطل • والعشيرة بدورها تقوم ببعض الواجبات عن الافراد كأن تفك العاني وتعين على دفع دين المدين ، أو تدفع الدية أو تأخذ الثأر • وهذه الصبغة الاخلاقية لا تقتصر على العلاقات الداخلية ، بل تشمل حتى العلاقات الخارجية ، اذ رغم عـدم وجود قوانين دولية أو قوة عليا ملزمة تطيعهـا العشائر ، فانه كانت هناك تقاليد خلقية متينـة من الوفاء ورعاية العهـود والاتفاقات • وكثيرا ما تكون مصطبغة بصبغات دينية ، لذا تكون قوية •

غير انه لا ريب وجد بعض من لا يخلصون في واجباتهم نحو أفراد العشيرة بل يتبعون مصالحهم الذاتية ويقومون بأعمال قد تجر للقبيلة عدة مشاكل كاقتراف جرائم القتل أو حماية المجرمين أو انتهاك الحرمات • فالحرية الفردية التي يتمتع بهـا البدوي اذا لا يحـدها قانون الزامي ، والمسؤولية الاجتماعية لم تكن واحدة بل هي أقوى تجاه العائلة منها تجاه بقية أفراد العشيرة •

ان زمالة الدم هي مبعث كافة الالتزامات السياسية والحربية في القبيلة • فعلاقة الفرد بالقبيلة كعلاقته بعائلته • وليس هناك فرق بين الشيء العام والخاص • بل ان الافراد ، نظريا على الاقل ، لهم جميعا نفس الحقوق

والواجبات ، ويقومون بواجباتهم نتيجة شعورهم بالمسؤولية نحو روح الاخوة والجوار ، لا نتيجة الزام سياسي أو قانوني ، اذ لم يكونوا ليحتملوا وجود طبقة مصطنعة فوقهم تحكمهم فلم تكن هناك محاكم ادارية . ولا ارادة مركزية للحكومة . ولا ضرائب أو واردات أو موظفون خاصون للجباية. اذ أنهم يشتركون جميعا في ادارة وظائف المجتمع[١] .

**المجلس :**

لكل قبيلة عادة مجلس هو ندوة لهم[٢] . يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعا . وليس هناك أوقات معينة لاجتماعه . والغالب أن يجتمع يوميا في المساء في بيت شيخ القبيلة ، وقد يجتمع في النهار ، أو قد يرسل مناد ينادي الناس للاجتماع . فهو لهم كالبرلمان .

يتحدث الناس في المجلس في مختلف الشؤون الخاصة ، ويبحثون الامور والمسائل التي تخص القبيلة ويناقشون الامور السياسية والخارجية فيه ، ولكل فرد فيه الحق في ابداء رأيه والدفاع عنه . ولكن الغالب أن يسود ذلقو اللسان أقوياء التفكير والمنطق والحجة في المناقشات ، وذلك بحكم مواهبهم لا بحكم القانون . ومن مصادر الفخر أن يكون الانسان من المتحدثين في المجالس . كما ورد ذلك في أشعارهم :

ولكن ستبكيني خطوب ومجلس   وشعث اهينوا في المجالس جوع
حمال الوية شهاد اندية   قوال محكمة جواب افاق
حمال الوية هباط اودية   شهاد اندية للجيش جرار

---

(١) انظر في ذلك المقال القيم الذي كتبه ولهاوزن عن المجتمع البدوي في الجزء السادس من تاريخ العالم للمؤرخين (بالانكليزية) .

(٢) اعتمدنا في بحث المجلس والرئيس وواجباته على البحث المفصل الذي كتبه لامفس في القسم الثالث من كتابه ( مهد الاسلام ) والذي وفى فيه ذكر الاشارات في الكتب العربية عن هذه الامور . ولناللينو بحث قيم في النظام السياسي البدوي .

اذا سيد منــــا خلا قام سيد  قؤول لما قال الــكرام فعـــول
لــكم نائل غمر وأحلام سادة  والسنة يوم الخطاب مســـالق

وفي هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم • ويظهر الخطباء مواهبهم • ويسمع الناس الآراء الطريفة والاحاديث الطيبة ، فهو اذاً مدرسة أدبية تربي الافراد على قوة البيان واللغة وتكشف المواهب الادبية والسياسية • وتتخذ قراراته بعد المناقشات ، بالاغلبية • والغالب ان المعارضة تذعن لهذه القرارات •

**الرئيســـس :**

تتجلى وحدة القبيلة بوجود شخصية عليا يطلق عليها أسماء مختلفة كالأمير والرب والرئيس والشيخ • فأما الرب فكان يستعمل قبل الاسلام للمالك أو الحاكم • فيقال رب الشام ورب الحجاز ورب الخورنق كما يقال رب انقبــة ورب الراقصات الى منى ورب الداميات نحورها وأرباب العقول والخطاب • ولــكن منذهجرة النبي وسيادة الاسلام بدأ هذا التعبير يتحدد في الله • اما تعبير الامير فكان عادة يستعمل للجيوش فيقال أمير السرايا وأمراء الشام ، واستعمل لقب امير المؤمنين فيما بعد باعتبار ان المؤمنين كانوا محاربين •

ولقب الرئيس استعمل في الغالب مرادفاً للقائد ، فهو بمثابة الرأس للقبيلة فيقال ( رئيس ورئيس فارس • ورئيس ربيعة ) •

اما الشيخ فكان المقصود فيه عادة الـكبير السن سواء ساد أم لم يسد •

واكثر الالقاب اطلاقاً هو السيد • ولما كان السيد عادة كبير السن وقائد القبيلة فكان أحيانا يوصف بالشيخ أو الرئيس أو الامير •

**صفات الرئيس :**

وكان المطلوب ممن يرأس أن يتصف ببعض الصفات الخلقية التي تُعد حيوية للمجتمع البدوي • وقــد عددها الجاحظ فقال « كان أهــل الجاهلية لايسودون الا من تكاملت فيه ست خصال : السخا والنجدة والصبر

والحلم والتواضع والبيان » . وقد أجاب قيس بن عاصم لما سئل كيف سودك قومك؟فقال « ببذل الندى وكف الاذى ونصرة المولى وتعجيل القرى .

فأصبحت في أمر العشيرة كلها كذى الحلم يرضى مايقول ويعرف
وذلك اني لا اعادي سراحهم ولا عن اخي حراتهم اتنكف
واني لأعطي سـائلي ولربما اكلف ما لا استطيع فاكلف

واني لأعفو عن سفيههم واحلم عن جاهلهم وأسعى في حوائجهم وأعطي سائلهم[١] » .

وقد رويت أقوال كثيرة تمتدح سخاء الرؤساء وبذلهم وخاصة أوقات الشدة . وذلك لا ريب أمر هام في المحيط البدوي الفقير والمعرض لعاديات الدهر ونكبات الطبيعة . اما البيان فضروري للافصاح عن الرأي والاقناع والادارة في مجتمع ليس فيه سلطة الزامية .

واما الحلم فيتطلب الذكاء والتسامح والنصح ، والنشاط ، وهي ضرورية لشعب يشعر بفرديته المتطرفة وينقاد لعواطفه العنيفة وليس للرئيس عليه سلطة قانونية أو عقاب .

وتتم الرئاسة بانتخاب حر بين الافراد لا بالوراثة . واذا حدث وانتخب رجل بعد أبيه فان ذلك يكون عادة لما يتصف به الرئيس الجديد من مميزات تؤهله للمنصب ، لا لبنوته للرئيس القديم . والواقع ان العرب لم تكن تفضل أن يخلف الابن أباه لما يجره ذلك من تقرير مبدأ الوراثة في الرئاسة وما قد يؤدي اليه من تقييد حرية البدوي .وليس في تاريخ العرب قبل الاسـلام أكثر من أربع أسر تتابع فيها أربعة أحفـاد بالتعاقب على الرئاسة[٢] .

على انه لابد للرئيس المنتخب من عصبية له في داخل العشيرة ، وقرابة

---

(١) الالوسي : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ج ٢ ص ١٨٧ .
(٢) مقدمة ابن خلدون : ( فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء ) ص ١٣٠ ـ ١٣١ . انظر كذلك الاغاني : ج ١٧ ص ١٠٦ .

تشد ازره وتسنده وتعينه على تنفيذ مطالبه • ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية وعلى الحسب والشرف • ومثل هذا الشرف لا يتوقف على فعال الخير فقط • بل على نقاوة الدم أيضا • وعلى هذا فلا تتم الرئاسة الا للصلبية أما الموالي والخلعاء فلا مجال لهم للحصول عليها[١] •

**واجبـــاته :**

كانت على الرئيس وجائب غير قليلة ، فعليه أن يعين الضعفاء ويواسي المنكوبين ويفتح في بيتـــه مضيفا للضيوف والوافدين ومندوبي العشـــائر الاخرى • ولـكنه لم يحتكر هذه الاعمال التي قد تستنزف ثروته ، فقد يقوم أي فرد في العشيرة بهذا العمل •

وعليه أن يدير المناقشات في المجلس • ويتولى المفاوضات الدبلوماسية مع القبائل الاخرى أو يبدي رأيه ، ولـكن ليست له سلطة قانونية لمنع أحد من الـكلام أو اقرار رأي دون آخر أو أن يفرض رأيه الا بقدر ما له من حجة في الاقناع •

وعليه أن يفض المنازعات ويحكم في الخلافات اذا لجأ اليه المتخاصمون، ولـكنه لا يحتكر وظيفة القضاء ، فقد يلجأ المتنازعون الى غيره من الحكام والعارفة الذين يشتهرون بدقة الحكم والتميز والعدالة سواء في العشيرة أو خارجها •

وهو يقود العشيرة في أوقات الحرب • ولـكنه لا يحتكر هذا • فقد يظهر قائد مبرز أو فارس شجاع يقوم بالقيادة •

وهو يقسم الغنائم بين المحاربين وله فيها حقوق أجملها البيت التالي :ـ

لك المرباع منها والصفايا     وحكمك والنشيطة والفضول

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ( فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية ) ( فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم ) ص ١٢٥ ـ ١٣٠ •

فالمرباع هو ربع الغنيمة • والصفايا هي الاشياء التي يصطفيها الرئيس لنفسه من خير ما يغنم والحكم هو أن يبارز الفارس فارساً قبل التقاء الجيشين فيقتله ويأخذ سلبه فالحكم في ذلك للرئيس ان شاء رده في جملة المغنم • والنشيطة ما أصاب الجيش في طريقه قبل أن يصل الى هدفه • والفضول ما يفضل من الغنيمة فلا ينقسم•وقد أشارت المصادر الى بعض ذوي المرباع كعدى بن حاتم(١) ورواحه بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي كان سيداً يسير بالمرباع فيقومه وولد الحارث بن رواحه بن منقذ عبدالحارث وعبد مناف بن عبد الحارث وسار بالمرباع فولد عبد مناف عبد سار بالمرباع أيضا •

وهو يقوم بكل هذه الوظائف والواجبات معتمدا على قوة الاقناع وقوة شخصيته ونفوذه اذ لم تكن له سلطة الزامية يجبر بها أفراد القبيلة على تنفيذ قراراته ، فلم تكن له شرطة لتنفيذ أوامره أو سجون يسجن بها من يعصيه • انه يفاوض أفراد القبيلة ويمارس ضغطا معنويا • وهو الاقدم بين أقرانه Primus inter pares له سلطات واسعة ولكن ليست له قوة حاكمة • وهذا ولا ريب لا يكفي لتسيير الشؤون الداخلية أو الخارجية للمجتمع • فعندما تعلن القبيلة الحرب مثلا لا يستطيع أن يعلن التجنيد الاجباري أو يفرض الانضباط أو يطلب طاعة مطلقة من الافراد • وكلما يستطيع عمله هو الهزء والسخرية والهجاء لمعارضيه ، غير ان صعوباته تكون عادة في تمشية المشاكل الداخلية أما عند حدوث خطر خارجي فيندر أن يمتنع الافراد أو يعصوا رئيسهم •

وقد جرت في الجزيرة محاولات لانشاء نوع من الملكية ، فيما عدا ما قام به المناذرة والغساسنة وأهل اليمن فيروي الطبري ان هوذه بن علي الحنفي لبس التاج(٣) ، ويروي الاصبهاني ان عباس بن أنس الدعلي كانت

---

(١) طبري ج ٦ ص ٥ ، ابن حزم : الانساب ص ١٦١ •
(٢) الطبري ج ٢ ص ١٣٣ •

بنو سليم أرادوا عقد التاج على رأسه[١] ، وفي يوم برزه كان « مالك بن خالد بن صخر بن الشريد وهو ذو التاج كان بنو سليم بن منصور توجوه ثم ملكوه عليهم فغزى بني كنانه وأغار على بني فراس بن مالك[٢] ، كما ان عبدالله بن ابي كان « قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم »[٣] . ولاريب ان هذا التتويج يعني ان لذوي التاج سلطات أوسع مما للشيوخ ، غير ان المعلومات القليلة لا تكفي لتحديد مدى الصلاحيات أو لتوضيح ماهية مناصبهم .

**العلاقات الخارجية :**

لقد كانت القبيلة تعد نفسها مستقلة استقلالا تاما . وفي حالة حرب دائمية مع غيرها . يباح لها أو لافرادها أن تأخذ كل ما تحصل عليه من الغير . فالغزو أمر طبيعي وقانوني عندهم . ودوافعه متعددة . منها الحاجة : فان اجداب الجزيرة العربية وأخطار الطبيعة قد تأتي على ما تملكه القبيلة فتضطر الى الغزو لتنهب من القبائل الاخرى أموالها ومواشيها . وقد تكون دوافع الغزو حب السيطرة والسيادة . ومن هذا القبيل معظم الحروب التي شنها المناذرة والغساسنة وكندة . أو قد يكون الغزو نتيجة عامل شخصي كأن يكون رئيس القبيلة حاقداً على قبيلة أخرى لسبب من الاسباب .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والادب أسماء عدد غير قليل من هذه الحروب أو أيام العرب[٤] كما يدعونها ، ولا ريب ان ما حفظ أقل بكثير من الحروب التي كانت تنشب سنويا وغفل عن ذكرها الرواة .

وعند دراسة أيام العرب التي يذكرها الرواة نجد ان أغلب هذه

---

(١) اغاني ج ١٧ ص ٥٥ .

(٢) ياقوت ج ١ ص ٥٦٤ .

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢١٦ .

(٤) انظر في أيام العرب : نقائض جرير والفرزدق . ابن عبد ربه : العقد الفريد ( الجزء الثاني ) . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ( الجزء الاول ) .

الحروب كانت تنشب بين فروع القبائل الكبيرة ، وقليل جدا منها قامت بين القبائل الكبيرة ، أو بين القبائل اليمانية والمضرية . فان الخصومة بين اليمن ومضر حدثت بعد الاسلام لا قبله .

ثم ان أغلب هذه الحروب وقتية أو غزوات قلما تدوم مدة طويلة ، أو تؤدي الى ابادة أحد الطرفين أو طرده من أراضيه أو تولد نتائج ثابتة معينة كأن تبقى قبيلة بكاملها خاضعة ومستعبدة لقبيلة أخرى ، فآثارها المادية من قتل وتدمير تافهة اذا قورنت بالحروب الحديثة ولكنها ولا ريب أدت الى حدوث حالة من القلق في الجزيرة . كما أن النهب والاسر الذي يصحبها يؤدي الى عدم الاستقرار في الجزيرة . وكان لها أثر كبير في ظهور تقاليد وعرف يشبه القانون الدولي اليوم ويتعلق بمعاملة الاسرى وفكاكهم وكيفية الحروب . ومثل هذه التقاليد قائمة على مبادىء أخلاقية هي مبادىء الشرف والمروءة . وكانت من أهم المصادر التي كونت قوانين السلم والحرب في الاسلام .

وقد حملت أخطار الحرب وتهديدات الغزو المستمر في الجزيرة بعض القبائل وخاصة الصغيرة والضعيفة منها الى أن تحالف القبائل القوية وخاصة المجاورة لها لتتقي شرها ، أو لتضمن المعونة والمساعدة اذا دهمها خطر مهدد . ويكون الحلف اما موقتا وهو الاغلب ، أو دائميا وكثيرا ما تسبقه مفاوضات وتمهيدات دبلوماسية وبعض المراسيم كالقسم ولعق الدم وغير ذلك لتوكيده[1] . أو قد يرافقه زواج الرؤساء .

وقد يكون غرض مثل هذه المخالفات التوسع ، أو قد يكون تثبت مركز شخصية بارزة ، ويكون للمتحالفين عادة حقوق وواجبات متبادلة .

ولا ريب انه كان للحلف بين القبائل أثر كبير في نشر الامن والسلام في بعض ربوع الجزيرة العربية ، كما كان عاملا مهما في تكوين دول أو شبه دول بينها ، هذا الى ان كثيرا من القبائل الكبيرة تكونت بواسطة التحالف ثم خلقت نسبها لتبرر التحالف .

---

(١) انظر في الامثلة على ذلك جمعة : ص ١٤٧ فما بعد .

# الفصل الثاني عشر

# المفاهيم القانونية عند البدو

لم يكن للبدو قانون منظم مكتوب ، بل كانت لهم تقاليد بسيطة واضحة يتمسكون بها أشد التمسك ومفعولها يقتصر على العشيرة ولا يتعـداه الى العشائر الاخرى ، وهي تقاليد على بساطتها صلبة جامدة الفوها ويصعب تغييرها ، اذ ان العربي بطبيعته محافظ على سنن آبائه لا يميل لتغييرها ، وقد لقي الرسول مقاومات شديدة عندما كان يريد تغيير سنتهم ، وتجد صدق ذلك في القرآن حيث يذكر في آيات كثيرة بمعرض الذم والسخرية « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم لمقتدون » ( الزخرف ٢٣ ) •

ولما لم تكن هناك سلطة تنفيذية تقتص للفرد أو تنزل العقاب بالجاني ، فقد كان يترك للمجنى عليه ان يقتص لنفسه ، وقد تعاونه العشيرة في ذلك ، الا ان الجرم كان يعتبر دائما حقا خاصا وليس هناك حق عام ، فاذا اعفى المجنى عليه لم يكن على الجاني أي عقاب •

والفكرة الاساسية في القانون الجنائي هو القصاص أو الانتقام ، فليس هناك اثر للعقاب الذي يستهدف الاصلاح وما الى ذلك فاذا جرح شخص آخر كان للمجنى عليه ان يطلب أن يجرح الجاني أو يقطع منه عضوا جريا على مبـدأ العين بالعين والسن بالسن ، أو قـد يطلب تعويضا عن الجرح يتناسب مع الجرح أو القطع وأثره • ذلك ان اساس العقاب هو التعويض عن الخسارة التي الحقت بالمجنى عليـه • وقد اتبع هـذا المبدأ بالجنايات والجراحات في الاسلام •

اما في حالة القتل ، فانه اذا قتل شخص آخر من عشيرته فان القبيلة تخلعه وتقصيه عنها ، فيغادرها ويصبح خليعا أو طريدا[1] ، فانه يضطر الى

(١) الاغاني : ج ١٣ ص ٢ العقد الفريد : ج ٢ ص ٧٢ • وقد =

أن يصبح صعلوكاً[١] سارقاً قاطع طريق ، أو قد يلجأ الى الاماكن المقدسة ليعيش في أمن حرمها ، أو الى قبيلة يحالف رجالا فيها ، والواقع ان عددا غير قليل من الحلفاء كانوا من هؤلاء الخلعاء •

واذا قتل رجل رجلا من غير قبيلته ، فان قبيلة المقتول ترى من واجبها أن تثأر له وتقتص من القاتل دون تمييز بين القتل العمد أو غير العمد ، ولـكن قبيلة القاتل عادة لا تسلمه بل تحميه ، الامر الذي قد يسبب توتر العلاقات بل واشتعال الحرب بين القبيلتين ، ولـكن قد ينتهي الامر بالسلم فيدفع مبلغا من المال دية لعشيرة المقتول •

وتختلف الدية باختلاف مكانة القاتل أو المقتول ، وحدها الاقصى ألف بعير وهي التي تدعى دية الملوك • ولما لم يكن هناك تدقيق واضح في مقدار الدية ، فانه قد يحدث خلاف ، اذ قد تغالى عشيرة المقتول بمركزه وقيمته وتأبى الا أخذ مبالغ كبيرة ، بل قد تصر على أن تثأر للمقتول بقتل القاتل ، أو من يعدله مكانه الامر الذي لا يحسم •فعندما قتل جساس كليباً أرسل التغلبيون رجالا منهم الى بني شيبان فأتوا مرة بن شيبان وهو في نادي قومه « فقالوا له انكم أتيتم عظيما بقتلـكم كليباً وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة ؛ وانا نعرض عليك خلالا أربعاً لـكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع اما أن تحيي لنا كليباً أو تدفع الينا قاتله جساساً نقتله به أو هماماً فانه كفء له أو تمكننا من نفسك فان فيك وفاءاً لدمه ، فقال لهم اما احيائي كليباً فلست قادرا عليه ، واما دفعي جساساً اليكم فانه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد ، واما همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة

---

= يخلع الفرد لسوء سلوكه • انظر البخاري : التاريخ الـكبير ج ١ قسم ٢ ص ٨٧ ، ابن قتيبة : المعاني الـكبير ج ١ ص ٢٠٨ ، الاغاني : ج ٨ ص ٥٢ ـ ٥٣ ج ١٩ص ٧٥ ، الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٧٦ ، البكري : ص ٥٣١ •

(١) الاغاني : ج ١٣ ص ٢ وانظر أيضا أحمد أمين : الصعلـكة والفتوة عند العرب •

كلهم فرسان فلن يسلموه بجريرة غيره ، واما أنا فما هو الا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما اتعجل الموت ، ولكن لكم عندي خصلتان اما احداهما فهؤلاء أبنائي الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم، واما الاخرى فاني أدفع اليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر ، فغضب القوم وقالوا قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب[١] » .

وكثيرا ما يلجأ في مثل هذه الحالات من الخلاف الى الحكم أو العارف[٢] ممن عرفوا بالاتزان واصالة الرأي والتمييز ، وقد يلجأون الى الكهان[٣] وليس من الضروري أن يكونوا شيوخ عشائر ، أو ذوي مراكز سامية ولكنهم يصدرون قراراتهم بعد دراسة الوضع ، ولكن رأيهم استشاري ، فليست لهم سلطات أو قوة تلزم الفريقين بطاعته وتنفيذه اذا لم يريدا من تلقاء نفسهما الرضوخ . فهؤلاء الحكام اذاً ليسوا قضاة بالمعنى المفهوم الآن .

وقد عدل الاسلام من هذه النظم فقنن الدية وجعلها ثابتة معينة يستوي في مقدارها الجميع لا فرق بين فرد وآخر ، كما جعل تنفيذها بيد السلطة العليا أي بيد الدولة ، فلا يجوز للفرد أن يقتص بنفسه ، وقد أبقى الاسلام المسؤولية المشتركة ، فأوجب أن تشترك القبيلة في دفع دية القتل غير العمد[٤] ، وبذلك منع الثأر وما يجره من مشاكل وويلات .

أما في حالة السرقة فان على من سرق منه شيء أن يفتش عن المسروق ، والعادة ان البدوي لا يرى في السرقة ما يناقض المروءة ، لذا قلما يظهر

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢١٨ . ويروى ابن هشام عن رجل من بني الديل انه « كان بنو الاسود بن رزن يؤدون في الجاهلية ديتين ديتين وتؤدى دية دية لفضلهم فينا » ابن هشام : سيرة النبي ج ٤ ص ٤ .

(٢) انظر ص ١٠١ .

(٣) ابن هشام : سيرة النبي ج ٢ ص ١٤٨ .

(٤) انظر كتابي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٣٥ .

ما سرقه ، ولكن الرجل المسروق يستطيع أن يعلن اللعنة على السارق ، اذ أن البدوي يخشى اللعان ويخاف شرها والغالب انه يعيد الشيء المسروق •

أما الوراثة فان العادة ان الرجال وحدها ترث ، أما البنات فلا يرثن[1]، ويقتسم الارث بين البنين بالتساوي ، وللرجل حق الوصية والهبة • وقد قرر الاسلام انه « للرجال نصيب مماترك الوالدان وللنساء نصيب » ( النساء ٧ ) وان للذكر مثل حظ الانثيين » •

---

(١) تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٨٥ • ابن حجر : الاصابة في معرفة الصحابة ج١ ص ٩٢ •

# الفصل الثالث عشر

# الدين الجاهلي (١)

## المعبودات

الدين هو الاعتقاد بكائنات غيبيـــة ذات قوى مؤثرة والقيام بطقوس وعبادات لها • وهو يتوقف على عقلية الناس وحالة الافراد • فكان له في القديم دور كبير • نظرا لان البشر كانوا آنذاك أشد محافظة ، كما ان فهمهم لمسببات الحوادث كان يختلف عن فهمنا ، فكانوا يرون ان وراء كل حركة أو ظاهرة قوة غيبية تسيرها • وهكذا كانوا يعتقدون ان للقوى الغيبية تأثيراً أوسع مما نعتقده له اليوم •

والدين يتطلب خبرة نفسية والقيام ببعض الاعمال للآلهة • فهو ليس بعمل فردي أو محاولة شخصية لاظهار الروحية الانسانية ، بل يشمل عملية حية متبادلة بين الانسان والقوى فوق الطبيعة • ومع ان للفرد في الدين أهمية كبيرة الا انه في الغالب كانت الاديان القديمة اجماعية تتعلق بالقبيلة كلها • فالاله للقبيلة كلها يحميها كلها ويشمل برعايته كافة أفرادها •

**علاقة الآلهة بالمجتمع :**

وللناس علاقة وثيقة بالآلهة ، والمرء يرث هذه العلاقات ويتأثر سلوكه بها باعتباره عضوا في المجتمع ، فلا فرق بين نظام الحياة والدين ، والاعمال

---

(١) استندنا في دراسة هذا الموضوع من الابحاث التالية :

(أ) روبرتسن سمث : محاضرات في أديان الساميين (بالانكليزية) وسنرمز اليه سمث •

(ب) مقـالة نولدكه عن الدين الجاهلي في دائرة معـارف الدين والاخلاق (بالانكليزية) وسنرمز اليها نولدكه •

(ج) محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام • وسنرمز اليها الاساطير العربية •

الاجتماعية العامة لها علاقة بالآلهة والبشر على السواء ؛ وهناك علاقة متبادلة فالاله يحمي القبيلة أو المجتمع ويدافع عنه ، وقد يضطر أحيانا أن يحارب الالهة الاخرى اذا اشتبكت القبيلة مع القبائل الاخرى • ولهذا لم يكن يستطيع المرء تغيير دياناته الا اذا غير قبيلته أو خرج عنها ، وهو أمر ليس من السهل القيام به •

وفي حالة ما اذا اختلطت القبائل أو الشعوب ذات الآلهة المختلفة فان اختلاطها يؤدي الى اختلاط الآلهة • وهذا يتخذ أشكالا متعددة فقد يقتصر هذا التغيير على تغيير صفات الاله الاصلي ، أو ان تضاف اليه صفات اخرى ، أو قد يصبح له اسمان ، وقد تجعل آلهة القبائل الاخرى أولادا أو اخوة لآله القبيلة الاصلية ؛ ومن هذا نشأت فكرة تعدد الآلهة •

**الاســـاطير :**

وتنشأ عادة حول الآلهة قصص وأخبار تشرح طبيعتها وأعمالها • وقد يتوارث الخلف هذه القصص ؛ وهي في الاصل ليست جزءاً من العبادات أو الدين ، ولا يجبر الناس على الاعتقاد بها ، فهي ثانوية بالنسبة للدين ، مستمدة من العبادات ومتنوعة • والغالب انها تفسر الاعمال والعادات الدينية ولـكنها ملذة تثير الخيال وتشوق للعبادة ، وتنمو عندما تضعف الطقوس الدينية • وقد تنشأ الاساطير نتيجة فلسفة قديمة تفسر الـكون ، أو قد تخلق لغرض سياسي يراد به جمع شمل الناس العباد ضمن وحدة واحدة ، أو قد تنشأ بمجرد الخيال والادب • ولا ريب انها ليست أساسية في الدين ، ولـكنها تضفي حياة جديدة وأهمية جديدة على الاشكال القديمة •

ولا ريب ان الاساطير تتضمن ما يميل الناس لتصديقه ، وهي كما ذكرنا ليست من جوهر الدين ولا تقتصر على الآلهة فقط ، بل قد تنسج حول الاشياء العادية ، وليس لها صفة رسمية بل قد تتغير •

**العقلية البدائية :**

ويلاحظ ان الانسان البدائي يخلط بين الواقع والتخيل ، فلا يميز

تمييزاً دقيقا بين ما يراه حقيقة وما يتصوره ، كما انه يميل دائما الى التعميم • وقد بدأ حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات ولاحظ مظاهر الحياة ، ثم اتسعت فكرته في معرفة مظاهر الحياة على وجه التعميم ، فظن انه لا فرق بينه وبين الموجودات في العصر الذي عرف فيه نفسه ، فظن ان للحيوان والجماد حياة حقيقية ، ولما رقت مداركه ظن ان الجمادات تحل فيها الحياة أحيانا ؛ أي ان لها شخصيتين ، احداهما جامدة والاخرى فيها حياة ، مثل حالنا في الحلم حيث نكون في حالة النوم ساكنين ولكننا قد نرى أحلاما نبدو فيها متحركين وما نحن بمتحركين •

ويسمى المبدأ الاول الذي تعتبر فيه الجمادات حية المذهب الحيوي Animism • والمذهب الثاني الذي يعتقد ان الجمادات قد تحل فيها الحياة المذهب الفتيشي fetishism • ونجد كلا المذهبين لهما آثارهما عند العرب • فالمذهب الاول يتجلى فيما روى عن اعتقادهم بأن الدم والهواء هما الحياة • وانهما مخلوقات حية كالطير ؛ وان اسافا ونائلة كانا بشرين ثم مسخا • وان الضب كان انسانا ثم مسخ ، وان بوادي حضرموت قوم يقال لهم الصعر تنقلب فرقة منهم ذئاباً ضارية أيام القحط ، هذا الى اعتقادهم بأن جبل قبيس يزيل وجع الرأس ، وان للنخل حياة • ومن مظاهر المذهب الثاني هو الاصنام التي هي جمادات يعتقدون ان الآلهة تحل فيها[١] •

**مصادر دراسة الدين الجاهلي :**

معلوماتنا عن الديانة العربية قبل الاسلام قليلة مشوهة ، لان الهدف الاول للاسلام كان محاربتها وازالتها ، كما ان المسلمين المتدينين لم يروا من الخير رواية أخبارها ، هذا الى انه لم تجر في الجزيرة العربية ، عدا اليمن وبلاد الهلال الخصيب ، حفريات منظمة قد يظهر فيها بعض التماثيل أو الكتابات التي تلقي عليها ضوءاً •

غير ان الاسلام الذي طمس أخبار الديانة الجاهلية لم يمحها تماما •

---

(١) راجع ما كتب عنهما في الاساطير العربية ص ٤١ ـ ٥٥ •

فقـد بقي لها ذكر غير قليـل • ففي القـرآن اشارات الى بعض الاصنام والمعتقدات الجاهلية ذكرت في معرض الرد عليها وتفنيدها ، هذا الى ان الاسلام لم يمح كل آثارها ، اذ أقر بعضها بعد أن عدلها أو حور الغايات منها ، كالحج والحرم وما الى هذا ؟ يضاف الى ذلك ان الشعر العربي الجاهلي الباقي لنا يتردد فيه أحيانا ذكر للآلهة القديمة وما يتعلق بالديانة • كما أنه بقيت في كتب الادب والتاريخ والاخبار أخبار متناثرة عن الديانة العربية القديمة والاصنام • ولعل أقدمها وأوسعها هو كتاب الاصنام لابن الـكلبي ، وما رواه المفسرون فيما يتعلق بالآيات التي تذكر الاصنام أو ما روى في معرض سيرة النبي وخاصة في سيرة ابن هشام أو اخبار مكة للازرقي أو في بعض المعاجم اللغوية والجغرافية • وجدير بالملاحظة ان هذه الـكتب تصف في الغالب الاصنام والاوثان وهي من المظاهر الفتيشية ، وانها قلما توضح طقوسها وعقائد الناس فيها أو مدى عمق عبادتها أو مدى انتشارها ؟ ثم ان بعض المسلمين الذين لم يشبعوا بروح الاسلام حافظوا لا اراديا على بعض المظاهر الوثنية حتى بعـد اسلامهم ، ومن الممكن بعـد دراستها وتحليلها ومقارنتها بما عند الساميين ، أن تكمل لنـا الصورة عن الديـانة العربيـة قبل الاسلام •

وربما كان من آثار الديانة القديمة انتشار أسماء أعلام مسبوقة بعبد وهي تدل في بعض الاحيـان على أسماء آلهة قديمـة ، كاسم عبد مناف ، وعبدالشارق ، وعبد شمس ، وعبدالعزي ، وعبد مناة • غير ان المضاف اليه في هذه الاسماء المركبة ليس من الضروري أن يشير الى الآلهة ، فلا نزال في العـراق نسمي عبدالزهرة وعبدالامير وعبدالحسين ، احتراما لهـم لا لعبادتهم ؟ كما أن هذه الاسماء قد تكون مرادفات ، كما نقول عبدالقادر وعبدالرزاق وعبدالمجيد ، وكلها مرادفات لاسم الله تعالى • ثم ان هذه الاسماء مختصرة جدا ، وغير كافية لالقاء نور واضح على الآلهة القديمة أو طبيعتها •

ان المعلومات الموجودة في المصادر الآنفة الذكر تعطينا صورة تقريبية لديانة الجاهليين قبـل الاسلام • ويبدو منهـا آثار لمعتقدات متنوعة كانت

موجودة جميعـا ، كالمذهب الحيوي والطوطمي والفتيشي • غير انه من الصعب جدا اظهار مدى أهمية وآثار كل من هذه المعتقدات والدور الذي لعبته ، اذ أن أغلب المعلومات السالفة الذكر تتعلق بديانات أهل الحجاز أو عن الوثنية عند ظهور الاسلام ، كما اننا لا نعلم شيئا مفصلا عن تطورهـا التاريخي ، اذ كل ما يذكر عن أصولها وتاريخها هو مجرد أساطير مختصرة غامضة يصعب فهم أصولها ومع ان الحفريات والمـكتشفات الاثرية في اليمن وبلاد الهلال الخصيب قد كشفت عن وجود كثير من الآلهة ، وألقت ضوءاً على طقوسها ومراسيمها وأفكارها ، الا انه من الصعب جـدا أن نوضح العلاقة بينها وبين آلهة الجاهليين ، أو التثبت مما اذا كانت العقوس والعبادات المتعلقة بهذه الآلهة هي واحدة • كما اننا لا نعرف بالدقة والتفصيل التوزيع الجغرافي للآلهة ، وأي القبائل كانت تعبد اي اله ، وأي الآلهة تشترك فيها القبائل وعدد القبائل التي تشترك في عبادة هذه الآلهة العامة ، وطقوسها ، والعلاقات القائمة بينها •

لذلك فان دراستنا عن ديانة العرب قبل الاسلام لا تزال ناقصة وكل محاولة في هذا الشأن ، ما هي الا محاولة أولية ناقصة ، رغم انها ضرورية لفهم الديانة الاسلامية التي كان هدفها الاول محاربة تلك الديانة •

**الاديان الخارجية :**

وجدير بالملاحظة ان الجزيرة العربية لم تكن منعزلة تماما بل تعرضت الى كثير من المؤثرات الخارجية • فقد جاءتها البعثات التبشيرية المسيحية من العراق وسوريا والحبشة ، وانشأت لها في القطر مطرنة كما انشأت لها عدة كنائس في اليمن وكانت عند ظهور الاسلام منتشرة في البحرين واليمامة واليمن وعنـد الغساسنة والمناذرة وطي وبكر وتغلب وكانت فرقا متعددة ولـكن أغلبها من النساطرة واليعاقبة • وقد تطرقنا الى انتشارها في اليمن وعند المناذرة والغساسنة •

أما اليهودية فلا نعلم بوضوح زمن دخولها الجزيرة أو تطورها[١] ، ولـكن يبدو انها جاءت بموجات متعاقبـة ، واستوطن اليهود في الواحات الخصبة من الحجاز ، كفدك وتيماء ووادي القرى وخيبر والمدينة ، كما انتشروا في اليمن واليمامة والبحرين وربما في عمـان • ومع ان الديانة اليهودية قومية غير تبشيرية وصلبة شديدة الطقوس الا انها انتشرت أيضا بين عدد من العرب وخاصة في المدينة كما سنتحدث في الجزء الثاني •

وهناك اشارات الى أديان فارسية دخلت الجزيرة ، ففي البحرين كان بنو دارم التميميون يدينون بالاسبذية ، واسمها مشتق من الاسب أي الفرس أو الحصان[٢] • ويدل اسمها على انها فارسية ، وان كنا لا نعلم تفاصيل هذا الدين أو من أين اخذت ، اذ لم يعرف عن العرب إنهم عبدوا الحصان •

والميمن ومكة أحوال دينية خاصة فأما اليمن فقد كشفت عنها الحفريات وأوضحت كثيرا من أخبارها ومعالمها واما مكة فان الـكتب والقرآن أوردت عنهـا معلومات واسعة كما ان لهـا علاقة وثقى بالاسلام لذا سنفرد لهـا بحثا خاصا •

**ديانة مكة :**

ويلاحظ ان القرآن يقدم عن الدين الجاهلي صورة تختلف تماما عما تقـدمه كتب التاريخ والادب ؛ والمعلومات التي فيـه قلما يقـدم الشراح والمفسرون عنها معلومات اضافية مكملة ، كما ان القرآن لا يتردد فيه ، بل واحيانا لا يشير الى ما يتردد في كتب التاريخ والادب • وجدير بالملاحظة

---

(١) راجع عن اليهودية في جزيرة العرب : مارجوليوث « العلاقات بين الاسرائيليين والعرب قبل الاسلام » (بالانكليزية) • وولفنسون « تاريخ اليهود في بلاد العرب » •

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٨ • ابن سلام : الاموال ص ٢٠ ـ ٢١ • ياقوت ج ١ ص ٢٣٧ ، ويذكر السكري في المحبر ص ١٣١ أسماء زنادقة قريش • كما يقول صاعد ان الزندقة كانت في قريش (طبقات الامم ص ٤٤) •

ان المؤرخين القدماء والمحدثين لم يحاولوا دراسة دين الجاهلية كما وصفه القرآن ، اللهم الا ما قام به حديثا محمد عزة دروزة في كتابه عصر الرسول .

وسنحاول هنا ايراد الصورة التي تتجلى في القرآن عن عبادة الجاهليين من أهل مكة ثم نذكر ما تورده المصادر التاريخية والادبية .

**الله :**

وفي القرآن آيات كثيرة تذكر بصراحة ان المشركين كانوا يعبدون الله « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون » ( المؤمنون ٨٤ - ٨٩ ) « ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » (الانعام ٦١) « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءاً فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » ( العنكبوت ، ٦٣ ) « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » ( لقمان ٢٥ والزمر ٣٨ ) « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون » ( الزخرف ٨٧ ) .

« هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » ( يونس ٢٢ ) « واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم » ( فاطر ٤٢ ) « وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » ( النحل ٥٣ - ٥٤ ) « أم من خلق السماوات والارض وانزل لكم من السماء ماءاً فانبتنا به حدائق ذات

بهجة ما كان لـكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون • أم من جعل الارض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون • أم من يجيب المضطر اذا دعـاه ويكشف السوء ويجعلـكم خلفاء الارض أءله مع الله قليلا مـا تذكرون • أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أءله مع الله تعالى الله عما يشركون أم من يُبَدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (النمل ٦٠ ـ ٤ ) •

**الشـــركاء :**

غير انهم « وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار » ( ابراهيم ٣٠ ) •

« قل أئنكم لتفكرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين » ( فصلت ٩ ) « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفـر بالله ونجعل له انداداً •• » ( سبأ ٣٣ ) « ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله » ( البقرة ١٦٥ ) •

« وجعلوا لله شركاء قل سموهم » ( الرعد ٣٣ ) « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » (يوسف ١٠٦) « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم » ( الرعد ١٦ ) « ذلـكم بانه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الحكيم » ( غافر ١٢ ) •

**بنات الله :**

وهؤلاء الشركاء هم ، أو معظمهم بنات الله « وجعلوا له من عباده جزءاً ان الانسان لـكفور مبين • أم اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين • واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم • أو من يُنَشَّئوا في الحلية وهو فيالخصام غيرمبين • وجعلوا الملائكة الذين هم عباد

الرحمن أناثاً اشــهدوا خلقهم ستكتب شــهادتهم ويسألون » ( الزخرف ١٥ - ١٩ ) . « فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون . أم خلقتنا الملائكة أناثا وهم شاهدون . ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين » ( الصافات ١٤٩ - ١٥٣ ) « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » ( النحل ٥٧ - ٥٩ ) « ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا . افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أناثاً انكم لتقولون قولا عظيما » ( الاسراء ٣٩ - ٤٠ ) « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » ( انعام ١٠٠ ) « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون . يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن أرتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » ( الانبياء ٢٦ - ٢٩ ) .

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا اداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا . ان دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، ان كل من في السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا » ( مريم ٨٨ - ٩٣ ) .

وهذه الآلهة التي عبدوها ليست في سويته تعالى بل هي من دون الله أي أقل منه مركزاً ورتبة ، وهم شفعاء لعابديهم عند الله « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبون بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » ( يونس ١٨ ) « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملــكون شيئا ولا يعقلون » ( الزمر ) « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء

ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون. ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار » ( الزمر ٣ ) . « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار » ( الزمر ٨ ) .

**الجبت والطاغوت :**

وفي القرآن أيضا ذكر للجبت والطاغوت « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ( البقرة ٢٥٦ - ٧ ) « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » ( النساء ٥١ ) « ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » ( النساء ٦٠ ) « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » ( النساء ٧٦ ) « قل هل انبؤكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً واضل سبيلا » ( المائدة ٦٠ ) « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ( النحل ٣٦ ) « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى » ( الزمر ١٧ ) .

ويلاحظ أن الجبت ذكر مرة واحدة مع الطاغوت الذي ورد ذكره في ثمان آيات سبع منها مدنية ، وقد ورد بصيغة المفرد المذكر مرة ، والمؤنث الجمع مرتين . وهو ولي الذين كفروا ، يضلهم ، ويتجنبه من يعبد الله ، ويؤمن به الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، ويريدون أن يتحاكموا اليه ، وهم يعبدونه ويقاتلون في سبيله .

وقـد اورد المفسرون في معنى الطاغوت روايات متعددة ، منها انه البيوت المقدسة ، أو كعب بن الاشرف ، أو صنما قريش أو صنمها الذي يحتكمون اليه[١] . ولا ريب ان تفسيرهم الطاغوت بالبيوت المقدسة أو كعب الاشرف لا ينطبق على منطوق الآية ، والراجح انه احد آلهة قريش ولما كان هبل هو الذي كانوا يستقسمون عنده ويحتكمون اليه ، فالراجح انه هو المقصود بالطاغوت . أما الرد على ذلك بعدم ذكر اسم هبل صراحة في القرآن فهو غير كاف لان القرآن لم يرد فيه ذكر لأي صنم أو اله كان في مكـة أو ما يجاورها ممـا ذكره المؤرخون كهبـل وأساف ونائلة ونهيك ومطعم الطير .

**الجـــن :**

لقد ذكر القرآن الـكريم ان العرب عبدوا الجن « قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم به مؤمنون » ( سبأ ٤١ ) « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا لـه بنين وبنات بغير علـم » ( الانعام ١٠٠ ) « وجعلوا بينه وبين الجِنَّةِ نسباً ولقد علمت الجِنَّةُ انهم لمحضرون » ( الصافات ١٥٨ ) .

وقد أشارت الـكتب الى بعض القبائل التي كانت تعبد الجن ، فيقول ابن الكلبي ان بني مليح الخزاعيين كانوا يعبدون الجن[٢] ، ويقول الطبري ان بني مالك بن اقيش كانوا من الجن[٣] وان آل عسر هم قبيلة من الجن[٤] ويقول الازرقي ان بني سهم سموا الغياطلة لانهم قتلوا الجن[٥] ، كمـا يروى ان عمار بن ياسر قاتل الجن[٦] .

---

(١) انظر عن الجبت والطاغوت تفسير الطبري ج ٣ ص ١٣ ج ٥ ص ٨٣ ، ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) ابن الـكلبي : الاصنام ص ٣٤ ( وسنرمز اليه دائما الاصنام ) .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٤) ياقوت : ج ٣ ص ٦٧٢ .

(٥) الازرقي : ج ٢ ص ١٢ .

(٦) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٧٩ .

لقد تصور العرب الجن كائنات غيبية ومخلوقات غريبة تملأ الارض وتصوروها تشبه البهائم ، ذات شعور طويلة ، وأحيانا تشبه بعض الحيوانات كالنعام أو الحية ، ولها قوة غريبة على الظهور والاختفاء بل وعلى تغيير أشكالها وظهورها أحيانا بأشكال انسانية . واذا اعتدى عليها أحد فأنها تنتقم بمسه فيصبح به جنة اي مجنوناً ، وقد يصاب بالامراض .

والجن في الغالب لا تعيش في المجتمعات الانسانية ، بل تعيش في البراري والقفار ، ولها مناطق خاصة بها كوادي عبقر . ولكن هذه المناطق ليست حرماً مقدسة ؛ وكان الناس يقدمون لها أحيانا الهدايا ، ومن الجدير بالملاحظة ان كلمة الجن هم اسم جنس لا اسم علم[١] .

لا تبحث كتب التاريخ والادب فيما بيناه ، بل تذكر وجود الاصنام في مكة ومن الجدير بالذكر أن القرآن لم يرد فيه ذكر الاصنام التي في داخل مكة ، كما ان الكتب لم تذكر لنا عن فهمهم وتصورهم لله تعالى أو الملائكة ؛ أما الاصنام التي ذكرت في مكة فأهمها :ـ

**هبـــل :**

وهو « أعظم أصنام قريش[٢] » . وكان على بئر في جوف الكعبة تجمع فيه الهدايا[٣] . وكان شعار قريش يوم أحد ( اعل هبل[٤] ) .

لا نعلم بالضبط معنى كلمة هبل أو اشتقاقه[٥] وربما كان مشتقاً من

---

(١) انظر عن الجن ما كتبه المسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥ ـ ١٦٠ . البكري : ص ٤٠٥ ، ٤١١ ، ٤٧٦ ، ٩١٧ ، ٩٣١ . وما كتبه سمث ص ١١٩ فما بعد ، و٥٣٨ فما بعد .

(٢) ابن هشام : سيرة الرسول ج ١ ص ٨٦ ( وسنرمز اليها سيرة هشام ) . الطبري : ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٧٣ ( عن ابن اسحق ) .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢١١ . الازرقي : ج ١ ص ٢٤ ، ٦٧ ج ٢ ص ٣٧ .

(٤) انظر عن هبل ما كتبه نولدكه ، وما جاء في الاساطير العربية ص ١١٤ ـ ١١٧ .

(٥) الاصنام ص ٨ . الازرقي : ج ١ ص ٢٧ ، ٥٤ ، ٦٩ . ويقول المسعودي وابن اسحق انه جيء به من البلقاء (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨) .

بل وهو إلاه معروف في بلاد الهلال الخصيب سنتحدث عنه فيما بعد • ومما يجلب النظر ان هبل وضع في الـكعبة ، مع أن الـكعبة بيت الله •

يروي ابن الـكلبي ان عمرو بن لحي الخزاعي جاء بهبل من هيت من العراق ونصبه على بئر الاخسف في بطن الـكعبة ، وكان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد ، فجعلت يده من ذهب[1] • وكانت حجاج قريش تطوف حوله وتحلق رؤوسها وتلبي عنده ( لبيك اللهم لبيك • اننا لقاح حرمتنا على أسنة الرماح يحسدنا الناس على النجاح[2] ) • ويروي ابن سعد عن ابن الـكلبي ان خزيمة بن مدركة هو الذي وضع هبـل موضعه فكان يقال له صنم خزيمة[3] •

وكان عند هبل سبعة أقداح ، كل قدح منها فيه كتاب : قدح فيـه العقل اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة ، وقدح فيه نعم للامر اذا أرادوه يضرب به ، فاذاخرج قدح نعم عملوا به • وقدح فيه لا ، فاذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح ، فاذا خرج قدح النعم عملوا به • وقدح فيه لا ، فاذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح ، فاذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الامر • وقدح فيه منكم ، وقدح فيه ملصق وقدح فيه من غيركم • أو قدح فيه الحياة ، اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به • وكانوا اذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحد منهم ذهبوا به الى هبل وبمائة درهم وجزور فاعطوها صاحب القداح الذي يضربها ، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا يا الهنا هذا فلان قد أردنا به كذا وكذا فاخرج الحق فيه ، ثم يقولون لصاحب القداح اضرب ، فيضرب ،

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ •

(٢) المحبر : ص ٣١٥ • وكلما سنورده من صيغ التلبية مستمد مما اورده هذا الـكتاب ص في ٣١١ ـ ٣١٥ • وقد أورد اليعقوبي صيغة اخرى لتلبيات العرب ( التاريخ ج ٢ ص ٢١٢ ) •

(٣) ابن سـعد : الطبقات ج ١ قسـم ١ ص ٣٩ ( وسنرمز الـ• الطبقات ) •

فان خرج عليه منكم كان وسيطاً ، وان خرج عليه من غيركم ، كان حليفاً ، وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف ، وان خرج من شيء سوى هذا مما يعملون به فقد عملوا به ، وان خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة اخرى فينتهون في امورهم الى ذلك مما خرج فيه القداح[١] . ويروي الازرقي ان قربانه مائة بعير[٢] يعطونها لغاضرة بن حبشية بن سلول الخزاعي[٣] .

ويقول السكري ان هبل كان لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة وكانت قريش تعبد صاحب بني كنانة وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[٤] .

**اساف ونائلة :**

أما أساف ونائلة ففي الرواية العربية أنهما في الاصل رجل وامرأة فسقا فمسخا حجرين فاخرجا من الكعبة ، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة ، وانما نصبا هناك ليعتبر بهما الناس ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا لما يرون من الحال التي صارا اليها ؛ فلم يزل الامر يدرس ويتقادم حتى صارا يمسحان ، يتمسح بهما من وقف على الصفا والمروة ، ثم صارا وثنين يعبدان ، فلما كان عمرو بن لحى أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما ، وقال للناس ان من كان قبلكم كان يعبدهما ؛ فكانا كذلك حتى كان قصي بن كلاب فصارت اليه الحجابة وأمر مكة ، فحولهما من الصفا والمروة ، فجعل أحدهما بلصق الكعبة وجعل الآخر في موضع زمزم ، ويقال جعلهما جميعا في موضع زمزم[٥] .

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ٢٧ ، ٦٧ ، أنظر أيضا سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٤ ـ ٥ . الطبري : ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) الازرقي : ج ١ ص ٦٩ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ١٢٥ .

(٤) المحبر : ٣١٨ .

(٥) الاصنام : ص ٢٩ . الازرقي : ج ٢ ص ٣٤ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٦ .

وكان أهل الجاهلية يمرون بأساف ونائلة ، ويتمسحون بهما ، وكان الطائف اذا طاف بالبيت بدأ بأساف فيستلمه ، فاذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها ، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح ، فكسرها رسول الله (ص) مع ما كسر من الاصنام[١] . وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة وينحر عندهما ويحلقون رؤوسهم . ولم تكن تدنو منهما امرأة طامث[٢] ، وكانت قريش تذبح عندهما الذبائح[٣] .

ويروي الشعبي والسكري ان أساف ونائلة كانا على الصفا والمروة[٤]. ونحن نرجح رواية الازرقي لانه أوسع اطلاعا على أحوال مكة وشؤونها . وكانت أساف ونائلة ، على ما يروي السكري ، لقريش والاحابيش .

أما ابن الكلبي فيروي عن ابن عباس ان عبادها كانوا خزاعة وقريشاً ومن حج البيت بعد من العرب[٥] . وكان نسكهم لأساف ( لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، الا شريك هو لك تملكه وما ملك ) .

**نهيك ومطعم الطير :**

ويروي الازرقي عن ابن اسحاق ان عمرو بن لحى نصب على الصفا صنما يقال له نهيك مجاود الريح ، ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير[٦] .

**اصنام منى :**

ويروي الازرقي عن ابن اسحاق « ان عمرو بن لحي نصب بمنى

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ١١٢ . ويرى الازرقي « ان في دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما اساف ونائلة كانا يعبدان في الجاهلية في ركن الدار » ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) الازرقي : ج ١ ص ٤٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ج ٢ ص ١٨ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٧٤ .

(٤) رواية الشعبي في تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٧ . ورواية السكري في المحبر : ص ٣١١ .

(٥) الاصنام : ص ٩ .

(٦) الازرقي : ج ١ ص ٧٣ ، الفاسي : ص ٦ .

سبعة أصنام : نصب صنما على القرين الذي بين مسجد منى والجمرة الاولى على بعض الطريق ، ونصب على الجمرة الاولى صنما ، وعلى المدعا صنما ، وعلى الجمـرة الوسطى صنما ، ونصب على شـفير الوادي صنما ، وفوق الجمرة الوسطى صنما ، وفوق الجمرة العظمى صنما ، وقسم عليهن حصى الجمار احدى وعشرين حصاة يرمى كل وثن منها بثلاث حصوات • ويقال للوثن الذي يرمى أنت أكبر من فلان ، الصنم الذي يرمى قبله[١] • غير أننا لا نعلم أسماء هذه الاصنام • كما ان القرآن لم يذكر اطلاقا أي صنم من الأصنام في مكة •

**منـــاف :**

ومعناه العلو ، وقد تسمى به عدد غير قليل من الناس ، منهم عبد مناف أحد أجداد النبي ، ويقول الطبري انه كان أعظم أصنام مكة[٢] ، كما يروي ابن حجر عن عمر بن شبة ان بني سلمة كانت تعبد منافا[٣] • غير أننا لا نعلم شيئا عن مكانه أو أمره شيئا •

**قـــزح :**

لم تذكر الـكتب العربية ان قزحا كان الاهاً أو صنما ؛ بل تذكر انه موقع على المزدلفة ، وكانت الحلة والحمس تجتمع عنده في الحج ، وفي الاسلام يقف عنده بالامام ، وعنده توقد النيران في الحج[٤] •

ويسمي العرب قوس قزح بالنسبة له ، ويرى كوك انه هو الاله كوز الادومي[٥] ، فكأن قزح كان اله المطر ، وان الطيف الذي يظهر بعد الامطار هو قوسه ، وان الناس في الحج كانت تتجمع عنده ، فاذا صح ذلك فمعناه

---

(١) الازرقي : ج ٢ ص ١٤٢ •
(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ •
(٣) الاصابة : ج ١ ص ٢٤٥ •
(٤) الازرقي : ج ١ ص ٣٢ ، ١٢٣ ج ٢ ص ١٥٠ ـ ١٥١ ، ١٥٤ • البكري : ص ٣٩٢ ـ ٣ • ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١١٨ ج ٤ ص ٨٥ • ام ج ٢ ص ١٨٠ •
(٥) انظر الاساطير العربية قبل الاسلام ص ١٣٢ ـ ١٣٣ •

اما أن تكون عبادته قد نسيت عند ظهور الاسلام أو ان المسلمين اطمسوا ذكره نظرا لان موضعه أصبح من طقوس الحج الاسلامية •

لقد ورد في القرآن ذكر لعدد من الآلهة الجاهلية كان مقرها خارج مكة ، وأوردت عنها كتب التاريخ والادب والجغرافية معلومات غير قليلة • وأهم هذه الآلهة هي اللات والعزى ومناة والشعرى ؛ وقد ذكرت في سورة النجم ؛ وبعل وقد ورد في سورة الصافات ، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا • وقد وردت في سورة نوح •

**العـــزى :**

وهي من الآلهة التي عبدها أهـل مكة وتسموا بها ، وكان يعبـدها اللخميون أيضا ، وقدم المنذر بن ماء السماء اربعمائة من أسرى الغساسنة ضحايا لها • ويقول بروكوبيوس ان هذه الضحايا قدمت لأفروديتي ، مما يحمل على الاعتقاد بأن العزى كانت تقابل أفروديتي أو نجمة الصباح • ويقول الطبري ان الزهرة عند العرب هي بالفارسية اناهيدا[١] ، وهذه النجمة هي التي تقابل عشتروت[٢] ، غير انه من الصعب الجزم بانّ العزي هي عشتروت أو نجمة الصباح ( الزهرة )[٣] لان اسمها مشتق من العزة ، أي القوة والرفعة • ولم يرو في الـكتب العربية أي دليل يشير الى نوع اختصاص العزي وعملها والهة أي شيء كانت •

لقد كان العزي في بطن نخلة « بواد من نخلة الشامية يقال له حراض بازاء الغمير عن يمين المصعد الى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال » • ويروي ابن الـكلبي ان الذي اتخذها ظالم بن

(١) تفسير الطبري : ج ١ ص ٣٦٣ •

(٢) انظر في ذلك ما كتبه نولدكه ، والاساطير العربية : ص ١١٩ – ١٢٥ وما كتبه بوهل عن ( العزى ) في دائرة المعارف الاسلامية •

(٣) لقد كانت الزهرة تدعى عند أهل اليمن يلمفة والمق ( بكري : ص ١٣٩٨ عن الهمداني ) •

اسعد ، أما ابن اسحاق فيقول ، فيمايروي الازرقي ، ان عمرو بن لحى هو الذي جاء بها ؟ وأما الازرقي فيروي ان أول من دعا لعبادتها هو عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب • ويروي محمد بن حبيب السكري انه عبدتها غطفان وقريش وغني وباهلة ، بينما يروي الطبري عن ابن زيد أنَّ ثقيفاً عبدتها • وفي رواية للازرقي ان نصراً وجشم وسعد بن بكر وهم اعجاز هوازن كانوا يعبدونها • ويروي الازرقي عن ابن اسحاق ان العزى كانت لخزاعة وأن قريشاً وكنانة كانت تعظم العزي • ويروي ابن الكلبي انها احدث من اللات ومناة وانها كانت تسمى بها وكانت أعظم الاصنام عند قريش وان قريشاً حمت لها شعباً من حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة وانه كانت قريش تخصها بالاعظام ولم يكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئا من الاصنام اعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها في الزيارة والهدايا لقرب مكانها منها • ويروي الازرقي عن ابن اسحاق انهم كانوا اذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة ، لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفون بها ويحلون عندها ويعكفون عندها يوما ، ويقول ابن الكلبي ان قريشا كانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح وانه كان لها منحر يذبحون فيه هداياها ، ويقال له الغبغب فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها ، وكان عندها[١] وكانت تلبيتها ( لبيك اللهم لبيك لبيك وسعديك ما احبنا اليك ) •

يروي الازرقي عن ابن اسحاق وابن الكلبي ان سدنتها بنو شيبان ابن مرة السلميون وان آخر سدنتها منهم دبية بن حرسي السلمي ، وكان قبله على ما يروي الازرقي أفلح بن النضر السلمي ، ولكن السكري وابن الكلبي يرويان أيضا ان سدنتها بنو صرمة ابن مرة • وقد هدمها خالد بن الوليد وقتل سادنها[٢] •

---

(١) الاصنام : ص ١٨ ـ ٢٧ • الازرقي : ج ١ ص ٧٤ ، ٧٨ ، ٢٣١ • وسيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٧ ، ٨٩ •
(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٢٨ •

**اللات :**

لقد كانت اللات من الآلهة البابلية ، وهي تمثل فصل الصيف ، كما كانت عند النبطيين بشكل صخرة بيضاء مربعة وهي تمثل ربة البيت كما كانت تعبد في تدمر وتسمى بها وهب اللات ابن أذينة ٠

وهي في العربية مؤنثة كلمة الله ويقول ابن الـكلبي انها أحدث من مناة ٠ وكانت صخرة مربعة في الطائف ، وكان لها على ما يروي السكري بيت يسترونه وواد يحرمونه ٠

وكانت قريش وجميع العرب تعظمها الا أن ثقيفاً كانت تخص اللات كما كانت قريش تخص العزي ، وكانت تلبية من نسك للات ( لبيك اللهم لبيك لبيك كفى بيتنا بنية ، ليس بمهجور ولا بلية ، لـكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحي البرية ) وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد لهدمها[١] ٠

**منـــاة :**

لقد كانت مامناتو من الآلهة البابلية وكانت مناتو عند النبطيين الهة القدر والموت ٠

أما في العربية فقد يكون اشتقاقها من القوة أو القطع أو من المنية أي الموت ، وقد اقسمت بها العرب ٠ ويروي الازرقي عن ابن اسحاق « ان عمرو بن لحي نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديداً وهي التي كانت للأزد وغسان ؛ يحجونها ويعظمونها ، فاذا طافوا بالبيت وافاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا الا عند مناة ٠ وكانوا يهلون لها ، ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة لمـكان الصنمين اللذين عليهما نهيك مجاود الريح ومطعم الطير ، فكان هذا الحي من الانصار يهلون بمناة وكانوا اذا

---

(١) أنظر عن اللات : الاصنام ص ١٦ ـ ١٧ ٠ الازرقي : ج ١ ص ٧٥ ٠ سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٤٨ ، ٩١ ، وكذلك مقالة بوهل عن اللات في دائرة المعارف الاسلامية ، ونولدكه ، والاساطير العربية ص ١١٧ ـ ١١٩ ٠

أهلوا بحج أو عمرة لم يظل أحد منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته » .

ويؤيد ابن الكلبي ما أورده الأزرقي اذ يقول ان مناة كانت منصوبة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، وهي قريبة من المدينة ، وان القبائل الساكنة بين مكة والمدينة ، يعظمونها ويذبحون لها ، ولكن الأوس والخزرج كانت أشد اعظاماً لها ، فكانوا اذا حجوا الى مكة يتمون طقوس الحج كلها ، الا حلق الشعر ، حيث يحلقون عنده ، ولا يرون لحجتهم تماماً الا بذلك . وكانت تلبية من نسك لها ( لبيك اللهم لبيك لبيك ، لولا ان بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك ما زال حج ثمج يأتونك ، انا على عدوانهم من دونك ) .

يروي ابن الكلبي ان مناة كانت أقدم الآلهة وقد تسمى بها عدد من مختلف القبائل ، وكانت احدى قبائل تميم تسمى بها ( سعد مناة وزيد مناة ) ولكن الغريب ان الأوس والخزرج لم ينتشر فيهم ولا في قريش هذه التسمية . ولقد كان لمناة بيت وكان سدنته الغطاريف من الأزد وقد بعث الرسول لهدمه سعيد بن عبيد الأشهلي ، وفي رواية أخرى علي بن أبي طالب[١] .

لقد ذكرت هذه الآلهة الثلاثة في القرآن « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . ألكم الذكر وله الانثى . تلك اذاً قسمة ضيزى » ( النجم ١٩ ـ ٢٣ ) ان هذه الآيات لا تنص بوضوح على انهن كن بنات الله ؟ ولكن سياق الاسلوب القرآني المكي يحملنا على القول بأن الآيه الثانية ذات صلة بالآيات الاولى ، وان أهل مكة كانوا يعدونها بنات الله .

---

(١) بالاضافة الى نولدكه ، ومقالة بوهل عنها في دائرة المعارف الاسلامية والاساطير العربية ص ١٢٥ ـ ١٢٩ ، أنظر أيضا الاصنام : ص ١٣ ـ ١٦ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٩٠ ـ ٩١ . الازرقي : ج ١ ص ٧٨ . تفسير الطبري : ج ٢ ص ٢٩ ـ ٣١ ، ج ٢٧ ص ٣٥ . المحبر : ص ٣١٦ . ياقوت ج ٤ ص ٦٥٢ .

ولقد بينا انهم كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله وشفعاؤهم عنده • ولكن لا تشير الاخبار المتوفرة لدينا الى اعتقاد العرب بأن هذه الالاهات الثلاث كن ملائكة ، كما لا يوجد في القرآن ولا في كتب التاريخ والادب واللغة ما يشير الى اختصاص هذه الآلهة أو الآلهة الاخرى أو العلاقات بينها ، ومن الصعب قبول ادعاء ان المسلمين تعمدوا طمس أخبارها لانها تناقض الاسلام ، فقد وردتنا بعض الاخبار عنها وألف ابن الكلبي فيها كتابا ، كما أورد ابن اسحق أخبارا عنها ، وقد روي من الشعر الجاهلي ما لا يطابق روح الاسلام ، فلماذا لايذكر عن هذه الآلهة شيء ولو بمعرض السخرية والرد ؟ وجدير بنا أن نؤكد ان هذه الآلهة لم تذكر في القرآن الا مرة واحدة عرضية كما ذكرت أصنام أخرى بصورة عرضية ، وانها لم تكن الآلهة الوحيدة في مكة أو في الجزيرة بل ذكرت أيضا آلهة أخرى فيها •

**الشعرى :**

فاما الشعرى فهي التي تسمى العبور[١] ، ويذكر مصعب الزبيري ان وجره بن غالب وهو من خزاعة ، وهو أول من عبد الشعرى ، وكان وجره يقول أن الشعرى تقطع السماء عرضاً فلا أرى في السماء شيئاً ، شمساً ولا قمراً ولا نجماً ، يقطع السماء عرضا • ووجره هو أبوه كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله (ص) اليه ، والعرب تظن أن أحداً لا يعمل شيئاً الا بعرق ينزعه شبهه ، فلما خالف رسول الله (ص) دين قريش قالت قريش نزعه أبو كبشة ، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى • وكانوا ينسبون رسول الله (ص) اليه وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة[٢] • ويذكر محمد بن حبيب السكري ان الحارث بن غبشان كان يعبد الشعرى، كما يذكر صاعد الاندلسي ان عبد قيس كانت تعبد الشعرى[٣] •

---

(١) تفسير الطبري : ج ٢٧ ص ٤٥ •

(٢) نسب قريش : ص ٢٦١ •

(٣) المحبر : ص ١٢٩ • طبقات الامم ص ٤٣ •

**الشـــمس :**

فأما الشمس فقد ذكر القرآن ان أهل سبأ كانوا يعبدونها « ووجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » (النحل ٢٤) • والواقع ان عبادة الشمس قديمة ، انتشرت عند معظم الامم القديمة ، وكان الاله شماس وشمس من أكبر الآلهة البابلية واليمانية ، كما يذكر سترابو ان أهل بطرا كانوا يعبدون الشمس • وقد انتشرت تسميـــة عبد شمس عند العرب ، وكانت عبادته في بني تميم ، وكان لـــه بيت ، وكانت تعبده بنواد كلها : ضبة وتميم وعدي وعكل وثورا ، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، وكانت تلبية من نسك له « لبيك اللهم لبيك لبيك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجـــه وحره وقره ، لا نتقي شيئاً ولا نضره ، حجاً لرب مستقيم بره » وقد هدمـــه هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[١]•

ولعل مما يتصل بالشمس الشارق[٢] ، الذي تسمى به العرب وعبده بعضهم وان لم تكن لدينا معلومات عن عبادته •

**بعـــل :**

أما بعل الذي ذكره القرآن باعتبـــاره الاهاً كان يعبـده قوم الياس « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » (الصافات ١٢٥[٣]) فهو من أشهر الآلهة القديمة ، فقد كان اله الارض عند البابليين ، ثم أصبح اله الخصب عند الاسرائيليين ، واله المياه الباطنية عند اليمانيين ، وتستعمل كتب الفقـه الاسلامية عند تصنيف الاراضي الزراعية « ما سقي بالبعل » أي الارض

---

(١) المحبر : ص ٣١٦ •

(٢) الزبيدي : تاج العروس مادة شرق •

(٣) وقد وردت كلمة بعل بمعنى زوج في موضعين بالقرآن ( النساء ١٢٨ ، هود ٧٢ ) •

التي تسقى بالآبار[١] ، فكأن هذا التعبير من آثار ما قبل الاسلام ، أي ما سقاه الاله بعل .

لقد ذكرت ان القرآن ذكر « وداً وسواعاً ، ويغوث ويعوق ونسراً باعتبارها من آلهة قوم نوح » .

**ود :**

أما ود فكان من أكبر الآلهة المعينية ، وقد ورد ذكره في النقوش الثمودية ، فأما عند ظهور الاسلام فكان موضعه بدومة الجندل ، وكان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة (أي جعبة) فيها نبل[٢] ؛ وهذا الوصف يوحي بأنه كان اله الحرب ، ولكن لاتشير الكتب العربية الى اختصاصه ، كما ان تلبيته لا توحي بشيء فقد كانت تلبية من نسك اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك معذرة » . وكان يقدم اليه اللبن ، ولا تشير المصادر الى أية علاقة بينه وبين ودان التي هي قرية في الحجاز .

كانت سدنة الاله ود من بني عامر الاجدار ، وقد بعث اليه الرسول خالد بن الوليد لهدمه ، ولكن بنو عبد ود وعامر الاجدار قاوموه فاشتبك معهم وانتصر عليهم ثم هدمه .

**سواع :**

فأما سواع ، فتسميته غامضة ، وكان برهاط من أرض ينبع ، وكانت تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس بن عيلان ؛ ولكن هذيل

---

(١) ابن سلام : الاموال ص ٤٧٦ ، ٤٧٨ . انظر عن بعل ما كتبه نولدكه ، وما كتبه الاستاذ طه باقر في كتابه مقدمة في حضارة وادي الرافدين ص ٢٤٦ .

(٢) الاصنام : ص ١٠ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ . المحبر : ص ٣١٢ ، ٣١٦ ، وكذلك نولدكه ، وكتاب الاساطير العربية ص ١٢٩ ١٣٢ .

اختصت به أكثر ، فكانوا يقدمون اليه الذبائح ، وقد ذكر ابن سعد خبراً ذكر فيه ان بقرة قدمت لسواع ، وكانت تلبية من نسك اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك ، ابنا اليك ، ان سواع طلبنا اليك » .

لقد كانت سدنة سواع من بني لحيان ، وكان سادنه عند ظهور الاسلام غاوي بن ظالم . وقد هدمه عمرو بن العاص(١) .

**يغــوث :**

أما يغوث فان اسمه مشتق من الغوث أو النجدة ، واسمه يشبه اسم الاله العبري يعوش ، مما حمل روبرتسن سمث على اعتبارهما الاهاً واحدا .

وكان عند ظهور الاسلام في اليمن تعبده مذحج وأهــل جرش ، ويذكر محمد بن حبيب السكري انه كان في انعم وكان لمذحــج كلها ، فقاتلهم عليه غطيف من مراد ، حتى هربوا به الى نجران ، فأقروه عنــد بني النار من الضباب من بني الحارث بن كعب واجتمعوا عليــه جميعاً ، وكان سادنه عند ظهور الاســلام العوامل بن جهيل الهمداني المسلمي . وكانت التلبية اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك احبنا بما لديك ، فنحن عبادك ، قد صرنا اليك »(٢) .

**يعــوق :**

أما يعوق فاسمه يدل على الاعاقة والمنع ، ولعل المقصود منع الشر ، فهو الحارس من الشرور ، وكان في قرية خيوان التي تبعـد ليلتين شمال صنعاء ، ولم يسم به أحد ، والتلبية اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك بغض الينا الشر ، وجب الينا الخير ، ولا تبطرنا فناشر ، ولا تفدحنا بعثبار(٣) .

---

(١) الاصنام : ص ٩ ـ ١٠ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ . الازرقي : ج ١ ص ٧٨ ، وانظر عن سدنته : المحبر : ص ٣١٦ . ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٤٨٢ .

(٢) الاصنام : ص ١٠ ، ٥٧ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ ، المحبر : ص ٣١٦ وعن سدنته ج ٣ ص ٤١ .

(٣) الاصنام : ص ١٠ ، ٥٧ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ . المحبر : ص ٣١٦ ياقوت ج ٤ ص ١١٢٢ .

**نسـر :**

ونسر اله قديم ، فقد وجد في نقوش ممفيس ما يفهم منه ان نسراً اله عربي ، وقد عبده الكلدانيون وتسمى بـه أشهر ملوكهم نبوخذنصر ، كما عبده الآراميون في سوريا ، وكان اله الحضر الاكبر .

أما عند الاسلام فكان في غمدان ، تعبده حمير وتعظمـه وتدين لـه وتلبي له . ولكن لم يتسم أحد به ولم يذكر في الشعر(١) .

يتبين مما تقدم ان الآلهة التي ذكرت في القرآن باعتبارها آلهة قـوم نوح ، كانت عند ظهور الاسلام يعبد أكثرها في اليمن ، والواقع أن المصادر الادبية لم تقدم عنها معلومات وافية ؛ كما أن القرآن لم يشر الى عبادات أو معبودات أهل اليمن ، ولم يذكر كثيراً من الاصنام التي يرد ذكـرها في الكتب وهي غير قليلة ، بعضها اجرام سماوية ، فيذكر صاعد الاندلسي ان تميماً عبدت الدبران ، وعبدت لخم وجذام المشتري ، وعبدت طي سهيل ، وعبدت أسد عطارد .

وهناك معبودات بأسماء الاماكن كذي شري وذي خلصة .

**ذو شرى :**

فأما ذو شرى فيبدو أن اسمه مشتق من جبل السراة ، وقد عبـده الانباط وسموا كثيراً من أولادهم به كعبد ذو شري ، وكان عندهم صخرة مربعة ارتفاعها أربعة أقدام وطولها قدمان ، ويسفح عليهـا أو أمامها دم الضحايا ، ويقول ابيفانوس انه كان يقام لها عيد في ٢٥ كانون الاول أي يوم الانقلاب الشتوي ، فاذا صح هذا فمعناه ، انه كانت لها علاقة بالشمس وكان عند ظهور الاسلام يعبده بنو الحارث بن يشبكر الازديون على ما يقول ابن الـكلبي(٢) .

(١) انظر في ذلك نولدكه وكذلك ياقوت ج١ ص٧١٤ ج٤ ص٧٨٠ .
(٢) الاصنام : ص ٣٨ وانظر أيضا نولدكه .

**الخلصـــة :**

أما ذو الخلصة فكان صخرة بيضاء عليها كهيئة التـــاج ولها بيت ، وكانت بتبالة بين مكة واليمن ، وكانت خثعم وبجيلة وأزد الســراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن يعظمونها ويهـــدون اليها ويلبســونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة ويصبون عليها اللبن ويذبحون لها كما كانوا يستقسمون عنـدها بالازلام ، وقـد استقسم عنـدها امرؤ القيس . وكانت سدنتها بني امامة من باهلة بن اعصر ، وقـد هدمها جرير البجلي بعد أن اشتبك مع سدنتها وعبادها بمعركة عنيفة ، وانشىء مكانها مســـجد العبلات بتباله[١] .

**الفلســـ :**

وهناك آلهة بأسماء أعضاء الجسم أو بشكل انسان مثل ذي الفلس الذي كان نتوءاً بارزاً في جبل اجا يشبه تمثال انسان ، وكانت طي تعبـده وتهدي اليه وتعتر عنده العتائر ، ولا يأتيه خائف الا أمن عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها اليه الا تركت له ولم تخفر حويته . وكان سدنتــه بني بولان . وقد هدمه علي بن أبي طالب بعد أن وجد عنده سيفين اهداهما اليه الحارث بن أبي شمر الغساني .

**آلهة اخرى :**

وقد ذكر ابن الـكلبي عدة آلهة أخرى منها ذو الكفين وكان لبني منهب بن دوس ، ورضا وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيـد مناة ، وسعد وكان صخرة طويلة بساحل جدة توقف عليه الابل وتهراق عليه الدماء وكان لمالك وملكان ابني كنانة . والا قيصر وهو لقضاعة ولخم

---

(١) الاصنام : ص ٣٥ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٩١ . الازرقي : ج ١ ص ٧٣ وقد الحق ناشر الـكتاب ملحقا طويلا عنها في نهاية الجزء الاول ، وانظر أيضا الاساطير العربية ص ١٠٤ . ياقوت ج ٢ ص ٤٦٢ البكري ص ٥٠٨ .

وجذام وعاملة وغطفان وكانوا يحجون لــه ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويخلطون شعرهم بالدقيق . ونهم وكان لمزينة وبه كانت تسمى هذه القبيلة عبد نهم وكانت تذبح عنده العتائر ، وله سادن من بني عداء المزينيين اسمه خزاعي .

وعائم وهو لأزد السراة وقد ذكره زيد الخيل .

وسعير لعنزة .

وعميناس وكان لخولان ، وفيه نزلت آية « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهــذا لشركائنا فما كــان لشركائهم فــلا يصل الى الله وما كــان لله فهــو يصل الى شركائهم ســاء ما يحكمون » ( الانعام ١٣٦ ) .

وقد ذكر محمد بن حبيب السكري(١) آلهة أخرى منهــا جهــار وكان لهوازن ومحارب بمكاظ في سفح جبل اطحل وكــان سدنتها آل عوف النصريين .

والسعيدة وكانت بأحد تعبدها الأزد وسعد هذيم وقضاعــة الا بني وبرة وكان سدنتها بني العجلان(٢) .

وذو اللبا بالمشقر ، في البحرين ، وتعبده عبد القيس وسدنته بنو عامر .

والمحرق بسلمان لبكر بن وائل ، وله أولاد موزعون على قبائلهــا ففي عنزة بلج بن المحرق ، وفي عميرة وغفيلة عمرو بن المحرق ، وسدنته آل الاسود العجليون .

وذريح بالنجير ، في جنوب اليمن ، لكندة .

ومرحب بحضرموت .

والمنطبق ، وكان صنما من نحاس ، وهو للسلف وعك والاشعريين . ( وهو من نحاس يكلمون من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله فلمــا كسرت الاصنام وجدوا فيه سيفاً فاصطفاه رسول الله (ص) وسماه مزدما(٣) .

---

(١) المحبر : ص ٣١٠ ـ ٣١٩ . معجم البلدان ج ٥ ص ١٦٧ .
(٢) ياقوت : ج ٣ ص ٩٣ .
(٣) ياقوت : ج ٤ ص ٦٦٥ .

ويذكر البكري عن ابن اسحق صنما اسمه ضمار كان لبني سليم يعبدونه وقد ورد في شعر عباس بن مرداس[١] .

كما ذكر ياقوت اوال صنم كان لبكر بن وائل[٢] ، وذو الرجل وهو في الحجاز[٣] ، وحلال اسم صنم لبني فزاره[٤] ، وعبعب وهو صنم كان لقضاعة ومن يقاربهم[٥] .

وأغلب ما يستعمل في الكتب العربية لوصف ما ذكرناه صيغة الضمير ، فيقولون (اتخذوا) أو (وكان لهم) دون أن يذكروا ماهيتها ، غير ان بعض مؤلفات المتدينين تصفها بأنها أصنام أو أوثان ، أما القرآن فيصفها بأنها آلهتهم أو أربابهم (المزيفة طبعاً) ولا ريب ان عدم استعمال الكتب العربية لكلمة آلهة هو خشية مؤلفيها من أن يلتبس هذا التعبير بالاله الحقيقي وهو الله تعالى .

**الاصنام :**

يعرف ابن الكلبي الصنم بأنه ( اذا كان معمولا من الخشب أو الذهب أو فضة صورة انسان فهو صنم ، واذا كان من حجارة فهو وثن[٦] ) . ويقول ابن الاثير ان الفرق بين الصنم والوثن هو ان الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الارض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد والصنم الصورة بلا جثة ، ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقها على المعنيين قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة ، ويقول شمران ان الاوثان عند العرب كل تمثال من خشب أو حجارة أو فضة أو نحاس أو نحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها[٧] ، وقد لاحظنا ان هذه

---

(١) البكري : معجم ما استعجم ص ٨٨١ .
(٢) ياقوت ج ١ ص ٣٨٥ .
(٣) ياقوت ج ٢ ص ٧٥٥ .
(٤) ياقوت ج ٢ ص ٣٠٢ .
(٥) ياقوت ج ٣ ص ٦٠٦ .
(٦) الاصنام : ص ٥٣ .
(٧) ابن منظور : لسان العرب ج ١٤ ص ٤٣٣ ج ١٥ ص ٢٤١ .

الآلهة بعضها بشكل انسان كهبل ، وان بعضها كان مجرد صخرة مربعة أو مستطيلة وان بعضها من الحجارة وبعضها من العقيق •

والراجح ان هذه الاصنام لم تكن هي الآلهة بل كانت سكناً لهم ولارواحهم فهي تمثل استقرار القوى الروحية في الاشياء المادية ، وهي ليست من الضروري أن تكون بصورة الآلهة ، ولكنها عندما تسف العقليات، تحاط ذاتها بالتعظيم كأنها الآلهة •

وقد ورد ذكر الاصنام في القرآن « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم » (الاعراف الآية ١٣٨) « رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الاصنام » (سورة ابراهيم ٣٥) •

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر اتتخذ أصناماً آلهة » ( انعام ٧٤ ) « قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين » (الشعراء ٢٧١) « وتالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » (الانبياء ٥٧) وكل هذه الآيات تتعلق بالاقوام القديمة اذ لم ترد في القرآن آية تصف العرب عند ظهور الاسلام بأنهم يعبدون الاصنام أو بأن لهم أصناماً •

**الاوثـــان :**

أما الاوثان فقد ذكرت في ثلاث آيات ، « وابراهيم اذا قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له واليه ترجعون » (العنكبوت ١٦ ، ١٧) • وقال ابراهيم « انما اتخذتم من دون الله أوثاناً مَوَدَّةَ بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » (العنكبوت ٢٤) « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأُحِلَّت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » (الحج ٣٠) • ولا ريب ان الآيتين

الاولين تتعلقان بقوم ابراهيم ، أما آية الحج فتنطبق على عرب الجاهلية وحجهم ، وتتطلب تنقيته وهو كما سنرى ، يتم في منطقة فيها عدد كبير من الآلهة والاصنام والانصاب وغيرها .

وليس في هذه الآية ما يشير الى أي نوع منها ، أما الآيتان الاوليان فيجدر أن نلاحظ ان قوم ابراهيم وصفوا في القرآن بأنهم عباد الاصنام ، فكأن الاوثان والاصنام في القرآن مترادفة .

ويروي الازرقي انه « أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم الا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة ، حيثما حلوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم الى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الاوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم من الظلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيهم ما ليس منه[١] » .

**الانصاب :**

أما الانصاب فقد ذكرت في القرآن في ثلاثة مواضع « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب » (المائدة ٣) « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان » ( المائدة ٩٠ ) « يوم يخرجون من الاجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون » (المعارج ٤٣) وتتعلق كافة هذه الآيات بالعرب عند ظهور الاسلام .

---

(١) الازرقي : ج ٢ ص ٦٢ ، أنظر أيضا الاصنام : ص ٦ ، سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ .

يقول ابن الـكلبي انه كانت للعرب حجارة غير منصوبة ، يطوفون بها ويعترون عندها ، يسمونها الانصاب ، ويسمون الطواف بها الدوار[١] ، ويروي الطبري عن ابن جريج ان النصب ليست بأصنام الصنم يصور وينقش ، وهذه حجارة تنصب ، ثلاثمائة وستون حجر ، منهم من يقول ثلاثمائة منها بخزاعة ، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة ، فقال المسلمون يا رسول الله كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق أن نعظمه فكان النبي (ص) لم يكره ذلك فأنزل الله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها (الحج ٤٣) . ويروي عن قتادة ان النصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك ، ويروي عن مجاهد انهم كانوا يذبحون عليها ، وعن ابن عباس والضحاك بن مزاحم انها حجارة كانوا يهلون لها ويذبحون عليها[٢] .

وقد ورد ذكر النصب في الشعر الجاهلي فقال عمرو بن جابر الحارثي :

حلفت غطيف لا تنهنه سربها　　　وحلفت بالانصاب أن يرعدوا

وقال المثقب العبدي :

يطيف بنصبهن حجن صغار　　　فقد كادت حواجبهم تشيب

وقال الفزاري :

أسوف بدلى محقباً انصابي　　　هل لي من قومي من أزباب

وقال المتلمس :

اطرتني حذر الهجاء ولا　　　واللات والانصاب لا تئل

وقال عامر بن وائلة :

فانك لا تدرين ان رب غارة　　　كورد القطا ريعانها متتابع

---

(١) الاصنام : ص ٤٢ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٦ ص ٤٨ ـ ٤٩ ، وانظر أيضا لسان العرب : ج ٢ ص ٢٥٦ .

نصبت لها وجهي ووردا كأنه      لها نصب قد خرجته النقائع

وقال زهير :

حلفت بأنصاب الاقيصر جاهداً      وما سحقت فيه المقاديم والقمل

وقال رشيد بن رميض :

حلفت بمائرات حول عوض      وانصاب تركن لدى السعير

وقال طرفة :

وأقسمت عند النصب اني لهالك      بمتلفة ليست بغيط ولا خفض

وقال أيضاً :

اني وجدك ما هجوتك والـ      انصاب يسفح بينهن دم[١]

يتضح مما ذكر أعلاه ان الانصاب هي أحجار ، وليس من الضروري أن تكون مصقولة أو بشكل تماثيل تشبه الآلهة ، ولكنها ذات علاقة وثيقة بالآلهة ومنها يتقبل الاله الهدايا المقدمة له[٢] ، كما قد تقام حول الحرم ، والواقع ان الانصاب التي كانت حول حرم مكة ظلت في زمن الاسلام ، فأمر الرسول ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان بتجديدها[٣] .

ولكن الغالب أن تقام النصب حول الاصنام ، وقد يطوف الناس حولها ، وكثيراً ما تقدم عليها الهدايا ، أو تذبح عليها الضحايا للآلهة ، ويسيل دم الضحايا عادة في كهف أو حفرة خاصة تدعى الغبغب[٤] ولعل الناس كانت تعتقد ان الغبغب مكان مقدس له علاقة بالآلهة ، وان الدم الذي

---

(١) الاصنام : ص ٤٢ ـ ٤٤ ، وانظر أيضا الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٣٠٣ فما بعد . أما عن الانصاب المكتشفة في الجزيرة فانظر جمعة : ص ١٥٧ فما بعد .

(٢) سمت : ص ٢٠٧ .

(٣) الازرقي : ج ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٤) الاصنام : ص ٢٠ . انظر أيضا لسان العرب : ج ٢ ص ١٢٨ .

يسيل فيه أو يسفك على النصب يمسه الآله ، وان اللحم الذي يضحى على النصب يكون للآله منه نصيب ، وبذلك تصبح بين مقدم الضحية علاقة دموية تستلزم من الاله أن يحمي المهدي وقد نفى القرآن الكريم ذلك عن الله تعالى في ضحايا المسلمين « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرناها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » (الحج ٣٧) وكثيراً ما كان العرب يقسمون عندها .

والانصاب كثيرة في الجزيرة ، وهي لا تبقى ثابتة بل تتغير وتتبدل ، ويروى انه كان في الكعبة يوم الفتح ٣٦٠ صنماً ولا ريب ان الكعبة لا تتسع لمثل هذا العدد من الاصنام ، كما لم يذكر العرب اسم أي صنم بالكعبة أو قربها غير هبل وأساف ونائلة والراجح أن المقصود بذلك الانصاب وانها لم تكن في داخل الكعبة بل حولها وفي مكة نفسها .

ليس في المصادر العربية ما يوضح العلاقة بين الاصنام والانصاب والاله ذاته .

**الاشجار المقدسة :**

لقد كانت بعض الاشجار مقدسة ومنها ذات أنواط ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب ، وهي شجرة عظيمة خضراء يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوماً ، وكان من حج منهم وضع زاده عندها ويدخل بغير زاد تعظيماً لها[١] .

وكان في بيت العزي ثلاث شجرات كانت تعلق عليها الهدايا ، كما كان أهل نجران قبل دخول المسيحية بلادهم يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة واذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء ثم خرجوا اليها فعلقوا عندها يوماً[٢] .

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ٧٧ ـ ٧٨ . ياقوت ص ٣٩٣ الطبري : التفسير ج ٩ ص ٢٩ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٢ ، وانظر ايضا الاساطير العربية ص ٥١ ـ ٥٢ .

ويلاحظ أن الشجرات المقدسة لم تعبد الا في الاماكن المنعزلة أما في الحرم أو الارض الخصبة فقد منع قطع شجرها . ولم يرو أنها عبدت ، والواقع ان الرسول خرق هذا التقليد فقطع نخل بني النضير فأثار كلام الناس حتى نزلت الآية التي تحل لهم ذلك « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين » (الحشر ٥) .

وقد قطع عمر بن الخطاب الشجرة التي عاهد تحتها المسلمون النبي على القتال في الحديبية والتي أشار اليها القرآن بقوله « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » (الفتح ١٨) وكان سبب قيامه بهذا العمل هو خشيته من تقديس الناس لها .

ويلاحظ أن الاشجار تنبت عند الينابيع والاماكن الخصبة حيث توجد الآلهة وهي تعتمد في حياتها على نفس سر الحياة الذي ينبعث من الينابيع فالشجرة ليست مقدسة لذاتها ، ولكن بسبب أنها المنتوج الطبيعي في الاماكن التي تعبد الاله الذي يرسل مجاريه التي تحيي الارض بعد موتها وليس هناك نوع خاص يقدس من الاشجار .

**الحـــرم :**

لما كان الاله مقدساً فقدسيته سري عادة على الامكنـــة والاشياء التي حوله ، وتعتبر تلك الاماكن حرماً والغالب أن يكون الحرم عاماً لكل القبائل وأحياناً يكون مقصوراً على القبيلة أو الاسرة التي ترعى الحرم .

وللحرم عادة حدود طبيعية واضحة تحددها ، كالوديـــان والتلول أو الجبال وهي في الغالب تشمل البلاد التي يسكنها عابدو الآلهة أو مـا يسري عليه تأثير الاله كمدى امتداد المناطق الزراعية[١] ، ويروي السكري « ان الشرى ما كان حول الحرم وهي أشراء الحرم »[٢] .

---

(١) راجع عن الحرم سمث : ص ١١٥ فما بعد . أما عن حرم مكة فراجع الازرقي : ج ٢ ص ٩٦ فما بعد .
(٢) البكري : ص ٧٨٦ .

وللحرم مصالح عامة ، ففيها مجلس عام وخزينة عامة ومحل اجتماع عام ، والواقع ان بعض الفقهاء في الاسلام حرموا كراء بيوت مكة . فكأنهم كانوا يعتبرون كل مكة ملكية عامة . ولكن نظرتهم لم تطبق فقد ظلت فيها ملكية خاصة ، والواقع انه منذ العصر الجاهلي كانت فيها ملكيات خاصة بل حتى دار الندوة كانت ملكية خاصة[1] .

وفي الحرم يعطى الاشخاص أو الاشياء الموجودة فيه نوعاً من الحماية القانونية وهي حماية محدودة في المكان ، ولكنها دائمية وهي في الغالب مطلقة وغير مقيدة ، وتكون هذه الحماية مصطبغة بصبغة دينية اذ أن الفرد يكون تحت حماية الاله . فمن دخل الحرم كان آمنا[2] ، ومن أحدث حدثاً في بلد غيره ثم لجأ اليه فهو آمن اذا دخله .

وتسري هذه الحماية على النبات والشجر فلا يجوز قطع شجرة وكذلك على الحيوان فلا يجوز الصيد فيه .

وتمتد هذه الحماية الى حرية الكلام ، ولعل أوضح مثل على ذلك حالة الدعوة الاسلامية حيث قام الرسول يسفه آلهتهم ويعيبها ولكن لم تجر محاكمة رسمية له ولم يصدر قرار بمنعه أو بمعاقبته . غير ان هذه الحماية تقتصر على الامتناع عن القتل والاعتداء البدني فكان من سنتهم ان الرجل يحدث الحدث بقتل الرجل أو يلطمه أو يضربه فيربط لحا من لحا الحرم قلادة في رقبته ويقول أنا صرورة ، فيقال دعوا الصرورة نجهله وان رمى بحضرة في رجله فلا يعرض له أحد . فقال النبي (ص) لا صرورة في الاسلام وان من أحدث حدثاً أخذ بحدثه[3] .

لقد ذكرت أن الحرم نشأ حول المياه عادة ، ويبدو انه كان حول كل

(١) أنظر ص ١٠٨ .
(٢) أنظر تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٠ .
(٣) الازرقي : ج ١ ص ١٢٥ . انظر ايضا لسان العرب : ج ٦ ص ١٢٣ .

بئر حيثما كان حرم صغير ، وقد أقر الاسلام حريم البئر بخمسين ذراعاً[١] . ولا ريب أن هذه سنة جاهلية أقرها الاسلام وكان الدافع لحدوثها على الارجح منع حدوث اشتباكات ومنازعات حول الآبار .

وبما ان أغلب المناطق المقدسة تكون حول الآبار ، لذا تنشأ حولها حياة مستقرة مدنية ، وتكون لها نظم تختلف عن نظم أهل الوبر .

قد ورد في الاخبار ذكر لعدد من الحرم كحرم الفلس[٢] وجلسد في حضرموت[٣] والعزى في وج[٤] ولكن أشهر حرم هو حرم مكة الذي لدينا عنه تفصيلات أوفى والذي مستمد منه ما ذكرناه من معلومات عن الحرم .

وقد أوجد الاسلام للمدينة حرماً[٥] . كما أقر حرم مكة ، وحرم وج[٦] . ولكن آثارها زالت ما عدا حرم مكة .

**البيوت المقدسة :**

لما بنى الناس البيوت في الحرم أقاموا بيوتاً للآلهة ، فالبيوت المقدسة اذاً هي أحدث من الحرم ، وهي تختلف عن النصب من حيث انها ثابتة ، لا يمكن أن تتحرك ، وكثيراً ما تكون فيها الانصاب والاصنام ، وهي ليست من الضروري أن تكون مسقفة أو مسورة ، اذ قد يكتفى بتحديدها . وتحاط البيوت عادة باحترام كبير ، كما نستدل عليه من تسمية بعض الناس باسم عبدالدار وعبدالبيت .

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٠٠ ـ ١٠٢ ، وهو يذكر حديثا عن الرسول بأن حريم البئر أربعون ذراعا ، وحريم الناضح ستون ذراعا ، وحريم العين خمسمائة ذراع . انظر أيضا ابن حنبل : المسند ج٢ ص٤٦٤ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٩١٢ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٠ .

(٤) الاصنام : ص ١٩ .

(٥) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٢٢ ، وأما عما ورد عنها في كتب الحديث فانظر : فنسنك الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة حرم .

(٦) سنن أبي داود : كتاب المناسك ٩٣ . محمد حميد الله : الوثائق السياسية في عصر النبي ص ١٢٣ .

وقد ذكرت الاخبار عدداً من البيوت المقدسة ، كبيت العزى ، وبيت اللات ، وكعبة سنداد ، وبيت رئام ، والسعيدة ، وذي الكعبات الذي كانت تحجه ربيعة في الجاهلية[١] ، وبساء وهو « بيت بنته غطفان وسمته مضاهاة للكعبة هو من قولهم لا افعل ذلك ما ابس عبد ربه وهو طوفانه حولها ليحبها »[٢] .

غير ان أشهر بيت وردتنا عنه معلومات وافية هو الكعبة وهي بيت الله ، وقد ورد ذكره في القرآن باسم الكعبة « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » (المائدة ٩٥) « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض وان الله بكل شيء عليم » (المائدة ٩٧) كما سميت بالبيت العتيق « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (الحج ٢٩) « لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق » (الحج ٣٣) . كما سميت البيت الحرام « ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » (المائدة ٢) « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » (المائدة ٩٧) . ولكنها ذكرت في عدد من الآيات باسم البيت « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » (البقرة ١٢٥) « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (البقرة ١٢٧) « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (البقرة ١٥٨) « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً » (آل عمران ٩٦) « وما كانت صلاتهم عند البيت الا مكاءاً وتصدية » (الانفال ٣٥) « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا » (الحج ٢٦) « فليعبدوا رب هذا البيت » (قريش ٣) « ربنا اني أسكنت

---

(١) انظر الاصنام : ص ٩٩ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ ـ ٩٤ ، البكري : ص ٦٩ ، ٦٢٠ . ياقوت : ج ٣ ص ٩٣ .

(٢) ياقوت : ج ١ ص ٦٠٩ ، ٦٢٢ .

من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » (ابراهيم ٣٧) .

ويتضح من الآية الاخيرة ان الكعبة هي بيت الله ، كما يتضح من الآية ١٢٧ من سورة البقرة ان بناءه يرجع الى زمن ابراهيم الخليل ، ولذلك صار البيت العتيق .

ليست لدينا معلومات وافية عن تاريخ الكعبة وتطوراتها قبل الاسلام ، وأول المعلومات الواسعة عنها تأتي في السنة الخامسة قبل البعثة النبوية وقد فصل أخبارها الازرقي وهي مجملة في احدى الروايات التي أوردها فقال : ( جلس رجال من قريش في المسجد الحرام فيهم حويطب بن عبد العزى ومخرمة بن نوفل فتذاكروا بنيان قريش الكعبة وما هاجهم على ذلك وذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك فقالوا : كانت الكعبة برضم يابس ليس بمدر[١] ، وكان بابها بالارض ولم يكن لها سقف وانما تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من بطنها . وكان في بطن الكعبة عن يمين من دخلها جب يكون فيه ما يهدى الى الكعبة من مال وحلية كهيئة الخزانة[٢] . وكان يكون على ذلك الجب حية .. فلم تزل كذلك حتى بنت قريش الكعبة . وكان قرنا الكبش الذي ذبحه ابراهيم خليل الرحمن معلقين في بطنها بالجدر تلقاء من دخلها ، يخلقان ويطيبان اذا طيب البيت ، فكان فيها معاليق من حلية كانت تهدى الى الكعبة ، فكانت على ذلك من أمرها . ثم ان امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها[٣] وكانت الكسوة عليها ركاماً بعضها فوق بعض . فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانا من كل جانب وتصدعت . وكانت الخرب الاربعة عليهم مظلة والسيول متواترة ، ولمكة سيول عوارم ، فجاء سيل عظيم على تلك الحال فدخل الكعبة وصدع جدرانها وأخافهم ففزعت

(١) أنظر أيضا الازرقي : ج ١ ص ٩٩ ، الطبري : ج ٢ ص ١٩٨ ( عن ابن اسحق ) .
(٢) أنظر كذلك الازرقي : ج ١ ص ٢٥ ، ١٠٠ ، ١٢٨ .
(٣) أنظر أيضا الازرقي : ج ١ ص ٢٨ .

من ذلك قريش فزعا شديدا ، وهابوا هدمها وخشوا أن مسوها أن ينزل عليهم العذاب . قال فبيناهم على ذلك يتناظرون ويتشاورون اذا اقبلت سفينة للروم ، حتى اذا كانت بالشعيبة وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة ، انكسرت فسمعت بها قريش ، فركبوا اليها ، فاشتروا خشبها ، وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم على أن لا يعشروهم . قال وكانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم كما كانت الروم تعشر من دخل منهم بلادها . فكان في السفينة رومي نجار بناء يسمى باقوم .

فلما قدموا بالخشب مكة قالوا : لو بنينا بيت ربنا ، فاجمعوا لذلك وتعاونوا عليه وترافدوا في النفقة وربعوا قبائل قريش ارباعا ، ثم اقترعوا عند هبل في بطن الكعبة على جوانبها ، فطار قدح بني عبد مناف وبني زهرة على الوجه الذي فيه الباب وهو الشرقي . وقدح بني عبد الدار وبني أسد ابن عبد العزي وبنى عدي بن كعب على الشق الذي يلي الحجر وهو الشق الشامي . وطار قدح بنى سهم وبنى جمح وبنى عامر بن لؤي على ظهر الكعبة وهو الشق الغربي . وطار قدح بنى تيم وبنى مخزوم وقبائل من قريش ضموا معهم على الشق اليماني الذي يلي الصفا وأجياد ؟ فنقلوا الحجارة ، ورسول الله يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي .. فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجر[1] والخشب وما يحتاجون اليه عدوا على هدمها .. فهابت قريش هدمه وقالوا من يبدأ فيهدمه ؟ فقال الوليد بن المغيرة أنا ابدؤهم في هدمه .. فهدمت قريش معه حتى بلغوا الاساس .. فلما جمعوا ما أخرجوا من النفقة قلت النفقة عن أن تبلغ لهم عمارة البيت كله ، فتشاوروا في ذلك ، فأجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعد ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته في الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه ففعلوا ذلك ، وبنوا في بطن الكعبة

(١) لقد جاؤا بالحجارة من حراء وثبير والمقطع والخندمة وجبل حلحلة ومقلع الكعبة ( الازرقي ج ١ ص ١٤٥ ـ ٦ ) أي من معظم الجبال المحيطة بالكعبة .

أساسا يبنون عليه من شق الحجر . وتركوا من ورائه من فناء البيت في الحجر ستة أذرع وشبرا ، فبنوا على ذلك ، فلما وضعوا أيديهم في بنائها قالوا : ارفعوا بابها من الارض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقا الا بسلم ولا يدخلها الا من أردتم ، ان كرهتم أحدا دفعتموه ففعلوا ذلك . وبنوه بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا الى موضع الركن فاختلفوا في وضعه وكثر الكلام فيه .. فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع وشبرا ، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعا على هذا الذرع ، ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجر حتى بلغوا السقف ، فقال لهم باقوم أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبسا أو مسطحا ؟ فقالوا بل بيت ربنا مسطحا ، فبنوه مسطحا وجعلوا فيه ست دعايم في صفين في كل صف ثلاث دعايم من الشق الشامي الذي يلي الحجر الى الشق اليماني ، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الارض الى أعلاها ثمانية عشر ذراعا ، وكانت قبل ذلك تسعة أذرع ، فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسعة أذرع أخر وبنوها من أعلاها الى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب ، وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً والحجارة ستة عشر مدماكاً ، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر ، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها الى ظهرها ، وزرقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعايمها ، وجعلوا في دعايمها صور الانبياء وصور الشجر وصور الملائكة ؛ فكان فيها صورة ابراهيم خليـل الرحمن شيخ يستقسم بالازلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين[١] . فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله (ص) البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبدالمطلب فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست . قال ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال :

---

(١) لقد ورد ذكر الصور في الـكعبة في بعض كتب الحديث : انظر مثلا البخاري : كتاب الحج الباب ٥٤ ، كتاب الانبياء : الباب ٦٠ ، كتاب المغازي : الباب ٤٨ . انظر ايضا ابن حنبل ج ١ ص ٢٧٧ ، ٣٣٤ ، ٣٦٥ ج ٣ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٨٣ . انظر ايضا المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ .

امحوا جميع الصور الا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه[١] ، ونظر الى صورة ابراهيم فقال قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالازلام : ما لابراهيم وللازلام وجعلوا لها باباً واحدا فكان يغلق ويفتح ، وكانوا قد أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال وقرني الكبش وجعلوه عند أبي طلحة عبدالله بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار بن قصي ، وأخرجوا هبل وكان على الجب الذي فيه نصبه عمرو بن لحي هناك ، ونصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت فردوا ذلك المال في الجب ، وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش ، وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي ، ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك وجعلوا له سلما يصعد عليه الى بطنها وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية[٢] ، وقد ظلت الصور في الكعبة حتى احترقت الكعبة في زمن ابن الزبير[٣] حين احترق قرنا الكبش أيضا[٤] ٠

وعندما بنت قريش الكعبة وضعت فيه الحجر الاسود ، وهو حجر ناري متوسط الحجم وكان على جبل أبي قبيس في الاصل ، فكان يضيء لأهل مكة في ليالي الظلم كما يضيء القمر ، فلما كان قبل الاسلام بأربع سنين ، وقد كان الحيض والجنب يصعدون اليه يمسحونه ، فاسود ، فأنزلته قريش من أبي قبيس[٥] ، وقد وضع في الجانب الشمالي ٠

---

(١) يروي الازرقي أقوالا عن عطاء وعمرو بن دينار وداود بن عبدالرحمن والزهري وابن اسحق ان في الكعبة صورا ، وان الرسول لم يمح صورة عيسى ( الازرقي ج ١ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ) ولكنه يروي في مكان آخر انه ازالها كلها ( ج ١ ص ١٤٥ ) ٠

(٢) الازرقي : ج ١ ص ٩٩ ـ ١٠٦ ٠ وقد تردد في كتب الحديث ان قريشا قصروا في بناء الكعبة عن قواعد ابراهيم وان الرسول قال عند دخوله الكعبة في حجة الوداع أن لولا قريشا حديث عهدهم لنقض بناء الكعبة وأعادها الى قواعد ابراهيم ٠ انظر مثلا كتاب العلم الباب ٤٨ ٠ كتاب الحج الباب ٤٢ ٠ كتاب التمني الباب ٩ ٠ أنظر أيضا ابن حنبل ج ٦ ص ٥٧ ٠

(٣) الازرقي : ج ١ ص ١٠٨ ٠

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ص ١٩ ٠

(٥) ابن سعد : ج ١ ص ١٢ ، وكذلك ص ١٦ ٠

وفي داخل الكعبة بئر يسمى الاخسف عمقه ثلاثة أذرع ، ينسب حفره الى ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل • وكان خزانة المبيت يلقى فيها الحلي والمتاع الذي يهدى للكعبة ، وقد نصب عند هذا البئر هبل الصنم الذي كانت قريش تعبده وتستقسم عنده بالازلام[١] ويقع بالقرب من الكعبة بئر زمزم[٢] •

وكانت الكعبة تكسى ، ويروي ابن حجر ان العباس بن عبدالمطلب ضاع وهو صغير « نذرت امه ان وجدته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير فهي أول من كساه ذلك وكان اليه في الجاهلية السقاية والعمارة »[٣] •

لقد كانت الكعبة غير منتظمة الاضلاع ، فقد كان الاساس الذي وضعه ابراهيم له « جعل طوله في السماء تسعة أذرع ، وعرضه في الارض اثنين وثلاثين ذراعا من الركن الاسود الى الركن الشامي الذي عند الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامي الى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعا ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي الى الركن اليماني أحد وثلاثين ذراعا ، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الاسود الى الركن اليماني عشرين ذراعا »[٤] ، أي أنها كانت شبه منحرف غير منتظم ، ولما بنتها قريش قبيل البعثة جعلت حجمها أصغر ، فقصرت من كل ضلع حوالي سبعة أذرع ، ولكن ابن الزبير عندما أعاد بناءها أرجعها الى حجمها الاصلي[٥] •

ويبدو أنها كانت تحيطها ساحة مكشوفة غير مسورة « ليس عليها

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ٢٧ ، ٤٤ ، ٦٧ ، ١٦١ ـ ٣ •

(٢) الازرقي : ج ٢ ص ٣٠ فما بعد • والذي كشفه عبدالمطلب ( طبري ج ٢ ص ١٧٩ ) •

(٣) الاصابة : ج ٣ ص ٣٦٣ •

(٤) الازرقي : ج ١ ص ٢٧ •

(٥) الازرقي : ج ١ ص ١٣٤ • وانظر في وصف الكعبة الحديث كتاب الرحلة الحجازية للبيب البتنوني •

جدران محاطة ، انما كانت الدور محدقة به من كل جانب غير ان بين الدور أبوابا يدخل منها الناس من كل نواحيه[١] . ولما انتشر الاسلام وازداد عدد معتنقيه ، ضاق المسجد الحرام بالمصلين ، فوسع بضع مرات في زمن عمر وعثمان وابن الزبير والوليد والمنصور والمهدي[٢] ، حتى أصبح بعد كل هذه التوسيعات بشكل شبه منحرف طول اضلاعه على التوالي ٤٠٤ ، ٣٠٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٨ ذراعا[٣] ، أي ان حجمها قبل ذلك كان أصغر من هذا بكثير .

لم تكن الكعبة تفتح يوميا ، بل كانوا في الجاهلية يفتحونها يوم الاثنين والخميس وكان حجابه يجلسون عند بابه فيرتقي الرجل اذ كانوا لايريدون دخوله فيدفع ويطرح وربما عطب . وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء ، يعظمون ذلك ويضعون نعالهم تحت الدرجة[٤] .

وروى محمد بن يحى عن الواقدي عن أشياخه قالوا : لما فرغت قريش من بناء الكعبة كان أول من خلع الخف والنعل فلم يدخل بهما الوليد بن المغيرة اعظاما لها فجرى ذلك سنة .

وروى محمد بن يحى بن عبدالعزيز بن عمران عن عبدالله بن أبي سليمان عن أبيه : ان فاختة ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزي وهي أم حكيم بن حزام دخلت الكعبة وهي حامل فأدركها المخاض فيها فولدت حكيما في الكعبة ، فحلت في نطع وأخذ ما تحت مثبرها فغسل عند حوض زمزم وأخذت ثيابها التي ولدت فيها فجعلت لقا ، أي هدية الكعبة[٥] .

---

(١) الازرقي : ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) الازرقي : ج ٢ ص ٥٤ فما بعد .

(٣) الازرقي : ج ٢ ص ٦٥ .

(٤) سعد : ج ١ قسم ١ ص ٩٨ .

(٥) الازرقي : ج ١ ص ١١١ أما عن اللقا فانظر لسان العرب ج ٢ ص ١٢٢ . وتروي بعض المصادر انه كان حول الكعبة عند فتح مكة ٣٦٠ صنما ( أزرقي ج ١ ص ٧٠ ، الفاسي ص ٦ ) .

# الفصل الرابع عشر

# الدين الجاهلي (٢)

## الطقوس والعبادات ورجال الدين

**تعريف الحج :**

لما كانت الآلهة تستقر في أماكن هي بيوتها التي تقيم فيها دائميا أو موقتا فمن الواجب على عابديها أن يزوروها في تلك البيوت . وقد تكون هذه الزيارات غير منظمة في مواعيدها وأشكالها . أو تكون منظمة حسب مراسيم وطقوس معينة وفي أوقات محددة وتسمى الحج .

ويبدو أن هناك عددا من الآلهة كان يحج اليها . فالازد ( كانوا يحجون في مكة ويقفون مع الناس المواقف كلها ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم فاذا انتهوا من ذلك أتوا مناة فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما الا بذلك[1] ) . وكانت قريش تزور « العزى » وتهدي لها وتتقرب عندها بالذبائح[2] . كما كانت قضاعة ولخم وجذام وأهل الشام يحجون الى الاقيصر ويحلقون رؤوسهم عنده[3] . وكانت « مذحج » تحج الى يغوث[4] ، كما كانت طي تعبد الفلس وتهدي اليه[5] . وقد ذكر محمد بن حبيب السكري نص تلبيات العرب لاساف والعزى واللات وجهار وسواع وشمس ومحرق والنبا ومرحب وذريح وذي الكفين

(١) الاصنام : ص ١٤ . تفسير الطبري ج ٢ ص ٢٩ .
(٢) الاصنام : ص ١٨ ، ٢٧ .
(٣) الاصنام : ص ٤٨ . معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٠ .
(٤) الاصنام : ص ٥٧ .
(٥) الاصنام : ص ٥٩ .

وهبل[١] مما قد يحمل على الاعتقاد بأنه كان يحج اليها كلها .

الا أنه لا تتوفر المعلومات الا عن الحج الى مكة نظراً لصلته الوثيقة بالاسلام ولذكر القرآن لبعض مناسكة في معرض الاقرار أو التعديل أو الابطال ، ونظراً لان الحج في الاسلام كانت مناسكه تشبه الحج الجاهلي في كثير من النواحي .

**موعده :**

لقد كان الحج الى مكة يتم في أشهر معينة وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » (البقرة ١٩٧) .

ويروي الطبري عن ابن عباس والنخعي والشعبي والسدي ونجيح وابن عمر في تفسير هذه الآية ان الاشهر المعلومات التي أشار اليها القرآن هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة[٢] وهي من الاشهر الحرم الاربعة التي تشمل ايضاً رجب . غير أن الحج يستلزم تثبيته في وقت معين معلوم يعرفه الناس مقدما ليشتركوا فيه ، وكان ذلك الموعد في الايام العشرة الاولى من من ذي الحجة ، أما الاشهر الاخرى الباقية فلا تعلم بالضبط ما اذا كانت تتم فيها العمرة فقط أم تجري فيها عبادات لم تصلنا عن انبائها معلومات وافية .

وللحج في الاصل علاقة بالمواسم والحياة الاقتصادية ، ويمكن أن نلمح ذلك من الآية الكريمة « واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم

---

(١) المحبر : ص ٣١٠ ـ ٣١٤ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٥٠ ـ ١٥٣ وقد اشار القرآن الى الاشهر الحرم في آيات اخرى ( سورة البقرة ١٩٤ ، ٢١٧ المائدة ٢ ، ٩٧ التوبة ٥ ) . انظر عن الاشهر الحرم أيضا سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٥ . لسان العرب ج ٦ ص ٢٧٢ ج ١٥ ص ١٠ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٠٥ . البخاري : كتاب الحج الباب ٣٣ ، ٣٤ كتاب العمرة الباب ٩ كتاب مناقب الانصار الباب ٣٦ . ابن حنبل ج ٢ ص ٩٥ .

الله عليه في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق • » (الحج ٢٨ ، ٢٩) • ونرجح انه كان ثابتا معينا في أحد مواسم السنة ، أي انه يتبع السنة الشمسية ، ولما كانت العرب تتبع النظام القمري فقد وجد النسيء للتوفيق بين السنة الشمسية والقمرية وذلك باضافة شهر كل ثلاث سنوات(١) •

ولا نعرف بالضبط في أي فصل من السنة كان يحدث ذو الحجة ، ولكننا يمكن أن نستنتج موعد حدوث الاشهر العربية من تسمياتها : فالربيعان يدل اسمهما على حدوثهما في الربيع بين شباط ونيسان ، ورمضان الحار في شدة الصيف أي في آب ، وعلى هذا ترتب الاشهر :ـ

| | |
|---|---|
| ربيع الاول : شباط ــ آذار | رمضان : آب ــ ايلول |
| ربيع الثاني : آذار ــ نيسان | شوال : ايلول ــ تشرين الاول |
| جمادى الاولى : نيسان ــ أيار | ذو القعدة : تشرين الاول ــ تشرين الثاني |
| جمادى الثانية : أيار ــ حزيران | ذو الحجة : تشرين الثاني ــ كانون الاول |
| رجب : حزيران ــ تموز | المحرم : كانون الاول ــ كانون الثاني |
| شعبان : تموز ــ آب | صفر : كانون الثاني ــ شباط(٢) |

فاذا صح هذا الترتيب كان الحج الاكبر يقع في الخريف ، وهو فصل معتدل المناخ نسبياً ، والحياة الاقتصادية نشطة نظراً لحاجة الناس المتزود من الحاجات الشتوية • كما ان الحج الاصغر يحدث في حزيران وهو بداية فصل الصيف • ويتم الحج الحقيقي في أيام التشريق •

**الحلة والحمس والطلس :**

لم تكن طقوس الحج الى مكة واحدة لكافة القبائل ، بل كانوا يختلفون • ويصنفهم المؤرخون الى صنفين عامين هم الحلة والحمس ،

---

(١) انظر ص ١١١ ــ ١١٣ •

(٢) انظر راثجن : رحلة الحج الى مكة ص ٦٠ (بالالمانية) •

ويضيف السكري صنفاً ثالثاً فرعياً هم الطلس[١] .

أما الحمس فيما يروي ابن سعد عن الواقدي ، والازرقي عن ابن اسحق عن الكلبي عن ابن عباس ، فهم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب . ويضيف ابن اسحق في روايته الاوس والخزرج وجشم وربيعة وجذام وذكروان وثقيف وعمر واللات وغطفان وعدوان وعلاف وقضاعة . أما السكري فيذكر ان قبائل الحمس هي قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً وكل من نزل مكة من قبائل العرب ، فمن ولدت قريش كلاب وكعب وعامر وكلب وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة والحارث بن عبد مضاة بن كنانة ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة بنزولهم حول مكة وعامر بن مناة بن كنانة ومالك وملكان بن كنانة وثقيف وعدوان ويربوع بن حنظلة ومازن بن مالك بن عمرو بن غنم وعلاف (من قضاعة) وجناب بن هبل .

أما الحلة فالمفروض انهم بقية القبائل الا أن السكري يميزهم عن صنف ثالث هم الطلس فيذكر ان الحلة هم تميم ما عدا يربوع ومازن وضبة وحميس وظاعنة والغوث بن مرة وقيس عيلان بأسرها ما عدا ثقيف وعدوان وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها وقضاعة كلها ما خلا علاف وجناب والانصار وخثعم وبجيلة وبكر بن عبد مناة بن كنانة وهذيل بن مدركة وأسد وطي وبارق .

أما الطلس فهم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وتجيب وآياد .

**الحمس :**

يروي الازرقي عن ابن اسحق عن الكلبي عن ابن عباس بأن

---

(١) راجع عن الحلة والحمس الازرقي : ج ١ ص ١١٣ فما بعد . المحبر ص ١٧٨ ـ ١٧٩ تفسير الطبري ج ٢ ص ١٧٠ . سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ . ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٤١ . لسان العرب ج ٨ ص ٣٥٨ . البخاري : كتاب الحج : الباب ٩١ ، كتاب التفسير : الباب ٣٥ . مسلم كتاب الحج : ص ١٥١ ـ ١٥٣ . ابن حنبل ج ٤ ص ٨٠ . ياقوت ج ٤ ص ٦٢٠ ـ ٦٢١ . البكري ص ٢٤٥ .

• الحمس لم يكونوا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه وانما يستظلون بالادم ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ويطوفون في البيت وعليهم ثيابهم • وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام فان كان من أهل المدر ـ يعني أهل البيت والقرى ـ نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه • وكانت الحمس تقول لا تعظموا شيئاً من الحل ولا تجاوزا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم • فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون بـه ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة بين المازمين يقفون به عشية عرفة ويظلون به يوم عرفة من الاراك من عرفة ويفيضون منه الى المزدلفة فاذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا • وكانوا يقولون نحن أهـل الحرم لا نخـرج من الحـرم ونحن الحمس ، فتحمست قريش ومن ولدت[1] • وكانت الحمس من دينهم اذا أحرموا أن لا يدخلوا بيتاً من البيوت ولا يستظلوا تحت سقف بيت ، ينقب أحدهم نقباً في ظهر بيته فمنه يخرج ولا يدخل من بابه ولا يجـوز تحت اسقفه باب ولا عارضة ، فـاذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم تسوروا من ظهر بيوتهـم وأدبارها حتى يظهـروا على السـطوح ثم ينزلون من حجرتهـم ثم يمرون تحت عتبـة الباب[2] ، فانزل عز وجل « وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورهـا ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها » (البقرة ١٨٩) •

**الحلـــة :**

أما الحلة فكانوا في قول السكري يحرمون الصيـد في النسك ولا

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ١٥٨ •

(٢) الازرقي : ج ١ ص ١١٦ ـ ١١٧ • أنظر أيضا تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٦٨ ـ ١٧٠ ، الواحدي : أسباب النزول ص ٣٦ •

يحرمونه في غير الحرم ويتواصلون في النسك ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه فيملأ فقراؤهم السمنة ويجتزون من الاصواف والاوبار والاشعار ما يكتفون به ولا يلبسون في نسكهم الجدد ولا يدخلون من باب دار ولا من باب بيت ولا يأويهم ظل ما داموا محرمين وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم وأخصب ما يكونون أيام نسكهم ، فاذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم اشتركوا في ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها الا في ثياب جدد ، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء ، يباشرونها بأقدامهم ، فان لم يجدوا ثياباً طافوا عراة • وكان لكل رجل من الحلة حرص من الحمس يأخذ ثيابه ، فمن لم يجد ثوباً طاف عريانا وانما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت ، لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجا لم يستحل أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم ، الا اللحم • وكان رسول الله (ص) حرص عياض بن حمار المجاشعي اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله[1] (ص) •

يتبين مما تقدم ان الحلة لم تكن تتقيد بما تتقيد به الحمس • ولعل هذا هو السبب الذي أغفل فيه كافة المؤرخين والرواة الذين لم يذكروا صنف الطلس صفاتهم ودمجوهم بأهل الحلة • ويلاحظ من هذه الاوصاف أيضاً أن الحمس لم يكونوا يقومون بأعمال البدو والرعاة من اقط الاقط وسل السمن والزبد أو غزل الشعر والوبر مما يختص به البدو • ولا ريب ان أهل مكة وهم جوهر الحمس وأساسه لم يكونوا رعاة • على أن الخلافين الرئيسين بين الحلة والحمس هما اولاً الوقوف في عرفة عند بداية الحج ، وهو مالم تكن تفعله الحمس ، لأن عرفة تقع خارج حرم مكة • والثاني هو لباس الاحرام •

وفي لباس الاحرام تختلف الروايات اختلافاً كبيراً ، فيروي ابن عباس انه كانت الحلة تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حجة يحجها عراة وكانت بنو عامر بن صعصعة وعك ممن يفعل ذلك فكانوا اذا

(١) المحبر : ص ١٨٠ ـ ١٨١ •

طافت المرأة منهم عريانة تضع احدى يديها على قبلها والاخرى على دبرها ثم تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله　　　وما بدا منه فلا احله

فكانت قبائل من العرب من بني عامر وغيرهم يطوفون في البيت عراة ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، فاذا بلغ أحدهم باب المسجد قال للحمسى من يعير مصوناً ؟ من يعير معوزاً ؟ فان أعاره احمسي ثوبه طاف به والا القى ثيابه بباب المسجد ثم دخل للطواف فطاف بالبيت سبعاً ، فكانوا يقولون لا تطوفوا في الثياب التى فارقنا فيها الذنوب ، ثم يرجع الى ثيابه فيجدها لم تحرك . وكان بعض نسائهم تتخذ سيوراً متعلقة في حقونها وتستر بها حقونها ، الا أن يتكرم منهم متكرم فيطوف في ثيابه ، فان طاف فيها لم يحل له أن يلبسها أبداً ولا ينتفع بها ويطرحها لقا ، واللقا هي الثياب التي يطوفون فيها ويرمون بها بباب المسجد فلا يمسها أحد من خلق الله حتى تبليها الشمس والامطار والرياح ووطء الاقدام وفيه يقول ورقة بن نوفل الاسدي :

كفى حزنا كري عليه كأنه　　　لقى بين ايدي الطائفين حريم(١)

أما مجاهد فيروي انه كان مما سنوا به انه اذا حج الصرورة من غير الحمس ، رجلا كان أو امرأة ، لا يطوف بالبيت الا عريانا ، الصرورة أول ما يطوف في ثوب احمسي ، اما عارية أو اجارة يقف أحدهم بباب المسجد فيقول من يعير مصونا ؟ من يعير ثوبا ؟ فان اعاره احمسي ثوبا أو اكراه طاف به ، وان لم يعيره القى ثيابه بباب المسجد من خارج ثم دخل الطواف وهو عريان يبدأ باساف فيستلمه ثم يستلم الركن الاسود ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه فاذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ١١٧ ـ ١١٨ . أما عن الطواف عراة فراجع تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٧٠ ج ٨ ص ١١٤ ، ١٢٠ ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٤١ لسان العرب ج ١٥ ص ٩ البخاري : كتاب الحج : الباب ٩١ ياقوت ج ٤ ص ٦٢١ .

لم تمس فيأخذها فليبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك عريانا • ولم يكن يطوف بالبيت عريانا الا الصرورة من غير الحمس • فأما الحمس فكانت تطوف في ثيابها فان تكرم متكرم من رجل أو امرأة من غير الحمس ولم يجد ثياب احمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقا يطرحها بين اساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها أحد حتى تبلى من وطء الاقدام والشمس والرياح والمطر[١] وقد انزل القرآن لتحريم ذلك آية « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة » (الاعراف ٣١ ـ ٣٢) •

**الطلس :**

اما الطلس فيقول السكري انهم بين الحلة والحمس يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة • ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس • وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ولا يستعيرون ثيابا ويدخلون البيوت من أبوابها وكانوا لا يئدون بناتهم وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون[٢] • ومن هذا يتبين ان الطلس هم كالحلة سوى انهم لا يتقيدون بالالبسة أو في الدخول بالبيوت •

**مراسيم الحج :**

لدينا معلومات مفصلة نسبياً عن الحج في مكة ، وقد اجمل الازرقي وصفه في كتابه (اخبار مكة) فقال : ( فاذا كان الحجّ من الشهر الذي يسمونه ذا الحجة خرج الناس الى مواسمهم ، فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيصبحون به عشرين ليلة تقوم فيها اسواقهم بعكاظ • والناس على مداعيهم وراياتهم منحازين من المنازل ، تضبط كل قبيلة اشرافها

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ١١٤ وراجع عن الصرورة لسان العرب ج ٦ ص ١٢٣ •

(٢) المحبر : ص ١٨١ •

وفادتها ، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون في بطن السوق . فاذا مضت العشرون انصرفوا الى ذي المجنة فأقاموا بها عشرا اسواقهم قائمة ، فاذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي المجاز فأقاموا به ثمان ليال اسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز الى عرفة فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز وانما سمي يوم التروية[١] ، لترويهم من الماء بذي المجاز ، ينادي بعضهم بعضا ترووا من الماء ، لانه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ . وكان يوم التروية آخر اسواقهم . وانما يحضر هذه المواسم بمكاظ ومجنة وذى المجاز التجار ـ من كان يريد التجارة . ومن لم يكن له تجارة ولا بيع يخرج في أهله متى أراد . ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم الترويه . فتنزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة وتنزل الحلة عرفة . فاذا جاءوا عرفة أقاموا بها يوم عرفة ، فتقف الحلة على الموقف من عرفة[٢] عشية عرفة ، وتقف الحمس على أنصاب الحرم من نمرة ، فاذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من انصاب الحرم وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً . وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم . فاذا كان هذا الوقت دفعت الحلة من عرفة ودفعت معها الحمس من أنصاب الحرم حتى يأتوا جميعاً مزدلفة فيبيتون بها حتى اذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحمس على قزح ، فلا يزاولون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة[٣] ، وكانوا يقولون أشرق ثبير كيما نغير[٤] ، أي أشرق

---

(١) عندما قرن الرسول بين العمرة والحج ، أتم العمرة ثم أهل للحج يوم التروية ( البخاري كتاب الحج الباب ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٨٢ ) .

(٢) يلاحظ ان عرفة ليست من الحرم .

(٣) كان يجيزهم صوفه انظر ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٤) يقول الشافعي في الاسلام (قدم الله المزدلفة قبل ان تطلع الشمس وآخر عرفة الى أن تغيب الشمس) (الام ج ٢ ص ١٨٠ انظر أيضا ياقوت ج ١ ص ٩١٧) .

بالشمس حتى ندفع من المزدلفة ، فانزل الله في الحمس « ثم افيضوا من حيث أفاض الناس » (البقرة ١٩٩) ـ يعني من عرفة[١] ـ والناس الذين كانوا يدفعون منها أهل اليمن وربيعة وتميم )[٢] .

ان هذا النص يقف عند هذا الحد . على انه يمكن اكمال وصف الحج الجاهلي من دراسه مناسك الحج الاسلامي ، فالمعروف ان ابراهيم الخليل هو الذي سن مناسك الحج[٣] ويقول ابن الكلبي في المشركين (وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة واهداء البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه[٤]) وهذا يدل على ان طقوس الحج الاسلامي تشبه ما سبقتها مع تنقيتها من الشوائب وجعلها لله تعالى .

وقد أشار القرآن الكريم الى الحج الاسلامي في سورة البقرة فقال تعالى « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين ثم افيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو اشد ذكرا ... واذكروا الله في ايام معدودات فمن تعجل في يومين فلا أثم عليه ومن تأخر فلا أثم عليه لمن اتقى » (البقرة ١٩٨ ـ ٢٠٣) .

ويروي الطبري في تفسير الآية الاولى أنهم لم يكونوا يتبايعون فأباح تعالى ذلك في الاسلام كما انه نقل عن قتادة انه « كان هذا الحي من

---

(١) أنظر أيضا الازرقي : في ٢ ص ٢٢٦ البخاري : كتاب الحج : الباب ١٠٠ الترمذي كتاب الحج : الباب ٦٠ . ابن حنبل ج ١ ص ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢ .

(٢) الازرقي: ج ١ ص ١٢١ ـ ١٢٣ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ٢٨ فما بعد .

(٤) الاصنام : ص ٦ .

العرب لا يرجعون على كسير ولا ضالة ليلة النفر وكانوا يسمونها ليلة الصدر ولا يطلبون تجارة ولا بيعاً فأحل الله عز وجل ذلك كله[١] » .

والمشعر الحرام هو ما بين جبلي المزدلفة[٢] أي وادي محسر . وكانت تسمى جمع[٣] ، وفيه قزح الذي كان يتجمع فيه الناس ، وكانت عليه اسطوانة من حجارة مدورة يبلغ محيطها اربعاً وعشرين ذراعاً وعلوها اثنى عشر ذراعاً ، وهي على أكمة عالية[٤] ، وكانت توقد عليه النيران منذ زمن قصي حتى العصر العباسي ليلة جمع[٥] .

أما الأفاضة فقد بينا من قبل ان الحمس كانت لا تقف في عرفة قبل الاسلام[٦] ، وقد أمرهم تعالى أن يقفوا في عرفة ، وهذا يشير الى أن الناس كانت تتجمع وتفيض حسب القبائل ، أي تقف كل قبيلة على حدة وتفيض متكتلة ، إذ أن ذلك أكثر ملائمة لروح التنظيم الاجتماعي الجاهلي القائم على الاسس القبلية ، ومما يؤيد هذا ان الانصار لم تكن تسعى بين الصفا والمروة[٧] .

يتضح من هذه الآية انه بعد الافاضة الى المشعر الحرام تقضي المناسك أي تذبح الذبائح[٨] . وهي تذبح في منى قرب المشعر الحرام[٩] .

---

(١) تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٦٥ .
(٢) معجم البلدان : ج ٤ ص ٥٤٠ .
(٣) الازرقي : ج ١ ص ٥٨ معجم البلدان ج ٢ ص ١١٨ البكري : معجم ما استعجم ص ٣٩٢ - ٣ .
(٤) أنظر الازرقي : ج ١ ص ٣٢ ، ١٢٣ ج ٢ ص ١٥١ ، ١٥٤ معجم البلدان : ج ٤ ص ٥٢ ، ٨٥ .
(٥) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ قسم ٢ ص ٦٩ وانظر أيضا الازرقي : ج ٢ ص ١٥١ معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥ .
(٦) أنظر ص ٢١١ .
(٧) أنظر ص ١٧٧ - ١٧٨ .
(٨) أنظر عن معنى النسك : تفسير الطبري ج ٢ ص ١٣٧ لسان العرب ج ٢٢ ص ٣٨٩ .
(٩) لقد روى عن الرسول أنه قال كل منى منحر : أنظر كتاب =

لقد أمر تعالى المسلمين بعد أن يقضوا المناسك أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم ، ويذكر الطبري في سبب نزولها ان أهل الجاهلية كانوا اذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجمرة وذكروا أيامهم في الجاهلية وفعال آبائهم[١] وفي سورة البقرة آية أخرى توحي بأنه كان يجري على أثر الحج جدال « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » (البقرة ١٩٧) ويذكر الازرقي ان في مكة شعباً يسمى صفى السباب[٢] . وكل هذا يلقي ضوءاً على ما كان يتم في أواخر الحج من جدل ونقاش وتفاخر .

إن الايام المعدودات التي أشارت اليها الآية الكريمة السابقة هي أيام التشريق وهي تسمية غير واضح أصلها فيقول ابن منظور (... كانت الشمس تسمى الشارق ... وشرقت أشرقت اللحم شبرقته طولاً وشررته في الشمس ليجف لأن لحوم الاضاحي كانت تشرق فيها بمنى ... وتشريق اللحم تقطيعه وتقديده وبسطه ومنه سميت أيام التشريق . وأيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحم الاضاحي يشرق فيه للشمس أي يشرر ، وقيل سميت بذلك لانهم كانوا يقولون في الجاهلية أشرق ثبير كيما نغير ، الاغارة الدفع ، أي ندفع للفر . حكاه يعقوب . وقال ابن الاعرابي سميت بذلك لأن الهدي والضحايا لا تنحر حتى تشرق الشمس أي تطلع وقيل بل سميت بذلك لانها كلها أيام تشريق لصلاة يوم النحر قال وهذا أعجب القولين لي . وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق إلى التكبير ولم يذهب اليه غيره ... وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس فخالفهم رسول الله ... وفي حديث مسروق انطلق بنا الى مشرقكم يعنى المصلى وسأل اعرابي اين منزل المشرق يعني الذي يصلى فيه والمشرق العيد سمي بذلك لان الصلاة فيه بعد الشرقة أي الشمس وقيل المشرق مصلى العيد

= الحج في : البخاري الباب ١١٦ مسلم الباب ١٤٩ أنظر أيضا ابن حنبل ج ١ ص ٧٦ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٥٦ ج ٣ ص ٣٢٠ ج ٤ ص ٨٢ .

(١) تفسيرالطبري : ج ٢ ص ١٧٢ ـ ١٧٤ .

(٢) الازرقي : ج ٢ ص ٢٢١ .

بمكة وقيل مصلى العيد ولم يقيد بمكة[١] ...) .

يتبين من هذا الشـــرح المجمل مدى عدم وضوح أصـــل تسـمية التشريق ، وإن كان جذرها اللغوي يحمل على الاعتقاد بصلتها بشـروق الشمس ، كما توضح ذلك بعض التفاسير التي أوردها ابن منظور ، وقـد ورد في بعض الاحاديث النبوية ان أيام التشريق تدعى أيام بعال ، ممـا قد يدل انها كانت في الجاهلية متصلة ببعل .

لقد ورد في القرآن الكريم « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمـن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (البقرة ١٥٨) ويروي الطبري ان سبب نزولها هو ان الانصار لم تكن تطوف بهما[٢] . والواقع أن صيغة الآية توحي بأن الطواف لم يكن فرضاً .

ان الآية الكريمة التي ذكرناها من قبل عن طقوس الحج لا تذكر زيارة الـكعبة وقد حمل ذلك بعض الباحثين ومنهم ولهاوزن الى القول بأن زيارة الـكعبة لم تكن قبل الاسلام ضمن طقوس الحج[٣] . وهو رأي غير مضبوط لأن القرآن أشار الى حج البيت في آيتين « فمن حـــج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهمـــا » (بالصفا والمروة) (البقــرة ١٥٨) « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليـه سبيلا » ( آل عمران ٩٧ ) ويتجلى من الآية الاولى ان حج البيت يختلف عن العمرة كما ان الآيتين تبينان ان الحج للبيت[٤] . وقد رأينا فيما سبق القيود التي كانت تفرضها

(١) لسان العرب : ج ١٢ ص ٤٠ ـ ٤٣ أنظر أيضا مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٠ اما عن ذكر أيام التشريق في الاحاديث النبوية فانظر عن مواضعها في فنسنك الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة شرق .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ٢٩ . ويذكر الطبري فيها روايات بأن المسلمين أرادوا ترك السعي بين الصفا والمروة لما كان عليهما في الجاهلية من أصنام فامرهم تعالى بالطواف لانها من شعائر الله .

(٣) أنظر رأيه في المقال الذي كتبه باريت في دائرة المعارف الاسلامية عن العمرة .

(٤) أنظر ص ٢١٦ .

قريش على ألبسة الطائفين بالبيت . غير اننا لا نعلم متى كانت تتم زيارة البيت . وإن كان وصف الازرقي للحج الجاهلي يوحي بأن زيارة البيت كانت تتم بعد أيام التشريق .

**العمـــرة :**

يروي ابن الـكلبي أن العرب قد ظل فيهم من دين ابراهيم بقايا منها العمرة[١] ، الامر الذي يدل على قدمها . وقد وردت العمرة في القرآن في سورة البقرة « واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر مـــن الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى في رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا آمنتم فمـــن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثـة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهلـــه حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا إن الله شديـــد العقـــاب » (البقرة ١٩٦) كما ورد في القرآن ايضاً « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم » (البقرة ١٥٨) .

إن هاتين الآيتين تذكران العمرة باعتبارها مؤسسة متميزة عن الحج ومختلفة عنه . كما ان الآية الاخيرة توضح ان السعي بين الصفا والمروة لم يكن جزءاً من الحج والعمرة قبل أن يأمر به الاسلام . غـــير انهما لا توضحان طريقة العمرة أو موعدها .

وتلقي كتب الحديث ضوءاً كبيراً على العمرة كما كانت في عهـــد الرسول كما تشير إلى التغييرات التي أدخلها على العمرة . ومن هـــذه الاشارات يمكن أن نستنبط ما كانت عليه العمرة الجاهلية . والواقع أن الرسول اعتمر ثلاث مرات وقرن الحج بالعمرة في حجة الوداع[٢] وأشار

---

(١) الاصنام : ص ٤ .

(٢) روى البعض ان الرسول اعتمر ثلاثا ، ويروي آخر انه اعتمر =

على المعتمرين من أصحابه أنْ يحلوا بعد الطواف إذا لم يكن معهم هدي[١]، الامر الذي يحمل على الاعتقاد بأن العمرة لم يكن من شروطها الاساسية الهدي والاضاحي •

لقد طاف الرسول في العمرة بالبيت سبع مرات ثم طاف بين الصفا والمروة سبع مرات ثم أحل وبذلك انتهت العمرة • فالعمرة إذاً كانت الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة • وجدير بنا أن نشير الى أن السعي بين الصفا والمروة لم يكن عاماً في القبائل فلم تكن الانصار تقوم به ، وقد أدخله القرآن كجزء من الحج والعمرة في آية البقرة (١٥٨) التي ذكرناها آنفاً، ولابد من ملاحظة ان الآية التي تذكر الصفا والمروة وتشير الى انه «لا جناح عليه ان يطوف بهما » أي لا مانع وهو تعبير قد يوحي بالاباحة لا بالالزام • والواقع ان البخاري يشير الى أن بعض الناس فهموا ذلك وسألوا عائشة عنه فأجابت بأن هذه الاباحة تقتضي الالزام[٢] • وان تساؤلهم قد يحملنا على الاعتقاد بأن السعي والطواف بين الصفا والمروة لم يكن في الجاهلية ملزماً أو جزءاً من العمرة ، وان العمرة كانت متصلة بزيارة الكعبة فحسب•

لقد وصفت كتب الحديث كيفية طواف النبي فيقولون انه رمل ثلاثاً (أي خب أو هرول) ومشى أربعاً[٣] كما يروون انه قبل الحجر الاسود[٤]

= أربع مرات ، ويروي فريق ثالث انه اعتمر مرتين • ويروى كذلك انه اعتمر في رجب ، وينفي آخرون انه اعتمر في رجب • أنظر الى هذه الاحاديث ومواضعها من كتب الصحاح الستة : مفتاح كنوز السنة مادة عمرة •

(١) ابن حنبل : ج ١ ص ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٣٤١ ج ٢ ص ٤ ، ١٢ ، ٤١ ، ٦٥ ، ١٥١ ج ٣ ، ٧١ ، ٧٥ •

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ٢٩ • ويقول مالك : « من أفاض فقد قضى الله حجه » ( موطأ ج ١ ص ٢٢٦ ) •

(٣) البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٥ • كتاب المغازي : الباب ٤٣ ابن حنبل : ج ٢ ص ٤٠ ، ٥٩ ، ٧١ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ج ٥ ص ٤٥٥ _ ٤٥٦ •

(٤) البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٠ • ابن حنبل : ج ١ ص ١٦ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ • •

وانه استلم الركن اليماني[١] . ويذكر البخاري أحاديث تشير إلى أن الرمل كان مظاهرة أمام كفار قريش لاظهار قوة المسلمين البدنية بعد أن شاع ان الحمى قد أنهكتهم[٢] ، الامر الذي يدل على ان الرمل لم يكن أساسياً قبل ذلك .

لقد قام الرسول بعمراته في ذي القعدة وشوال وفي ذي الحجة ، ويروي البخاري انه « قدم النبي وأصحابه صبيحة رابعة (من ذي الحجة) مهلين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاظم ذلك عندهم ، فقالوا يارسول الله أي المحل قال حل كله[٣] »ويروي ابن عباس انه ما اعمر رسول الله عائشة ليلة الحصبة إلا قطعا لأمر أهل الشرك ، كما يروي انهم (أي المشركين) (كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من افجر الفجور في الارض ويجعلون المحرم صفراً ويقولون إذا برد الدبر وعفا الاثر ودخل صفر فقد حلت العمرة لمن اعتمر[٤] ) .

واضح من هذه النصوص إن جعل النبي العمرة في ذي الحجة كان ضد التقاليد الجاهلية التي كانت تجعلها بعد شهر المحرم أي في صفر .

لم يكن يباح للحائض القيام بالعمرة ولكن كان يباح لها الحج[٥] .

**الهدايا أو الهدي :**

ذكر القرآن أن المشركين كانوا يقدمون بعض مدخولاتهم للآلهة

---

(١) يروى أن النبي لم يستلم الركنين الغربيين من الكعبة أنظر ابن حنبل : ج ١ ص ٣٧ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٣٧٢ ، ج ٢ ص ٣ ١٧ ، ٨٩ ، ١١٠ ، ج ٤ ص ٩٧ ، ٩٨ . ويروى انه استلم الركن بالمحجن ( البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٨ ) ابن حنبل : ج ١ ص ٢١٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) البخاري : كتاب المغازي : الباب ٤٣ . سيرة ابن هشام . ج ٣ ص ٤٢٥ .

(٣) البخاري : كتاب الحج : الباب ٣٤ .

(٤) ابن حنبل : ج ١ ص ٢٥٢ ، ٢٦٢ .

(٥) موطأ : ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦٦ ، ٢٨٦ . البخاري : كتاب الحج : الباب ٣١ ، ٣٤ ، ٧٧ ، ٨١ . وانظر مقال باريت عن العمرة في دائرة المعارف الاسلامية .

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون » (الانعام ١٣٦) ويتبين من هذه الآية انه كانت هناك حصة معينة ثابتة يجب على العباد دفعها سواء كانوا زراعاً أو أصحاب مواشي • وكانت هذه الاموال المخصصة للآلهة توزع بين الاله الاكبر والآلهة الصغرى • فهم فيه شركاء ، ومع ان القرآن لا يشير الى كيفية توزيع هذه الاموال أو ما يخصص لكل من الاله الاكبر وللآلهة الصغرى ، إلا أن الراجح ان حصة الاله الاكبر هي أكبر من حصة الآلهة الصغرى •

وتشير هذه الآية الى سوء التصرف بهذه الاموال المخصصة فان حصة الاله الاكبر كانت تعود بدورها فتصرف للآلهة الصغرى وهم شركاؤها ، وبذلك لا يقدم للاله الاكبر شيء • ولكن واضح من هذه الآية ان هذه الاموال هي اجبارية أوشبه اجبارية ، وانها تصرف للآلهة ، اذ ان كلمة الشركاء في هذه الآية يقصد بها الصغرى التي كانوا يدينون بها • ويزعم ابن الكلبي ان هذه الآية نزلت في حق الصنم عمياس الذي كان لخولان[1] • غير ان نص الآية لا يدل على هذا التخصيص مطلقاً ، ثم انه لم يثبت لدينا ان خولان كانت تدين بعبادة الله وتشرك به ؟ فالراجح ان تعليله غير صحيح •

لقد فرض قصي ضريبة الرفادة على أهل مكة لتصرف على الآلهة كما كانت تقدم للآلهة ايضاً هدايا • والراجح ان القرآن في هذه الآية يشير الى هذه الضريبة والهدايا التي كانت تقدم لله ولمن اشركوهم به ولكنها تصرف عملياً على بقية الآلهة • والواقع اننا لا نسمع باهتمام مشركي قريش والعرب بعبادته تعالى بل كانوا يكفرون به وينكرون ما انعم عليهم ويهتمون بالآلهة الاخرى فبما انه تعالى كان الاله الاكبر باعتقاد المشركين من أهل مكة وبما انهم كانوا يكفرون به فالراجح ان هذه الآية كانت تنطبق على اعمالهم وهي تتفق مع المقصود بكلمة الكفر بمعناها القرآني •

---

(١) الاصنام : ص ٤٣ ـ ٤٤ •

**انواع الهدايا :**

لقد كانت الهدايا التي تقدم للآلهة منوعة ، وهي تتوقف على وسيلة التبادل الاقتصادي ، ففي المجتمع الذي يقوم التبادل فيه على النقود تكون الهدايا من النقود أو المعادن الثمينة ؛ وفي المجتمع الزراعي تكون الهدايا من المحاصيل النباتية ، وفي المجتمع الرعوي تكون الهدايا من المواشي •

ففي مكة كان في الكعبة بئر ترمي فيه الهدايا[١] ، مما يدل على انها كانت تقدم من النقود أو الالبسة أو المعادن الثمينة ، كما ان الضريبة التي فرضها قصي على الرفادة كان بعضها يجبى بالنقود[٢] وهذا طبيعي في ذلك المجتمع التجاري الذي أساس ثروته النقود • اما هدايا الالبسة فتتجلى فيما كان يرميه أهل الحلة كما تحدثنا[٣] •

وهناك مناطق تقدم لآلهتها هدايا من المحاصيل النباتية وقد ذكرنا من قبل آية سورة الانعام التي يقول فيها تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » (الانعام ١٣٦) وهو ذكر صريح الى ان بعض التقدمات تكون من المحاصيل النباتية • وقد ذكرنا ايضا ان ذا الخلصة كانوا يهدون اليه الشعير والحنطة[٤] ، وهي من المحاصيل الوافرة في وادي بيشة حيث يقع بقربه هذا الصنم •

ويروى انه كان لبني حنيفة صنم من تمر فأصابتهم مجاعة فأكلوه فقال الشاعر يعيرهم في ذلك :ـ

أكلت حنيفة ربها يوم التمحل والمجاعة

ولا ريب انه لا يعقل صنع صنم من تمر نظراً لان التمر لا يمكن

---

(١) أنظر ص ٢٠٧ •
(٢) أنظر ص ١١٦ ـ ١١٧ •
(٣) أنظر ص ٢١٤ ـ ٢١٦ •
(٤) أنظر ص ١٩١ •

أن يدوم طويلا • والارجح إن التمر المأكول هـو الهـدايا التي قدمت للآلهة • ومن المعقول أن تقدم بنو حنيفـة التمر نظراً لتوفر النخيل في بلادهـم •

ولما كانت أغلب بلاد الجزيرة صحارى ومراعي تقوم الحياةالاقتصادية فيها على الرعي والمواشي وخاصة من الابل والغنم ، فلا بد أن تكـون أغلب هذه الهدايا الحيوانات وخاصة الحيوانات الداجنة •

لقد ذكر القرآن أنواعاً من الهدايا الجاهلية في معرض الانكار لهـا « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولـكن الذين كفروا يفترون على الله الـكذب وأكثرهم لا يعقلون » (المائدة ١٠٣) •

**البحـيرة :**

وقد اختلف الرواة في شرح مفاهيم هذه الامور : فأما عن البحـيرة فان قتادة والسدي والضحاك وابن عباس يقولون بأن البحيرة هي الناقـة اذا انتجت خمسة ابطن نحروا الخامس إن كان ذكراً ، أما اذا كان انثى فانهم يشقون اذنها ويستحيونها فلا يشربون لبنها ولا يجزون وبرها ولا يركبون ظهورها ، فاذا ولدت ولداً ميتاً أو ماتت ، تشترك في أكل اللحم النساء والرجال ، أما الولد الخامس فلا يأكل لحمه إلا الرجال • ويقول ابن المسيب ان البحيرةمن الابل هي التي يمنع درها للطواغيت ، أما ابن الاحوص فيقول إن البحيرة هي انثي ولدت خمسة أبطن ثم تركت •

**السـائبة :**

أما السائبة فيعرفها الزهـري وقتادة،وابن عباس وابن الاحـوص والسدي والضحاك بأنها ما يسيبه الرجل من الانعام فلا يعرض لها أحـد حيثما حلت • أما مجاهد فيقول إن السائبة هي ما ولدت من ولد بينها وبينه ستة أولاد كان على هيئتها فاذا ولدت في السابع ولداً ذكـراً أو انثى أو ذكرين ذبحوهم فأكله رجالهم دون نسائهم •

**الحـــامي :**

أما الحامي فهو في رواية قتادة وابن عباس والسدي الفحل من الابل الذي يلقح عشرة فينتج له عشرة أولاد أو اذا ركب أولاد أولاده على ما يروي الشعبي والضحاك ، وهو بذلك يترك فلا يركب ظهره ولا يجز وبره .

**الوصـــيلة :**

أما الوصيلة فالخلاف على تعريفها واسع فيقول الزهري انها التي تاتي بولدين متتابعين انثى فتذبح للطواغيت أو تجدع ، وفي رواية أخرى انها اذا اتأمت بطناً بذكر وانثى قيل وصلت الانثى أخاها بدفعها عنه الذبح ، ويروي الشعبي انها اذا ولدت أربعة أبطن ثم ولدت الخامس ذكراً أو انثى وصلت أخاها .

ويقول الضحاك وقتادة ان الوصيلة هي الشاة اذا ولدت سبعة ابطن ذبحوا السابع اذا كان جدياً ، وان كان عناقاً ( انثى ) فاستحيوه ، وان كان جدياً وعنـاقاً استحيوهما كليهما ، وقالوا ان الجدي وصلته اخته فحرمته علينا . ويزيد قتادة ان الجدي السابع يأكله الرجال دون النساء وانه اذا كان السابع ميتـاً اشترك في أكله النســاء والرجال .أما السدي فيقول ان الوصيلة من الغنم هي الشاة اذا ولدت ثلاثة ابطن أو خمسة فكان آخر ذلك جديا ذبحوه وأهدوه لبيت الآلهة وان كانت عناقا استحيوها وان كانت جديا وعناقا استحيوا الجدي من أجل العناق فانها وصيلة وصلت أخاها[1] .

**رأي ابن اسحاق :**

ولابن اسحاق في هذه الاشياء تعريفات تختلف عما ذكرنا فهو يقول « ان السائبة الناقة اذا تابعت بين عشر اناث ليس بينهن ذكر سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف . أما البحيرة فهي بنت

(١) تفسير الطبري : ج ٧ ص ٥٧ ــ ٦٠ . أنظر أيضا المحبر : ص ٣٣٠ ــ ٣٣٢ ، المستبصر لابن المحاور ج ٢ ص ٢١٢ .

السائبة فما نتجت السائبة بعد البطن العاشر من انثى شقت اذنها ثم خلي سبيلها مع امها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف . أما الوصيلة فهي الشاة اذا أتأمت عشر اناث متتابعات في خمسة ابطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة ، قالوا قد وصلت ، فكأن ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون اناثهم الا أن يموت منها شيء فيشتركون في أكله ذكورهم واناثهم . أما الحامي فهو الفحل اذا انتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ظهره ولم يجز وبره وخلي في ابله يضرب فيها ولا ينتفع منه بغير ذلك » . غير ان ابن هشام لا يرى رأي ابن اسحق ويقول معلقاً : « وهذا كله عند العرب على غير هذا الا الحامي فانه عندهم على ما قال ابن اسحق[١] » .

وقد أشار القرآن الى الهدايا الجاهلية في عدة آيات منها الآية (١٠٣) من سورة المائدة التي ذكرناها قبلا وكذلك قوله تعالى « وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم » ( الانعام ١٣٩ ) « قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » (يونس ٥٩) « ثمانية ازواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئوني بعلم ان كنتم صادقين . ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين » (الانعام ١٤٣ - ١٤٤) .

**الاضـــاحي :**

لقد ذكرنا في بحث التنظيمات الاجتماعية ان العرب قبيل ظهور الاسلام كانوا يعتقدون ان الاشتراك في الطعام يولد أو يقوي العلاقات بين الكائنات ،

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥١ .

ويخلق أو يثبت الالتزامات الاجتماعية المتبادلة . فالاشتراك في أكل الخبز والملح كان يؤدي الى خلق نوع من الحلف المعنوي ،وهي فكرة لا يزال يدين بها الكثير من الناس حيث يستهجنون خيانة من يأكل الزاد عندك ولا يؤيدك . ومن الوصمات الشنيعة عند كثير من الناس حتى اليوم أن يتهم شخص بأنه خان الملح والعيش ( الخبز او الاكل ) . ويروي الاصفهاني ان زيد الخيل أبى أن يقتل لصاً لان هذا اللص شرب من قربة أبيه قبل السرقة(١) .

فاذا كان الطعام المشترك يولد بين الناس مثل هذا الحلف والتعاون المتبادل بينهم فاحرى به أن يخلق مثل ذلك بين الناس والاهم ، أي اذا اشتركوا في طعام واحد يصبحوا متحالفين ، وعلى كل فريق منهم أن يعين الآخر ويساعده في الشدائد والملمات .

ولقد ذكرنا أنه كانت للدم أهمية كبرى في العلاقات الاجتماعية ، فالدم المشترك يستلزم التعاون والنصرة المشتركة . وليس من الضروري أن تكون علاقة الدم طبيعية بالوراثة ، بل يمكن خلقها بأن يلعق الفرد من دم الآخر أو يشتركان بلعق دم من اناء واحد ، كما حدث ذلك في حلف لعقة الدم الذي حدث في مكة عندما تأزم الوضع بين هاشم وبني عبدالدار . فاذا اشترك الاله مع القبيلة في الاكل أو في شرب الدم فانه تتكون بينهما علاقة دم تلزم كل فريق أن يدافع عن الآخر وينصره ويؤيده .

ولنلاحظ أن العشيرة كلها كانت تشترك في الاصل أو في العبادة ، فاذا اشتركت في الاكل كان ذلك توثيقاً للعلاقة بينهم وتقوية لتكتلهم ولتماسكهم . واذا قدمت الضحية للاله فانها تعقد الصلة بينه وبين مقدم الضحية .

ويمكن تقديم الضحية في مكان بعيد عن الاله ونصبه ، على أن يقدم على ما له صلة بالاله ، فقد روى ابن الكلبي انه ... ( كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل

(١) الاغاني : ج ١٦ ص ٥١ .

ثلاث أثافي لقدره ، واذا ارتحل تركه فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها ، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون اليها ) .

الا ان خير مكان لتقديم الاضاحي هو حيثما تكون ، أو ينتظر أن تكون ، الآلهة وهو عادة عند الصنم أو النصب ، وقد أشار القرآن الكريم الى ما كان يذبح على النصب وحرم على المسلمين أكله ( انظر سورة المائدة الآية ٣ ) كما ذكر ابن الكلبي ان سعد صنم بني مالك وملكان الكنانيين كانت نهراق عليه الدماء[١] ، وروى في مكان آخر بعض الابيات التي تشير الى الذبائح التي تذبح على النصب[٢] وكثيرا ما يكون عند المذبح كهف أو حفرة يسيل فيها دم الضحية ويسمى الغبغب[٣] ولعلهم كانوا يفهمون من ذلك ان الدم الذي يسيل في الغبغب كان يذهب للاله فتنعقد الصلة بينه وبين مقدم الضحية .

والضحايا عادة من ذوات الروح . ولا شك ان أروع الضحايا وأشدها وقعاً هي التي تكون من البشر فقد قدم ابراهيم الخليل ابنه ضحية قرباناً لله تعالى ، كما قدم عبدالمطلب ابنه عبدالله ضحية ، وقدم المنذر بن ماء السماء اربعمائة ضحايا للعزى .

ولكن يجوز ابدال الضحايا البشرية بضحايا من الحيوان فان الله تعالى فدى ابن ابراهيم « بذبح عظيم » ( الصافات ١٠٧ ) كما ان عبدالمطلب فدى ابنه بمائة من الابل[٤] . فمن الطبيعي أن تكون أغلب الضحايا من الحيوانات الداجنة وهي تكون عادة من الاغنام أو البقر أو الجمال تبعاً لتوفرها .

---

(١) الاصنام : ص ٣٣ .
(٢) الاصنام : ص ٣٦ .
(٣) الاصنام : ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٧ .

تقدم الاضاحي عادة في مواسم العبادات كالحج وتسمى ضحايا الاغنام ( العتائر[١] ) وكانت تقدم عادة في رجب وتسمى الرجبية[٢] • ومع ان شهر رجب من الاشهر المقدسة وكان يقع في أواخر الربيع الا ان المصادر التي بين ايدينا لا تتحدث عن سبب قدسيته أو ذبح العتائر فيه •

**الهــدي :**

أما اضاحي الحج الى مكة فكانت تدعى الهدي وقد ورد ذكرها في القرآن الـكريم « واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب » ( البقرة ١٩٦ ) «يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم» (المائدة ٢) « يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين ••• جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد » ( المائدة ٩٥ ــ ٩٧ ) « هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحـرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله » ( الفتح ٢٥ ) •

ومع ان الهدي يمكن أن يكون من الغنم والبقر ، الا ان الغالب أن يكون من البدن أي الابل[٣] • وقد ورد ذكر البدن في القرآن الـكريم

---

(١) الاصنام : ص ٣٤ •

(٢) ابن حنبل : ٢ ص ١٨٣ ، ج ٥ ص ٧٦ لسان العرب ج ٦ ص ٢١٠ • أنظر أيضا سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٨ •

(٣) أنظر لسان العرب : ج ٢٢ ص ٢٣٤ اما عن هدايا الشاة =

« والبدن جعلناها لـكم من شعائر الله لـكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لـكم لعلـكم تشكرون • لن ينـال الله لحومها ولا دماؤهـا ولـكن يناله التقوى منكم » (الحج ٣٦ ، ٣٧) •

**الاشعار والتقليد :**

والبدن التي تهدى تشعر وتقلد ، فاما الاشعار فهو ان ( يشق جلدها ويطعنها في اسنمتها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه حتى يظهر منها الدم ويعرف انها هدى[١] • وقد وردت عدة أحاديث ان الرسول أشعر البدن في السنام الأيمن[٢] • واما التقليد فهو ( أن يجعل في عنقها عروة مزادة أو خلق نعل فيعلم انها هدى ، وكانوا أيضا يقلدون بلحـاء شجر الحرم يعتصمون بذلك من أعدائهم • وكان المشركون يفعلون ذلك فأمر المسلمون بألا يحلوا هذه الاشياء التي يتقرب بها المشركون الى الله ثم نسخ ذلك[٣] ) وقد رويت عدة أحاديث عن تقليد بدن رسول الله التي أهداها للبيت وروى عن عائشة انهـا قالت ( فتلت قلائد بدن رسول الله ثم قلدهـا وأشعرها ثم وجهها الى البيت[٤] • ومن المحتمل ان جلال البدن كانت تهدي للكعبة ؛ والواقع ان عبدالله بن عمر كان يجلل بدنه القباطي والانماط والحلل ثم

---

= والبقر في زمن الرسول فانظر عن مواضعها في كتب الصحاح : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي : مادة شاة ، بقر.٠

(١) لسان العرب : ج ٦ ص ٨١ ـ ٨٢ ٠

(٢) ابن حنبل : ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ انظر أيضا عن الاحاديث النبوية التي ورد فيها الاشعار : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة اشعر ٠

(٣) لسان العرب : ج ٤ ص ٣٦٩ ٠ وكان أهل مكة يقلدون باشجار جبل المقطع الازرقي ص ١٥٥ طبع وستنفلد ٠

(٤) الموطأ : ج ١ ص ٢٤٩ ابن حنبل ج ٦ ص ٣٥ ، ٨٧ ، ٨٢ ٠ وانظر أيضا عن التقليد : الموطأ ج ١ ص ٢٥١ ، ٢٧١ أما الاحاديث فقد ذكرت مواضعها من كتب الصحاح الستة : فنسنك : مفتاح كنوز السنة مادة اضاحي ٠

يبعث بها الى الكعبة فيكسوها أياها ، فلما كسيت الكعبة صار يتصدق بها[١] . ومن المحتمل ان الناس أو بعصهم ، كانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام أيضا ويظهر انه لم يكن يباح ركوب الهدى من البدن فأمرالنبي بركوبها حتى تصل الى المنحر .

كان تقليد البدن وأشعارها يتم عند الاهلال أي عند بداية القيام بالسفر لاجل الحج ، وقد قلد الرسول بدنه وأهل بها من الجعرانة . وكانوا يسيرون بهـا الى الحج ، وبعـد انجاز طقوسه ينحرونها في منى ، وتنحر فيما يظهر قائمة . والاغلب ان المضحي يقوم بذلك بنفسه . ولا ينبغي للحاج أن يحل الا بعد النحر[٢] .

والبدنة الواحدة قد تجزي عن عدة الاشخاص . ففي حجة الوداع نحر الرسول مائة بدنة عن الصحابة وعددهم سبعمائة ، أي ان كل بدنة اجزت عن سبعة ، وفي بعض الروايات انها اجزت عن عشرة[٣] .

**حلق الشعر :**

من أهم مظاهر انجاز الحج والاحلال منه هو قص الشعر الذي يتم بعد النحر مباشرة ولا يجوز أن يتم قبله والا فسد الحج[٤] . ولا يقتصر ذلك على الحج الى مكة بل يمتد الى بقية الآلهة ، فكان الاوس يعظمون مناة

---

(١) الموطأ : ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) أنظر عن الاحاديث المتعلقة بهـا : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة بدن .

(٣) عن الاحاديث الكثيرة المروية في هذا الموضوع راجع : فنسنك مفتاح كنوز السنة مادة اضاحي . حج . والفهرس المفصل مادة حج . بدن . شعائر . حل . حرم . أما عن الاضاحي عند الامم السامية عامة فاوسع بحث هو الذي كتبه روبرتسن سمث في كتابه محاضرات عن دين الساميين .

(٤) راجع عما ورد في الحلق من أحاديث : فنسنك : مفتاح كنوز السنة ، والفهرس المفصل مادة حلق .

وكانوا ( يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فاذا نفروا أتوه فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا لا يرون لحجهم تماماً الا بذلك[١] ) • وكانت قضاعة ولخم وجذام يحجون للاقيصر ويحلقون رؤوسهم عنده ، فكان كلما حلق رجل منهم رأسه القى مع كل شعرة قرة من دقيق[٢] •

ويبدو ان للشعر أهمية دينية خاصة عند كافة الساميين لان قصه كان يتم بمراسيم دينية[٣] ، فالطفل عندما يقص شعره تقدم للآلهة بعض الهدايا وتحاط بمراسيم دينية • ولعل سبب ذلك هو ان نمو الشعر دليل على نمو الطفل بنعمة الآلهة التي حرسته ، وان حلق شعر الطفل دليل على نضجه ونموه وتحمله ، أو قرب تحمله ، المسؤولية الدينية ، ومن هنا كان يحاط بعض الطقوس الدينية ، وتقدم الهدايا للآلهة التي أنمته ورعته • ويطلق اسم العقيقة على الهدايا والتقدمات المقدسة عند حلق شعر الطفل[٤] •

**رجال الدين :**

تتطلب طقوس العبادات اناساً يتدربون عليها ويتفهمون أهدافها وفلسفاتها وشعائرها ويوجهون الناس اليها ويرشدونهم • وقد ذكرت في مكة أعمال دينية كالاجازة والافاضة والحجابة وقد تحدثنا عنها عند البحث عن مكة لانها لم تذكر في مكان آخر من الجزيرة كما ذكر السدنة أيضا • ومع ان وظائف كل هؤلاء متصلة بالدين الا انها لا تستلزم من القائم بها أن يكون عالماً بشؤون الدين أو متبحراً فيه • ومن الغريب اننا في أخبار مكة أو أخبار الدعوة الاسلامية فيها لا نسمع ذكراً لرجال الدين مطلقاً • وليس هناك دليل على ان مقاومي النبي كانوا من رجال الدين •

---

(١) الاصنام : ص ١٦٠ •
(٢) الاصنام : ص ١٤ •
(٣) انظر سمث : ص ٣٢٣ فما بعد •
(٤) عن الاحاديث النبوية عن العقيقة راجع فنسنك : مفتاح كنوز السنة مادة عقيقة •

والسادن كما يعرفه ابن منظور « هو خادم الكعبة وبيت الاصنام ويروى عن ابي عبيد ان سدانة الكعبة خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها واغلاقه والسادن هو الخادم ويروى عن ابن بري ان الفرق بين السادن والحاجب ان الحاجب يحجب واذنه لغيره والسادن يحجب واذنه لنفسه أي ان السادن فوق الحاجب[1] » .

وقد ذكر سدنة عدد من الآلهة الجاهلية ، فكان سدنة اللات من بني معتب الثقفيين ومنهم مسعود سادن اللات الذي قاد ثقيفاً في حرب الفجار ، وبنو شيبان ( من سليم ) سدنة العزى ، وبنو لحيان سدنة سواع ، وبنو امامة سدنة الخلصة ، وبنو عامر الاجدار سدنة ود ، وخزاعة بن عبد نهم المزني سادن نهم ، والعوام بين جهيل سادن يغوث[2] ، والسعيدة وكان سدنتها بنو عجلان[1] . اما سدانة الكعبة فكانت لبني عبدالدار .

وكثيراً ما يكون السدنة من عشائر غير التي تسكن في الحرم ، فاذا كانت كذلك فتكون أقدم العشائر الاخرى في الغالب . والغالب ان السدانة تكون وراثية ومحصورة بأسرة معينة ، على انها قد تنتزع منها بالقوة أو التهديد كما فعل قصي عندما انتزع سدانة الكعبة وسيادة مكة من خزاعة .

---

(١) لسان العرب : ج ١٧ ص ٦٩ .
(٢) لقد ذكرت سدنة الآلهة السالفة الذكر في كتاب الاصنام ص ٢٢ ، ١٠ ، ٣٥ ، ٥٥ ، ٣٩ على التوالي . كما ورد ذكر سدنة اللات في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ وذكر ابن حجر في كتابه : الاصابة في تمييز الصحابة سادن نهم (ج ١ ص ٤٢٩) وسادن يغوث (ج ٣ ص ٤١) .
(٣) ياقوت ج ٣ ص ٩٣ .
ويروي ابن هشام ان عمرو بن قيس اخي بني غنم بن مالك بن النجار وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية (السيرة ج ٢ ص ١٥٠) غير اننا لا نعلم بالضبط المقصود بصاحب الآلهة .

**الـكهان والعرافون :**

أما الـكهان فهم اشخاص وقعوا تحت تأثير الآلهة وبمقدورهم التنبؤ بالحوادث أو القيام بالاعمال الخارقة ، وقد اتهم النبي بأنه كاهن فرد القران على ذلك بعـدة آيات ، وقـد يكون بعض الـكهان من السدنة • ويروي السكري انه لا يكون كاهناً حتى يكون له شيطان تابع له ليوحي اليه[١] • وكانت العرب تستشيرهم وخاصة قبـل الحملات وتتنافر عندهم وتتحاكم اليهـم[٢] • وتنسب الى الـكهان حكـم وتنبوآت مصـاغة بجمل قصـيرة مسجوعة • وكثيراً ما يكون الـكهان من النساء ككاهنة حدس[٣] ، والغيطلة كاهنة بني سهم[٤] ، وكاهنة خثعم فاطمة بنت مر التي مرّ بها عبدالمطلب عندما أراد أن يتزوج ابنه عبدالله أبو الرسول[٥] •

---

(١) المحبر : ص ٣٩٠ •

(٢) راجع ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٥٢ ، الطبري : ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ • راجع أيضا مروج الذهب : ج ١ ص ١٦٨ ، ١٧٥ فما بعد •

(٣) الطبري : ج ٣ ص ١١٠ ، ابن هشام ج ٣ ص ٤٣٨ •

(٤) ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٦ •

(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٧٥ •

# القسم الثالث

# حياة الرسول

## والدعوة الاسلامية في مكة

# الفصل الخامس عشر

# مصادر دراسة حياة الرسول

ان حياة الرسول واعماله وتطور نشأة الاسلام يمكن بحثها من ثلاثة مصادر رئيسية هي : القرآن ، وكتب الحديث والسنة ، وروايات المؤرخين ومؤلفاتهم •

**القـــرآن :**

أما القرآن فهو كتاب الله المنزل باللفظ والمعنى على الرسول ، واختلاف القراءات فيـه قليل نسبياً ومقتصـر على بعض الـكلمات ، فنصـه عموماً مضبوط يقر الجميع بصحته • ولو تجرأ شخص على التلاعب فيه أو تغييره لحل عليه غضب الناس والله جميعاً لان الله تعالى يقول « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ( الحجر ٩ ) •

لم ينزل القرآن جملة واحدة ، بل نزل منجماً في بحر عشرين سنة • وقد ذكر في آياته بعض الحوادث التي واجهها الرسول والاسلام وفصل في بعضها ، كما انه عرض الافكار الاسلامية وقدم البراهين والحجج والادلة عليهـا ، وكـذلك رد على معارضي الاسلام والـكفار والمشركين ومنـذ آراءهم وحججهم وافكارهم المتباينة والمتنوعة والمختلفة باختلاف الاحوال والظروف والاشخاص • لذا فان القرآن يلقي ضوءاً ساطعاً على المشاكل التي واجهها الرسول والعقبات التي اعترضته والصعوبات التي واجهته كما يتبين من وجهات نظر المعارضين •

وقـد عبر القرآن عن كثير من الازمات التي كان يلاقيهـا الرسول والمسلمون واقترح الاجابات والحلول لها وهي أزمات منوعة متبدلة بعضها قوي طويل الأمد وبعضها مؤقت قصير الأجل • ويمكن القول عموما ان تكرر الموضوع الواحد في القرآن دليل على انه لاقى كثيرا من المقاومة والنقاش •

فالقرآن هو المصدر الاول لدراسة نشأة الاسلام وعقائده نظراً لاصالته ولما فيه من اشارات وأخبار عن عصر الرسول وما لاقته الدعوة •

غير ان الاستفادة من القرآن في دراسة تاريخ الرسول والدعوة الاسلامية ليست سهلة ، نظراً لانه لم يشمل بالذكر كافة الحوادث التي مر بها الاسلام ، أو كل الاعمال التي قام بها الرسول ، أو كافة من اتصل بهم واحتك فيهم من الاشخاص . والواقع انه لم يرد فيه الا اسم شخصين فقط أحدهما مشرك هو أبو لهب عم النبي والثاني مسلم هو زيد بن حارثة ربيب الرسول . ثم ان كثيرا من الاوضاع والمؤسسات والنظم الجاهلية التي أشار اليها القرآن زالت بعد مجيء الاسلام واندرست ولم يبق لها أثر مما أدى الى اختلاف الشراح والمفسرين في توضيحها حتى انه يصعب علينا اليوم الجزم في صحة واحد من هذه التفاسير أو تفضيله على غيره .

ولعل أكبر صعوبة تصادفنا عند محاولة الاستفادة من القرآن في الدراسة التاريخية لحياة الرسول والاسلام وخاصة في الدور المكي هي معرفة زمن نزول الآيات . ذلك ان العلماء المسلمين الذين بحثوا أسباب النزول اكتفوا بذكر سبب نزول آيات معينة محدودة تشير في الغالب الى احكام أو حوادث أو أشخاص معينين . كما ان الباحثين في الناسخ والمنسوخ درسوا في الغالب تعاقب نزول الآيات الناسخة والمنسوخة خاصة في الاحكام القضائية وهي آيات محدودة العدد نسبياً في القرآن ، أما بقية الآيات فلم يتطرقوا لها رغم أهميتها الكبرى في دراسة تطور الدعوة الاسلامية وما لاقته .

لقد بحث العلماء المسلمون أيضا في تعاقب نزول السور ورووا ترتيبها حسب نزولها وقد اختلفوا في ابحاثهم اختلافات كبيرة[١] ؛ ومع ذلك فان دراستهم غير كافية لان السورة الواحدة لم تنزل مرة واحدة بل كثيرا ما تكون في السورة الواحدة آيات مكية وأخرى مدنية ، أو تكون السورة

---

(١) أنظر رواية ابن عباس في ترتيب نزول السور في السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١١ مقدمتان في تاريخ القرآن ص ٨ ، ورواية علي بن أبي طالب في مقدمتان ص ١٤ ، ورواية الواقدي في : ابن النديم . الفهرست : ص ١٨ . أما ترتيب نولدكه وكرمة وكايتاني فانظرها في بيل : مقدمة للقرآن ص ١١٠ ـ ١١٤ (بالانكليزية) .

الواحدة مكية خالصة ولـكن آياتها نزلت في فترات متباعدة ثم جمعت في سورة واحدة[١] . فالاعتماد على هذه الروايات غير كاف .

وقـد حاول بعض المستشرقين دراسـة زمن النزول ؛ ولعل أبرزهم ثيودور نولده‌كه في كتابه تاريخ القرآن الذي اتخذ الاسلوب معياراً لمعرفة زمن نزول السور ، واعتبر السور الاولى آياتها قصيرة مسجوعة ، أما السور المتأخرة فآياتها طويلة غير مسجوعة في الغالب . ولـكن دراسته ناقصة شأن دراسة العلماء المسلمين من حيث انَّ آيات السورة الواحدة قد تكون نزلت في أوقات متباعدة .

وقد قام المستشرق الانكليزي ريتشارد بل بدراسة أخرى حيث ترجم القرآن ودرس كل آية وحاول تحديد زمن نزولها من معانيها ومواضيعها واسلوبها . ولاشك ان بحثـه طريف وبعض استنتاجاته عـن زمن نزول الآيات يثير التفكير . ولـكن احكامه ليست نهائية .

ربما كانت هذه الصعوبات من أهم الاسباب التي أدت بمؤرخي السيرة النبوية ألا يستفيدوا من دراسـة القرآن الاستفادة الـكافية رغم أهميتـه الـكبرى وبذلك خسر الفكر خسارة كبرى . وقد حاول بعض المحدثين وخاصة من المستشرقين أمثال شبرنجر وموير وكايتاني وبوهل معالجة ذلك والاستفادة من القرآن في دراسة حياة الرسول . أما العرب فلا أعلم من حاول ذلك بصورة شاملة الا محمد عزة دروزة في كتابيه عصر الرسول وبيئته ، وسيرة الرسول .

لقد حاولت في بحثي عن الدعوة الاسلامية أن اجمع الآيات التي تدور حول الموضوع الواحد محاولا تعيين زمن التأكيد على ذلك الموضوع مستعينا بمـا رواه المؤرخون عن خطوات الدعوة وما يقتضيه منطـق الحوادث في استنتاج سـير تطورها ، حيث يبدو ان الدعوة بدأت بالتأكيد على بثها بين قومه بلسان عربي والدعـوة الى عبادة الله الواحد الأحـد والنظر في اياته

---

(١) أنظر في ذلك : السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٢ ـ ١٨ .

وأعماله ، ثم التأكيد على يوم القيامة والبعث والحساب وقصص الانبياء للعبرة والتوضيح ، ثم عيب آلهة الشرك وعبادها ثم المفاطعة ثم التثبيت • وقد اجلت دراسة الآيات المتعلقة بالطقوس والمواضيع الاخرى الى الجزء الثاني • ومع اعترافي بأن هذه المحاولة أولية الا اني أرجو أن يكون دليلاً منيراً لدراسة الدعوة من الآيات القرآنية •

**الاحاديث والسنة :**

أما سنة الرسول فهي كل ما قاله الرسول أو عمله أو أقره أو رآه فلم ينكره • ويختلف الحديث عن القرآن من حيث كون القرآن منزلاً من الله لفظاً ومعنى وان الحديث مصدره الرسول • والسنة لم تدون في زمن الرسول ، وهناك روايات بأن الرسول وعمر بن الخطاب نهيا عن محاولة تسجيل سنة الرسول وأحاديثه • وأقدم محاولة رويت لتسجيل أحاديث الرسول كانت في زمن عمر بن عبدالعزيز ، أي في نهاية القرن الاول الهجري[١] •

وأقدم الاحاديث المدونة الباقية هي موطأ مالك وقد وصلنا في عدة روايات أهمها رواية سحنون وفيها ١٧٢٠ حديثاً ورواية محمد بن الحسن الشيباني وفيها ١١٧٩ حديثاً ، غير ان أقوال الرسول وأحاديثه منها لا تزيد عن ٨٢٢ في رواية سحنون و٤٢٩ في رواية الشيباني والباقي أقوال الصحابة والتابعين وآراء لمالك نفسه •

وقد أورد كل من ابي حنيفة وابي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني والشافعي عدداً من الاحاديث فيما ألفوه وقد جمعت أحاديث كل منهم في

---

(١) أنظر عن نشأة وتطور علم الحديث : أحمد أمين : فجر الاسلام ، ضحى الاسلام ج ٢ ، ولجولدزيهر بحث قيم نشره في كتابه « دراسات اسلامية » (بالالمانية) ثم ترجم حديثا الى الفرنسية ، وانظر أيضا « الباعث الحثيث في تدوين الحديث » ص ١٤٧ ـ ٩ ، وعبدالسلام هارون : جمع النصوص ص ٩ حيث يشيران الى تدوين الحديث زمن النبي •

مجاميع أو مساند وأكثرها مطبوع ولـكن هذه الاحاديث هي قليلة نسبياً ولا تشمل كل أقوال الرسول وأعماله •

وجدير بالملاحظة ان هؤلاء المؤلفين هم فقهاء تناولت أبحاثهم المشاكل الفقهية بالدرجة الاولى ، كما ان كثيرا منهم لم تشمل أبحاثهم تفاصيل مختلف القضايا الفقهية • لذا يمكن القول بأن الاحاديث المروية عنهم تؤكد على ما يتصل بالفقه وانها أوردت لتخدم هذا العلم فهي ليست خاصة لأحاديث الرسول ولا يرد فيها كافة ما يعرف عن حياة الرسول •

ان مركز الرسول العظيم كقدوة للمسلمين في حياتهم كما قال تعالى « لقد كان لـكم في رسول الله اسوة حسنة » ( الاحزاب ٢١ ) وتزايد اهمية السنة في التشريع دفعت الناس من غير الفقهاء الى الاهتمام بأحاديث الرسول ودراستها كما أدت الى اختلاق كثير من الاحاديث ونسبتها الى الرسول • وقد أدى كل هـذا الى انفصال الحديث تدريجياً عـن الفقه والى اهتمام العلماء ، وخاصة منذ القرن الثاني الهجري ، في تدقيق الاحاديث وغربلتها وتنقيتها من العناصر الغريبة والمختلقات والاكاذيب • ومع ان هؤلاء العلماء بذلوا جهداً عظيما رائعاً ، الا ان اهتمامهم كان منصباً بالدرجة الاولى على النقد الظاهري دون الباطني ، أي على الرواة ورجال السند دون نصوص الحديث • ومع ان هذه المحاولات أدت الى غربلة كثير من الاحاديث الا انها لم تؤد الى تنقيته التامة فظلت كثير من الاحاديث مثار نقاش حول مدى صحتها ودقتها •

ومن أهم نتائج توسع الاحاديث وانفصالها عن الفقه وغربلتها ، ان ظهرت مجموعات من كتب الحديث الصرفة وأهمها عند السنة ستة هي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وسنن ابن ماجة وسنن ابي داود ( يضاف اليها موطأ مالك ) • ولصحيح البخاري وصحيح مسلم مكانة خاصة نظراً لشدة تدقيق صاحبهما وقلة الشوائب فيهما بالنسبة للباقية •

تبحث هذه الـكتب عن سيرة الرسول وأعماله وما أقره من أحكام في

مختلف نواحي الحياة السياسية والمالية والادارية فضلا عن أحكام الدين والطقوس والعبادات • ومروياتهم عن حياة الرسول وأعماله السياسية والادارية ذات أهمية الا انها قليلة نسبياً ، رغم انها جوهر التاريخ ، ثم ان الاحاديث المتعلقة بحياة الرسول لا تختلف كثيراً عما أورده المؤرخون الاولون • ومن الملاحظ ان اصحاب كتب الصحاح لم يتحرروا تماماً من تأثير الفقهاء الذي يتجلى في زيادة اهتمامهم بالمشاكل الفقهية وترتيب كتبهم على نمطها •

ثم ان كتب الحديث تورد نص الحديث وسنده ولا تفسره أو تحلله ، فهي مجموعة نصوص فحسب ولابد من تحليلها وايجاد الصلة بينها وتفسيرها • وقد قام كثير من العلماء القدامى في شرح الاحاديث وتفسيرها الا انه لم تقم محاولة جديه لايجاد الصلة الزمنية بينها أو ربطها وتفسيرها واستخدامها لاعطاء صورة للاوضاع التاريخية • نظراً لأن محاولات الاقدمين في دراسة هذه الاحاديث اقتصرت على شرح كل حديث دون محاولة تحليله أو ربطه مع غيره وبذلك كانت محاولاتهم مفككة لا تكون وحدها تاريخاً متصلاً •

ويلاحظ أيضا ان هذه الاحاديث غير مرتبة ترتيباً زمنياً وقلما يشار الى زمن نزولها ، مما يخلق صعوبة كبرى لدارس التاريخ الذي يقوم بحثه على أساس ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً •

ان هذه المصاعب من أهم العوامل التي جعلت كثيراً من دارسي حياة الرسول يتحاشون قراءتها ولا يستفيدون منها بمهارة أو كفاية ، رغم أهمية ما فيها من معلومات • وبذلك كانت محاولاتهم واضحة النقص •

**المؤرخون[١] :**

أما المؤلفات التاريخية عن حياة الرسول ، وتسمى عادة كتب السيرة ، وهي مشتقة من السير في الحياة ، فقد بدأ الاهتمام بتدوينها بعد منتصف

---

**(١) هذا البحث عن مؤلفي السيرة هو ملخص لمقال « ديللافيدا » =**

القرن الاول الهجري أي بعد وفاة الرسول بخمسين سنة وأكثر ، وساهم في تدوينها العرب والموالي ، وكانت في البداية بسيطة تتناول بعض نواحي حياة الرسول واعماله ، وهي متأثرة بالفقه والادارة اذ تهتم بقوائم أسماء المسلمين الاول ، أو المشتركين بالغزوات الاولى ، كما تتطرق الى أحكام الرسول وقضاياه ؟ أما اسلوبها فبسيط واضح أقرب الى الاسلوب القصصي وتروي خلال سردها الحوادث بعض القصائد والاشعار ، وهي صورة عامة مفككة غير مترابطة ولا تعير الاسناد أهمية كبرى .

**ابان بن عثمان :**

وأول من رويت عنه أخبار السيرة هو ابان بن الخليفة عثمان بن عفان ، وقد ولد حوالي سنة ٢٠هـ وعين في زمن عبدالملك بن مروان والياً على المدينة حيث ظل في هذا المنصب سبع سنوات كان يتولى خلالها امارة الحج كل سنة تقريبا ، وكانت له صلات طيبة بكبار الصحابة والتابعين ، وتوفي في خلافة الوليد على ما يروي البخاري أو في زمن يزيد الثاني على ما يروي ابن سعد . وقد رويت عنه بعض الاحاديث مما يدل على مكانته الطيبة عند المحدثين . وكان يميل الى الدعابة والفكاهة وله تذوق للشعر . وقد روى عنه الطبري في تاريخه وتفسيره ، كما روى عنه مالك في الموطأ ، وابن سعد في الطبقات . ولكن ابن اسحق والواقدي لم يرويا عنه .

**عروة بن الزبير :**

ويتلو ابان في الترتيب الزمني عروة بن الزبير بن العوام الذي ولد حوالي سنة ٢٣هـ وتوفى سنة ٩٤ وقضي حياته في المدينة محباً للعلم ومهتماً

---

= عن السيرة في دائرة المعارف الاسلامية ، ولمقال يوسف هورفتز عن « مؤرخي السيرة الاولى » الذي نشره بالانكليزية في مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٢٦ ولخصه أحمد أمين في الجزء الثاني من « ضحى الاسلام » ، كما ترجمه حسين نصار الى العربية بعنوان « المغازي الاولى ومؤرخوها » ، ثم ضمنه في كتابه « نشأة الكتابة الفنية في الاسلام » بعد أن أضاف اليها بعض المعلومات .

به وكان له أصحاب يجلسون في حلقة بمسجد المدينة يتداولون الاخبار منهم عبدالملك بن مروان قبل تسنمه منصب الخلافة .

لم يندفع عروة في شؤون السياسة أو يساهم فيها مساهمة فعالة كما فعل أخواه عبدالله ومصعب ، لذا احتفظ بمكانته الطيبة عند الامويين وقد قضى في مصر سبع سنوات كما زار الشام في عهد عبدالملك والوليد . وكان من فقهاء المدينة السبعة المشهورين ، وله شهرة بمعرفة الحديث .

لقد دون عروة معلوماته عن تاريخ الرسـول بشكل أجوبة لأسئلة وجهها اليه عبدالملك وابن أبي هنيدة كاتب الوليد . وهذه الأجوبة تتعلق بالهجرة الى الحبشة وهجرة الرسول الى المدينة وبغزوة بدر وفتح مكـة ووفاة خديجة وزواج الرسول باخت الاشعث بن قيس . وهو يحلي كتاباته بمقتطفات من الشعر ولا يهتم كثيراً بذكر رجال السند .

**شرحبيل بن سعد ووهب بن منبه :**

والاسم الثالث في تاريخ سيرة الرسول هو شرحبيل بن سعد مولى بني خطمة ، وقد ولد في أواخر عهد عمر أو أوائل عهد عثمان وتوفي سنة ١٢٣هـ بعد أن ناهز المائة . ويقول عنه سفيان بن عيينة انه لم يكن أحد أعلم بمغازي البدريين منه ، ولـكنه كان متهماً في أمانته لذا لم يرو عنه ابن اسحق والواقدي أما ابن سعد فقد روى عنه حديثاً واحداً .

والاسم الرابع هو وهب بن منبـه الذي اشتهر بكتاباته عن الشعوب والامم القديمة ولـكنه كتب أيضاً في سيرة الرسول ، وقد حفظت من كتاباته قطع تتعلق باجتماع دار الندوة والهجرة وغزوة بني خيثمة .

**ابن حزم وعاصم :**

ويتلو هؤلاء حسب الترتيب الزمني عبدالله بن أبي بكر بن عمر بن حزم وكان جده والياً للرسول على نجران وأبوه قاضياً في المدينة ثم والياً

عليها زمن سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز • أما عبدالله بن أبي بكر فلميتولى منصباً رسمياً بل اهتم بالحديث وبالمغازي وبشباب الرسول والأعوام الاولى من حياته وبوفود القبائل الى الرسول ، كما روى أخباراً عن ردة القبائل العربية وعن أواخر أيام عثمان وقد روى أيضاً كتب الرسول الى بعض أهل اليمن والى عمرو بن حزم • لقد استمد ابن حرم كثيرا من معلوماته من خالته عمرة وهو لا يهتم بالسند وقلما يورده ولكنه يورد الشعر في مغازيه •

أما عاصم بن عمر بن قتادة الظفري الانصاري فهو لم يتول منصباً رسمياً ولكنه زار بلاط الامويين بضع مرات يستمد منهم بعض المعونة المالية • وقد حدث أهل دمشق عن المغازي في زمن عمر بن عبدالعزيز واهتم بتفاصيل أخبار شباب النبي والفترة المكية عامة • وهو أكثر اهنماماً بالأسانيد وذكراً لها من عبدالله بن حزم ، ويروي في أخباره الاشعار ويبدي أحياناً آراءه الخاصة •

**الزهري وتلامذته :**

ومن أبرز مؤرخي السيرة محمد بن مسلم الزهري الذي ولد حوالي سنة ٥٠هـ وهو قرشي من قبيلة زهرة ؛ كان جده قد جرح الرسول في غزوة احد أما ابوه فكان ممالئاً لابن الزبير ، ولكن صاحبنا كان ذا علاقة طيبة بالامويين فقد وفد على عبدالملك واستوطن دمشق فترة من الزمن واجرى عليه الامويون راتباً معيناً ثم ساءت علاقته معهم فعاد الى الحجاز •

لقد كتب الزهري عن مواضيع كثيرة فتناول أسنان الخلفاء أي أعمارهم ، كما تناول حياة الرسول كما يتجلى ذلك من اقتباس الطبري وابن سعد منه • وهو يميل الى جمع أسماء رواة الخبر الواحد وتوحيدهم ثم رواية الخبر فهو لا يدقق بالاسناد ويدخل الشعر فيما يروي •

لقد كان للزهري عدة تلاميذ بارزون كلهم من الموالي أبرزهم موسى ابن عقبة الذي ولد حوالي سنة ٥٥هـ وكان مولى للزبيريين فلم يتول أي منصب لدى الامويين ولم يصلنا من كتاباته الا قطع ، وقد شمل بحثه المغازي والهجرة وروى خاصة عن الزهري كما اقتبس منه كثيراً ابن سعد وخاصة

في المجلد الثالث والرابع من الطبقات ، ويظهر من هذه الاقتباسات ان كتابه كان يحوي على قوائم المهاجرين الى الحبشة والمشتركين في بيعة العقبة والمقاتلين في بدر وقد اهتم بتاريخ الراشدين والامويين وأعار السند أهمية كما استشهد بالشعر قليلا واعتمد عليه الواقدي والطبري .

أما معمر بن راشد فهو مولى الحدان وقد ولد ونشأ في البصرة حوالي سنة ٩٦هـ ثم رحل الى اليمن واستقر فيها . وهو محدث ، وقد ذكر له ابن النديم كتاب المغازي الذي لم تصلنا منه الا فقرات رواها الواقدي وابن سعد والبلاذري والطبري واكثر رواياته عن الزهري . وقد روى كثيراً عن تاريخ أهل الكتاب والرسل الأولين . وروى عنه ابن سعد اخباراً عن عهد عثمان ومعاوية .

**ابن اسحق :**

يحتل ابن اسحق مكانة خاصة بين مؤرخي السيرة نظراً لأن معظم ما كتبه عنها وصلنا عن طريق ابن هشام والطبري ، وهي تمثل اوسع ما كتب حتى ذلك الوقت . وكان تاريخ السيرة عنده يمثل جزءاً من تاريخ العالم واستمرارا له ، كما انه اعتمد على أهل الكتاب ولم يقتصر على رجال السند بل اهتم بالشعر ايضا فكانت طريقته مزيجاً بين طريقة المحدثين ورواة أيام العرب .

لقد كان ابن اسحق مولى تحدر من يسار الذي كان من أسرى عين التمر الذين جاء بهم خالد بن الوليد من العراق الى المدينة . وقد ولد محمد حفيده سنة ٨٥هـ واهتم بالحديث فروى عن أبيه ثم اتصل بعدد من العلماء امثال عاصم بن عمر وعبدالله بن أبي بكر والزهري . ثم ذهب سنة ١١٥هـ الى الاسكندرية حيث سمع من يزيد بن أبي حبيب ثم زار المدينة وقابل سفيان بن عيينة . ولكن خاصمه هشام بن عروة ومالك أنس فرحل الى الكوفة والجزيرة والري وبغداد . ولم يتصل بالامويين كما انه لم يتأثر بالعباسيين . والواقع انه ذكر العباس بن عبدالمطلب ، وهو جد العباسيين ، بين أسرى بدر .

الف ابن اسحق كتابه في السيرة وهو يتكون من ثلاثة أقسام المبتدأ

والمبعث والمغازي • لم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام ، وفي هذه الرواية بعض التحوير للكتاب حيث ترك تاريخ أهل الكتاب من آدم الى ابراهيم ، كما انه لم يذكر من سلالة اسماعيل غير اجداد النبي المباشرين ، كما حذف ما لا علاقة له بالرسول وأنكر بعض مما رواه ابن اسحق من الشعر أو ما يؤذي الناس ذكره ، كما أضاف اليه كثيرا من الاضافات في الانساب واللغة وقد أشار الى اضافاته ومحذوفاته ، كما ان الطبري في التاريخ وفي التفسير حفظ كثيرا مما حذفه ابن هشام من الانباء ، وحفظ الازرقي كثيرا مما حذفه ابن هشام عن مكة •

يمكن تقسيم المبتدأ الى أربعة أقسام أولها يمتد من الخليقة الى المسيح ، وقد عنى فيه بروايات وهب بن منبه وابن عباس واخبار اليهود والنصارى ونصوص الكتاب المقدس والعرب البائدة التي ورد ذكرها في القرآن خاصة • والقسم الثاني من المبتدأ يشمل تاريخ اليمن وقصة اصحاب الاخدود وأصحاب الفيل • والقسم الثالث القبائل العربية والاصنام التي تعبدها • أما القسم الرابع فيبحث عن أجداد النبي والديانة المكية • والاسناد في المبتدأ نادر • والقسم الثاني من الكتاب هو حياة الرسول في مكة والهجرة • ويهتم ابن اسحق في هذا القسم برواية الاسناد وبذكر قوائم أسماء المسلمين الأولين والمهاجرين وأول المؤمنين من الانصار والمشتركين ببيعتي العقبة والمؤاخاة وبوثيقة النبي في المدينة •

والقسم الثالث هو المغازي ويهتم فيه بذكر الاسناد ويعتمد على الزهري وعاصم بن عمر وعبدالله بن أبي بكر ويورد قوائم أسماء المشتركين في بدر والقتلى والاسرى فيها وفي أحد والخندق وخيبر ومؤتة والطائف والمهاجرين من الحبشة •

لابن اسحق عدة تلامذة أشهرهم البكائي الذي روى عنه ابن هشام ، وسلمة بن الفضل الذي روى عنه الطبري[1] •

---

(١) أنظر عن سيرة ابن اسحق ورواتها المقدمة التي كتبها الفردجيوم لترجمة سيرة ابن هشام الى الانكليزية • وانظر عن رأي العلماء في ابن اسحق : ابن سيد الناس « عيون الاثر » •

**الواقـــدي :**

الواقـدي وابن اسحاق همـا الوحيدان اللذان سلمت مؤلفاتهما من الضياع • والواقدي ، واسمه محمد بن عمر ، مولى للاسلميين • ولد في المدينة سنة ١٣٠ هـ وسمع أشهر رجال الحديث في المدينة وكان عالماً بالآثار فصار مرشداً للرشيد في حجه وكان ذلك سبب اتصاله بالبرامكة وبالخليفة العباسي • وقد ولاه الرشيد والمأمون القضاء • وقد الف كثيرا من الـكتب في الفقه والتاريخ الجاهلي لمكة والمدينة وطفولة النبيوحياته وأزواجه ووفاته وعن الاوس والخزرج وابي بكر والجمل وصـفين والحسن والحسـين وفتوح الشام والعراق وضرب الدنانير ومراعي قريش وعـــن الطبقـــات وتاريخ الفقهاء •

معظم اساتذة الواقدي من أهل المدينة كالزهري ومعمر وابي معشر وموسى بن عقبة • وقد اهتم بالغزوات وهو يتبع نمطاً خاصاً في ذلك ، فيذكر سنة خروج الرسول ورجوعه ثم اخبار الغزوة ثم نائب الرسول في المدينة ثم يروي بعض الاشعار • وهو يحدد التواريخ ويبدي أحياناً آراءه الخاصة في الحوادث • ويظهر تحيزه للعباسيين من حذفه اسم جدهم العباس من قائمة اسرى بدر •

**ابن سعد :**

ولد محمد بن سعد في البصرة سنة ١٦٨هـ وعاش مدة من الزمن في المدينة وكتب في السيرة والطبقات كتابين رواهما تلامذته من بعده حتـــى استقرت نهائياً على يد الحسن بن فهم (٢١١ ـ ٢٨٩ هـ) •

لقد بحث ابن سعد في الجزء الاول من كتابه عن الرسول ، فبـــدأ باجداد النبي وطفولته والدعوة حتى الهجرة ، كما بحث في القسم الثاني من ذلك الجزء عن العهد المدني وعن أوامر النبي ووفود العرب •

وبحث في الجزء الثاني عن عادات الرسول واخلاقه وسفاراته وعن علامات النبوة • ولا ريب ان له عن التاريخ نظرة أوفي نظراً لاهتمامـــه

بالنواحي الأدارية والاجتماعية والاقتصادية ، دون الاقتصار على النواحي السياسية والحروب •

يعتمد ابن سعد في بحث أجداد الرسول على أهل الكتاب وعلى ابن الـكلبي ، أما عن حياة الرسول فيعتمد على الواقدي بالدرجة الاولى ولكنه يضيف اليه معلومات عن ابن اسحاق وابي معشر وموسى بن عقبة • وهو يهتم برجال السند ويروي بعض الشعر •

**مؤلفون آخرون ، رواية ابن النديم :**

ذكر ابن النديم عدداً من المؤلفين عن الرسول وأورد اسماء كتبهم ولعل أهمهم علي بن محمد المدائني الذي الف عدداً من الكتب في امهات النبي وصفته وأخبار المنافقين وتسمية المنافقين ومن نزل القرآن فيه منهم ومن غيرهم وفي الذين يؤذون النبي وتسمية المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين وفي رسائل النبي وكتب النبي الى الملوك واقطاع النبي وصلح النبي وآيات النبي وخطب النبي وعهود النبي والمغازي والسرايا والوفود ودعاء النبي وخبر الافك وأزواج النبي وعماله على الصدقات وما نهى عنه وأمواله وكتابه ومن كان يفد عليه بالصدقة والخاتم والرسل وخطبه[1] •

ويتبين من هذه القائمة مدى اهتمام المدائني بالنواحي الاجتماعية والادارية غير انه من سوء الحظ لم تحفظ هذه الكتب ولم يشر ايها المؤلفون الذين تطرقوا الى هذه المواضيع ولم تدرس بعد أسباب ذلك •

وقد ذكر ابن النديم ايضاً اسماء عدد من المؤلفات عن حياة الرسول منها : (١) كتاب المغازي لنجيح المدني (٢) كتاب صفة النبي لابي البختري (٣) كتاب المغازي للوليد بن مسلم (٤) كتاب مغازي النبي وسراياه وذكر أزواجه لأحمد بن الحارث الخزاز (٥) كتاب المغازي لاسماعيل بن اسحق القاضي (٦) كتاب المغازي لعبدالملك بن عمرو بن حزم (٧) كتاب المغازي

(١) الفهرست : ص ١٤٧ ـ ٨ •

لابراهيم الحربي (٨) كتاب المغازي لعبدالرزاق الصنعاني (٩) كتاب الوفود للهيثم بن عدي (١٠) كتاب مزاح النبي للزبير بن بكار (١١) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردة لأبان بن عثمان بن يحيى بن زكرى اللؤلؤي الاحمر البجلي[١] .

**رواية ياقوت :**

وقد ذكر ياقوت الحموي كتباً أخرى عن حياة الرسول هي (١) كتاب تفسير أسماء النبي وكتاب سيرة النبي لأحمد بن فارس اللغوي (٢) كتاب مغازي النبي وكتاب بنات النبي وأزواجه لاحمد بن عبدالله الرقي (٣) كتاب اخبار النبي ومغازيه وسراياه لاسماعيل بن مجمع الاخباري (٤) كتاب المغازي لعلي بن ابراهيم القمي[٢] .

**رواية السخاوي :**

ويروي السخاوي ان ممن انف في السيرة ابن حيان وابن فارس وابن حزم وأبو أحمد الدمياطي وعبدالغني النابلسي والقطب الحلبي وأبو عبدالله الذهبي وأبو الفتح ابن سيد الناس الذي الف عيون الاثر وكتب عليه البرهان الحلبي تعليقاً في مجلدين سماه نور النبراس وللعلاء علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي ايضاً وكذلك الظهير علي بن محمود الكازروني ثم البغدادي والمحب الطبري والقاضي عزالدين بن جماعه والشمس البرمادي وكذلك للعلاء علي بن عثمان التركماني الحنفي وأبي امامة بن النقاش والشمس بن ناصر الدين والمقريزي (وقد طبع الجزء الاول من كتابه

---

(١) لقد ذكرت هذه الكتب فيالفهرست في الصفحات التالية بالتتابع : (١) ص ١٣٦ (٢) ص ١٤٧ (٣) ص ١٥٩ ، ٣١٨ (٤) ص ١٥٣ (٥) ص ٢٨٢ (٦) ص ٣١٦ (٧) ص ٣٢٣ (٨) ص ٣١٨ (٩) ص ١٤٥ (١٠) ص ١٦١ .

(٢) لقد ذكرت هذه الكتب في معجم الادباء في الصفحات التالية بالتتابع : (١) ج ٤ ص ٨٤ (٢) ج ٤ ص ١٣٥ (٣) ج ٧ ص ٤٥ (٤) ج ١٢ ص ٢١٥ .

الامتاع ) وابن درباس الماراني وكتابه الفوائد المنيرة في جوامع السيرة والابشيطي • كما وابن المرحل والجماعيلي الحنبلي •

وقد ذكر السخاوي أيضاً أسماء عدد ممن نظموا السيرة أو ألفوا في دلائل النبوة والشمائل النبوية والاخلاق النبوية والهدى(١) •

**رواية حاجي خليفة :**

وقد روى حاجي خليفة أسماء عدد من الكتب المؤلفة في شرح سيرة ابن هشام منها الروض الأنف للسهيلي (المتوفي سنة ٥٨١) وكشف اللثام في شرح سيرة ابن هشام لبدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي (المتوفي سنة ٨٥٥) كما نظمها كل من ابي نصر الخضراوي القصري (المتوفي سنة ٦٦٣) وعبدالعزيز الديريني (المتوفي سنة ٦٩٧) وابي اسحق الانصاري التلمساني وفتح الدين ابن الدمياطي (المتوفي سنة ٧٠٥) والكازروني (المتوفي سنة ٦٩٤) والشاهي الذي يقول عنه ان كتابه أوسع كتب السيرة ؛ كما ذكر من مؤلفي السيرة الحافظ مغلطاي ولخصها ابن قطلوبغا والحافظ عبدالمؤمن الدمياطي (المتوفي سنة ٧٠٥) والخلاطي وابن أبي طي (المتوفي سنة ٦٣٠) وابن جماعة الكناني (المتوفي سنة ٧٦٦(٢)) •

ومنذ القرن الثالث بدأت تظهر المدونات التاريخية التي يشمل بحثها التاريخ العام وإن كانت تعطي بعض التفصيل ولعل أهم هذه المدونات الاولى هي تاريخ اليعقوبي ، ومروج الذهب للمسعودي ، وتاريخ الامم والملوك لمحمد بن جرير الطبري الذي يحتل مكانة خاصة نظراً لانه أورد في كتابه مقتطفات من معظم المؤلفين القدماء الذين أوردنا أسماءهم في صدر هذا الفصل ، ووضعها بحسب ترتيبها الزمني مع بعضها بحيث يمكن مقارنتها • وقد اعتمد على الطبري معظم المؤلفين المتأخرين أمثال ابن الاثير وابن كثير وابن خلدون والذهبي •

---

(١) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٨٧ ـ ٩٢ •
(٢) كشف الظنون : ج ١ ص ١٠١٢ ـ ١٠١٣ •

**كتب البلدان :**

وفي الكتب الجغرافية بعض المعلومات عن الاماكن التي لها علاقة بالسيرة وكثيراً ما تورد أخباراً هامة عن حياة الرسول وأعماله وأهم هذه الكتب هي كتاب مكه وأخبارها وجبالها وأوديتها للازرقي ، ومكة وأخبارها في الجاهلية والاسلام للفاكهي ، وكلاهما مطبوعان ، وهناك كتب أشار اليها ابن النديم ولكنها مفقودة ألفها كل من أبي عبيدة والواقدي والمدائني وابن شبه وابن مخراق والبلخي وأبي اسحق العطار • كما ألف عن المدينة عدد من الكتاب منهم الزبير بن بكار وابن شبه والمدائني وابن زباله وعبيدالله بن أبي سعيد الوراق[١] • ولكن لم يطبع إلا كتاب وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى الذي أورد فيه مؤلفه السمهودي معلومات واسعة قيمة مستمدة من المؤلفين الاول عن المركز الثاني للرسول •

إن أغلب الكتب التاريخية التي أوردنا أسماءها مفقود أو غير مطبوع ، وهي تعتمد على كتاب سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبري ، وطبقات ابن سعد التي شملت كتب المؤرخين الاول ؛ وهي ولاشك أقل تفصيلا من المؤلفات المتأخرة ، ولكن يمكن القول بأنها أدق نظراً لقدمها •

**أبحاث المستشرقين :**

وقد تناول المستشرقون الغربيون حياة الرسول فيما تناولوا من الابحاث عن التاريخ الاسلامي • ولا شك ان التعصب والتحامل كانا يطغيان على كتابات المستشرقين القدامى ، نظراً لتأثرهم بروح التعصب الديني الذي كان مسيطراً ومتبلوراً بتأثير الحروب الصليبية ، ونظراً لضعف معرفتهم

---

(١) لقد ذكرت هذه الكتب في الفهرست في الصفحات التالية بالتتابع : ٨٠ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٩٩ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٨ •

بالمغة العربية وقلة المصادر المتوفرة لديهم • غير انه لم يخل الغرب منذ أوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين ، امتدحوا الاسلام[١] •

ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها ؛ وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته ، متبعين الطريقة العلمية التي كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في التقدم في الغرب ، كما ان كثيراً منهم كانت لهم عن التاريخ نظرة جديدة ، فاهتموا بدراسة نواح من حياة الرسول يهتم لهـا المشارقة •. ومع ان فريقاً منهم لم يتقن كل ذلك ؛ الا ان عدداً غير قليل كان يتميز بسعة الاطلاع وبعد النظر وعمق التفكـير مما ساعدهم على انتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير ، رغم انه لا يمكـن القول بأن احكامهم نهائية • ولعل من أبرز هؤلاء الذين كتبوا عن حيـاة الرسول في أواخر القرن التاسع عشـر وأوائل القرن العشرين هـم وليم موير ، وشبرنجر ، وجـرمة وكايتاني الذي اتبـع طريقة الحوليات فكان يورد كافة الروايات المعروفة عن كل حادثـة ، ويتلوها بايراد آراء كافة من بحث فيها من المستشرقين ، ثم يحللها ويستخلص منها ما يراه • وبذلك كان كتابه من أوسع الكتب وأشملها ، وإن لم تكن تفاصيل أبحاثه نهائية أو متفقاً عليها •

وقد ظهربعد الحرب العالمية الاولى عدد من الابحاث عن الرسـول وحياته تتميز بالاعتدال وبحسن التقدير للنواحي الروحية بالاستفادة مـن القرآن ؛ ومن أهمها ابحاث بوهل التي لخصها في مقاله عن الرسول والقرآن في دائرة المعارفالاسلامية ، وتور اندريه في كتابه (محمد : الرجل وايمانه) والذي يعتبر من أرزن ما كتبه المستشرقون ، وكذلك بيل الذي تناول في كتابه مقدمة للقرآن ، تطور كثير من الافكار الاسلامية كما تتجلى مـن القرآن • أخيراً مونتجمري وات الذي لخص في كتابه (محمد في مكـة) كثيراً من مباحث المستشرقين مع اضافات قيمة • وقـد استفدنا من هـذه الكتب الاخيرة فائدة كبرى •

---

**(١) انظر عنهم تور اندريه ( محمد ص ٢٤٣ ـ ٢٤٧ ) (بالانكليزية) •**

**الابحاث الحديثة :**

أما في الشرق ، فقد بدأ الاهتمام بدراسة السيرة النبوية وأعمال الرسول كجزء من النهضة الفكرية الحديثة . ولعل أبرز هؤلاء الكتاب المحدثين هو محمد حسين هيكل الذي بدأ بترجمة كتاب ( محمد ) لدر منجهيم باسلوب طلي جذاب ، ونشر هذه الترجمة بالتتابع في الملحق الادبي لجريدة السياسة ؛ فلما رأى اقبال الناس عليها تصرف كثيراً في الترجمة ، ثم طبعها بكتاب لاقى اقبالا هائلا لما في اسلوبه من سلاسة ، ولما في بعض ابحاثه من محاولة للتفكير . وقد أثار هذا النجاح الحماس في عدد من المؤلفين ، أمثال طه حسين والعقاد والغمراوي في الكتابة عن حياة الرسول .

كما ان الحركات الانتعاشية في العالم الاسلامي دفعت بعض الباحثين إلى دراسة أعمال الرسول باعتبارها المثل الاعلى الذي نستمد منه القبس ، ومع تنوع مواضيعهم وطرافة عرضهم ، إلا ان أغلب ابحاثهم هي من نوع الدفاع لا الوصف ، وهي قلما تشذ عما أورده القدامى . والمهم انها لم تفد افادة كافية من دراسة القرآن الكريم ؛ ما عدا محمد عزة دروزة الذي اتخذ القرآن مصدراً أساسياً لدراسة عصر الرسول وحياته ، واستخدمه بمهارة كأساس تكمله الروايات ؛ فطلع بنتائج طريفة جديرة بالدراسة .

ان محاولتي هنا هي في دراسة القرآن كمصدر أساسي ، ثم عرض بعض ما أراه من آراء المستشرقين والمحدثين ، واستخلاص صورة لتطور حياة الرسول والعقائد الاسلامية في العهد المكي . أما العهد المدني فسنبحثه في الجزء الثاني .

# الفصل السادس عشر

# أجداد الرسول وحياته قبل البعثة

**قصـــي :**

ولد الرسول ونشأ في مكة ، متحدراً من أعرق عشـــائرها نسباً ، وأوسطها مكاناً • ولقصي مكانة خاصـــة بين أجداد الرسول ، فهـــو الذي استطاع أن ينتزع إدارة مكة من خزاعة ويجعلها لقريش التي توحدت بعد أن كانت متفرقة في كنانة • وتروي المصادر العربية أنه نشأ وشب عنـــد اخواله بني قضاعة[١] ، ثم جاء مكة وتزوج من حبى بنت حليل الخزاعي الذي كان سيد مكة ، وقد تمكن بذلك وبمساعدة قضاعة من انتزاع سيادة مكـــة من أيدي خزاعة[٢] (فولي قصي البيت وامر مكة وجمع قومه من منازلهم الى مكة وقريش اذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة ، إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه وذلك انه كان يراه دينـــاً في نفسه لا ينبغي تغييره فأقر آل صفوان وعدوان والنساة ومرة بن عـــوف على ما كانوا عليه حتى جاء الاسلام فهدم الله به ذلك كله فكان قصي أول بني كعب بن لؤي اصاب ملكا أطاع لـــه به قومـــه فكانت اليه الحجـــابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه فانزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي اصبحوا عليها ، ويزعم الناس ان قريشا هابوا قطع شـــجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده وأعوانه ؛ فسمته قريش مجمعاً لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره فمـــا تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قـــوم من غيرهم الا في داره ، يعقده لهـــم بعض

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢ • الازرقي : ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٦ ـ ٧ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨٢ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٢ • المسعودي مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ • ويقول ابن قتيبة ان البيزنطيين ساعدوه ( المعارف ص ٣١٣ ) ولعله يقصد بذلك الغساسنة •

ولده ، وما تدرع جارية اذا بلغت أن تدرع من قريش الا في داره ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها الى أهلها . فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره . واتخذ دار الندوة وجعل بابها الى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورها[1] ) .

ويتبين من هذا النص ان قصياً أهتم بالامور الاداريه والاجتماعية فحاول اعادة تنظيمها بشكل أدى الى تركيز كافة السلطات بيده ، وكانت له من قوة الشخصية ما جعل الناس تذعن له ، أما الشؤون الدينية فقد تركها بيد من كان يتولاها قبله فلم يمس منها ، إلا ما رواه الأزرقي من انه نقل اسافاً ونائلة من الصفا والمروة ووضعهما على بئر زمزم عند الكعبة[2] .

وقد أحدث قصي ايضا وقود النار بالمزدلفة ، وظلت تلك النار توقد تلك الليلة في الجاهلية وفي الاسلام[3] .

لقد أورث قصي ابنه عبدالدار سلطاته فأعطاه دار الندوة كما اعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة[4] .

ثم أورث عبدالدار هذه الامور من بعده ابنه عبد مناف ثم صارت من هذا الى عامر بن عبد مناف بن عبدالدار .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٣٧ . الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ ( عن ابن اسحق ) . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٩ . أنظر أيضا مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) الازرقي : ج ٢ ص ٧٠ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٨٨ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٠ . المحبر : ص ٢٣٦ ، ٣١٩ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤١ . الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ . ويدعي الازرقي ان قصياً قسم الوظائف بين ابنيه عبدالدار وعبد مناف ( أخبار مكة : ج ١ ص ٦٢ ج ٢ ص ٨٧ ) . وكذلك أبو عبيده الذي يضيف ان هاشما أراد اللواء والحجابة وان ذلك تم في حياة ابن جدعان ( المسعودي : التنبيه والاشراف : ص ١٨٠ ) والشطر الاخير مختلط بحلف الفضول وحوادثه .

غير ان بني عبد مناف بن قصي نافسوا عامرا على ما كانت له من سلطات وأرادوا انتزاعها منه ، وقد ناصرهم على ذلك بنو أسد بن عبدالعزى وبنو زهرة وبنو تيم بن مرة وبنو الحرث بن فهر ؛ أما بنو عبدالدار فلم يستسلموا لمنافسيهم ، ووجدوا لهم مؤيدين في بني مخزوم وبني جمح وبني سهم وبني عدي . وهكذا انقسمت قريش الى كتلتين متخاصمتين ، وكونت عشائر كل كتلة حلفاً بينها . ويدعى حلف بني عبد مناف حلف المطيبين ، أما حلف بني عبدالدار فيدعى حلف لعقة الدم . ومن سوء الحظ ان المصادر لا تقدم معلومات اخرى عن دوافع المنافسة وعوامل التكتل أو كيفية حدوثه ، بل تكتفي بالقول بأن الخلاف سوي بطريقة سلمية بأن تبقى الحجابة واللواء والندوة بيد بني عبدالدار ، أما السقاية والرفادة فتصبح لبني عبد مناف[١] .

**هاشـــم :**

لقد كان هاشم بن عبد مناف زعيم المعارضة لعامر بن عبد مناف بن عبدالدار فأخذ بعد الصلح السقاية والرفادة . وتتضح من الاخبار قوة شخصيته ونفوذه فضلاً عن حفره عدة آبار كبئر سخلة[٢] وبئر بذر[٣] فانه أول من أطعم الثريد الحجاج في مكة[٤] . وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف[٥] وهو الذي أخذ الايلاف ( فأخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الشام والروم وغسان وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشي الاكبر فاختلفوا بذلك السبب الى أرض الحبشة وأخذ لهم

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٣ ـ ٤ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٤ ـ ٤٥ المحبر : ص ١٦٦ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٩ . ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٤٩ .

(٢) الازرقي : ج ١ ص ٦٥ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ٦٤ ج ٢ ص ١٧٥ . البكري : معجم ما استعجم ص ٢٣٥ .

(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٧٩ . الاشتقاق : ص ٩ .

(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٨٠ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٣ .

نوفل حبلا من الاكاسرة فاختلفوا بذلك السبب الى العراق وأرض فارس وأخذ لهم المطلب حبلا[١] ) ويتضح من هذه النصوص ان علاقة هاشم باخوته كانت طيبة ، وان تجارة مكة قد ازدهرت وامتدت الى مختلف الأطراف ولا ريب أن الظروف الدولية قد ساعدت على ذلك إذ كانت العلاقات متوترة بين الفرس والروم فاستغل ذلك سادة مكة وصمموا على الاستفادة من ذلك بالوقوف موقف الحياد وحسن المعاملة مع كافة الدول وكان للتوتر الدولي أثر في ازدهار الطريق الغربي • وقد مات هاشم بغزة[٢] •

**عبدالمطلب :**

تزوج هاشم من امرأة يثربية من بني النجار فولدت له شيبة الذي ولد وترعرع في المدينة عند امه ثم عاد الى مكة[٣] ، وكان أبوه قد توفي وولى من بعده السقاية والرفادة المطلب[٤] أخو هاشم ، وقد سمي شيبة عبدالمطلب بالنسبة لعمه • ولما توفى المطلب هذا ولي السقاية والرفادة عبدالمطلب وقد قام بحفر بئر زمزم عند الكعبة •

يروي ابن هشام ان قريشا نازعت عبدالمطلب على قيامه وحده بحفر بئر زمزم حتى اضطروا أن يلجأوا الى كاهنة بني سعد لفض النزاع[٥] ولا ريب انه لا يوجد مبرر قوي لمخاصمة قريش على حفره هذه البئر ، خاصة وان لكل عشيرة في مكة تقريباً بئر أو أكثر[٦] • ولكن هذا الخبر

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٧ ، ١٤٧ • الطبري : ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨١ • المحبر : ص ١٦٢ - ١٦٣ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ •

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ •

(٤) يقول السكري : « فلما هلك حرب بن أمية ، وكان حرب رئيسا بعد المطلب تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف » المحبر : ص ١٦٥ •

(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٩ • الازرقي : ج ٢ ص ٣٤ •

(٦) أنظر عن آبار مكة الازرقي : ج ٢ ص ١٧٢ - ١٨٣ •

يشير الى أن زعامته في بادىء الأمر لم تكن خالية من المنافسات سواء من بعض العشائر أو زعماء قريش • ويروى أيضا ان نوفل بن عبد مناف نافس عبدالمطلب على السقاية في الصفا فاستنجد عبدالمطلب بأخواله من بني النجار[١] •

**حملة الاحباش :**

ولعل أبرز حادث في عهد عبدالمطلب هي غزو الاحباش لمكة وتشتت شمل الحملة ، وتروي المصادر العربية ان سبب الحملة هو ان أبرهة بنى كنيسة في اليمن سماها القليس ( يبدو ان اسمه مشتق من Ecclesia أو الكنيسة ) وأراد أن تحجه العرب ولكن أحد المكيين استاء من ذلك فجاء الى القليس وتغوط فيه فاغتاض أبرهة وجهزجيشاً لاحتلال مكة وتدمير الكعبة فيها[٢] • غير ان هذه القصة هزيلة : فان أبرهة اذا كان قد بنى كنيسة نصرانية في اليمن ليأتيها النصارى ، لا يستطيع اجبار المشركين على زيارة الكنيسة النصرانية ، واذا كان قد فعل ذلك فان نطاق أمره ينحصر في اليمن وهي البلاد التي يحكمها ولا يمتد الى غيرها من المناطق ، فمكة اذاً لا تغتاض من انشاء كنيسة نصرانية لان مركزها الديني لا علاقة للنصارى به ، كما انه ليس لأبرهة سلطة عليها فضلاً عن أن هناك عدة بيوت مقدسة[٣] لم يرد في التاريخ خبر استياء أهل مكة منها فلماذا تستاء من القليس •

والأرجح ان سبب هذه الحملة هو ما رواه بروكوبيوس من أن البيزنطيين في صراعهم مع الساسانيين استمدوا ملك الحبشة ليعينهم بقوة

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٧٨ ـ ٩ • نسب قريش : ص ١٩٧ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١١٠ • الازرقي : ج ١ ص ٨٢ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٤٣ •

(٣) أنظر ص ١٩٩ •

(٤) كتاب الحرب الفارسية I ٢٠ ( نقلا عن مقال اسماعيل أدهم في مجلة الرسالة العدد ٣٤٩ ـ ١١ مارس سنة ١٩٤٠ •

عسكرية[٤] دون أن يذكر مصيرها . ولعل هذه الحملة التي أشار اليها بروكوبيوس أي ان ملك الحبشة أشار على أبرهة أن يقود الحملة فتقدم به سالكاً طريق القوافل البري الى سوريا لينضم الى الجيوش البيزنطية ويتقدم معها للهجوم على الساسانيين . وتشير الكتب العربية الى أن أهل مكة انسحبوا وان عبدالمطلب خرج يفاوض أبرهة لكي لا يمس بعض أباعر يمتلكها . وقد عجب أبرهة كيف ان كبير مكة وسيدها يفاوض على انقاذ ابله دون أن يتطرق الى مكة والكعبة ، باعتبار ان للبيت رباً يحميه ، كما تضع الرواية على لسان عبدالمطلب[١] ، ولا ريب ان هذه الرواية هزيلة اذ أن زعيما كعبدالمطلب لا يعقل أن يفاوض هذا الغازي على انقاذ ابله ، بل لابد أن تكون المفاوضة على أمر أكبر وأهم من اموره الخاصة . والراجح انه كان يفاوض على أمور تؤيد مصالح أهل مكة وانه وقف موقفاً مشرفاً بحيث انه بعد أن فشلت الحملة زادت مكانة عبدالمطلب عند أهل مكة .

لقد كان يرافق هذه الحملة فيل[٢] وربما فيلة . وكان لاستخدام الفيل أثر في نفوس العرب ، حتى لقد سموا سنة حدوثها عام الفيل ، ولا ريب ان كثيرا من الدول القديمة استخدمت الفيلة في القتال ، ولكن العرب لم يألفوا الفيلة ، لذا كان لاستخدامها وقع كبير في نفوس العرب .

لقد أشار القرآن الى هذه الحملة في سورة الفيل فقال تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .

ومن المحتمل ان الطير الابابيل وحجارة السجيل كنايات عن وباء جارف

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١ الطبري : في ٢ ص ١١٢ ( عن ابن اسحق ) ١١٤ ( عن الواقدي ) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٥٥ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١١٣ .

اكتسحهم كالجدري أو غيره . ويقول ابن اسحق انه حدث ان أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام[١] .

أما عن أهمية هذه الحملة فيروى ابن جريج انه ( لما اهلك الله تعالى من اهلك من ابرهة الحبشي صاحب الفيل وسلط عليه الطير الابابيل عظمت جميع العرب قريشاً وأهل مكة وقالوا أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فازدادوا من تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها ورأوا ان دينهم خير الاديان واحبها الى الله ثم اوجدوا الحمس[٢] .

**عبدالله والرسول :**

لقد كان لعبدالمطلب عدة أولاد من اصغرهم سناً عبدالله الذي تزوج من آمنة بنت وهب وهي من عشيرة زهرة القرشية . وقد توفى عبدالله وترك أرملته وطفلها الوحيد يتيماً . وهناك خلاف في تاريخ وفاته لخصه المسعودي بقوله ( توفى على ما روى جعفر بن محمد الطبري بعد شهرين من مولده وقال بعضهم انه توفى قبل أن يولد وهذا غير صحيح لان الاجماع على انه توفى بعد مولده وقال آخرون بعد سنة من مولده[٣] ( ويؤيد ابن الكلبي والسكري ان عبدالله توفى وعمر النبي ثمانية وعشرون شهراً[٤] .

لقد قدر لمحمد بن عبدالله أن يختاره الله للرسالة ويقوم بالدعوة لدين الوحدانية المطلقة ، واستطاع بعد نضال أكثر من عشرين سنة أن ينشره بين العرب في معظم أنحاء جزيرة العرب ثم امتد بعد وفاته فشمل بلاد الشرق من أواسط آسيا الى جبال البرانيز وامتد أيضا الى الهند والصين

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٩ الازرقي : ج ١ ص ٥٠ ويروي عن اسحق انه لا يدري هل كان انشاء الحمس قبل الفيل أم بعده ( سيرة ابن هشام ) ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨٠ .

(٤) رواية ابن الكلبي في : ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٦٢ . الطبري : ج ٢ ص ١٣٠ . المحبر : ص ٩ .

والملايو وجزر الهند الشرقية وأوسط وغربي أفريقية ثم صار هذا الذين حضارة وتفكير العالم المتمدن في العصور الوسطى ولا يزال حتى اليوم يلعب دورا هاما في التوجيه الحضاري والفكري والروحي والسياسي لمعتنقيه الذين يناهزون الاربعمائة مليون ٠

لا يشير القرآن الى سنة ولادة الرسول أو عمره عند البعثة أو الهجرة أو الوفاة ، والواقع ان المؤرخين المسلمين مختلفون في تعيين حياته ومن الثابت انه توفي سنة ٦٣٢ ميلادية ولو عرفنا عمره آنذاك لأمكن تقدير سنة ولادته ٠ والواقع ان المؤرخين والرواة اختلفوا في ذلك ، فيروي الطبري ثلاث روايات متباينة احداها عن ابن عباس ، وحماد ، وابن المسيب ، وعروة بن الزبير يذكرون فيها ان الرسول توفي وعمره ثلاث وستون سنة ، ورواية ثانية عن ابن عباس أيضا وعن الحسن البصري بأن عمره خمس وستون سنة ، وعن عروة بن الزبير ان عمره عند وفاته ستون سنة[١] ٠

**نشـــاته :**

وقد أرضعته حليمة السعدية وهي من قبيلة سعد هذيم[٢] ٠ ويرى البعض ان ارضاعه كان خارج مكة لان هواء البادية أصح[٣] وليتعلم الفصاحة ولما كان مناخ مكة جاف صحي لا يختلف كثيرا عن مناخ الصحراء فلا يمكن اعتبار العامل الاول صحيحا وربما كان التعليل الثاني هو الاصح اذ من المعروف ان مكة مركز تجاري اتصل أهلها بالبلاد الاخرى وجاءها كثير

(١) الطبري : ج ٣ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ أنظر أيضا مروج الذهب : ج ٢ ص ١٩٠ ٠

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٢٦ ٠ سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٧٢ ٠ اليعقوبي : ج ٢ ص ٦ ـ ٧ وقد أرضعته في الايام الاولى من ولادته ثويبة مولاة أبي لهب ( ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٦٧ ٠ ابن هشام : ج ٣ ص ٤٧ حيث يضيف انها ارضعت الحمزة وأبو سلمة بن عبد الاسد ) ٠

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٢٧ ٠

من الاجانب فدخلت في لغة سكانها كثير من الـكلمات الاعجمية والواقع ان القرآن قد نزل على لغة سعد هذيم واعجاز هوازن[١] • وروى عن ابن سعد عن الرسول انه قال أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر[٢] •

وعندما كان في حوالي السابعة من عمره توفيت امه بالابواء في طريق عودتها من المدينة[٣] وبذلك أصبح يتيم الأبوين وقد أشار القرآن الى ذلك « الم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » (الضحى ٦-٨) ولا ريب ان اليتم كان له تأثير عظيم في نفسه • وفي القرآن آيات كثيرة تحض على حسن معاملة اليتيم وتتوعد من يظلمه ويأكل ماله بأشد العقوبات •

وقد توفى جده عبدالمطلب وهو عليه السلام في السابعة أو الثامنة من عمره[٤] فكفله عمه أبوطالب رغم انه لم يكن غنياً[٥] وقد ظل أبوطالب يرعاه حتى مات وكان أكبر من يحميه ويذب عنه كما كانت قريش تفاوضه عندما يشتد الخلاف بينهم وبين الرسول فكانت لهـذه العلاقة أهمية كبرى في تاريخ الرسول والدعوى الاسلامية في أدوارها الاولى • والواقع ان الاضطهاد اشتد عليه بعد موت أبي طالب كما سنرى فيما بعد •

---

(١) تفسير الطبري : ج ١ ص ٢٣ • أما عن الـكلمات الاعجمية في القرآن فانظر تفسير الطبري : ج ١ ص ٦ - ٩ السيوطي : كتاب الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٣٦ - ١٤٢ •

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٧١ •

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٣١ • اليعقوبي : ج ٢ ص ٧ • ويروي المسعودي ان عمره سبع سنوات ( مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨ ) ويروي السكري ان عمره ثمان سنوات ( الحبر : ص ٩ ) •

(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٣١ ، ١٩٤ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٧٥ • اليعقوبي : ج ٢ ص ١٠ • مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨١ •

(٥) الطبري : ج ٢ ص ٢١٣ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٤ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٨٢ ، ١٠١ •

ولما بلغ الثانية عشرة رافق عمه أبا طالب الى الشام[١] • وقد رأينا ان للشام علاقات تجارية وثيقة مع الحجاز وقد وصل حتى بصري التي كانت من أهم مراكز التجارة الحجازية في الشام ثم عاد الى مكة • ولا ريب ان صغر سنه وقصر مدة بقائه لم تتح له دراسة أحوال سوريا •

**الفجار وحلف الفضول :**

ولما بلغ الرسول حوالي الخامسه عشرة اشترك في حرب الفجار التي نشبت بين قريش ومن معها من كنانة وبين عامر بن صعصعة لان أحد رجال القبيلة الاخيرة أجار لطيمة للنعمان فغضب من ذلك أحد الكنانيين • واعتدى على اللطيمة في الشهر الحرام مما أدى إلى نشوب الحرب بينهما • وناصرت قريش كنانة[٢] • ولعل الدافع لذلك هو خشية قريش وحليفتها كنانة أن تخرج من يدها التجارة •

وعلى أثر الفجار حدث حلف الفضول ، وكان سببه الظاهري ان العاص بن وائل السهمي مطل ثمن بضاعة ابتاعها من رجل يماني ، فسعى بعض القرشيين لتكوين هذا الحلف ، لنصرة المظلوم : وقد عقد الاجتماع العام له في دار عبدالله بن جدعان واشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهرة وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر ، وكونوا الحلف لينصفوا المظلوم من الظالم ، وقد حضره الرسول وروي انه قال ( لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما احب ان لي به حمر النعم ولو أدعى به في الاسلام لأجبت[٣] ) ويلاحظ ان قبائل حلف الفضول هم نفس قبائل المطيبين ما عدا بني أمية •

---

(١) يروي الطبري (ج ٢ ص ١٩٥) ، واليعقوبي (ج ٢ ص ١٠) ، والمسعودي (ج ٢ ص ٢٩٣) ان عمره كان تسع سنوات وهو قليل جدا •

(٢) اليعقوبي : ج ٢ ص ١١ • أما الطبري (ج ٢ ص ٢٠١) ، وابن سعد (ج ١ قسم ١ ص ٨١) والمسعودي (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٥) فيروون ان عمره كان عشرين سنة • فاذا صح ذلك فلابد ان عمله لم يقتصر على جمع النبل الذي هو من عمل صغار السن •

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٥ ( وهو يضيف ابن أسد بن عبد العزى لهم ) • المحبر : ص ١٦٧ نسب قريش : ص ٢٩١ • مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٧٦ •

**زواجه بخديجة :**

ولما بلغ الخامسة والعشرين عمل في تجارة لخديجة وهي سيدة من بني أسد بن عبد العزى كانت قد تزوجت ابي هالة التميمي فولدت له هنداً ثم تزوجت عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له ابنة اسمها هند أيضا[١] •

وكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم • وفرضت على الرسول (ص) أن يخرج في مال لها الى الشام تاجرا مع غلام يدعى ميسرة فذهب وعاد بربح كبير[٢] • ويلاحظ ان هذه هي السفرة الثانية الى الشام ، ولم يرد في الاخبار اطلاقا ذكر لسفرة قام بها الرسول الى أي مكان آخر ، رغم سعة اطلاعه على احوال ولهجات القبائل العربية كما انه لم يرد ذكر لغير هاتين السفرتين : ومع انه لا يجوز المبالغة في أثر هذه المرحلة نظراً لقصر مدتها ولانشغاله في التجارة ، الا انه لابد وانها تركت في نفسه أثراً قوياً • ويلاحظ ان موقف الرسول بعد البعثة تجاه المسيحية كان معتدلاً كما انه بعد قضائه على مقاومة مكة توجه نحو الشمال كما فعل من بعده الخليفة أبو بكر كما سنتحدث في الجزء الثاني •

لقد تأثرت خديجة بما سمعته عن أمانته وعمله فطلبته وتزوجها[٣] وقد ولدت له ، ما عدا ابراهيم ، كافة أولاده وهم كلثوم ورقية وزينب وفاطمة والقاسم وعبدالله الذي يروي ابن سعد واليعقوبي انه هو الطيب والطاهر[٤] • ويروى انه عندما تزوجها النبي كان عمرها اربعين سنة •

---

(١) المحبر : ص ٧٩ • الطبري : ص ١٧٥ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ • الطبري ج ٢ ص ١٩٧ •

(٣) يزعم بعض الرواة انهم سقوا أباها خمرا فوافق على الزواج وهو سكران ( ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٨٥ ) • المحبر : ص ٧٩ وهي رواية هزيلة ينكرها الواقدي ويقول ان أباها مات في حرب الفجار ( الطبري ج ٢ ص ١٩٧ ) •

(٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٨٥ ، ج ٣ ص ٢ • اليعقوبي : ٢ ص ١٤ • المحبر : ص ٧٩ • ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٤ •

ومع ان سن اليأس في البلاد الحارة ، ومنها مكة ، منخفض ، الا انه ليس من المستحيل على سيدة في الاربعين من عمرها أن تنجب ستة أولاد ؛ ولـكن الارجح ان عمرها كان أقل من الاربعين ، كيما يمكن أن تنجب هؤلاء الاولاد بصـورة اعتيـادية وان كانت هي على أي حـال أكبر من الرسول • ومن المألوف في الشرق ان المرء اذا تزوج بسيدة أكبر منه سناً فان الناس تقول عنها انها عجوز أو بقدر امه ، مع انها قد لا تزيد عنه أكثر من سنة أو سنوات قليلة •

لقد كان لخديجة تأثير كبير في حياة الرسول ، فان ثروتها وغناها أمنا له حاجاته المادية ، فلم يعد الحصول عليها لشتغل وقته كما أمنت له الطمأنينة والرعاية التي كان يحس بلزومها بسبب يتمه •

ولعل هذا يفسر سبب عدم تزوجه بزوجة اخرى طوال حياتها ، بينما بعد أن توفيت أخذ يقبل على الزواج من عدة نساء كانت كل منهن تتميز بميزة خاصة كما سنتحدث في الجزء الثاني •

كان لخديجة أيضا تأثير كبير في تشجيعه وتثبيته عندما جاء الوحي أول مرة وظلت تشجعه وتعاونه طيلة حياتها ، والواقع ان حياتها تعطي مثلاً لمـكانة المرأة العربية وهي تقدم أروع نموذج لما يجب أن تكون عليـه الزوجة الفاضلة •

**بناء الـكعبة :**

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين أرادت قريش بناء الـكعبة ولما أرادوا وضع الحجر الاسود بمكانه منها اختلفوا فيمن يضعه وقد حكموا الرسول في ذلك فحكم بأن يوضع بثوب يشارك في رفعه رجال من كافة القبائل الى أن اوصلوه مكانه من الـكعبة فرفعه الرسول ووضعه مكانه[١] ، وقد كان لحكم الرسول المتزن أثر كبير في نفوس الناس فزادوا من تقديرهم لمواهبه وعدالته •

---

(١) أنظر ص ٢٠١ ـ ٢٠٥ •

وتروي المصادر انه كان يقوم بالتجارة في دار السائب بن أبي السائب الذي كان شريكه في التجارة[١] .

ان ما ذكرناه من الحوادث هي فقط التي تردد في كتب السيرة والتاريخ الاولى ويتضح منها مدى قلة معلوماتنا عن نشأته وأعماله وأصدقائه وعلاقاته الاجتماعية والسياسية ونشاطه الفكري واتصالاته والمشاكل التي واجهته أو اشغلت فكره مما هو ضروري لمعرفة مقدمات الدعوة التي كان لها الأثر الاكبر في اعادة توجيه الملايين من البشر المنتشرين في بلاد واسعة منذ أن انتصرت الى ما شاء الله .

---

(١) لقد استفدنا في بحث الوحي وطبيعته من الفصل السادس الذي

# الفصل السابع عشر

## الوحي[1]

يتفق الرواة المسلمون على ان الرسول (ص) كان يتحنث في غار حراء، ويبقى فيه أمداً ، ولاشك ان الاعتزال للتعبد أمر معروف منذ القديم عند الشعوب والامم ، وله أهمية كبرى اذ يعطي الانسان مجال الاغراق في التأمل والتفكير بمعزل عن الشواغل الدنيوية .

وهناك روايتان عن الدوافع التي دفعت الرسول الى التحنث : أولهما رواية ابن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة انها قالت : كان أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، قالت فمكث على ذلك ما شاء الله وحبب اليه الخلوة فلم يكن شيء أحب اليه منها . وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء[2] .

أما الرواية الثانية فهي رواية ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله بن الزبير عن عبيدالله بن عمير بن قتادة الليثي حيث يقول : « كان رسول الله (ص) يجاور في حراء من كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية ، والتحنث التبرر ، وقال أبو طالب : وراق ليرقى في حراء ونازل . فكان رسول الله (ص) يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم

---

كتبه توراندريه في كتابه « محمد » ، وما كتبه وات في كتابه « محمد في مكة » ص ٣٩ فما بعد . ومقال بيل عن دعوة الرسول ، في مجلة العالم الاسلامي العدد ٢٤ سنة ١٩٣٤ (بالانكليزية) .

(٢) البخاري : الكتاب كيف بدىء الوحي الباب الاول . كتاب تفسير القرآن (سورة ٩٦) ، كتاب التعبير عن الرؤيا الباب ١ ، ابن حنبل : ج ٦ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٩ ، الطبري : ج ٢ ص ٢٠٨ .

من جاءه من المساكين فاذا قضى رسول الله (ص) جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع الى بيته حتى اذا كان الشهر الذي أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك في شهر رمضان خرج رسول الله (ص) الى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله[1] » .

وبين الروايتين اختلافات ظاهرة : فرواية الزهري تبين ان دافع التحنث هو ذاتي شخصي ، بعد فترة من الرؤيا ؛ وانه كان يتحنث الليالي ذوات العدد والتي لا نعلم عنها شيئاً . أما رواية ابن اسحق فتبين ان التعبد هو عادة قرشية قديمة ، وانها تجري في شهر رمضان وانه لم يقم وحده ، بل يرافقه أهله في ذلك . ويمكن أن يحدس المرء بأنه كان يتحنث عدة سنوات .

لا يذكر القرآن سن الرسول في بدء مجيء الوحي ، بل يذكر « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » ( يونس ١٦ ) ولاشك ان كلمة العمر غير واضحة الحدود ؛ وقد إختلف المؤرخون في سن الرسول عند مجيء الوحي ، فقال ابن المسيب ان عمره ثلاث واربعون سنة ، وقال انس بن مالك وعروة بن الزبير وابن عباس ان عمره عند بدء مجيء الوحي كان اربعين سنة[2] . وجدير بالملاحظة ان العرب تعتبر سن الاربعين هو سن اكتمال النضج وقد أشار القرآن الى ذلك « حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي انعمت عليَّ وعلى والدي » ( الاحقاف ١٥ ) .

وينص القرآن على انه نزل في رمضان « شهر رمضان الذي انزل فيه

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٥٤ . الطبري : ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٥ ، ٢٠٩ . أنظر أيضا ابن الاثير : ج ٢ ص ١٦ . ابن خلدون : ج ٣ ص ٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ١ - ٢ . الذهبي : تاريخ الاسلام : ج ١ ص ٦٩ .

القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » البقرة ١٨٥ . وهناك آية اخرى تنص على نزول آيات في غزوة بدر التي حدثت في رمضان « ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (الانفال ٤١) غير ان سياق الآية لا يستلزم بدء نزول القرآن في اليوم الذي يشبه يوم بدر ، فقد تعني الاشارة الى آيات نزلت يوم وقعة بدر .

يشير القرآن الى يوم نزوله ، فيصفها بانها ليلة القدر والليلة المباركة « انا انزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من الف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر . سلام هي حتى مطلع الفجر » ( القدر ١ ـ ٥ ) « حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم امراً من عندنا انا كنا مُرسلين » (الدخان ١ ـ ٥) . ومن الواضح ان هذه الآيات لا تعين بالضبط تاريخ تلك الليلة . كما لا تذكر فيما اذا كان القرآن نزل في هذه الليلة الى السماء الدنيا أم كان بدء نزوله على الرسول ، والواقع ان الرواة اختلفوا في تعيين هذه الليلة فمنهم من قال انها ١٧ أو ١٨ أو ٢٤[١] ، ومنهم من قال انها ربيع الاول[٢] ، ومنهم من قال انها ٢٧ رجب[٣] .

أشار القرآن الى كيفية نزول الوحي بآيات « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الاعلى . ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى » ( النجم ١ ـ ١١ ) « انه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رءاه بالافق المبين .

---

(١) انظر في هذه الروايات الطبري : ج ٢ ص ٢٠١ . ابن الاثير ج ٢ ص ١٦ . ابن كثير ج ٣ ص ٦ .

(٢) انظر : اليعقوبي ج ٢ ص ١٥ . ابن كثير ج ٣ ص ٦ ( عن ابن عباس وجابر بن عبدالله ) . زيني دحلان ج ١ ص ٩٢ .

(٣) زيني دحلان : ج ١ ص ٩٢ .

وما هو على الغيب بضنين • وما هو بقول شيطان رجيم » (التكوير ١٩ ــ ٢٥)•
والراجح ان الآيتين تشيران الى رؤية الرسول للملك •

وتروى عدة روايات عن بدء نزول الوحي :ــ

(١) فيروي ابن سعد عن هشام بن عروة عن عروة ان رسول الله (ص) قال : يا خديجة اني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن اكون كاهناً فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله انك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم •

(٢) ويروى عن ابن عباس ما يشبه الرواية الاولى ثم يضيف الى ان خديجة ••• أتت ورقه بن نوفل فذكرت له ذلك فقال ان يك صادقاً فهذا الناموس مثل ناموس موسى فان يبعث وأنا حي فسأعزره وانصره وأؤمن به •

(٣) ويروى عن ابن عباس أيضا انه قال ( فبينما رسول الله (ص) على ذلك التعبد وهو باجياد اذ رأى ملكا واضعاً احدى رجليه على الاخرى في أفق السماء يصيح يا محمد انا جبريل يا محمد انا جبريل فذعر رسول الله (ص) من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء فرجع سريعاً الى خديجة فأخبرها خبره وقال يا خديجة والله ما ابغضت بغضي هذه الاصنام شيئا قط ولا الكهان واني لأخشى أن أكون كاهناً • قلت كلا يا ابن عم لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبدا ، انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الامانة وان خلقك لكريم • ثم انطلقت الى ورقة ابن نوفل وهي أول مرة أتته فأخبرته ما اخبرها به رسول الله ، فقال ورقة والله ان ابن عمك لصادق ، وان هذه البدء نبوة ، وانه ليأتيه الناموس الاكبر فمريه ألا يجعل في نفسه الا خيرا[١] •

(٥) ويروي الطبري روايتين متشابهتين عن يحيى بن كثير عن أبي

---

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٩ ــ ١٣٠ • وانظر عن الناموس ابن هشام ج ٣ ص ٣١٩ •

سلمة انه سأل جابر بن عبدالله عن أول ما نزل من القرآن فقال جابر ( لا احدثك الا ما حدثنا النبي (ص) قال جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت فنظرت عن يميني وعن شمالي وخلفي وقدامي فلم أر شيئا فنظرت فوق رأسي فاذا هو جالس على عرش بين السماء والارض فخشيت منه .. فلقيت خديجة فقلت دثروني وصبوا عليّ ماء وانزل عليّ يا ايها المدثر قم فانذر[١] ) .

(٥) ويروي الطبري أيضا عن الزهري انه قال ( فتر الوحي عن رسول الله (ص) فترة فحزن حزناً شديداً جعل يغدو الى رؤوس شاهق الجبال ليتردى منها فكلما أوحى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول انك نبي الله فيسكن لذلك جأشه وترجع اليه نفسه فكان النبي (ص) يحدث عن ذلك . قال فبينما أنا أمشي يوما اذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والارض فجئثت منه رعباً فرجعت الى خديجة فقلت زملوني فزملناه أي دثرناه فانزل الله عز وجل يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر قال الزهري فكان أول شيء انزل عليه اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلغ ما لم يعلم[٢] ) .

(٦) ويروي ابن اسحق بعد أن ذكر التحنث ( حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بامر الله فقال رسول الله (ص) فجاءني وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ فقلت ما اقرأ فغتني حتى ظننت انه الموت ، ثم ارسلني فقال اقرأ ، فقلت ماذا اقرأ ، وما أقول ذلك الا افتداءاً منه أن يعود الي بمثل ما صنع بي قال اقرأ باسم ربك الذي خلق الى قوله علم الانسان ما لم يعلم قال فقرأته قال ثم انتهى ثم انصرف عني وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً . قال ولم يكن

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٩ . البخاري : كتاب التفسير (الآية ٩٦) .

من خلق الله أحد ابغض الي من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن انظر اليهما . قال قلت ان الابعد يعني نفسه لشاعر أو مجنون لا تحدث بها عني قريش أبداً لأعمـدن الى حالق من الجبـل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن ؛ قال فخرجت أريد ذلك حتى اذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد انت رسول الله وأنا جبريل قال فرفعت رأسي الى السماء فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول يا محمـد انت رسول وأنا جبريل ، قـال فوقفت أنظر اليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها الا رأيته كذلك ؛ فما زلت واقفاً ما اتقدم امامي ولا ارجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا اليها وأنا واقف في مكاني ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً الى اهلي حتى اتيت خديجة فجلست الى فخذها مضيفاً فقالت يا أبا القاسم اين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغو مكة ورجعوا الي ، قال قلت لها ان الابعد لشاعر أو مجنون ، فقال اعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصلة رحمك وما ذاك يا ابن عم لعلك رأيت شيئا قال لها نعم ، ثم حدثتها بالذي رأيت ؛ فقالت ابشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة ابن نوفل[(١)] ) .

(٧) ويروي الزهري عن عروة عن عائشة انها قالت كان أول ما ابتديء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان بغار بحراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى اهله فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق فأتاه فقال يا محمد انت رسول الله . قال رسول الله (ص) فجثوت لركبتي وانا قائم

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٥٤ . الطبري : ج ٢ ص ٢٠٧ .

ثم زحفت ترجف بوادري ثم دخلت على خديجة فقلت زملوني زملوني حتى ذهب عني الروع ، ثم أتاني فقال يا محمد أنت رسول الله قال فلقد هممت أن اطرح نفسي من حالق جبل فتبدى لي حين هممت بذلك فقال : يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله ، ثم قال اقرأ ، قلت ما اقرأ ، قال فأخذني فغتني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال اقرأ باسم ربك الذي خلق ؛ فقرأت ؛ فأتيت خديجة فقلت لقد اشفقت على نفسي فأخبرتها خبري .. ( ثم كلام يشبه ما جاء في آخر النص السابق[1] ) .

(٨) ويروي البخاري هذا الحديث برواية مخالفة في بعضها حيث يقول : حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارىء قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم ، فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد (رض) فقال زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل[2] ...

ان في هذه الروايات بعض الاختلاف ؛ فرواية ابن اسحق (٦) تنفرد في ان جبريل جاء الرسول وهو نائم ، وهي تناقض ما جاء في القرآن فلا يصح قبولها . ورواية عروة وابن عباس (١ ، ٢) تذكر انه كان يرى رؤيا وأصواتاً غير واضحة ولعلها تمثل الدور الاول حيث بدأ تعالى يمهد ذهن

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .
(٢) البخاري : كتاب كيف بدىء الوحي الباب ١ ، كتاب تعبير الرؤيا الباب ١ ، كتاب التفسير (سورة ٩٦) . ابن حنبل : ج ٦ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

الرسول للوحي ، أما روايتا ابن عباس وابن جابر (٣ ، ٤) فتبينان ان الرسول رأى الملك فارتاع له ودهش وعاد الى داره مضطرباً ثم نزل عليه الوحي بسورة المدثر • ولكن هاتين الروايتين لا تبينان طول الفترة التي مضت بين رؤية الملك ونزول سورة المدثر • أما رواية ابن اسحق والبخاري عن عروة (٦ ، ٨) فتذكران ان سورة اقرأ نزلت عليه ثم رأى الملك الذي أخبره بأنه نبي • أما رواية عروة في الطبري (٧) فتبين ان الملك أخبر الرسول بأنه نبي ثم انزل عليه سورة اقرأ • ومن المرجح ان سورة اقرأ هي التي نزلت أولا ، فاضطرب لها ولم يتثبت من مرامي نزولها ، فشجعته خديجة ، وثبته ورقة بن نوفل ، ثم أخبره الملك بأنه نبي وأنزل عليه يا أيها المدثر قم فأنذر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ، أي ان الوحي طلب منه أن يقوم بالدعوة الى رسالته • على ان رؤية الملك سبقت نزول آية اقرأ ، كما يتضح ذلك من سورة النجم •

لقد وردت كلمة الوحي في عدة آيات من القرآن الكريم : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » ( الانعام ١١٢) « ولاتأكلوا مما لم يذكر اسمالله عليه وانه لفسقوان الشياطينليوحون الىاوليائهم ليجادلوكم وانأطعتموهم انكم لمشركون » (الانعام١٢١) « فخرج على قومه منالمحراب فأوحىاليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » (مريم ١٠) « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم » ( الشورى ٥١ ) « ان هو الا وحي يوحى •• فأوحى الى عبده ما أوحى » (النجم ٤ ، ١٠) « وإذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » ( المائدة ١١٤ ) « اذ يوحي ربك الى الملائكة انيمعكم فَثَبِّتُوا الذين آمنوا سألقيفي قلوب الذين كفروا الرعب » ( الانفال ١٢ ) « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون » (النحل ٦٨) « وإذ أوحينا الى امك ما يوحى » ( طه ٣٨ ) « وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت

عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني » ( القصص ٧ ) « فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها » ( السجدة ١٢ ) « اذا زلزلت الارض زلزالها • واخرجت الارض اثقالها • وقال الانسان ما لها • يومئذ تحدث أخبارها • بأن ربك أوحى لها » ( الزلزال ١ ـ ٥ ) •

ويتبين من هذه الآيات ان الشياطين والـكفار قد توحي ؛ وان الله تعالى يوحي أيضا الى السماء ، والى الارض ، والى الملائكة ، والى النحل ، والى البشر ، فالوحي الى أم موسى ، والى الحواريين ، والى الانبياء •

ومجيء الوحي يفترض وجود اله حي قادر يريد ارسال الوحي ، ويفترض من جهة أخرى وجود انسان قادر على استلام الوحي ، والوحي هو الوسيلة الوحيدة لـكلام الله للبشر « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل اليه رسولا » ( الشورى ٥١ ) ؛ وهكذا أوحى الله تعالى الى نوح والنبيين من بعده ( النساء ١٦٣ ، المؤمنون ٢٧ ، هود ٣٦ ) والى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ( النساء ١٦٣ ) والى موسى ( الاعراف ١١٧ ، ١٦٠ يونس ٨٧ طه ١٣ ، ٧٧ الشعراء ٥٢ ، ٦٣ ) ؛ وأوحى الى الرسول العربي والذين من قبله ( انظر النساء ١٦٣ ، الشورى ٣ ، الزمر ٦٥ ) • وقد أوحى الله تعالى الى الرسول القرآن ( يوسف ٣ ، ١٠٩ الشورى ٧ الانعـام ١٧ انظر أيضا الـكهف ٢٧ العنكبوت ٤٥ ) ؛ والرسول لا يتبع الا ما يوحي من ربه ( انظر الاعراف ٢٠٣ وكذلك الانعام ٥٠ يونس ١٥ ، ١٠٩ الاحزاب ٢ الاحقاف ٩ النجم ٤ الانبياء ٤٥ ) الا انه تعالى لا يأتي بالوحي بنفسه ، فهو لا يرى عند مجيء الوحي ، وبذلك كان الرسول يعلم عن طريق الوحي بعض علم الله تعالى •

ان الوسيط الذي يأتي بالوحي ذكر في القرآن بأسماء منها الروح الأمين « انه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربي مبين » ( الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥ ) ومنها الروح

القدس[١] « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا » ( النحل ١٠٢ ) ، ومنها الروح[٢] « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » ( غافر ١٥ ) « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا » ( الشورى ٥٢ ) ، ومنها جبريل « قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله » ( البقرة ٩٧ )[٣] •

وعند مجيء الوحي تتأثر طبيعة الرسول ، ويحدث له بعض الانفعال كما روى ذلك عدد من الرواة فقد روى ابن سعد ( عن عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن قتادة وحميد عن الحسن عن حطان بن عبدالله الرقاشي عن عبادة الصامت : ان النبي (ص) كان اذا نزل عليه الوحي كرب له وتربد وجهه ) •

وعن عبيدالله بن موسى العبسي عن اسرائيل عن جابر عن عكرمة انه قال : كان اذا اوحي الى رسول الله (ص) وقذ لذلك ساعة كهيئة السكران •

وعن محمد بن عمر الأسلمي عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي سبرة عن صالح بن محمد أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي اروى الدوسي انه قال : رأيت الوحي ينزل على النبي وانه على راحلته فترغوا وتفتل يديها حتى أظن ان ذراعها ينفصم فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسري عنه من ثقل الوحي وانه ليتحدر منه مثل الجمار •

---

(١) لقد ذكر الروح القدس في ثلاث آيات أخرى حيث ارسله الله ليؤيد عيسى (البقرة ٨٧ ، ٢٥٣ • المائدة ١١٠) •

(٢) لقد وردت الروح في آيات أخرى فان عيسى كلمة الله القاها الى مريم وروح منه (النساء ١٧١) • وانه بروح منه يؤيد الذين آمنوا (المجادلة ٢٢) • وان الروح من أمر الله (الاسراء ٨٥) وان الروح والملائكة تنزل على من يشاء (النحل ٢ • المعارج ٤) •

(٣) ويروي الطبري عن الشعبي انه « قرن اسرائيل بنبوة الله (ص) ثلاث سنين يسمعه حسه ولا يرى شخصه ثم كان بعد ذلك جبريل » • غير ان الواقدي ينكر ان اسرائيل جاء بوحي (الطبري ج ٢ ص ٢٥١) •

وعن حجين بن المثنى، عن عبدالعزيز بن عبدالله بن ابي سلمة عن عمه انه بلغه أن رسول الله (ص) كان يقول : كان الوحي يأتيني على نحوين : يأتيني به جبريل فيلقيه عليَّ كما يلقي الرجل على الرجل فذلك يتفلت مني ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي فذلك الذي لا يتفلت مني .

وعن معن بن عيسى عن مالك بن انس عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة انها قالت ان الحارث بن هشام قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله (ص) أحيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً .

وعن عبيدة بن حميد التيمي - عن ابن موسى بن ابي عائشة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس انه قال : كان النبي (ص) اذا نزل عليه الوحي يعالج من ذلك شدة قال كان يتلقاه ويحرك شفتيه كي لا ينساه فانزل الله عليه لا تحرك به لسانك لتعجل به[١]

وقد أشار القرآن الى ما ينتاب الرسول من انفعال فقال « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إنَّ علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » ( القيامة ١٦ - ١٩ ) « فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي اليك وحيه وقل ربي زدني علما » ( طه ١١٤ ) .

ان هذا التأثر والانفعال هو مظهر من مظاهر الاغراق في المشاعر ؛ والواقع ان كثيرا من الشعراء والمفكرين يصيبهم مثل هذا الانفعال عند الاغراق في التفكير ومجيء الهام الشعر ، فكيف بالوحي اذا جاء ؟

ويتبين من الروايات التي أوردناها عن ابن سعد من ان الرسول كان

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣١ . البخاري كتاب بدء الخلق الباب ٧ .

عند مجيء الوحي مثل صلصلة الجرس أو كان يلقي عليه القول ، ان الوحي هو سمعي لا بصري ، ويؤيد هذا الآيتان اللتان أوردناهما ، بل ان التنزيل يسمى القـرآن من القراءة ، كما وردت كلمة الاقراء « اقرأ باسم ربك الاكرم » ( العلق ١ ) « سنقرؤك فلا تنسى الا ما شاء الله » ( الاعلى ٦ ) •

لقد تحدى القرآن المنكرين لوحي القرآن ، بأن يأتوا بمثله « وان كنتم في ريب مما نزلناه على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » (البقرة ٢٣) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ( يونس ٣٨ ) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ( هود ١٣ ) « ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون • فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » ( الطور ٣٣ ـ ٣٤ ) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ( الاسراء ٨٨ ) •

لقد ادرك المشركون ان القرآن كلام غير عادي ، ولـكن عزوه الى الشياطين أو الجن ؛ واتهمـوا الرسول بالجنون ( انظـر الآعراف ١٨٤ ، المؤمنون ٧٠ سبأ ٨ ، ٤٦ الحجر ٦ الطور ٢٩ القلم ٢ ، ٥١ التكوير ٢٢ ) •

واتهموه أيضا بأنه كاهن ( انظر الحاقة ٤٢ ، الطور ٢٩ ) كما اتهموه بأنه شاعر « بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر » ( الانبياء ٥ ) « ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » ( الصافات ٣٦ ) « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » ( الطور ٣٠ أنظر أيضا الشعراء ٢٢٤ ) وقد رد على هذه التهمة « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » ( يس ٦٩ ) • وقد رد القرآن أيضا على التهم السابقة بقوة وشدة وأكد على انها آتية من مصدر علوي هو الله تعالى ، وان فيها حكمة وانقاذا للعالم •

على ان الملاحظ ان هؤلاء المشركين لم يتهموا الرسول بالتفلسف ، فكأنهم وهم كفار ، رأو ان روح الوحي أقرب الى الشعر والـكهانة منها الى

الفلسفة ، فأتهموه بذلك • والواقع ان مصدر الشعر هو الالهام Intuition أما مصدر الفلسفة فهو العقل •

والواقع ان الباحثين في نظرية المعرفة أدركوا منـذ الازمنة القديمة وجود طريقين للمعرفة المطلقة ، احدهما طريق المنطق والعقل ويتجلى في أوج مظاهره عنـد الرياضيين ، وأكثر من يتبع هـذه الطريقة هم العلماء والمناطقـة والفلاسفة ، وأشـد من يدافع عنهـا العقليون Rationalists والمـاديون Materialists الذين بلـغ التطرف بعضهم حـداً كبـيراً فتصوروها الطريقـة الوحيدة للمعـرفة الصحيحة ، فأنكروا غيرهـا من وسائل المعرفة •

غير ان هذا التطرف لا ينبغي ان يحملنا على انكار الاهمية الـكبرى للطريقة الثانية من المعرفة ، وهي طريقة الالهام التي لا تأتي عن طريق التفكير المادي والتجارب ؛ ولـكنها تقودنا الى المعرفة أيضا • فبطريقة الالهام يبدع الشاعر شعره ، والفنان صوره ، والموسيقار ألحانه ؛ وبالالهام يدرك هؤلاء من الصور والعلاقات بين الامور ما لا يدركه الطبيعيون مهما بلـغ ذكاؤهم • ولعل كثيرا من الناس مرت به لحظة أو لحظات من التجلي ، يحس بها في فكرة أو رأي خاطف يمر به كلمح البرق ، ويتجلى فيه حل مشكلة اعضلت عليه ، أو جواب مسألة اغلقت عليه ، أو فكرة رائعة انكشفت لـه ، ولم يكن ليراها رغم طول ما فكر فيهـا • هذه هي الطريقة الثانية للمعرفة : هي وسيلة الالهام بالبصيرة Intuition وهي التي بحثها كثير من المفكرين القـدماء وكانت من أهـم مواضيع الفلسفة الاسلامية ، وسـاهم المسلمون بقسط وافر في ايضاحها وتبيان أهميتها في كشف أسرار الـكون ، وفي علاقتها مع طريق المنطق والفلسفة[١] ، وهي التي بحثها المحدثون ،

---

(١) ان ايراد أسماء كافة الكتب والباحثين المسلمين في هذا الموضوع قد يطول جدا ، نكتفي منه بذكر بحث الغزالي في « احياء علوم الدين » و « المنقذ من الضلال والموصل الى ذي العزة والجلال » و « حي بن يقظان » لابن الطفيل و « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال » لابن رشـد •

وخاصة برجسون ومؤيدوه . والوحي ولاشك أسمى أنواع الالهام لا يقتصر على مجرد منطق العقول الناقص ، بل يخاطب بصائر القلوب ، وبه يعلم الله تعالى الأسرار الكونية ، ويعطي نظرة شاملة لتفسيرها وتوضيحها مما لم تصل اليه العلوم الطبيعية .

---

# الفصل الثامن عشر

## مبادىء الاسلام الاولى[1]

**الاسـلام :**

ان الدين الذي دعا الرسول الناس الى اعتناقه يسمى الاسلام « ان الدين عند الله الاسلام » ( آل عمران ١٩ ) « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » ( آل عمران ٨٥ ) « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » ( المائدة ٣ ) « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » ( الانعام ١٢ ) « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه » ( الزمر ٢٢ أنظـر أيضا الصف ٧ الحجرات ١٧ التوبة ٧٤ ) .

ويدعى معتنقو هذا الدين مسلمين « قل يا أهل الـكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون » ( آل عمران ٦٤ ) « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » ( آل عمران ١٠٢ ) « قل انما يوحى الي انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » ( الانبياء ١٠٨ ) « وما أنت بهادي العمي عن ضلالاتهم ان تُسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ( النمل ٨١ أنظر أيضا الروم ٥٣ ) « ونزلنا عليك الـكتاب تبياناً لـكل شيء وهدى ورحمـة وبشرى للمسلمين » ( النحل ٨٩ ) .

---

(١) لن يتسع النطاق هنا لايراد كافة الابحاث عن الاسلام في اللغة العربية ، لـكثرتها ، أما في اللغة الانكليزية فاعمق بحث هو كتاب محمد اقبـال « اعادة تكوين الفكـر الديني الاسلامي » وكتاب أمير علي « روح الاسلام » ، وقـد بحث بيل في كتابه « مقدمة القرآن » وسيل في مقدمته لترجمة القرآن ، كثـيرا من المؤسسات الاسـلامية التي وردت في الآيات القرآنية .

وان ابراهيم وبنيه ويعقوب ويوسف واسماعيل واسحق والحواريين ومن آمن بموسى ونوح وأهل الكتاب كل هؤلاء ذكر القرآن الكريم بأنهم مسلمون « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم ••• ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين • ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون • أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الاهاً واحداً ونحن له مسلمون » ( البقرة ١٢٧ ـ ١٣٣ ) • « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض انت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين » ( يوسف ١٠١ ) « فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون » ( آل عمران ٥٢ ) « واذا أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون » ( المائدة ١١١ ) « وما تنقم منا [ السحرة لفرعون ] الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » ( الاعراف ١٢٦ ) « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » ( يونس ٨٤ ) « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين » ( يونس ٩٠ ) « واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ••• فان توليتم فما اسألكم من أجر ان أجري الا على الله وامرت ان أكون من المسلمين » (يونس ٧١ ـ ٧٢) « قالت (بلقيس) يا ايها الملأ اني القي إلي كتاب كريم • انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم • ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين » ( النمل ٢٩ ـ ٣١ ) « قال [ سليمان ] يا أيها

الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين » ( النمل ٣٨ ) « فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » ( النمل ٤٢ ) « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون • واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » (القصص ٥٣)•

على ان كلمة الاسلام قد تحددت باتباع الدين الذي دعا اليه الرسول وبهذا التحديد يستعمل هذا التعبير حتى اليوم • ولا ريب ان كلمة اسلم واسلام ومسلمون وردت في الآيات المكية غير اننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط في أي سنة من البعثة نزلت •

وكلمة الاسلام جذرها الثلاثي سلم بمعنى سلم أو خلص أو لم يصب بأذى أو كسر ومنها كلمة أسلم ( وهو الفعل الذي مصدره الاسلام ) ومعناها استسلم « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه » ( البقرة ١١٢ أنظر أيضا النساء ١٢٥ ) « فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعني » ( آل عمران ٢٠ ) « وامرت أن اسلم لرب العالمين » ( غافر ٦٦ أنظر أيضا الانعام ٧١ ) • ولا ريب ان المقصود منها خضوع المرء لله تعالى وانقياده لأوامره وطاعته لأحكامه والاستسلام له وان لا حول ولا قوة الا بالله • غير ان هذا لا يعني الانقياد الأعمى ، كلا بل هو استسلام عن تعقل وتفكير « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا » ( الجن ١٤ ) « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » ( الشمس ٧ ـ ١٠ ) • والحق ان الاسلام ينادي دائماً باستعمال العقل والتبصر والنظر والتفكير والتدبير • وكلها تعابير تردد ورودها في القرآن وخاصة في الدور المكي • ولا ريب ان الاسلام يتطلب الايمان المنبعث من القلب والعقيدة حتى ان كلمة المؤمنين كثيراً ما كانت مرادفة لكلمة المسلمين •

**الوحدانية :**

وأساس الاسلام هو الدعوة الى عبادة اله واحد مطلق هو الله تعالى •

لقد كانت عبادة الله معروفة قبل الاسلام • فقد رأينا ان الآيات القرآنية توضح ان المشركين العرب كانوا يعبدون الله ويرون انه خالق كل شيء وانه يرزقهم من السماء والارض ويملك السمع والابصار ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر وانه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم • ولكنهم كانوا يشركون به آلهة اخرى يعتقدون بأنها بنات الله وشفعاؤهم عنده ، وهم يكفرون ببعض نعمه فهو اذاً اعتقاد غير منزه وبعيد عن الوحدانية(١) •

أما الاسلام فقد جاء بفكرة التوحد المطلق ، وانكر الشرك وهاجم الآلهة التي يدينون بها من دون الله •

ولاشك ان فكرة التوحيد قديمة وهي موجودة عند بعض الامم القديمة • ولعل أشهر من نادى بها من الأقدمين هو اخناتون الذي دعا الى عبادة اله واحد هو آتون وبذل جهداً لنشر ديانته ولكنه لقي مقاومة شديدة وأخيرا مات من دون أن يستطيع تثبيت أقدام دعوته •

ثم بنو اسرائيل دعاهم النبي موسى الى التوحيد واستطاع أن يجعلهم يدينون به • غير ان بني اسرائيل كانوا يشعرون بان الله ربهم وهو يفضلهم على العالمين ويحميهم وينصرهم وينتقم لهم من اعدائهم ، فكأن الله ربهم فقط من دون العالمين ، وهي نظرة ضيقة لا تساعد على نشر التوحيد بين الناس • والواقع ان اليهودية ظلت محصورة بالدرجة الاولى بين بني اسرائيل ولم يعتنقها من غيرهم الا القليل • ولعل ذلك راجع الى هذه النظرة الضيقة والتعصب والغرور الذي يضع بني اسرائيل فوق العالمين مما يجعل غيرهم من الشعوب اذا دانوا باليهودية يصبحون أقل من اليهود مرتبة ؟ هذا فضلا عن القيود الشديدة التي كانت تفرضها الديانة اليهودية على اتباعها من صيام وصلوات واحترام السبت وما الى ذلك •

---

(١) انظر ص ١٧٠ ــ ١٧٣ •

على ان اليهود قد مهدوا الافكار في الجزيرة العربية الى فكرة الاله الواحد والبعث والحساب والملائكة وغير ذلك[٢] .

كما ان النصارى كانت تدين بها ولكن كثيرا من الفرق المسيحية لم تنزه الله فاعتبرت المسيح هو الله أو ابن الله أو انه انسان في الارض واله في السماء أي انه ذو طبيعتين .

والواقع ان القرآن الكريم أكد في عدد من الآيات ان الدعوة الاسلامية هي تصديق لما جاء في الكتب المقدسة وطلب من المشركين أن يسألوا أهل الذكر في ذلك « ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى » ( الاعلى ١٨ - ١٩ ) « انه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر الاولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل » ( الشعراء ١٩٢ - ١٩٧ ) « واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم » ( الاحقاف ٢٩ - ٣٠ ) « ومن قبله كتاب موسى اماماً ورحمة وهذا الكتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (الاحقاف ١٢ ) « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه . الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب » ( الشورى ١٣ ) « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا » ( الاسراء ١٠٧ - ١٠٩ ) « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين » ( الاحقاف ١٠ ) « ويقول الذين كفروا لست

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٣١ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٠٦ .

مرسلا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الـكتاب • والذين آتيناهم الـكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » ( البقرة ١٤٧ ) فان كنت في شك ممـا أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الـكتاب من قبلك لقـد جاءك الحـق من ربك فلا تكونن من الممترين » ( يونس ٩٤ ) •

**الحنيفيـــة :**

وفي القرآن آيات متعددة تشير الى الدين الحنيف الذي هو ملة ابراهيم التي جاء الاسلام لتجديدها « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ( البقرة ١٣٥ ) «قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم • ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ( الانعام ١٦١ ) « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولـكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين • ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » ( آل عمران ٦٧ ـ ٦٨ ) « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ( النحل ١٢٣ ) « ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يـكُ من المشركين » ( النحل ١٢٠ ) « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » ( النساء ١٢٥ ) « قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولـكن أعبد الله الذي يتوفاكم وامرت أن أكون من المؤمنين • وان أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين » ( يونس ١٠٤ ـ ١٠٥ ) « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور • حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » ( الحج ٣٠ ـ ٣١ ) « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرَتَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله • ذلك الدين القيم ولـكن أكثر الناس لا يعلمـون » ( الروم ٣٠ ) « اني وجهـت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا » ( الانعام ٧٩ ) « وما امروا الا ليعبدوا

الله مخلصين لــه الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » ( البينة ٥ ) ٠

يتبين من هذه الآيات أن الحنيفية هي الدين الصحيح ، وانها ديانة ابراهيم الخليل وانها تتميز عن الديانات الموحـــدة الاخـــرى كاليهودية والنصرانية ، وهي تمثل الدين الاصلي الحقيقي النقي المقـابل للوثنية أو لديانات أهل الكتاب المشوهه ٠

وقد وردت الحنيفية ايضا في عدد من الاحاديث النبوية فقد روى ابن حنبل عن يحيى بن سعيد عن هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بـــن حمار : ان النبي (ص) خطب ذات يوم فقال في خطبته ان ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا : كل مال نحلته عبادي حلال واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهـم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ٠

وروي أيضا عن اسحق بن عيسى عن يحيى بن سليمان عن عبدالله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد عن التنوخي انه جاء رسول الله ٠٠ ( قال ممن أنت فقلت أنا أحد تنوخ ، قال هل لك في الاسلام الحنيفية ملة أبيك ابراهيم ٠٠ ) ٠ وروى أيضا عن سليمان بن أبي داود عن عبدالرحمن عن أبيه ( قال لي عروة ان عائشة قالت قال رسول الله (ص) يومئذ لتعلم يهود ان في ديننا فسحة اني ارسلت بحنيفية سمحة) ؟ وعن أبي المغيرة عن معاذ بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة ٠٠ ( فقال النبي (ص) اني لم ابعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة )٠ وعن يزيد عن محمد بن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس ( قيل لرسـول الله (ص) أي الاديـان أحب الى الله قال الحنيفيـــة السمحة ) ٠

---

(١) هذه الاحاديث مواضع من المسند بالتتابع ج ٤ ص ١٦٢ ، ج ٣ ص ٤٤٢ ، ج ٦ ص ١١٦ ـ ٢٣٣ ، ج ٥ ص ٢٦٦ ، ج ١ ص ٢٣٦ ٠

وقد ورد ذكر الحنيف في بعض الابيات الجاهلية والاسلامية الاولى فقال ذو الرمة يصف الحرباء :

يظل بها الحرباء للشمس مائلاً على الجذل الا انه لا يكبر
اذا حول الظل العشي رأيته حنيفا وفي قرن الضحى يتنصر

ويقول ابن بري في شرح ذلك انه اذا حول الظل العشي وذلك عند ميل الشمس الى جهة المغرب صار الحرباء متوجها للقبلة فهو حنيف ، فاذا كان في أول النهار فهو متوجه للشرق لان الشمس تكون في جهة المشرق فيصير متنصراً لان النصارى تتوجه في صلاتها جهة المشرق(١) .

وقال صخر الغي :

كأن تواليه بالملا نصارى يساقون لاقوا حنيفا

ويقول السكري في شرح هذا البيت يسوق فيها صوت كصوت النصارى يقول يسوقون في عيد لهم لاقوا حنيفا فاحتفلوا له في هذا العيد ، والحنيف من غير دينهم فاحتفلوا له وكذلك من لقى من على غير دينه فاخلط . يقول لا يكاد يبرح مثل هؤلاء النصارى الذين عزفوا(٢) .

وقال أيمن بن خريم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم تنفر لها ساعة قدر(٣) .

وقال جرير :

وحالفتهم للوم يا آل درهم خلاف النصارى دين من يتحنف(٤)

وقد جمع ابن منظور آراء كثير من اللغويين في تحديد معنى الحنيف فقال : ( الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير ... ) تحنف مال الحنيف المسلم الذي يتحنف عن الاديان أي يميل الى الحق ، وقيل هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم (ص) وقيل هو المخلص

---

(١) لسان العرب : ج ١٣ ص ٢٠٦ .
(٢) ديوان الهذليين : ج ٢ ص ٧١ ـ ٧٢ .
(٣) الاغاني : ج ١٦ ص ٤٤ . معجم البلدان : ج ٢ ص ٥١ .
(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٥٩٥ .

وقيل هو من أسلم من أمر الله فلم يتلو في شيء • وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل « بل ملة ابراهيم حنيفا » قال من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سموا المسلم حنيفا ، وقال الاخفش الحنيف المسلم ، وكان في الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت حنيفاً لان العرب لم تتمسك بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، فكل من اختتن وحج قيل له حنيفاً فلما جاء الاسلام تمادت الحنيفية فالحنيف المسلم • وقال الزجاج ومعنى الحنيفية في اللغة الميل ، والمعنى ان ابراهيم حنيف الى دين الله ودين الاسلام ••• الفراء الحنيف من سنته الاختتان • وروى الازهري عن الضحاك في قوله عز وجل حنفاء لله غير مشركين به قال حجاجاً ، وكذلك قال السدي ••• وقد قيل ان الحنف الاستقامة •• أبو منصور الحنيفية في الاسلام الميل اليه ••• الجوهري الحنيف المسلم وقد سمي المستقيم بذلك ، وتحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية ويقال له اختتن ويقال اعتزل الاصنام وتعبد •

قال جران العود :

لمـــا رأين الصبح بادرن ضوءه رسيم قطـا البطحاء أو هن أقطف
وأدركن اعجازاً من الليل بعـدما أقــام الصــلاة العــابد المتحنف

وقال أبو ذؤيب :

أقامت بـــه كمقـام الحنيف شهري جمادى وشهري صفر

وقال الزجاج : الحنيف في الجاهلية من ( كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن فلما جاء الاسلام كان الحنيف المسلم وقيل له حنيفاً لعدوله عن الشرك )[١] ويتضح من كلام ابن بري ان الحنيف كان يتوجه الى القبلة في صلاته • ومن كلام صخر الغي وجرير انه يختلف عن النصارى • ومما رواه ابن منظور ان الحنيف هو المنحرف أو المائل وانه يدين بدين ابراهيم ويستقبل القبلة ويختتن ويحج البيت ويعتزل الاصنام

---

(١) لسان العرب : ج ١٠ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤ •

ويغتسل من الجنابة •

لقد روت الاخبار أسماء عدد من هؤلاء الحنفاء فيقول ابن اسحق : ( واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعض على بعض ، قالوا أجل وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصي •• وعبدالله بن جحش بن أسد بن خزيمة ، وكانت أمه اميمة بنت عبدالمطلب ، وعثمان بن أسد بن عبدالعزى بن قصي ، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عدي بن كعب بن لؤي • فقد قال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء • لقد اخطأوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نطيف به ولا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم • فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب • وأما عبيدالله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة ، فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا • وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ، وأما يزيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموؤدة وقال اعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعيب ما هم فيه[١] • ويذكر ابن قتيبة في الفصل الذي عنوانه ( قصة من كان على دين قبل مبعث النبي (ص) هؤلاء ويضيف اليهم أمية بن أبي الصلت وكان أمية قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الاوثان وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد اظلّ زمانه ، فلما سمع بخروج النبي (ص) كفر حسداً له ولما نشد رسول الله (ص)

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ • المحبر : ص ١٧١ ـ ١٧٢ • وانظر عن زيد بن عمرو بن نفيل وعلاقته بالرسول الاشتقاق : ص ٨٤ • ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٢٧٦ •

شعره آمن لسانه وكفر قلبه وقس بن ساعدة الايادي ، وهو حكيم العرب ، وذكر رسول الله (ص) انه رآه يخطب بعكاظ على جمل أحمر واقتص أبو بكر قصته وأنشد شعره . وأبو قيس صرمة بن أبي أنس وهو من بني النجار ، وكان ترهب ولبس المسوح وفارق الاوثان وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتا له فاتخذه مسجدا لا يدخله طامث ولا جنب وقال اعبد رب ابراهيم ، فلما قدم رسول الله (ص) المدينة أسلم وحسن اسلامه ، وهو القائل في رسول الله ... وخالد بن سنان بن غيث هو من بني عبس بن بغيض وروي ان رسول الله (ص) قال ذلك نبي أضاعه قومه ... وأتت ابنته رسول الله (ص) فسمعته يقرأ قل هو الله أحد فقالت كان أبي يقول ذا[١] ) .

يتبين من هذه النصوص التي تردد في الكتب العربية ان هؤلاء الحنفاء كانوا في الحجاز وانهم مهدوا الافكار لدعوة الرسول . ويظهر ان عددهم كان ملحوظا وربما كان هناك آخرون لم يردنا عنهم شيء ولم يقتصروا على الحجاز وحده بل كانوا في اليمامة أيضا على الاقل حيث تقيم قبيلة « حنيفة » وحيث ادعى مسيلمة انه عبدالرحمن وأدعى النبوة ودعا الى عبادة الرحمن[٢] .

---

(١) المعارف : ص ٢٧ ـ ٢٩ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣٣ .

(٢) يقول ابن سعد : انه « بعثت قريش النضر بن الحرث بن علقمة وعقبة بن أبي معيط وغيرهما الى يهود يثرب وقالوا لهم سلوهم عن محمد ، فقدموا المدينة فقالوا أتيناكم لأمر حدث فينا غلام ... يقول قولا عظيما يزعم انه رسول الرحمن ولا نعرف رحمانا الا رحمان اليمامة » ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٠٨ . انظر أيضا تفسير الطبري ج ١٠ ص ٧٠ ، أنظر عن دعوة مسيلمة للرحمن الطبري : ج ٣ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ . البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٣ . ويروي الطبري في تفسيره ج ١ ص ٤٤ « عن عطاء يقول كان الرحمن فلما اختزل الرحمن من اسمه كان الرحيم . والذي أراد ان شاء الله عطاء بقوله هذا ان الرحمن كان من أسماء الله التي لا يتسمى بها أحد من خلقه فلما تسمى به الكذاب مسيلمة وهو اختزاله اياه يعني اقتطاعه من اسمائه لنفسه أخبر الله جل ثناؤه ان اسمه الرحمن الرحيم » .

لا تعطينا المصـادر معلومامت وافيـة دقيقة واضحة عن دين وعادات هؤلاء الحنفاء • وكلما يمكن استنتاجه من هذه المعلومات القليلة ان عقائدهم هي احتجاج على تعدد الآلهة والشرك وعبادة الاصنام • والطقوس الوثنية وانها تميل الى العزلة والتوحيد وان معتنقيها كانوا يقدرون الاديان السماوية ، ولـكنهم لم يكونوا يهودا أو نصارى • وان هـذه الديانة هي أقرب الى الاسلام ، وهي تؤكد على صلتها بدين ابراهيم أكثر من تأكيدها على عبادة الله ، وليس هناك اشارة الى اعتقادهم بالبعث ، ويظهر انهم كانوا يميلون الى العزلة والتحنث[١] •

والحق انا لا نعلـم كيف كان العرب في الجاهليـة يتصورون دين ابراهيم اللهم الا ما رواه ابن هشام وابن الـكلبي من ان العرب بعد أن دانوا بالشرك بقي فيهم ( على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف بـه والحج والعمرة والوقوف على عرفـة والمزدلفة وهدي البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه[٢] ) •

**الصـــابئة :**

وهناك فرقة أخرى هي الصابئة ، ورد ذكرها في القرآن عرضاً في ثلاث آيات ( ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) ( البقرة ٦٢ ) « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (المائدة ٦٩) « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى

---

(١) لقد بحث بعض المستشرقين في الحنيفية : ومنهم بوهل في مقال في دائرة المعارف الاسلامية ، وبيل في مجلة العالم الاسلامي العدد ٢٠ سنة ١٩٣٠ ، وفارس وكلدن في مجلة الجمعية الشرقية الفلسطينية العدد ١٩ سنة ١٩٣٩ وكذلك وات في الملحق الثاني من كتابه « محمد في مكة » •

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٢ • ابن الـكلبي الاصنام ص ٦ •

والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد » ( الحج ١٧ ) •

ويتبين من هذه الآيات ان الصابئة فرقة دينية مستقلة عن غيرها وانها ممن آمن بالله واليوم الآخر • وانها تتميز عن اليهود والنصارى • ومن الواضح انهم لا علاقة لهم بصابئة حران لان هؤلاء كانوا من عباد الاله سين ثم انتحلوا اسم الصابئة في زمن المأمون تخلصاً مما أراد أن يفرضه عليهم من عقوبة[١] • أما صابئة العراق فهم المندائيون أو المغتسلة وعبادتهم مزيج من بقايا العبادة البابلية القديمة والمسيحية مع احترام خاص ليوحنا المعمدان[٢] • ولا يوجد دليل على كونهم كانوا في الحجاز •

وكلمة صبأ في اللغة العربية تعني مال ، وقد وردت في القرآن بهذا المعنى « والا تصرف عني كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين » (يوسف ٣٣) ، وكانت العرب تطلق كلمة صابئي على من يفارق دين آبائه واجداده ويدخل ديناً جديداً • وقد دعا المشركون الرسول والمسلمين في البداية صابئة ، فيروي ابن هشام ان عمر بن الخطاب لما اسلم نادى جميل بن معمر بأعلى صوته « يا معشر قريش وهم في انديتهم حول باب الكعبة الا أن عمر بن الخطاب قد صبا قال ويقول عمر من خلفه كذب ولكن قد اسلمت وشهدت ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله[٣] » • ويروي ابن سعد ان الرسول عندما كان يدعو الناس الى الاسلام كان يسير ( أبو لهب وراءه يقول لا تطيعوه فانه صابيء كذاب[٤] ) ولما أراد أبو لهب أن يحمي

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٤٥ • ويقول المسعودي ان الصابئة هم الحنيفية ( التنبيه والاشراف ص ٧٩ ، ١٣٧ ) •

(٢) خير بحث عن صابئة العراق هو كتاب المسز دراور « المندائيون في العراق » (بالانكليزية) وانظر أيضا كتاب عبدالرزاق الحسني عن الصابئة •

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ قسم ١ ص ٣٧ • الاشتقاق : ص ٧٩ ـ ٨١ •

(٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤٥ •

الرسول بعد وفاة أبي طالب قال ابن الغيطلة ( يا معشر قريش صبا أبو عتبة[١] ) ( وروى البخاري في التاريخ وأبو زرعة الدمشقي والبغوي وابن أبي عاصم من طريق الوليد بن عبدالرحمن الجرشي عن الحارث بن الحارث الغامدي قال : قلت لابي ونحن بمنى ما هذه الجماعة ؟ قال هؤلاء اجتمعوا على صابيء لهم . قال فتشرفت فاذا برسول الله (ص) يدعو الناس الى توحيد الله وهم يردون عليه[٢] ، ويروي ابن سعد عن اسحق بن يوسف الازرق عن القاسم بن عثمان البصري عن انس بن مالك : خرج عمر متقلداً السيف فلقيه رجل من بني زهره قال أين تعمد يا عمر فقال أريد أن أقتل محمداً قال وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهره وقد قتلت محمداً قال فقال عمر ما أراك الا قد صبوت وتركت دينك الذي انت عليه قال أفلا أدلك على العجب يا عمر ان ختنك واختك قد صبوا وتركا دينك الذي انت عليه[٣] » .

ومما تقدم نستنتج ان العرب كانت ترى ان الصابئة من الموحدين ، وانهم وصفوا المسلمين الاول بهذا الوصف لانهم لم يدركوا الفرق بين الصابئة وبين الاسلام في أدواره الاولى ومن قبل أن تتوضح معالمه . على اننا لا نعلم تفاصيل هذه النحلة التي كانت تعبد الله وتختلف عن اليهود والنصارى كما يتجلى ذلك من آيات القرآن الكريم . ولم تذكر الكتب اسم أي شخص صابيء .

يتضح من كل ما تقدم ان فكرة اله أكبر كانت موجودة عند القرشيين كما ان فكرة التوحيد كانت موجودة منذ القديم ، وانها كانت عند ظهور الاسلام موجودة عند اليهود والنصارى والاحناف والصابئة . ولاشك ان عقيدة اليهودية والمسيحية في الله تختلف عن عقيدة الاسلام . فاليهودية ترى ان العزير ابن الله كما ترى ان نعمه وبركاته تقتصر على بني اسرائيل الذين

---

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١ .
(٢) ابن حجر : الاصابة ج ١ ص ٢٧٥ .
(٣) ابن سعد : ج ٣ ص ١٩١ .

هم في رأيهم شعب الله المختار • أما المسيحية فقد كانت فرقاً متعددة بعضها يرى ان المسيح هو الله وبعضها يرى انه ابن الله وبعضها يراه ذا طبيعتين لاهوتية وناسوتية • وقد ناقش القرآن هذه المزاعم ورد عليها في الآيات التي نزلت في المدينة وأنكر عليهم عدم التنزيه •

أما العرب فقد كانوا يشركون به آلهة أخرى هم بنات الله في زعمهم •

**التوحيد في الاسلام :**

أما العقيدة الاسلامية فأساسها ان لا اله الا الله وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وانه تعالى رب العالمين ورب كل شيء ورب السماوات والارض والمشرق والمغرب ، وهو خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير ، وهو الذي يحيي ويميت ويعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، وسلطاته واسعة مطلقة يخضع له الكل وينبغي أن يستسلموا له • ولاشك ان الفكرة العامة في الاسلام عن الله تعالى هي العظمة والعدل والخير فهو العادل الذي يحاسب الانسان بالقسطاس المستقيم ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ولكنه في نفس الوقت رحيم بعباده • ولا ريب ان تكرر كلمة الرحمن الرحيم من شأنها أن تذكر المسلم دائما برحمة الله وتجعله لا يقنط من روحه وعدله كما يجب أن يكون شكورا ولا يكفر بنعمه •

والله تعالى موجود في كل مكان فلا ينحصر في مكان دون آخر ويدركه الانسان عن طريق الفطرة والبصيرة بالدرجة الاولى ، كما يمكن أن يدركه عن طريق التفكير في آثاره وأعماله والحق ان الاسلام يتطلب التأمل والتفكير والتبصر والتدبر والنظر • وقد تردد الامر بذلك في القرآن في مواضع كثيرة جدا • فالاسلام لا يفرض العقيدة بالله فرضا تلقينيا دوكماتيكيا ولا يتطلب من البشر الانقياد الاعمى •

ان هذا التفكير مطلوب من كل شخص ويمكن أن يمارسه أي انسان كان وحيثما كان • فليس في الاسلام طبقة من الكهنوت تكون واسطة بين

الله والناس . ولـكن يجدر التأكيد بأن ادراك الله واثبات وجوده لا يتم بالطريقة الرياضية أو المختبرية ، اذ ان الخبرة الدينية قائمة بالدرجة الاولى على البصيرة والشعور الذاتي الباطني .

**الملائكـــة :**

ومن المعتقدات الاساسية في الاســلام الملائكة « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشــرق والمغرب ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخـر والملائكة » ( البقرة ١٧٧ أنظر أيضا البقرة ٢٨٥ ) « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » ( النساء ١٣٦ ) .

لقد ورد ذكر الملائكة في القرآن بصيغة المفــرد في اربع عشرة آيــة وبصيغة التثنية مرتين وبصيغة الجمع في اربع وستين آية . وقد ذكرت اسماء بعضهم فورد اســم جبريل في ثلاث آيات ( البقرة ٩٧ و٩٨ التحريم ٤ ) وميكال مرة واحدة ( البقرة ٩٨ ) وذكر مالك مرة واحدة ( الزخرف ٧٠ ) وملك الموت مرة واحدة (السجدة ١١) أما الآيات الباقية فقد ذكرت فيهـا الملائكة كاسم جنس .

لقد كان المشركون يعتقدون بالملائكة ويرون انهـا اناث وانها بنات الله[1] . وقد انكر الاسلام كون الملائكة بنات الله وانكر عبادتهم لانها تناقض مبدأ الوحدانية الاساسي ولكنهم عباد مكرمون وقد خلقوا من قبل أن يخلق آدم ثم انه تعالى علم آدم الاسماء كلها ثم عرضها عليهم ( البقرة ٣٠ ـ ٣١ ) وقــد أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر ، كمـا سنتحدث عنه فيما بعد . والملائكة عباد الرحمن ( النساء ١٧٢ ) يشهدون بأن لا اله الا هو ( آل عمران ١٨ ) وهم يخافونه ( الرعد ١٣ ) ويسجدون له بتواضع ولا يستكبرون ( النحـل ٤٩ ) وهم اولو اجنحة مثنى وثلاث ورباع ( فاطر ١ ) ويوم القيامة يأتي الله والملك صفا صفا ( الفجر ٢٢ ) وهم

---

(١) أنظر ص ١٧٣ ـ ١٧٥ .

يحفون به ( الزمر ٧٥ ) ويحمل عرش الله منهم ثمانية ( الحاقة ١٧ ) وهم يستغفرون لمن في الارض (الشورى ٥) ويصلون على النبي (الاحزاب ٥٦) ٠

ويصطفي تعالى من الملائكة رسلا الى البشر (الشورى ٥١ الزخرف ٨٠) وهم ينزلون بالروح (النحل ٢) وقد كلمت الملائكة زكريا ومريم (آل عمران ٣٩ مريم ٤٢ و٤٥) ٠ وقد امدّ الله تعالى المسلمين في بدر بثلاثة آلاف (آل عمران ١٢٤) وفي الخندق بخمسة آلاف (آل عمران ١٢٥) وهو يمد المسلمين بألف من الملائكة مسومين (الانفال ١٩) ٠

والملائكة تلعن الكفار (البقرة ١٦١ آل عمران ٨٧) وتبسط أيديها عليهم في غمرات الموت (الانعام ٩٣) ٠ وهم يوم القيامة يضربون وجوه الكفار وأدبارهم (الانفال ٥٠ ، محمد ٢٧) ٠

**ابليس :**

ومن الملائكة في الاصل ابليس وقد وردت قصته في سبع سور ، كما ورد ذكره في سورتين اخريين ٠ وفي سورة الاعراف والحجر تفصيل لقصته « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين ٠ قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ٠ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين ٠ قال انظرني الى يوم يبعثون ٠ قال إنك من المنظرين ٠ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ٠ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمايلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ٠ قال اخرج منها مذءوماً مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » (الاعراف ١١ ـ ١٨) ٠ وفي آية أخرى يصف القرآن ابليس بأنه كان من الجن (الكهف ٥٠) ٠

وهناك آيتان تشيران صراحة الى أن بعض المشركين كانوا يعبدون

ابليس « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين » (سبأ ٢٠) « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهو لـكم عدو بئس للظالمين بدلا » (الكهف ٥٠) • وهنا آية أخرى تشير الى أن لابليس جنوداً « فكبكبوا فيها هم والغاوون • وجنود ابليس اجمعون » (الشعراء ٩٤ - ٩٥)•

ولا ريب أن ابليس اسم علم مفرد كان ملـكا ولـكن كبرياءه الذي دفعه الى عدم السجود لآدم مما سبب طرده من الجنة وسمح له تعالى بأن يغوي آدم ويخرجه من الجنة ثم يغوي بني آدم •

**الشـــيطان :**

لقد ذكر القرآن أيضا ان الذي أغوى آدم فأخرجه من الجنة هـو الشيطان (البقرة ٣٦ ، الاعراف ٢٧ ، طه ١٢٠) مما قد يستنتج منه ان ابليس هو الشيطان • وقد ترددت كلمة الشيطان بصيغة المفرد في سبعين آية مكية ومدنية وبصيغة الجمع بثماني عشرة آية مكية وكلها بأل التعريف الا في ثلاث آيات (الحجر ١٧ ، التكوير ٢٥ ، الزخرف ٣٦) •

والشيطان كفور لربه (الاسراء ٢٧) وعصي للرحمن (مريم ٤٤) وهو الذي أزل آدم فأخرجه من الجنة (البقرة ٣٦ ، الاعراف ٢٧ ، طه ١٢٠) وسبب الخصومة البشرية الاولى بين هابيل وقابيل (الاعراف ٢٠) وائر في الامم الضالة (النحل ٦٣ ، القصص ١٥) •

والشيطان للانسان عدو مبين (الاعراف ٢٢ ، يوسف ٥ ، الاسراء ٥٣ ، القصص ١٥ ، فاطر ٦ ، الزخرف ٦٢) خذول له (الفرقان ٢٩) يعد الناس الغرور (النساء ١٢٠ ، الاسراء ٦٤) ويريد أن يضلهم ضلالا بعيدا (النساء ٦٠) وهو يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء (البقرة ٢٦٨ ، النور ٢١) ويستنزلهم ببعض ما كسبوا (آل عمران ١٥٥) ومن أعماله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وبها يحاول أن يوقع بين الناس العداوة والبغضاء

(المائدة ٩٠ و٩١) وهو اسوأ قرين (النساء ٣٨) •

والشياطين أولياء الذين لا يؤمنون ( النساء ٧٦ ، الاعراف ٢٧ ) وهم الذين يوحون الى أوليائهم ليجادلوا المسلمين ( الانعام ١٢١ ) وينبغي أن يقاتل أولياؤه (النساء ٧٦) الذين هم في خسران مبين (النساء ١١٩) وقد أرسل تعالى الشياطين على الكافرين تؤزهم (مريم ٨٣) وقد زين تعالى السماء بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين (الملك ٥) •

والشيطان يقر بالله تعالى ويخافه (ابراهيم ٢٥٧) ولكنه يسخر من الناس ويحاول أن يضلهم (يوسف ٤٢ ، الحج ٥٢) وهو خصم للمسلمين (المجادلة ٩) •

ولا تقتصر محاولات الشيطان على البشر بل تمتد حتى الى الانبياء « وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (الحج ٥١) وهو يحاول أن ينسى الرسول « واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (الانعام ٦٨) •

والشياطين تنزل على كل أفاك أثيم (الشعراء ٢٢) واما الوحي والقرآن فهو من الله وما هو بقول شيطان رجيم وللجن شياطين تغويهم •

ومما تقدم يظهر جلياً ان الشيطان هو الذي يلعب الدور الاول في افساد الناس وغوايتهم واخلالهم وانه مصدر الشرور في العالم وان كان في قرارة نفسه يخاف الله واذا كانت هناك آية « بل عبدوا الشيطان أكثرهم لا يعلمون » فتفسيرها انهم اخطأوا وعبدوا الشيطان من دون ان يعلموا فانهم يعبدون الشيطان يدلك على هذا ان القرآن لم يذكر في غير هذه الآية ان الشيطان من معبوداتهم كما لم يرد عن العرب انهم عبدوا الاهاً هو الشيطان أو انهم عبدوا اله الشر •

ان استعمال كلمة الشياطين بصيغة الجمع تدل على انها جنس وان

كانت الآيات لا تبين اسماءها ولا عن علاقة الشيطان وهو ابليس ببقية الشياطين •

**الجـــن :**

لقد ورد ذكر الجن في القرآن في ثلاثين آية مكية وهي مخلوقة من نار (الحجر ٢٧ ، الرحمن ١٥) ومنهم ابليس الذي هو ملك ايضا (الكهف ٥٠) وان أصلهم الناري وكون ابليس منهم يظهر علاقتهم بالملائكة • غير انهم يختلفون عن الملائكة في امور منها ان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وانهم كانوا طرائق قددا (الجن ١١) فمنهم المسلمون الذين تحروا رشداً والقاسطون الذين هم لجهنم حطبا (الجن ١٤ و١٥) وكان سفهاؤهم يقولون على الله شططاً (الجن ٤) وقد ظنوا ان لن يبعث الله أحداً (الجن ٧) ولكن نفراً منهم سمع القرآن منه (الاحقاف ٢٩ ؛ الجن ١) مما يدل على معرفتهم باللغة العربية فآمنوا به ولن يشركوا بربهم أحداً (الجن ٢) ولـكن فريقاً منهم لم يؤمن وسيحاسبهم الله يوم القيامة ويدخل كثيرا منهم في جهنم ليعذبه فيها على سوء عمله (الاعراف ٣٨ و١٣٧٩ ، الرحمن ٣٩ ، السجدة ١٣) •

من هذا يتبين انهم وان اتفقوا مع الملائكة في مادة خلقهـم وهي النـار وفي بعض الخصائص والاحوال الا أن أحوالهم أشد شبهاً بأحوال الانس • ويقترن ذكرهم بالانس في عشر آيات ، فهم ليسوا جميعا بمهتـدين وان الرسل تأتيهم (الانعام ١٣٠) وقد استمع بعضهم للنبي وصاروا مسلمين ، وكانت جيوش سليمان منهم ومن الانس (النحل ١٧) وقـد أتاه أحدهم بعرش بلقيس ويبدو انهم لا يرون بالعين الانسانية اذ لم يشر القرآن الى ان الانس ترى الجن ولم يذكر انهم سخروا لغير سليمان • ولا يعتبر الايمان بهم جزءاً أساسيا من العقيدة الاسلامية •

ولعلهم اذا مسوا انسانا صـار شاذاً أي به جنـة (الاعراف ١٨٤ ، المؤمنون ٢٥ و٧٠ ، سبأ ٨ و٤٦) وقد اتهم المشركون الرسول بأن به جنة وهو اتهام باطل •

**البعث والقيامة :**

ومن المبادىء الاساسية في الاسلام فكرة البعث والقيامة فان الله تعالى خالق كل شيء والقادر على كل شيء سوف يعيد الخلق كما انشأه أول مرة وينشر الناس من القبور ويبعثهم الى الحياة • وقد سمي هذا اليوم في القرآن بعدة أسماء منها يوم الآخرة ( وقد وردت في مائة وعشر آيات ) ويوم الآخر ( في ستة وعشرين آية كلها تقريبا مدنية ) ويوم القيامة ( في سبعين آية ) والحشر ( في ثلاثين آية ) ويوم البعث ( في ثلاث آيات عدا مشتقات هذه الكلمة ) ويوم الدين ( في سبع آيات ) ويوم الفصل ( في ست آيات ) ويوم الحساب ( في اربع آيات ) ويوم الجمع ويوم التلاقي ويوم الحسرة ويوم الآزفة والصاخة والقارعة والتغابن ( وقد ذكرت كل منها في آية ) •

ويأتي يوم القيامة بغتة (الانعام ٣١ و٤٤ و٤٧ ، الاعراف ٩٥ و١٨٧ ، يوسف ١٠٧ ، الانبياء ٤٠ ، الحج ٥٥ ، الشعراء ٢٠٢ ، الزمر ٥٥ ، الزخرف ٦٦ ، محمد ١٨) • وهو يأتي بصيحة (يس ٢٩ و٤٩ و٥٣ ص ١٥ ق ٤٢) أو بصيحتين « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون » (الزمر ٦٨ – ٦٩) وتتم هذه الصيحة بأن ينفخ في الصور (الانعام ٧٣ ، الكهف ٩٩ ، طه ١٠٢ ، المؤمنون ١٠١ ، النحل ٨٧ ، يس ٥١ ، الزمر ٦٨ ق ٢٠ ، الحاقة ١٣ سبأ ١٨) •

وعندما تقوم القيامة ترج الارض رجا (الواقعة ٥) أما الجبال فتسير سيرا (الطور ١٠ ، التكوير ٣ ، الكهف ٤٧) وتبس بسا (الواقعة ٥) وتنسف (المرسلات ١٠) وتدك دكة واحدة (الحاقة ١٤) وتصبح كالعهن (المعارج ٩ ، القارعة ٥) وتصير سرابا (النبأ ٢٠) أما البحار فتفجر (الانفطار ٣) وتسجد (التكوير ٦) • وأما السماء فتنفطر (الانفطار ١) وتكشط (التكوير ١١)

وتفرج (المرسلات ٩) وتنشق (الحاقة ١٦ ، الانشقاق ١ ، الفرقان ٢٥) وتأتي بدخان مبين (الدخان ١٠) وتمور اموراً (الطور ٩) وتطوى كطي السجل للكتب (الانبياء ١٠٤) • أما النجوم فتطمس (المرسلات ٨) وتنكدر (التكوير ٢) وتبعثر القبور (الانفطار ٤ ، العاديات ٩) ويخرج الناس من الاجداث سراعا (يس ٥١ ، القمر ٧ ، المعارج ٤٣) •

ويأتي تعالى والملك صفا صفا (النبأ ٣٨ ، الفجر ٢٢) ويحمل عرشه تعالى يومئذ ثمانية (الحاقة ١٧) •

ويخرج الله لكل انسان «يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا» (الاسراء ١٤) ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (الكهف ١٩ ، انظر أيضا سبأ ٣) • فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاكم اقرأوا كتابيه اني ظننت اني ملاق حسابيه • وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه (الحاقة ١٩ ـ ٢٠ و٢٥ ـ ٢٦ ، أنظر أيضا الاسراء ٧١ ، الانشقاق ٧ ـ ١١ ) •

**جهنـــم :**

ان الذين تزيد شرورهم على حسناتهم ينالون في الآخرة جزاءهم وهم يذهبون الى النار ( وقد ذكرت في ١٣٠ آية) أو جهنم ( وقد ذكرت في ٧٩ آية ) أو سقر ( وقد ذكرت في ٣ آيات ) • وجهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (الحجر ٤٤) عليها تسعة عشر من الملائكة ( أنظر المدثر ٣٠ ـ ٣١ ) وهم غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (التحريم ٦) وجهنم وقودها الناس والحجارة (البقرة ٢٤ ، التحريم ٦) والذين يدخلونها يقاسون من سموم وحميم • وظل من يحموم • لا بارد ولا كريم (الواقعة ٤٢ ـ ٤٤) ولهم من فوقهم ظلل من

النار ومن تحتهم ظلـل (الزمر ١٦) • وهم يؤخذون النواصي والاقـدام (الرحمن ٤١) واذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون • في الحميم ثم في النار يسجرون (غافر ٧١ - ٧٢ أنظر أيضـا ابراهيم ٤٩ ، الانسان ٤) وهذه السلسلة ذرعها سبعون ذراعاً (الحاقة ٣٢) • فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب فوق رؤسهم الحميم • يصهر به ما في بطونهم والجلود • ولهم مقامع من حديد • كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق (الحج ١٩ - ٢٢) وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها (النساء ٥٦) • وهم لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا • الا حميما وغساقا (النبأ ٢٤ - ٢٥) ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب عظيم (ابراهيم ١٦-١٧) ولهم شراب من حميم وعذاب أليم (الانعام ٧٠ ، يونس ٤ أنظر أيضا ص ٥٧ الدخان ٤٦ ، الواقعة ٤٢ و٥٤ ، محمد ١٥) • ان الضالين المـكذبين في جهنم لآكلون من شجرة الزقوم • فمالئون منها البطون • فشاربون عليه من الحميم • فشاربون شرب الهيم (الواقعة ٥٢ - ٥٥ ) وان شجرة الزقوم • طعام الأثيم • كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم (الدخان ٤٣ - ٤٦) • أما شجرة الزقوم فانها شجرة تخرج في أصل الجحيم • طلعها كأنه رؤوس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون • ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم (الصافات ٦٥ - ٦٨) • فالذين يذهبون الى جهنم ليس لهم طعام الا من ضريع • لا يسمن ولا يغني من جوع (الغاشية ٦ - ٧) •

**الجنــــة :**

أما من ثقلت موازينهم وأوتوا كتابهم بيمينهم لان أعمال الخير عندهم تفوق أعمال الشر فانهم يذهبون الى الجنة (وقد وردت بصيغة المفرد في ٦٩ آية وبصيغة الجمع في ٦٩ آية أيضا منها ١١ مضافة الى عدن ووردت باسم النعيم ٦ مرات و٨ مرات جنات النعيم و٣ مرات جنة النعيم ومرتين باسـم الفردوس ومرة باسم الـكوثر ) •

ان الجنة تجري من تحتها الانهار ( وقد ذكر ذلك في ٣٧ آية ) وفيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرة لذة الشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ( محمد ١٥ ) وفي الجنة للذين اتقوا ربهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الانهار (الزمر ٢٠ ، أنظر أيضا العنكبوت ٥٨ ، سبأ ٣٧ ، الفرقان ٧٥) وفيها أيضا فاكهة كثيرة (ص ٥١ ، الزخرف ٧٣ ، أنظر أيضا المرسلات ٤٢ ، يس ٥٧ ، الدخان ٥٥ ، الطور ٢٢ ، الرحمن ٥٢ ، عبس ٣١ ، الواقعة ٢٠) وفيها نخل ورمان (الرحمن ٦٨) • وفيها لحم مما يشتهون (الطور ٢٢) ولحم طير (الواقعة ٢١) •

وفيها أيضا سرر مصفوفة (الطور ٢٠) وموضونة (الواقعة ١٥) ومرفوعة (الغاشية ١٣) يجلس الناس عليها متقابلين (الحجر ٤٧ ، الصافات ٤٤) • كما ان فيها أرائك يتكئون عليها (الكهف ٣١ ، يس ٥٦ ، الانسان ١٣ ، المطففين ٢٣ ، الفجر ٣) • وفيها نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة (الغاشية ١٥) ويتكئون أيضا على رفرف خضر وعبقري حسان (الرحم ٧٦) وعلى فرش بطائنها من استبرق (الرحمن ٥٤) • وأهل الجنة يلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق (الكهف ٣١ ، أنظر أيضا الدخان ٥٣ ، الانسان ٢١) • وهم يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير (فاطر ٣٣ ، الحج ٢٣) • وهم يشربون بكأس (النبأ ٣٤ ، الطور ٢٣) من معين (الصافات ٤٥ ، الواقعة ١٨) مزاجها كافورا (الانسان ٥) وزنجبيلا (الانسان ١٧) •

ويطاف عليهم بصحاف من ذهب (الزخرف ٧١) وآنية من فضة (الانسان ١٥) وبأكواب من قوارير (الانسان ١٥) وأباريق (الواقعة ١٨ ، أنظر أيضا عن الاكواب الزخرف ٧١ ، الغاشية ١٤ ، الواقعة ١٨) •

ويطوف عليهم ولدان مخلدون (الواقعة ١٧ ، الانسان ١٩) وغلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون (الطور ٢٤) •

وفي الجنة قاصرات الطرف عين (الصافات ٤٨) وأتراب (ص ٥٢) لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان (الرحمن ٥٦) وحور عين (الدخان ٥٤) كأمثال اللؤلؤ المكنون (الواقعة ٢٢) •

ويدخل المتقون الجنة مع زوجاتهم (الزخرف ٧٠ ، أنظر أيضا يس ٥٦) ويتزوجون بحور عين (الدخان ٥٤ ، الطور ٢٠) (ولابد أن الزواج بالحور العين بخس العزاب) •

ان الذين يدخلون الجنة لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين (الحجر ٤٨) وهم لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى (الدخان ٥٦) وهم فيها خالدون ، كما ان أهل النار يبقون فيها خالدين (وقد ذكر خلود أهل الجنة وأهل النار في تسعة وستين آية) • « ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عظيم » (الحج ٥٥) •

وفي الجنة وجهنم يوجد حجاب واعراف عليه رجال ونادى « أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين • الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون • وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون • واذا صرفت أنظارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين • ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون (الاعراف ٤٤ – ٤٨) • ولا ريب ان ظاهر معنى الآية يدل على أن أصحاب الاعراف هم الذين عند الحجاب الذي يحجز بين الجنة وجهنم وليسوا من تعادل حسناتهم وسيئاتهم كما يرى بعض المفسرين فان أهل التعادل لم يشر عنهم القرآن بشيء واضح •

**أهمية فكرة البعث :**

و لاريب ان لفكرة البعث أهمية كبرى في النظام الاخلاقي والاجتماعي

للاسلام ، وذلك لان البعث يتبعه يوم الحساب الذي يتقرر فيه مصير الانسان حيث يحصل على السعادة والراحة الأبدية ويخلد في الجنة أو يذهب الى حيث العذاب الأبدي • وحصوله على أحدى هاتين النتيجتين يتوقف على أعماله في الدنيا • ففي يوم الحساب يؤتى كل امرىء كتابه بيمينه ولا يذر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فأما من ثقلت موازينه بعمل الخير والصلاح في الدنيا ينال الجنة ، وأما من فاقت أعماله الشريرة الخير فانه يذهب الى جهنم • ولما كان المسلمون يدخلون الجنة فان هذا سيكون دافعا لهم على عمل الخير في الدنيا وتجنب عمل الشر •

وفكرة الآخرة فوق ذلك تعطي الناس أملاً في الحياة ، اذ أن حياة الآخرة طويلة جدا والحياة الدنيا قصيرة وهي دار لهو فلا يكون قصر العمر مصدرا لليأس •

ثم ان في الحياة الدنيا كثيرا من المصاعب والآلام والاحزان ولولا أمل الآخرة لاستولى اليأس على النفوس • ففكرة الآخرة اذاً تبعث على الامل وتحيي التفاؤل وتحمل الناس على عمل الخير والصلاح وتجنب عمل الشر •

**المقاييس الاخلاقية :**

ومن الميزات الرئيسية للاسلام تأكيده على الاخلاق واعتباره اياها المقياس الأوحد للتفاضل بين الناس « يا أيها الناس انما خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » (الحجرات ١٣) • والتقوى هنا هي الاخلاق • وأمام هذا المقياس يستوي الناس بصرف النظر عن أصلهم وجنسهم وسنهم ولونهم ، ومثل هذا الفارق الاخلاقي لا يقوم على أساس الوراثة ولا هي وقف على فرد دون آخر كلا بل هي مكتسبة بمقدور كل انسان أن يعملها وهي واقعية وليست خيالية ، كما أنها أساس المجتمع وأساس نوال الجنة والسعادة الأبدية • ومن هنا جاءت مسؤولية الانسان •

والمسؤولية الاخلاقية في الاسلام فردية فالانسان يجزى بما كسبت يده فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (الزلزلة ٧ – ٨) ولا تزر وازرة وزر اخرى (الانعام ١٦٦٤ ، الاسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧ ، النجم ٣٨) ويوم القيامة لا يسأل والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا بل يكون كل انسان مسؤولا عن أعماله • والاسلام في هذه النقطة تختلف مثله اختلافاً أساسيا عن البداوة التي تؤكد على المسؤولية الاجماعية والتي تأخذ الفرد بجريرة غيره وخاصة في الثأر والدية ، كما تختلف مثله عن كثير من المجتمعات التي ترى مقياس التفاضل بالنسب والوراثة ، أو بالثروة والمركز والنفوذ المادي •

على ان الاخلاق الاسلامية ذات رسالة اجتماعية • فالاسلام جاء بكثير من المبادىء التي من شأنها تنظيم العلاقات بين الناس كالصدق في القول والمعاملة والعطف والبر والاحسان ومساعدة الفقراء والمساكين واعطاء الصدقات للمحتاجين والتعاون والتآزر والبر بالوالدين وغير ذلك من الصفات الاخلاقية الحميدة التي من شأنها أن تؤدي الى تنظيم المجتمع وسعادته واستقراره « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون • ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده • وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (الانعام ١٥١ – ١٥٢ ، أنظر أيضا الاسراء ٢٣ – ٣٧) • ولاشك ان هذه الآيات التي اجملت المبادىء الاجتماعية الاسلامية هي بعض الآيات الكثيرة التي تدعو الى ذلك •

والاخلاق الاسلامية لا تقتصر على مجرد الاعمال الخارجية بل تؤكد على الاعمال الباطنية وتعير النيات اهتماماً كبيرا « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء ٨٩) « ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى

القلوب » (الحج ٣٢) وقد جاء في الحديث « انما الاعمال بالنيات وانما لـكل امرىء ما نوى » • ولا ريب ان الله بكل شيء عليـم وهو يعلم ما تخفي الصدور ويعلم ما توسوس به نفس الانسان وهو أقرب من حبل الوريد (انظر ق ٦) وهو لا تخفى عليه خافية ويحاسب الناس يوم القيامة على أعمالهم ومقاصدهم ويجزي كل نفس بما كسبت ، ويوم القيامة يؤتى كل امرىء كتابه بيمينه ولا يذر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها • كل هذا يجعل من يدين بالاسلام عليه أن يخلص نيته ويطهر قلبه ويصفي سريرته ويهجر النفاق والفساد •

# الفصل التاسع عشر

# الأدلة القرآنية على تطور الدعوة

**آيات الله :**

ان القرآن هو الوثيقة الكبرى التي نعرف منها تطورات الدعوة الاسلامية . ومع اننا لا نستطيع أن نعين بضبط ودقة ترتيب نزول كافة الآيات ، كما ان كتب السيرة والحديث لا تقدم معلومات مغنية عن هذا الدور المبكر ، الا اننا يمكن أن نقول بصورة تخمينية غير جازمة ان الآيات الاولى كانت تؤكد على عظمة الله وقدرته وآثار خلقه وأعماله . وتدعو الناس الى أن « ينظرون ويبصرون ويعقلون ويتفكرون » في اثاره في الكون . كما انه بين وفصل آياته في الكون ليريهم عظمته واعماله . ومن هذه الآيات انه « هو الذي انزل من السماء ماءاً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ( النحل ـ ١٠ ١٢ ) « والله انزل من السماء ماءاً فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون . وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (النحل ٦٥ ـ ٦٩) . « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن

خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم ان في ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن آياته يريكمْ البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماءاً فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون • ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون » (الروم ٢٠ ـ ٢٥) « وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون • وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون • ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم أفلا يشكرون • سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون • وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون • والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم • والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم • لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون • وآية لهم انا جعلنا ذريتهم في الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون • وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون • الا رحمة منا ومتاعا الى حين » (يس ٣٣ ـ ٤٤) « ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين • وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يؤمنون • واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون » (الجاثية ٣ ـ ٥) « وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل والنهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الرعد ٣ ـ ٤) « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا »

(الاسراء ١٢) « خلق السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين » (العنكبوت ٤٤ ، الشورى ٢٩ ، الجاثية ١٣) « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » (فصلت ٣٧ كذلك آل عمران ١٩٠ والنحل ٨٦) « ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (الشورى ٣٣ انظر ايضاً الجاثية ١٢ ، لقمان ٣١) « الله يتوفي الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى » (الزمر ٤٢) « الذي جعل لكم الارض مهاداً وسلك فيها سبلا وانزل من السماء ماءاً فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى • كلوا وارعوا انعامكم •• » ( طه ٥٣ ــ ٥٤ ) « ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (الزمن ٥٢) « أو لم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (النحل ٧٩) •

ولا تقتصر آيات الله على مظاهر خلقه في الكون فحسب بل تشمل ايضاً أحداث التاريخ وما أصاب الامم الغابرة « أو لم يَهد لَهُم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لآيات أفلا يسمعون » (السجدة ٢٦) • وهكذا كان لسبأ في مساكنهم آية (سبأ ١٥) ولزكريا وعيسى آية (آل عمران ٤١ ، مريم ١٠ ، الانبياء ٩١ ، المؤمنون ٥٠) وفي يوسف واخوته آية للسائلين (يوسف ٧) وفي اغواء ابليس للناس (الشعراء ١٧٤) وقصة نوح (الشعراء ١٢١ ، المؤمنون ٣٠ ، العنكبوت ١٥) وثمود (الشعراء ١٥٨ ، الاعراف ٦٤ و١٠١) ولوط (الشعراء ١٧٤ ، النحل ٥٢ ، الحجر ٧٥) وابراهيم (العنكبوت ٢٤) •

**الرسول بشر :**

وقد اكد القرآن الكريم ان الرسول بشر اوحي اليه كما اوحي الى الذين من قبله من الرسل ، وانه لا يستطيع أن يتجاوز في دعوته ما يأمره

تعالى به وما يوحي اليه « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم إله واحد » الكهف ١١٠ ، فصلت ٦) « قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا » (الاسراء ٩٣) «قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الي وما أنا الا نذير » (الاحقاف ٩) « وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ( الانبياء ٧ ، يوسف ١٠٩ ، النحل ٤٣) « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » ( غافر ١٥ ) « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون » (الانعام ٥٠) « وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين » (العنكبوت ٥٠) « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون • قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى للمسلمين » (النحل ١٠١ - ١٠٢) « انه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون • ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين • ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين » (الحاقة ٤٠ - ٤٧) « ويقولون لو انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين » (يونس ٢٠) « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم • قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون» (يونس ١٥ - ١٦) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم يستجيبوا لكم

فاعلموا انما انزل بعلم الله وأنْ لا اله الا الله فهل أنتم مسلمون » (هود ١٤) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (يونس ٣٨) «واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قـل انما اتبع ما يوحى الي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقـوم يؤمنون » (الاعراف ٢٠٣) « ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد » (الرعد ٧) •

**رسول الله :**

ان الله تعالى يرسل رسالاته الى من يصطفيهم من الناس ويجعلهـــم رسلاً وأنبياء ليبلغوها الى الناس وان محمداً خاتم النبيين وقد اصطفاه الله ليبلغ رسالته للناس « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (التوبة ٣٣ ، الفتح ٢٢ ، الصف ٩) • وقـد تكرر ورود « أرسلناك » في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن ، « وأرسلنا الرسل » اثنـين واربعين مرة ، « وارسال الرسول » أكثر من مائتي مرة •

وعلى الرسول أن يبلغ هذه الرسالة « يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك » (المائدة ٦٧) « وما على الرسول الا البـلاغ المبين » (النور ٥٤ ، العنكبوب ١٨ ، التغابن ١٢ ، انظر ايضاً آل عمران ٢٠ ، المائدة ٩٢ و٩٩ ، الرعد ٤٠ النحل ٨٢ ، يس ١٧ ، الشورى ٤٨) •

وهذه الرسالة هي تذكرة « كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره » (المدثر ٥٥ ، عبس ٢٢) وعلى الرسول أن يذكر (انظـــر الغاشية ٢١ ، الاعلى ٩ الطور ٢٩ ، الذاريات ٥٥ ، ق٤٥) فهو مذكر « فذكر فانما أنت مذكر » (الغاشية ٢١) وقد ارسل ايضاً بشيراً بالجنة ونذيرا بالنـار « وما أرسلناك الا مبشراً ونذيرا » (الاسراء ١٠٥ ، الفرقان ٥٦) « انا أرسلناك بالحـــق بشيراً ونذيرا (البقرة ١١٩ ، انظر ايضا المائدة ١٩ ،الاعراف ١٨٨ ، سبأ ، فصلت ٤) « كما ارسل شاهداً عليهم » (الاحزاب ٤٥ ، الفتح ٨) « وما نرسل

المرسلين الا مبشرين ومنذرين » (البقرة ٢١٣ ، النساء ١٦٥ ، الانعام ٤٨ ، الـكهف ٤٦) .

**تذكير بالامم الاخرى :**

وقد ذكرهم بما أحاق بالامم الاخرى ( أو لم يسـيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قـوة وآثاراً في الارض فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » (غافر ٢١ و٢٧ ، انظر يوسف ١٠٩) . وفي ذكر قصص الامم الاخرى ايضـاً تشجيع للرسول وتقديم الموعظة والذكرى « وكلا نقص عليك من انبـاء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (هود ١٢٠) « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (الاعراف ١٧٦) « وتلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هـذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » (هود ٤٩) .

ان هذه القصص هي أحسن القصص (يوسف ٣) فيها نبأهم بالحق (الـكهف ١٣) وفي قصصهم عبرة لاولى الالباب (يوسف ١١) ولا ريب ان الانبياء لم يذكروا جميعا « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لـم نقصص » (غافر ٨٧ انظر ايضا النساء ١٦٤) .

تتكرر قصة كل نبي في بضعة أماكن من القرآن وتؤكد بأن الانبيـاء بشر اختارهم الله لتبليغ رسالاته ، وانهم لاقوا العنت ، فقد كذبهم قومهـم وسخروا منهم وقالوا لهم ما يقوله المشركون للرسول « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » (فصلت ٤٢) ولـكن الحق ينتصر أخـيراً ويتـدمر الكافرون المكابرون في هذه الدنيا وينتصر الانبياء ويعلو الحق رغم ما يلاقيه من مصاعب .

ولقد تكرر في القرآن ذكر قصة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وعاد

وثمود ولوط وسليمان وداود ويونس وأيوب وزكريا كما ذكر اسحاق ويعقوب واسماعيل وذو الكفل والياس واليسع وشعيب ؛ وقصصهم تتكرر بصورة خاصة في سورة الاعراف وهود وابراهيم والشعراء والانبياء والحج والفرقان والنحل والعنكبوت والصافات وص وغافر وفصلت وق والذرايات والحاقة حيث يرد في كل من هذه السور قصة عدد من الانبياء[١] .

**عيب آلهة المشركين :-**

ثم نزلت آيات تعيب آلهتهم التي يعبدونها من دون الله وتنعتها بشتى النعوت « ايشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصراً ولا انفسهم ينصرون . وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين . ألهم ارجل يمشون بها أم لهم ايد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون » (الاعراف ١٩١ - ١٩٧) « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » (النحل ٢٠ - ٢١) « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا » (فاطر ٤٠ انظر ايضا الاحقاف ٤ - ٥) « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » (الفرقان ٣) « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون

---

(١) للدكتور خلف الله رسالة ( الفن القصصي في القرآن ) وفيها بحث وتحليل لما ورد في القرآن من قصص .

في ضلال مبين » (لقمان ١١) « يا أيها الناس ضـــرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهـــم الذباب شئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطـــالب والمطـلوب » ( الحج ٧٣ ) « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ٠ لا يستطيعون نصرهم وهـم لهم جند محضرون » ( يسين ٧٤ - ٧٥ ) « قل من رب السموات والارض قل الله قل افأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضراً قـل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهـــو الواحد القهار » (الرعد ١٦) « قل اندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على اعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى آئتنـا قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » (الانعام ٧١) « له دعوة الحق والذين يدعون من دونـــه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغـــه وما دعاء الكافرين الا في ضلال » (الرعد ١٤) « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون » ( الزمر ٣٨ ) « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضـــر عنكـم ولا تحويلا » (الاسراء ٥٦) « ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهـــم وكان الكافر على ربه ظهيرا » (الفرقان ٥٥) « ويعبدون من دون مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (يونس ١٨) « ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئاً ولا يستطيعون » (النحل ٧٢) « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ٠ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو ســـمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيــامة يكفـرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » (فاطر ١٣) « قل ادعو الذين زعمتم مـن دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من

شرك وما له منهم من ظهير » (سبأ ٢٢) « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون » (الزخرف ٨٦) « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون » (الزمر ٤٣) « والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير » (غافر ٢٠) .

« وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » (يونس ٦٦) « ويعبدون من دون الله ما لم ينزل سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير » (الحج ٧١) « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذ بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (العنكبوت ٤١) « وقل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » (القصص ٦٤) « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلا أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا » (الفرقان ١٨) «ان هي الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (النجم ٢٣) .

**مهاجمة المشركين :**

ولم تقتصر الآيات على تسفيه آلهتهم بل وصفتهم بأوصاف شديدة « انكم وما تعبدون من دون الله حَطَبُ جهنم أنتم لها واردون » (الانبياء ٩٨) « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة » (المدثر ٤٩ ـ ٥١) « أم تحسب ان اكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » (الفرقان ٤٤) « انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سدا

فاغشيناهم فهم لا يبصرون • وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فهم لا يؤمنون » ( يس ٨ ـ ١٠) « ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » (الاسراء ٩٧) « ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون • ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون (يونس ٤٢ ـ ٤٣) « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين • وما انت بهادي العمى عن ضلالاتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ( النمل ٨٠ ـ ٨١ ) « من يضلل الله فلا هادي له ونذرهم في طغيانهم يعمهون » (الاعراف ١٨٦) « من كفر بالله بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (النحل ١٠٦) « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الاولين » (الانعام ٢٥) •

لقد أطلق عليهم المشركون والكافرون والضالون والمجرمون والفاسقون والآثمون وغير ذلك من أوصاف الذم ، ووصف مصيرهم في النار وعذابهم فيها بأوصاف مريعة •

**مكائد المشركين :**

ويشير القرآن الى المؤامرات والمكائد التي كانوا يقومون بها « أم ابرموا أمراً فانا مبرمون • أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون » (الزخرف ٧٩ ـ ٨٠) « انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين امهلهم رويدا » (الطارق ١٥ ـ ١٨) « أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون » (الطور ٤٢) « يوم لا يغني كيدهم شيئا ولا هم ينصرون » (الطور ٤٦) « لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا

هل هذا الا بشر مثلكم » (الانبياء ٣) « نحن أعلم بما يستمعون اليك اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلاً مسحورا » (الاسراء ٤٣) غير أنه ليست لدينا تفاصيل عن هذه المؤامرات •

**تهديد الرسول :**

ويظهر ان المشركين قاموا بمحاولات في تهديده واقناعه للعدول عن الدعوة الى الوحدانية فأمره تعالى ان يثبت لها « ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد » (الزمر ٣٦) « قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم قل اني امرت أن أكون أول من أسلم ولا أكونن من المشركين • قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم • من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك هو الفوز المبين • وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير » (الانعام ١٤ ـ ١٧) « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون • ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت لَيَحبطَنَّ عملك ولتكونن من الخاسرين • بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » (الزمر ٦٤ ـ ٦٦) « ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون • انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين » (الجاثية ١٨ ـ ١٩) « فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم • الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » (الشورى ١٥) ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (هود ١١٣) « قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وامرت أن أسلم لرب العالمين » (غافر ٦٦) « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين • وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين • ولا يصدنك عن

آيات الله بعد اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين • ولا تدع مع الله الهاً آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » (القصص ٨٥ ـ ٨٨) « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا » (الانسان ٢٤) « لا تجعل مع الله الهاً آخر فتقعد مذموماً مدحورا » (الاسراء ٢٢) « فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » (هود ١٠٩) « قل اني امرت أن أعبد الله مخلصا له الدين • وامرت أن أكون أول المسلمين • قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم • قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه • قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين » (الزمر ١١ ـ ١٥) « قل انما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا • قل اني لا أملك لـكم ضراً ولا رشدا • قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا • الا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا ••• قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا » (الجن ٢٠ ـ ٢٥) •

« وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم • ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد » (الحج ٥٢ ـ ٥٣) « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » (فصلت ٣٦) « وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلا • ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا • اذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات

ثم لا تجد لك علينا نصيرا ، وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا • سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » (الاسراء ٧٣ ـ ٧٧) •

ويروي ابن اسحق[١] والواقدي[٢] ان آية « وان كادوا ليفتنونك » نزلت بعد قصة الغرانيق التي تتلخص بأنه لما نزلت آية « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » (النجم ١٠ ـ ٢١) اضاف الرسول من عنده « تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى » ففرح القرشيون وسالموا الرسول وسمع المهاجرون المسلمون في الحبشة فعادوا ، ولكن نزلت هذه الآية وآية « وما ارسلنا قبلك من رسول ••• » التي ذكرناها فمحت هذه الجملة التي هي من اغواء الشيطان ، وظل الرسول متمسكاً بالمبدأ الاساسي للدعوة وهو الوحدانية • وجدير بالملاحظة ان هذه المعبودات لم تكن في مكة ، وان اللات ومناة لم تكن آلهة قريش المقربة كما ان الجملة المقول اضافتها لا تتسق في المعنى مع الآية التي بعدها « ألكم الذكر وله الانثى » ولا يمكن أن تكون بمجموعها مما يرضي المشركين •

**الصبر :**

وقد أمر تعالى الرسول بالصبر والثبات « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك » (طه ١٣٠ ، ق ٣٩) « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار فهل يهلك الا القوم الفاسقون » ( الاحقاف ٣٥ ) « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الأيد انه أواب » (ص ١٧) « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا » (الانسان ٢٤) «واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم » (الطور ٤٨) •

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٦ •
(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣٧ •

**المقاطعـــة :**

كما أمره تعالى بمقاطعتهم نظراً لعنفهم وعدم جدوى المحاولات معهم « قل يا أيها الـكافرون • لا أعبد ما تعبدون • ولا أنتم عابدون ما أعبد • ولا أنا عابد ما عبدتم• ولا أنتم عابدون ما أعبد • لـكم دينكم ولي دين » (الكافرون ١ ـ ٦) « قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه » (الزمر ١٤) « فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولـكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » (الشورى ١٥) « واذا رأيت الذين يخوضـون في آياتنا فاعرض عنهـم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (الانعام ٦٨) « الذين يتخذون الـكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا • وقد نزل عليكم في الـكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم اذاً مثلهم » (النساء ١٣٩ ـ ١٣٤٠) « اتبع ما اوحي اليك من ربك لا اله الا هو واعرضَ عن المشركين • ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل » (الانعام ١٠٦ ـ ١٠٧ ) « فتول عنهم فما أنت بملوم • وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (الذاريات ٥٤ ـ ٥٥) « وان كذبوك فقل لي عملي ولـكم عملـكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون » (يونس ٤١) « انا أنزلنا عليك الـكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليهـا وما أنت عليهم بوكيل » (الزمر ٤١) « فان أعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » (الشورى ٤٨) « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لـكل امة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبؤهم بمـا كانوا

يعملون » (الانعام ١٠٨) « فتول عنهم حتى حين • وابصرهم فسوف يبصرون » (الصافات ١٧٤ ـ ١٧٥) ويظهر ان الاضطهاد على المسلمين كان شديدا « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله • ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » (الزمر ٥٣) •

---

# الفصل العشرون

# السابقون الاولون في الاسلام

**دعوة أهل مكة :**

بعد مجيء الوحي والأمر بتبليغ الرسالة ونزول الآيات الاولى ، آمن بالرسول عدد من أهل بيته والمقربين اليه ، ثم أمره تعالى أن ينذر الناس ويبدأ بعشيرته والمقربين اليه « وانذر عشيرتك الاقربين » (الشعراء ٢١٤) « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » (الشورى ٢٣) ؛ كما أمره أن ينذر قومه « وانه لذكر لك ولقومك » (الزخرف ٤٤) وأن ينذر أهل مكة « لتنذر ام القرى ومن حولها » (الانعام ٩٢ ، الشورى ٧) • وعلى هذا نزل القرآن باللغة العربية وهي لغة أهل مكة والحجاز والجزيرة « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (ابراهيم ٤) « لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (الشعراء ١٩٥) •

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته بانذار عشيرته الاقربين ، اذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية ، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته • كما ان القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص ، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير ؛ فجلبها الى حضيرة الاسلام لابد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل • ولا يخفى ان نزول القرآن باللغة العربية يساعد على تفهم الناس له •

على ان هذا لا يعني ان رسالة الاسلام كانت في أدوارها الاولى محدودة بقريش ؛ لان الاسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش كخطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية • والواقع ان كثيرا من الآيات المكية

كانت تنص على ان القرآن « ما هو الا ذكر للعالمين » (هود ١١٤ ، الأنعام ٩٠ ، التكوير ٢٧ ، القلم ٥٢) ، الامر الذي يدل على ان فكرة الدعـوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر .

**علاقاته مع العشائر :**

ومما يجدر ذكره ان نظام الزواج في مكة لم يكن مقتصرا على داخل العشيرة بل كان الزواج خارج العشيرة شائعا أيضا ، مما ساعد على ربط الرسول بصلة القرابة مع كافة العشائر . وفي تفسير آية « قل لا اسألـكم عليه اجراً الا المودة في القربى » يروي الطبري عن ابن عباس انه لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله وبينهم قرابة[1] .

والواقع اننا اذا اعتبرنا عشيرته هم من تحـدر من عبدالمطلب جـده ووهب جد امه : واقتصرنا على ذلك ، وجـدنا ان لعشيرته علاقات زواج بكافة عشائر مكة وبكثير من العشائر القاطنة خارجها .

فقد كانت ابنتاه رقية وكلثوم عند عتبة وعتيبة ابنا عمه ابي لهب قبل ان يفرق بينهما الاسلام[2] ؛ وكانت ابنته فاطمة عند علي ابن عمه ابي طالب كما ان معتب ابن عمه ابي لهب لهم تزوج من فاختة ابنة عمه المقوم ، بعد أن طلقها زوجها الاول مسعود الثقفي ؛ ثم تزوجها أبو سفيان ابن عمـه الحارث بعد انفصالها عن معتب . وتزوج ربيعة ابن عمه الحارث من أم الحكم بنت عمه الزبير ؛ وتزوجت اميمة بنت عمه العباس من العباس بن عتبة ابن عمه ابي لهب .

---

(١) تفسير الطبري : ج ٢٥ ص ١٥ . البخاري : كتاب المناقب ١ . ابن حنبل ج ١ ص ٢٢٩ ، ٢٨٦ .

(٢) عن زواج بنات الرسول بولدي ابي لهب وابي العاص انظر سيرة ابن هشـام : ج ٢ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ، ٣٠٢ نسب قريش ص ٢٢ ـ ٢٣ الطبري : ج ٢ ص ٢٩٠ ج ١٣ ص ٦٥ المحبر : ص ٥٣ المعارف : ص ٦٢ وعن زواج زينب انظر أيضا ابن حزم جمهرة الانساب ص ١٤ أما عن علاقات الرسول النسبية فانظر عنها نسب قريش وخاصة ص ١٧ ـ ٢١ المحبر : ص ٦٢ ـ المعارف : ص ٥١ ـ ٦٢ .

أما علاقته مع بني عبد شمس فلم تكن قليلة ، فقد كانت زينب بنت الرسول زوجة ابن خالتها ابي العاص بن الربيع بن وائل ؛ ورقية زوجة عثمان بن عفان بعد انفصالها من عتبة ؛ وكلثوم تزوجها عثمان أيضا بعد انفصالها عن عتيبة ووفاة اختها رقية ؛ وعمته ام حكيم بنت عبدالمطلب عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ؛ واروى ابنة عمته أم حكيم زوجة عفان بن أبي العاص ، ثم زوجة عقبة بن ابي معيط • كما ان زينب بنت فاطمة بنت عمته اروى تزوجت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس ؛ وتزوجت ابنتها كبشة من عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بعد مسيلمة الكذاب • وتزوجت ام جميل بنت حرب بن امية ابن عبد شمس من عمه أبي لهب • وتزوجت هند بنت أبي سفيان من الحارث بن نوفل بن عمه الحارث بن عبدالمطلب •

فأما علاقته مع بني عبدالدار فوثيقة أيضا فان جدته لأمه هي برة بنت عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصي ؛ وعمته أروى خلف عليها بعد عمير ، كلدة بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ، كما ان فاطمة ابنة عمته أروى تزوجت ارطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ، وحمنة ابنة عمته اروى تزوجها مصعب بن عمير بن عبد مناف بن عبدالدار •

واما مع بني عبد بن قصي فقد كانت عمته اروى (وفي رواية السكري صفية ) عند عمير بن وهب بن عبد بن قصي ، كما ان ام جدته هي تخمر بنت عبد بن قصي •

أما مع بني مخزوم فقد كانت أم أبيه فاطمة بنت عمرة بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ وعمته عاتكة عند أبي اميمة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، وعمته برة عند عبدالاسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو ابن مخزوم ؛ وام حبيب بنت عمه العباس كانت عند الاسود بن سفيان بن عبدالاسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ؛ وام هانيء بنت عمه

أبي طالب كانت عند هبيرة، بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ وامامة بنت عمه الحمزة عند سلمة بن ابي سلمة المخزومي •

وجدير بالذكر ان عتيق بن عائذ بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم هو احد أزواج خديجة ، وهو أبو هند التي هي اخت أولاده ؛ كما ان زينب بنت مصعب ، وامها ابنة عمة الرسول ، كانت عند عبدالله بن عبدالله بن أبي امية بن المغيرة بن عبدالله بن عمير بن مخزوم •

اما علاقته ببني زهرة فتتجلى في ان امه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وان هالة بنت اهيب بن عبد مناف بن زهرة هي زوجة جده عبدالمطلب وام عدد من اعمامه ؛ وان عبدالرحمن بن الاسود بن عبد يغوث الزهري تزوج ضباعة ، بنت عمه الزبير ، بعد المقداد ، وعبدالرحمن بن عوف تزوج حبيبة بنت عمته اميمة •

اما مع بني عبدالعزى ، فان منها زوجته خديجة بنت خويلد بن اسد ابن عبدالعزي ، وعمته صفية تزوجها العوام بن خويلد بن اسد بن عبدالعزى ، وعمته الثانية ام حبيب تزوجت خالد بن حزام •

اما مع بني تيم بن مرة فان حمنة بنت عمته اروى ، تزوجها طلحة بن عبدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم •

كما ان اروى بنت عمه الحارث تزوجت ابا وداعة بن هبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم •

والعلاقة مع اسد بن خزيمة تظهر في ان عمته اميمة تزوجت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم سن دودان بن اسد بن خزيمة •

واما حسل فان عمته برة تزوجت ، بعد عبدالاسد ، من ابي رهم بن عبدالعزى بن أبي قيس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل •

اما علاقته مع بني عبد بن حسل فقد جاءت من خديجة التي كانت

امها فاطمة بنت زائدة بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ؛ وام فاطمة هي هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص •

اما مع خزاعة فقد كانت صلته عن طريق زوجة عبدالمطلب وام بعض إعمام الرسول لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن خاطر بن حبشية بن سلول الخزاعي •

وهو يتصل بهذيل عن طريق اميمة بنت مالك بن غنم بن حنش وهي جدة امه ، وعن طريق أحد نساء عمه العباس •

اما مع بني هلال بن عامر فصلتـه عن طريق احدى زوجات عمـه العباس وهي لبابة بنت الحارث •

اما ثقيف : فقد كانت ام عمرو ابنة عمه المقوم عند مسعود بن معتب الثقفي ، وخالدة ابنة عمه أبي لهب عند عثمان بن أبي العاص •

واما هوازن : فقد كانت اروى بنت عمـه المقوم عنـد أبي مسروح الحارث بن يعمر ؛ وصفية بنت عمه العباس عند عبدالله بن أبي مسروح كما ان احدى زوجات جده هي صفية بنت جندب بن حجير بن رئاب بن سواءة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن •

ومع سليم عن طريق عزة ابنة عمه ابي لهب التي كانت عند اوفى بن حكيم بن امية السلمي •

ومع بني تميم عن طريق نباش بن زرارة من بني اسيد بن عمرو بن تميم وهو زوج خديجة وأبو هالة أخت أولاده •

ومع بهراء عن طريق المقداد بن عمرو البهراني زوج ضباعة بنت عمه الزبير •

ومع كليب عن طريق دحية بن خليفة الذي تزوج عمته درة •

ومع النمر بن قاسط عن طريق نتيلة بنت جناب التي كانت زوجة عبدالمطلب وأم بعض أعمامه •

أما مع الازد ، فقد كانت هند بنت عمه المقوم عند ابي عمرة بن عمرو من بني النجار •

ان هذه العلاقات النسبية مع مختلف العشائر القرشية ، ومع القبائل التي كانت تقيم في اطراف مكة ضمنت للرسول الحماية من الاعتداءات ، في ذلك المجتمع القبلي الذي يستلزم نصرة العشيرة لافرادها وحمايتهم من الاعتداء . والواقع انه رغم خطر دعوته على الكفار الا أنه لم يجرأ أحد على الاعتداء على حياته ، لأن أبا طالب كان يحميه ، كما ان من أهم أسباب اعتناق عمه الحمزة للاسلام هو ما رآه من تطاول أبي جهل على الرسول(١) .

ولم تقتصر هده الحماية على الرسول فقط ، بل عمت كل من تبعه ودان بدعوته ، والواقع ان الاعتداءات كانت في الغالب تقع على المستضعفين من العبيد أو ممن لا عشائر لهم .

**حرم مكة :**

ثم ان الدعوة الاسلامية قامت في مكة وهي حرم آمن يحمي من فيه من الاعتداء ، ولا ينزل فيمن يبث الدعوة أي عقاب رسمي ، ولا توجد فيها هيئة دينية تبت في الدعوة الى أي دين جديد ، كما انه لا توجد محكمة تحاكم من يبث الدعوة ، ولا سلطة تنفيذية تطبق أحكام العقوبات(٢) . لذلك فبالرغم من الموقف العدائي الذي وقفه المشركون عامة ، والمتنفذون خاصة ، فاننا لا نسمع في الاخبار بذكر لأية محكمة ألفت لمحاكمته ، أو بقرار انزال عقوبة فيه أو في المسلمين . فالمعارضة التي قامت ضده وضد الاسلام هي معارضة فردية أو شعبية لا معارضة رسمية ، ان جاز لنا استعمال هذه التعابير الحديثة .

ان هذه الحرية والحماية التي كان يتمتع بها الرسول والمسلمون من أوضح مظاهرها انهم كانوا يصلون عند الكعبة علناً(٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ .
(٢) أنظر ص ١٩٦ ـ ١٩٩ .
(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٦٥ . الطبري : ج ٢ ص ٢١٢ . ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٩٣ .

**السـرية :**

ثم ان الرسول كان يبث دعوته في السنوات الثلاث الاولى بصورة سرية ، ولما أعلن الدعوة ، كان يعقد الاجتماعات في دار الأرقم بن أبي الأرقم[١] على الصفا بصورة خاصة وشبه سرية ، وقد ساعدهم ذلك التداول والتحدث ومناقشة أحوال المشركين وعباداتهم ونظمهم بحرية تامة وفي مأمن من الاذى والاعتراض •

**خلق الرسول :**

وينبغي ألا يغرب عن بالنا أثر شخصية الرسول ، وقوة عقيدته وصبره وثباته وسمو نفسه ومتانة خلقه مما كان ضامناً لاستمرار الدعوة رغم مختلف وسائل الوعد والوعيد التي اتخذت ضده • وقد وصف القرآن الكريم أخلاق الرسول بعدة آيات « وانك لعلى خلق عظيم » (القلم ٤) « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ( آل عمران ١٥٩ ) « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين • فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » (الشعراء ٢١٥ ـ ٢١٦) « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (فصلت ٣٤) « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين » (المؤمنون ٩٧) « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (النحل ١٢٥) •

**السابقون الاولون :**

تجمع الروايات الاسلامية على أن خديجة بنت خويلد زوجة الرسول هي أول من آمن به ، ولكنها تختلف اختلافا كبيرا فيمن تلاها في اعتناق الاسلام من الرجال ويكاد يدور خلافهم حول ثلاثة أشخاص هم علي بن

(١) انظر عن دار الأرقم ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٧٤ • الازرقي : ج ٢ ص ٢١٠ •

أبي طالب ، ابن عم الرسول وزيد بن حارثة ربيبه ، وأبو بكر الصديق رفيقه[١] ؛ ومن الصعب البت في ترتيب اسلام هؤلاء الثلاثة الذين كانوا السابقين الأولين ، وكلهم من أهل بيته وأشد المقربين اليه .

وقد تلا هؤلاء عدد ممن آمن بالرسول خلال الفترة التي كانت فيها الدعوة سرية ، وقد ذكر ابن اسحق أسماءهم وهم جعفر بن أبي طالب (بني هاشم) عبيدة بن الحرث (المطلب) عثمان بن عفان وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وخالد بن سعيد بن العاص (عبد شمس) عبد بن جحش وأبو أحمد بن جحش (حلفاء بني عبد شمس) الزبير بن العوام (أسد بن عبد العزى) عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعمير بن أبي وقاص والمطلب بن أزهر (زهرة) وخباب بن الارت وعبدالله بن مسعود (حلفاء زهرة) وأبو سلمة والارقم بن أبي الارقم وعياش بن أبي ربيعة (مخزوم) وعمار بن ياسر (حليف بني مخزوم) ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ونعيم بن عبدالله النحام (عدي) وواقد بن عبدالله ، وخالد وعامر وأياس بني البكير (حلفاء عدي) وطلحة بن عبيدالله (تيم) وعامر بن فهيرة وصهيب ابن سنان (حلفاء تيم) وعثمان بن مضعون وأبناؤه قدامة وعبدالله والسائب ، وحاطب بن الحرث وأخوه حطاب بن الحرث (جمح) وخنيس بن حذافة (سهم) وأبو عبيدة بن الجراح (الحارث بن فهر) ومسعود القاري (القارة) وسليط بن عمرو وحاطب بن عمرو (عامر) .

يضاف الى هؤلاء عدد من النساء هن فاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد ابن زيد بن عمرو وأسماء وعائشة بنتا أبي بكر ، وأسماء زوجة عياش بن أبي ربيعة ، وأسماء زوجة جعفر بن أبي طالب ، وفاطمة زوجة حاطب بن الحرث ، وفكيهة زوجة حطاب بن الحرث ، ورملة زوجة المطلب بن ازهر ، وأمينة زوجة خالد بن سعيد بن العاص[٢] .

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢١١ ـ ٢١٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٤ .

يتبين من هذه القائمة ان المسلمين الاول أكثرهم من قريش ، ولكنهم لم يقتصروا على عشيرة واحدة ، بل كانوا موزعين على كافة العشائر تقريبا ، وهناك أفراد منفردون من بعض العشائر ، وأحيانا يسلم الرجل مع زوجته ، والراجح ان النساء اسلمن مع أزواجهن ، وان كان هناك رجال اسلموا وبقيت أسرهم أو زوجاتهم مشركات[١] .

وقلما تسلم أسرة كاملة . والواقع ان هذا ينطبق حتى على الدور المكي المتأخر فيروي ابن سعد انه ( كان ممن خرج في الهجرة الى المدينة فاوعبوا رجالهم ونساءهم وغلقوا دورهم فلم يبق منهم أحد الا خرج مهاجرا دار بني دودان ودار بني أبي البكير ودار بني مظعون[٢] ) .

والغالب ان اسلام معظمهم كان فرديا ، وان كان بعضهم قد اسلم للنبي بشكل جماعة ، فيروى ابن اسحاق ان أبا بكر اسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبيدالله[٣] . ويروي ابن سعد انه ( انطلق عثمان بن مضعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبدالرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبدالاسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله (ص) فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا جميعا في ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم[٤] ) .

ومع انه ليست لدينا معلومات وافية عن أحوال وأوضاع كل من هؤلاء السابقين قبل اسلامهم ، الا انهم ولاشك كانوا من أوسط قريش ، فخالد بن سعيد بن العاص كان أبوه من أغنى أهل مكة وأقواهم نفوذا[٥] ، كما ان

---

(١) المحبر : ص ٤٠٦ ، ٤٣٢ .
(٢) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٦٣ ، ص ٢٨٨ . ابن هشام ج ٢ ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٨ . الجاحظ : كتاب العثمانية ص ٣١ .
(٤) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٢٨٦ .
(٥) المحبر : ص ١٦٥ نسب قريش ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

أبا بكر وسعد بن أبي وقاص وطلحة وعبدالرحمن بن عوف كلهم تجار أو صناع من رجال الطبقة الوسطى[١] .

ومن بين السابقين في الاسلام عدد من الحلفاء ، وربما المعتقين ولعلهم هم المستضعفون الذين أشار اليهم الزهري بقوله ( فاستجاب الله من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به ) .

وقد عرف الواقدي المستضعفين بأنهم قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة ، فكانت قريش تعذبهم بالرمضاء بانصاف النهار ليرجعوا عن دينهم[٢] . ويروي الطبري عن ابن مسعود في تفسير آية « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (الانعام ٥٢) . ان بعض كفار قريش جاؤوا الى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب او ان ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا واطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا وتصديقنا له .. قال : وكانوا بلالاً وعماراً بن ياسر وسالما مولى أبي حذيفة وصبيحا مولى اسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود القاري وواقد بن عبدالله الحنظلي وعمرو ابن عبد عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد وأبو مرثد من غني حليف حمزة بن عبدالمطلب واشباههم من الحلفاء . ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » (الانعام ٥٣[٣]) .

**دوافع اعتناق الاسلام :**

ولابد لنا بعد أن عرضنا أسماء ومراكز المسلمين الاول في المجتمع

---

(١) المعارف : ص ٢٤٩ .

(٢) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٧٧ .

(٣) تفسير الطبري : ج ٧ ص ١٢٧ وانظر أيضا سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٢٠ .

المكي أن نسأل عن سبب اعتناقهم الاسلام في هذه الفترة المبكرة التي لم يكن مستقبل الاسلام المادي ونجاحه واضحاً • لا ريب انه لا يمكن قبول نظرية جرمه التي تقول بأنه استجاب له المستضعفون ، رغبة في التحرر ، والفقراء رغبة في الكسب ، نظرا لما فيه من ميل اشتراكي ، فان هذا الرأي ينقضه دراسة المسلمين الاول الذين كان اكثرهم من التجار ورجال الطبقة الوسطى وممن كانت لهم عشائر تحميهم وتدفع منهم • بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين في الاسلام لا ينهض دليلا على صحة هذا الرأي ، اذ ان هؤلاء نالوا كثيرا من الاضطهاد بسبب عقائدهم ، ومنوا بكثير من الآمال اذا تركوه ، فرفضوا وأصروا على التمسك بالدين الجديد ، مما يدل على ان دافع العقيدة هو الذي كان يدفعهم الى اعتناق الاسلام • والواقع ان الروايات اشارت بصراحة الى دوافع بعضهم فعثمان بن مضعون كان قبل ظهور الاسلام من الباحثين عن الدين ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل هو ابن الرجل الذي كان حنيفاً يبحث عن دين ابراهيم[1] ؛ وخالد بن سعيد ابن العاص اعتنق الاسلام لانه رأى نفسه في المنام على حافة هاوية من النار يدفعه اليها أبوه ويدفعه عنها رجل آخر لينقذه منها[2] ، ويمكن تفسير ذلك بانشغال عقله الباطن في الامور الدينية واعتناقه الاسلام لاعتقاده بأن فيه المنجى والمخلص ؟ أما عمر بن الخطاب الذي اسلم بعد هذه الفترة ، فقد اسلم لتأثره من سماعه آيات القرآن ومن رؤيته اخته تتأذى[3] ، وأما الحمزة عم الرسول ، وقد اسلم بعيد هذه الفترة أيضا ، فقد اعتنقه لما رأى من تطاول على ابن أخيه[4] •

ومن كل هذا نرى ان الدافع لاعتناق الاسلام ديني بالدرجة الاولى • يقول ابن اسحق : ثم دخل الناس في الاسلام ارسالاً من الرجال

---

(١) انظر ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ •
(٢) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ٦٤ •
(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٦٤ ، ٣٦٨ •
(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ •

والنساء حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتحدث به . ثم ان الله عز وجل أمر رسوله (ص) أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو اليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله (ص) أمره واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنوات فيما بلغني من مبعثه ثم قال الله له « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » (الحجر ٩٤) « وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » (الشعراء ٢١٦) .. فلما بادى رسول الله (ص) قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه فيما بلغني ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته ، الا من عصم الله تعالى منهم بالاسلام ، وهم قليل مستخفون وحدب على رسول الله (ص) عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله (ص) على أمر الله مظهراً لأمره ، لا يرده عنه شيء[١] .

ويؤيد ابن سعد أيضا ان الرسول كان يدعو أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً الى أن أمر بظهور الدعاء ، ثم يروي عن الزهري « فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكان اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه ان غلام بني عبدالمطلب ليكلم من السماء ، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فشنفوا لرسول الله (ص) عند ذلك وعادوه »[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦ .

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣٣ . أما عن عيب آلهتهم في القرآن فانظر ص ٣٢١ فما بعد .

# الفصل الواحد والعشرون

# مقاومة المشركين للدعوة الاسلامية

**دوافع المقاومة :**

يتبين مما ذكرناه فيما سبق ان الدعوة الاسلامية في الادوار الاولى لم تلق معارضة شديدة ، نظراً لسريتها وعدم التعرض لآلهة الشرك ، وان الآيات الاولى كانت تؤكد على عظمة الله وقدرته ووجوب تقواه وعبادته ، فهي لا تثير المشركين الذين كانوا يعبـدون الله • غير أنه بتقدم الاسـلام وازدياد وضوح معالم الدين الجديد وتتابع نزول الآيات التي تعيب آلهتهم ، بدأ المشركون يمتعضون ويناصبون الدعـوة الاسلامية والرسول العداء ، وأخذوا يؤذونه بمختلف الوسائل ، ولمختلف الدوافع •

**الدافع الديني :**

لقد رأينا ان الاسلام جاء يؤكد بالدرجة الاولى على عبادة اله واحد منزه ، ولا يقر بأي مظهر من مظاهر الشرك والوثنية ، ولا يمكن التوفيق بين ما جاء به وما كان يدين به القرشيون • فانتصار الاسلام كان يستلزم حتما ازالة المعتقدات والعبادات التي كان الناس قد ألفوها واعتادوا عليها • ان ديانة الشرك لم تكن لها فلسفة قوية تدافع عنها ، كما يظهر من محاجحة القرآن لهم ، حيث لا يظهر منها وجود فكرة حية واضحة عندهم ، كما لم تذكر آراء واضحة عن ديانتهم أو عن وجود رجال دين يتحمسون في الدفاع عن هذه الديانة • والواقع ان القرآن يذكر تردي ذلك الدين في قلوب الناس « وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا » (الانعام ٧٠) « الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (الاعراف ٥١) •

والواقع أن المشركين أقاموا تحاملهم على مبدأين أساسيين ، أحدهما التهجم على فكرة الوحدانية الخالصة والبعث وعلى شخصية الرسول ، والثاني هو ان دينهم قد ورثوه عن آبائهم .

ان مقاومة المشركين للاسلام ، رغم الجمود الظاهر لديانتهم يمكن تعليله بأن دينهم وان لم يكن يلعب دورا كبيرا ظاهرا في حياتهم اليومية ، الا أنه كان متغلغلاً في نفوسهم ومتعمقاً في اللاشعور فيهم ، فهم يعيشون فيه دون أن يفهموه أو يدركوه . كما أنه نظرا لطول أمد استقراره ، لم تكن هناك حاجة للتحدث به أو الدفاع عنه . ولكن الاسلام بنقده لدينهم كان تحديه موجهاً لا الى عقائدهم فحسب بل الى ذاتيتهم والى كيانهم الروحي فاندفعوا يدافعون عنه بقوة . ومما زاد في قوة هذه المقاومة روح المحافظة التي تتجلى عند البدو بصورة خاصة . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أثر روح المحافظة في المقاومة غير المفكرة التي واجهوا الاسلام بها . « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » (سبأ ٤٣) « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون . قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون » (الزخرف ٢٢ - ٢٤) « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » (لقمان ٢١) « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (البقرة ١٧٠ ، أنظر أيضا المائدة ١٠٤) « انهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين » (الصافات ٦٩ - ٧١) .

**الدعوة جديدة :**

ومما زاد في عنف مقاومتهم أن دعوة الرسول للوحدانية كانت جديدة عليهم فلم يكن قد أتاهم من قبله رسول « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم

غافلون » (يس ٦) « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » (السجدة ٣) وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير » (سبأ ٤٤) •

وبجانب هذا العامل النفسي فهناك عدة عوامل دفعت القرشيين لمقاومة الاسلام منها ان الاسلام جاء يدعو لعبادة اله واحد مطلق يمكن عبادته في أي مكان • فانتشاره سيؤدي حتماً الى تهديد مصالح كثيرين ممن كانت لهم علاقة ومصلحة بالدين القديم • واذا دانت مكة وأهلها بالدين الجديد فستزول مكانتهم عند المشركين من العرب وتقل حرمتهم ولا تبقى لهم المكانة السابقة « وقالوا أن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون • وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » (القصص ٥٧ ـ ٦٠) •

**الدوافع الاجتماعية :**

ثم ان الاسلام يهدد تكوين وتنظيم المجتمع القديم • اذ رغم ان الاسلام جاء في البداية يهدف دعوة دينية خالصة الا أن انتشاره كان لابد أن يؤدي الى نتائج اجتماعية وسياسية مهمة • فاتباع الدين الجديد لابد أن ينفصلوا عن الدين القديم وأتباعه ، ويكونوا فيما بينهم كتلة قائمة بذاتها ، تقوم على أسس جديدة وتتطلب من هؤلاء الاتباع أن يتعاونوا ويتناصروا فيما بينهم ، بصرف النظر عن القبيلة التي ينتمون اليها ؟ وأن يتحدوا لصد من يهددهم ممن لا يدين بدينهم أي أن يقفوا ضد مشركي مكة وكفارها • وهكذا تنشطر مكة الى شطرين : الاول جامد والثاني قابل للتوسع ، بل ان الانقسام سيمتد الى أعضاء الاسرة الواحدة • وقد أشار القرآن الى أزمات حدثت في بعض الأسر التي أسلم أبناؤها وظل بعض كبارها غير مسلمين أو بالعكس « الذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن اخرج وقد خلت القرون من

قبلي وهما يستغيثان الله ويلك ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الاولين » (الاحقاف ١٧) « ووصينا الانسان بوالديه حسناً وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فانبؤكم بما كنتم تعملون » (العنكبوت ٨ أنظر أيضا لقمان ١٥) كما روى ابن اسحق ان المشركين كلموا النبي وقالوا له « انك قد أتيت بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم » وكذلك قالوا لعمه أبي طالب عندما طلبوا منه أن يتدخل ويطلب من الرسول الكف عن الدعوة »[1] ٠

ويجدر بنا أن نلاحظ ان الاسلام يدعو الى تنظيم اجتماعي يختلف اختلافاً أساسياً عن التنظيم الذي كان قائما في الجزيرة ، وخاصة في مكة ٠ فهو يدعو الى الانسانية والرحمة والشفقة والعطف على الضعيف والصدق والاستقامة ٠ ويضع للتفاضل الاجتماعي مقاييس جديدة ، تقوم على أساس الاخلاق الفاضلة الصالحة بصرف النظر عن الثروة أو الجاه أو النسب ٠ فهي تناقض تماما ما كان سائدا في مكة من تفاخر بالانساب والآباء ومن تقدير للثروة والغنى والمظاهر الدنيوية ٠ فانتشار الاسلام كان من شأنه أن يؤثر في مركز المتنفذين والاغنياء فيخفض من مركزهم اذا لم تكن لهم صفات أخلاقية حميدة ويحل محلهم في المكانة العليا اناساً ربما كانوا من الفقراء أو ممن ليسوا من العشائر المكينة ٠

ولن يقتصر هذا التغير عليهم وحدهم في هذه الدنيا بل يمتد الى أجدادهم أيضا فقد لاحظنا في فصل سابق ان فكرة البعث واليوم الآخر أساسية في الاسلام ، وان الناس سيحاسبون فيها على ما كسبت ايديهم في هذه الدنيا وسيجزون بما كانوا يعملون فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره ومن عمل مثقال ذرة شراً يره ومن ثقلت موازينهم وكثرت أعمال الخير والبر عندهم فيذهبون الى الجنة ٠ اما من زادت أعمال الشر عندهم فيذهبون الى جهنم ؟

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٩ ، ٣١٣ ، ٣١٥ الطبري ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٣٠ تفسير الطبري ج ٧ ص ٢٠٧ ج ١٥ ص ١١٠ ٠

وان حساب يوم الآخرة لا يقتصر على الظواهر بل على الاعمال الحقيقية وانه سوف ينال الجميع حتى من كان قبل الاسلام • ولما كان آباء المشركين وأجدادهم كفاراً فسيكون مصيرهم النار • وقد تكرر في القرآن ورود انكار المشركين المبعث كما تكرر التأكيد عليه كثيرا بشكل يوحي بأنها من أهم الافكار الاسلامية التي عارضوها (أنظر الانعام ٢٩ ، الرعد ٥ ، النحل ٢٨ ، الاسراء ٤٩ و٩٨ ، المؤمنون ٨٢ - ٨٣ ، الفرقان ١١ ، النمل ٦٧ - ٦٨ ، سبأ ٣ و٧ ، يسن ١٦ - ١٧ ، الجاثية ٢٤ ، ق ١ - ٣ ، التغابن ٧ ، النازعات ١٠ - ١٢ ، القيامة ٣ - ٤ و٣٦ - ٤٠ ، أنظر أيضا فصلت ٦ ، الذاريات ١٠ - ١٢) •

**الدوافع السياسية :**

ثم ان المجتمع الجديد لا يدين بالطاعة الى الرؤساء القدماء ، بل يرتبط بالرسول الذي تأتي بواسطته أحكام الاسلام • والقرآن يأمر باطاعة الرسول « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » (الاحزاب ٧١) « قل اطيعوا الله ورسوله فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » (آل عمران ٣٢) « واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » (آل عمران ١٣٢) « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » (النساء ١٣) « ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (النساء ٦٩) « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا » (النساء ٨٠) « وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » (النساء ٦٤) « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » (التوبة ٧١) • ومع ان أغلب هذه الآيات مدنية ، الا انها توضح ما ستؤدي اليه دعوة الاسلام من منح الرسول مركزا أساسيا قوياً يطغي على الباقين • ومع ان الرسول كان من مظاهر

أخلاقه الدماثة والتواضع والرقة والتسامح والعطف ، وان القرآن أكد انه مذكر ومنذر وبشير لا يبغي أية منفعة مادية من دعوته « قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى » (الشورى ٢٣) « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » (ص ٨٦) « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان اجري الا على الله وهو على كل شيء شهيد » (سبأ ٤٧) « وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكرى للعالمين » ( يوسف ١٠٤ ) « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » (القلم ٤٦ ، الطور ٤٠) .

غير ان القرشيين أرتاعوا من هذه الدعوة فكرهوا أن ينزل الوحي على رجل منهم « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم » (ص ٤ ق ٢) « أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم ان أنذر الناس » (يونس) « أو نزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري » (ص ٨) « أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » (الاعراف ٦٣ و٦٩) « ابعث الله بشراً رسولا » (الاسراء ٩٤) « واذا رأوك ان يتخذوا منك الا هزوءا أهذا الذي بعث الله رسولا » (الفرقان ٤١) « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف ٣١) .

وينبغي ألا يفسر موقفهم بأنه انتقاص من مركز النبي فانه من أعلى الاسر الارستقراطية القرشية وفي القرآن شواهد على مركزه « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » (المؤمنون ٦٩) « وجاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم » (التوبة ١٢٨) . كل هذا يدل على حسن مركزه بين قريش . ولكنهم لم يقروا له لانه لم يكن من الزعماء السياسيين في مكة ، ولانه لم يأت معه بصفات خارقة . والواقع ان أشد المقاومة جاءته من الارستقراطية والزعماء السياسيين كما سنبين .

**الدعوة ليست اشتراكية :**

وقد ادعى بعض المستشرقين وخاصة كريمر[1] ان دعوة الرسول الاولى كانت احتجاجا على سوء توزيع الثروة ، وانها استهدفت اغاثة المنكوبين والضعفاء والفقراء ، وانها لذلك كان لها مظهر الاشتراكية . ومما اتخذوه من الادلة لتعزيز دعوتهم ان الصدقات ومساعدة الضعيف والفقير والحض على اطعام المسكين وتحرير العبيد وفك رقابهم قد اكد عليها منذ أوائل أدوار الدعوة الاسلامية . وكذلك التأكيد على حسن معاملة اليتامى والتشديد على من يظلمهم . وقد هدد الاغنياء الذين ينفقون ولا يعطون الفقراء ويكنزون الذهب والفضة ؛ يضاف الى ذلك ان الاغنياء كانوا من أشد المقاومين للاسلام ، وقد أشار القرآن الى عدد غير قليل من هؤلاء الذين قاوموا الاسلام وأوعدهم بالعقاب الشديد .

لقد كان كريمه متأثراً بالنظريات الاشتراكية التي سادت القرن التاسع عشر وأراد أن ينظر بهذا المنظار الى تاريخ الرسول ، وفي رأيه تطرف فمساعدة الضعيف والرقيق واجب انساني ضروري ولم يتطرف الاسلام فيه ليجعله قريبا من الاشتراكية الحديثة ، كلا فان الصدقات وسنفصل الكلام عنها في الجزء الثاني ، كانت أقل من أن نطفيء الرأسمالية أو تخلق الاشتراكية ، هذا الى ان الاسلام أقر جمع الثروة ولم يهاجمها اذا كانت آتية من طريق مشروع[2] كما ان كثيرا من المسلمين الاول كانوا انفسهم من الاغنياء والتجار[3] . ويلاحظ ان الاشتراكية مذهب اقتصادي أما الدين الاسلامي فهدفه بالدرجة الاولى روحي ديني وأما المسائل

(١) تجد بحث كريمر في كتابه محمد (بالالمانية) وتجد اشارة ونقد له في المقال القيم الذي كتبه بوهل عن الرسول في دائرة المعارف الاسلامية وفي كتاب وات ( محمد في مكة ) ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) أنظر كتابي عن ( التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ) الفصل التاسع .

(٣) المعارف ص ٢٤٩ .

الاقتصادية فكانت ثانوية بالنسبة لامور العقائد وخاصة في الادوار الاولى من الدعوة . كما ان أشد فكرة قاومها المشركون هي فكرة الآخرة . « اذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون » (الزمر ٤٦) « واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا » (الاسراء ٤٦) .

وفي القرآن آيات تدل على ان المسلمين الاول أغنياء « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وابقى » (الاعلى ٦ ـ ١٧) « كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حباً جماً » (الفجر ١٧ ـ ٣٠) « فلا اقتحم العقبه . وما ادراك ما العقبه . فك رقبه . او اطعام في يوم ذي مسغبه . يتيما ذا مقربه . أو مسكينا ذا متربه » (البلد ١١ ـ ١٧) .

**اساليب المقاومة :**

لقد اتخذ المشركون اساليب وطرقاً متعددة لمقاومة الرسول والدعوة . وقد اشار القرآن الى بعضها :

فقد اتهموه بأن ما جاء به لم يكن جديدا عليهم بل هو من اساطير الاولين (الانعام ٢٥ ، النحل ٢٤ ، المؤمنون ٨٣ ، النمل ٦٨ ، الاحقاف ١٧ ، القلم ١٥ ، المطففين ١٣) .

واتهموه بأن اعجمياً يلقنه اياها « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا » (الفرقان ٤ ـ ٥) « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين » (النحل ١٠٣) وانتقدوا الناسخ والمنسوخ « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » (النحل ١٠١) .

ثم انهم سخروا من الرسول وهزؤا به وبدعوته (الصافات ١٢ و١٤ ،

التوبة ٦٥ ، الانعام ٥ و١٠ ، هود ٨ ، النحل ٣٤ ، الشعراء ٦ ، الروم ١٠ ، يسين ٣٠ ، الزمر ٤٨ ، الزخرف ٧ ، الاحقاف ٢٦ ، الرعد ، الانبياء ٤١ ، الحجر ٩٥ ، الكهف ٥٦ و١٠٦ ، الفرقان ٤١ ، الجاثية ٩ و٣٥) .

واتهموه بأنه ساحر وان ما جاء به سحر (الانعام ٧ ، يونس ٧٦ ، هود ٧ ، النمل ١٣ ، سبأ ٤٣ ، الصافات ١٥ ، الزخرف ٣٠ ، الاحقاف ٧ ، الطور ١٥ ، القمر ٢ ، الصف ٦ ، المدثر ٢٤ ، ص ٤ ، الذاريات ٥٢ ، الاسراء ٤٧ ، الفرقان ٨) .

كما اتهموه بأنه مجنون ( الحجر ٦ ، الصافات ٣٦ ، القلم ٥١ ، المؤمنون ٢٥ و٧٠) وقد رد على هذه التهمة (الاعراف ١٨٤ ، سبأ ٤٦ ، الطور ٤٩ ، القلم ٢ ، التكوير ٢٢) .

واتهموه أيضا بأنه كذاب (ص ٤ ، القمر ٢٥ ، فاطر ٢٥ ، الحج ٤٢) وانه مفتر (الفرقان ٤ ، سبأ ٤٣ ، الاحقاف ٨ و١١ ، السجدة ٣ ، يونس ٣٨ ، هو ١٣ و٣٥ ، الانبياء ٥) .

ونسبوا اليه انه شاعر (الصافات ٣٦ ، الحاقة ٤٠ ، الانبياء ٥ ، الطور ٣٠) وكاهن (الطور ٢٩ ، الحاقة ٤٢) .

كما أخذوا على الرسول انه بشر مثلهم فلم يصدقوا بأن الرسول يمكن أن يكون بشرا (الانبياء ٣ ، المؤمنون ٢٤ و٣٣ ، الاسراء ٩٤ ، القمر ٢٤) كما طلبوا منه آية (الانعام ١٠٩ و٢٧٩ ، يونس ٢٠ ، الرعد ٧ و٢٧ ، الانبياء ٥ ، الشعراء ١٥) .

وطلبوا منه أن يأتي بالمعجزات « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنـة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » (الاسراء

٩٠ ـ ٩٤) « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا » (الفرقان ٧ ـ ٨) « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك أو ضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » (هود ١٢) .

كما قالوا له « إئت بقرآن غير هذا » (يونس ١٥) أو « لو نزل عليه القرآن جملة واحدة » (الفرقان ٣٢) وعندما ذكر القرآن آيات الله قالوا « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله » (الانعام ١٢٤) كما انهم عندما كانت تتلى عليهم آيات الله يقولون « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » (الانفال ٣١) . وادعوا بأنهم ما سمعوا بهذا في الملة الآخرة وان آباءهم لم يعرفوا ما جاء به النبي . وكانوا لا يسمعون ما يقول ويصدون عنها (الاسراء ٤٦ ، فصلت ٤ و٢٦ ، الاعراف ١٩٨ ، فاطر ١٤ ، النمل ٨٠ ، الروم ٥٢ ، المدثر ٤٩ ، الجاثية ٨ ، لقمان ٧) .

وكانوا يشكون فيما جاء به (هود ٦٢ ، و١١٠ ، ابراهيم ٩ ، الشورى ١٤ ، فصلت ٢٥ و٤٥) ويجحدون بآيات الله وينكرونها ويكفرون بها ومن ثم اطلق عليهم اسم الكافرين التي تتردد كثيرا في العصر المكي .

ويظهر أنهم استغربوا من كلمة الرحمن التي هي مرادف لاسم الله تعالى « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تامرنا وزادهم نفورا » (الفرقان ٦٠) « واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتهم وهم بذكر الرحمن كافرون » (الانبياء ٢٦) « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعون فله الاسماء الحسنى » (الاسراء ١١٠) « كذلك أرسلناك في امة قد خلت من قبلها امم لتتلوا عليهم الذي أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » (الرعد ٣٠) .

ثم انهم كانوا يسخرون من المسلمين « ان الذين أجرموا كانوا من

الذين آمنوا يضحكون • واذا مروا بهم يتغامزون • واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين • واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون » (المطففين ٢٩ ـ ٣٢) « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » (الحج ٧٢) •

# المقـــاومون

**اشارات القرآن :**

لم يرد في القــرآن من أسماء مقاومي النبي الا اسم عمه ابي لهب وزوجته حمالة الحطب ، وقد ذكرا في سورة قصيرة • ولـكن وردت في عدة آيات قرآنيــة اشارات الى اشخاص يدل ما نزل فيهم على انهم كانوا يقاومون الرسول ودعوته • ومع ان القرآن لم يذكر اسماءهم بصراحة ، الا ان كتب التاريخ والتفسير تذكر اسماءهم • فمن هذه الآيات « ذرني ومن خلقت وحيدا • وجعلت لـه مالا ممدودا • وبنين شهودا • ومهدت لـه تمهيدا • ثم يطمع ان أزيدَ • كلا انه كان لآياتنا عنيدا • سأرهقه صعودا • انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر ثم قُتـِلَ كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم ادبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر » (المدثر ١١ ـ ٢٥) « أفرأيت الذي تولى • وأعطى قليلا واكدى • أعنده علم الغيب فهو يرى • أم لم ينبأ بما في صحف موسى • وابراهيم الذي وفى • ألا تزر وازرة وزر اخرى • وان ليس للانسان الا ما سعى » (النجم ٣٣ ـ ٣٩) وقد نزلت هاتان الآيتان في الوليد بن المغيرة المخزومي[١] الذي أشار اليه القرشيون بقولهم « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف ٣١[٢]) •

« ويل لـكل همزة لمزة • الذي جمع مالا وعدده • أيحسب ان ماله

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٤ تفسير الطبري ج ٢٥ ص ٤٠ ج ٢٩ ص ٩٦ الاشتقاق ص ٩٤ •

(٢) تفسير الطبري ج ٢٥ ص ٤٠ •

اخلده كلا لينبذن في الحطمة » (الهمزة ١ ـ ٤) وقد نزلت في أمية بن خلف[1] .

« وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (يسين ٧٨ ـ ٧٩) « يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا » (الفرقان ٢٧ ـ ٢٩) . وقد نزلت هاتان الآيتان في ابي بن خلف[2] .

« أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا . اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » (مريم ٧٧ ـ ٨٠) « ويل لكل افاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » (الجاثية ٧ ـ ٩) « أرأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين » (الماعون ١ ـ ٣) . وقد نزلت هذه الآيات في العاص بن وائل[3] .

( ولا تطمع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . ان كان ذا مال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الأولين سنسمه على الخرطوم » (القلم ١٠ ـ ١٦) وقد نزلت في الاخنس بن شريق[4] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٩ ـ ٤٢٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ تفسير الطبري ج ١٧ ص ٦ ج ٢٣ ص ٢٠ الاشتقاق ص ٨٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٠ ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١١٦ تفسير الطبري ج ١٦ ص ٩١ الاشتقاق ص ٧٩ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٤ تفسير الطبري ج ٢٩ ص ١٤ ـ ١٥ .

« فلا صدق ولا صلى . ولـكن كذب وتولى . ثم ذهب الى اهلـه يتمطى اولى لك فاولى . ثم اولى لك فاولى » (القيامة ٣١ - ٣٥) « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا » (الانسان ٢٤) « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمـن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » (الانعام ١٢٢) . وقد نزلت هذه الآيات في أبي جهل[١] .

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » (الحج ٨ - ٩) « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلما وزورا . وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة واصيلا » (النور ٤ - ٥) وقد نزلت هاتان الآيتان في النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبدمناف بن عبدالدار بن قصي[٢]. ويروى عن ابن عباس انه قال نزل فيه ثمان آيات من القرآن ، وكل ما ذكر فيه من الاساطير من القرآن نزل فيه . ويقول ابن اسحاق انه « كان النضر ابن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بهـا أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله (ص) مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما اصاب من قبلهم من الامم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه ، اذا قام ثم قال انا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلم الي فأنا احدثكم احسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثا مني[٣] » .

وقد أشار القرآن الـكريم الى المستهزئين « انا كفيناك المتهزئين الذين

---

(١) تفسير الطبري ج ٢٩ ص ١٢٤ ، ١٣٨ ج ٨ ص ١٧ ج ٢٥ ص ٨٠ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٣ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٧ ص ١٨٤ ج ٩ ص ١٥١ ج ١٧ ص ٩٢ ج ١٨ ص ١٣٦ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٨٢ . تفسير الطبري : ج ١٨ ص ١٣٩ .

يجعلون من الله الاهاً آخر فسوف يعلمون » (النحل ٩٥ ـ ٩٦) كما أشار الى المقتسمين « كما انزلنا على المقتسمين • الذين جعلوا القرآن عضين » (النحل ٩٠ ـ ٩١) • والمستهزؤون هم فيما يروي ابن اسحق عن عروة بن الزبير خمسة نفر كانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبدالعزى ابن قصي الاسود بن المطلب بن زمعة •• ومن بني زهرة الاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة • ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة ابن عبدالله بن مخزوم • ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد بن سهم • ومن حزاعة الحرث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحرث بن عمرو بن ملكان[١] •

أما المقتسمون فيقول السكري « انهم سبعة عشر رجلا من قريش اقتسموا عقاب مكة ، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون عن رسول الله (ص) وهم على ما ذكر ابن الكلبي عن ابن عباس من بني عبد شمس ثلاثة نفر حنظلة بن ابي سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ، ومن بني مخزوم سبعة نفر أبو جهل ، والعاص ، وأبو قيس بن الوليد ، وقيس بن الفاكة ، وزهير بن أبي أمية ، والاسود بن عبدالاسد ، وصيفي بن السائب • ومن بني عبدالدار واحد هو النضر بن الحارث بن كلدة ، ومن بني سهم اثنان منبه ونبيه ابنا الحجاج • ومن بني جمح اثنان أمية بن خلف ، وأوس ابن مسير أخو أبي محذورة وهما من أنفس بني جمح[٢] ) •

وفي تفسير آية « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » (الانعام ١٠٨) يروي الطبري عن السدي انه « لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش انطلقوا بنا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهي عنا ابن أخيه ، فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه ،

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٥ • تفسير الطبري : ج ١٤ ص ٤٨ ـ ٥١ •

(٢) المحبر : ص ١٦٠ ـ ١٦١ •

فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والاسود ابن البختري وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب قالوا استأذن على ابي طالب . فأتى أبا طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك فأذن لهم فدخلوا عليه فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه والهه[1] ... » .

ويروي ابن اسحق عن ابن عباس في تفسير آية « وقالوا لن نؤمن .. » ان عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بني عبدالدار ، وأبا البختري أخا بني أسد ، والاسود بن المطلب ، وزمعة بن الاسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبدالله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين ، اجتمعوا ومن اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا اليك ليكلموك[2] ...

**رواية ابن سعد :**

وقد روى ابن سعد انه ( كان اهل العداوة والمباداة لرسول الله (ص) واصحابه الذين يطلبون الخصومة والجدل ابا جهل بن هشام ، وابا لهب ابن عبدالمطلب ، والاسود بن يغوث ، والحارث بن قيس بن عدي وهو ابن الغيطلة والغيطلة أمه ، والوليد بن المغيرة ، وأمية وأبي ابني خلف ، وابا قيس بن الفاكه بن المغيرة بن وائل ، والنظر بن الحارث ، ومنبه الحجاج ، وزهير بن ابي أمية ، والسائب بن صيفى بن عائذ ، والاسود بن عبدالاسد ،

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢١٩ . تفسير الطبري ج ٧ ص ٢٧ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ الطبري ج ٢ ص ٢١٨ تفسير الطبري ج ١٥ ص ١٠٧ ـ ١١٠ .

والعاصي بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هاشم ، وعقبة بن أبي معيط ، وابا الاصدي الهذلي ، والحكم بن أبي العاص ، وعدي بن الحمراء ، والذي كان تنتهي عداوة رسول الله اليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط • وكان عتبة وشيبة أبنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة ولكنهم لم يشخصوا بالنبي (ص) كانوا كنحو قريش قال ابن سعد ولم يسلم منهم أحد الا أبو سفيان والحكم(١) •

**من هم أهل العداوة :**

يتضمن ما أوردته آنفا كل ما استطعت الحصول عليه من أسماء خصوم النبي وأهل العداوة له • ويلاحظ ان القرآن ، وقد أشار في عدد من الآيات الى من قاوم الرسول ، لم يصرح الا باسم أبي لهب وزوجته ، وهذه الآيات المتعلقة بهم قد تكتفي بالتلميح الى واحد فقط من مواقفهم أو حججهم ، أو قد لا تلمح شيئا بل تكتفي بالشدة عليهم • وقد اقتصر الرواة والمفسرون في شرح موقف واحد هو الذي أشار اليه القرآن فحسب ، من دون أن يوردوا أية معلومات اضافية ، حتى الايذاء والاستهزاء قلما يورد عنه الرواة أخبارا وافية • ولا ريب ان أشارة القرآن الى حادث واحد لكل منهم لا يستلزم حتما أن يكون هذا الحادث هو وحده مظهر ايذائهم أو هزؤهم • فقد تكون هنالك أعمال اخرى لم يشر اليها القرآن • ثم ان اشارة القرآن اليهم لا تعني انهم وحدهم المؤذون والمستهزؤن ، فقد يكون هناك غيرهم ممن قام بمثل تلك المقاومة دون أن يشير اليه القرآن •

لقد بينا ان الرواة ذكروا أسماء من تعرضت لهم هذه الآيات ، فاذا افترضنا صحة ما أوردوه فاننا نلاحظ من المعلومات القليلة الواردة عنهم في الكتب ، انهم كانوا من عشائر متعددة ، وان أغلبهم كانوا ذوي سن وشرف

---

(١) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٣٣ •

وساهموا في اجتماعات دار الندوة[١] ، وان كثيرا منهم كانوا من الاسخياء ، فالاسود بن المطلب والعاص بن وائل هم من أزواد الركب أي انهم كانوا اذا سافروا لم يختبز معهم أحد ولم يطبخ[٢] ؛ وفيهم عدد من المطعمين في بدر كأبي جهل ونبيه ومنبه أبني الحجاج والنضر بن الحارث وأمية بن خلف[٣].

ان هؤلاء المؤذين والمستهزئين كان بعضهم يمت الى الرسول بصلة القرابة والنسب ، فأبو لهب عم النبي وحمو بناته[٤] ، والاسود بن عبد يغوث ابن خاله[٥] ، وزهير وعبدالله ابنا أبي أمية هما أولاد عاتكة عمة النبي[٦] ، وكانت لبعضهم مواقف طيبة مع الرسول أو المسلمين فان أبا البختري وزهير ابن أبي أمية وزمعة بن الاسود ساهموا في تمزيق صحيفة مقاطعة المسلمين والرسول[٧] ؛ كما ان العاص بن هاشم عندما أظهر عمر الاسلام منعه وحماه فيما يقال[٨] ، وقد كان بعضهم صديقا لبعض المسلمين الاول فأمية بن خلف كان صديق عبدالرحمن بن عوف[٩] . ولاشك ان كثيرا منهم كان لهم بين المسلمين أقارب .

ان أغلب من ذكرنا قتلوا في بدر . وفيهم اثنان أمر الرسول بقتلهم بعد أن أسروا في الموقعة ، وهما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط[١٠].

---

(١) أنظر ص ١٠٨ ـ ٩ .
(٢) المحبر : ص ١٣٧ . المنمق : ص ٢٩٤ ( نبذة بهامش المحبر ) .
(٣) المحبر : ص ١٦١ ـ ١٦٢ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣١١ وانظر عن سخاء أبي جهل أيضا المحبر ص ١٤٠ .
(٤) أنظر ص ٣٢٧ .
(٥) مصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢٦٢ .
(٦) الطبري : ج ١٣ ص ٤٤ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٩٩ ، ٣١٧ ، ٣٩٧ ج ٤ ص ١٨ ، ٣١ . المحبر : ص ٢٧٤ .
(٧) الطبري : ج ٣ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٩ . سيرة بن هشام : ج ١ ص ٢٩٧ . مصعب الزبيري : ٣١٢ ، ٤٣١ .
(٨) مصعب الزبيري : ص ٤٠٨ .
(٩) تفسير الطبري : ج ١٦ ص ١٠٠ .
(١٠) الطبري : ج ٢ ص ٢٨٦ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٦ المحبر ص ١٧٤ ، ٤٧٨ .

كما أن أبي بن خلف قتله الرسول بيده في غزوة أحد[١] .

غير اننا لا نعلم عن مناصبهم ووظائفهم شيئاً ، والراجح انهم ، أو أكثرهم ، من التجار ، ولا يوجد ما يدل على انهم رجال دين مع انهم قد يكونون من المتحمسين في الدفاع عن الدين . والراجح انهم لم يقوموا وحدهم بالمقاومة بل ان آخرين كانوا معهم ولكن المصادر سكتت عن ذكرهم .

**مكانة المتهجمين والمقاومين :**

وفي القرآن عدد من الآيات يستدل منها على ان المقاومين كانوا من المترفين الاغنياء والارستقراطية المستكبرين الطغاة « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (الزخرف ٢٢ ـ ٢٣) « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين » (هود ١١٦) « واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . انهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون . أو آباؤنا الاولون » (الواقعة ٤١ ـ ٤٨) « وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا . انا لدينا انكالا وجحيما » (المزمل ١١ ـ ١٢) « واما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم ادر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضيه . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » (الحاقة ٢٥ ـ ٢٩) « ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . أيحسب ان ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمة » (الهمزة ١ ـ ٤) « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (الاسراء ١٦) . « وقال الذين كفروا لن

---

(١) الطبري : ج ٣ ص١٩ المحبر ص١٤٠ مصعب الزبيري ص٣٨٧ .

نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين • قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين • وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له انداداً واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون • وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون • وقالوا نحن اكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين • قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون • وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » (سبأ ٣١ - ٣٧) « واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار • قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد » (غافر ٤٧ - ٤٨) « وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء • قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » (ابراهيم ٢١) • « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا • وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (الاحزاب ٦٦ - ٦٧) « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » (الاعراف ٤٠ ، انظر أيضا الاعراف ٣٦ الفرقان ٢١) « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمسروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون » (الانعام ١٣٣) « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون

عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » (الاحقاف ٢٠) « وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين » (الجاثية ٣١) « حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا » (الجن ٢٤) « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى » (النازعات ٢٨ ـ ٢٩) « ان جهنم كانت مرصادا • للطاغين مآبا » (النبأ ٢١ ـ ٢٢) •

# الفصل الثاني والعشرون

# الكفاح ضد المشركين

**اضطهاد المشركين :**

ان المقاومة التي أبداها المشركون للدعوة الاسلامية لم يكن لها أثر في ايقاف الرسول عن الاستمرار في دعوته ، فقد استمر على نشر الدعوة رغم ما بذلوه له من وعد ووعيد • والواقع ان الرسول ناله كثير من الاذى والسخرية التي كان يقوم بها بعض الاشخاص ضده ، كتسميته أبي كبشة[1] ، ومذمم[2] ، أو رمي الاوساخ في طريقه[3] ، أو رمى جيرانه الحجارة عليه[4] ، بل بلغ الامر حدا ان حاول أبو جهل مرة رميه بالحجارة[5] ، كما حاول مرة أخرى خنقه ، وكان ذلك ( أشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط[6] ) •

على ان الرسول لم يعدم حماية ونصيرا ، وخاصة من عشيرته ؛ اذ ان النظام القبلي السائد آنذاك كان يقضي بهذا التأييد ، فلو تخلت عن الرسول عشيرته لربما استهانت بها بقية العشائر وتجرأت عليها في ذلك المجتمع الذي يفتقد السلطة المركزية العليا الملزمة •

والواقع ان عمه ابا طالب لم يرض بالتخلي عن حمايته عندما حاول المشركون اقناعه بذلك[7] ، و ( حين رأى قريشا تصنع ما تصنع في

---

(١) تفسير الطبري : ج ١٥ ص ٧٥ المحبر : ص ١٢٩ الجاحظ : العثمانية ص ٧١ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧٩ •

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٩ •

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٥ •

(٥) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٨ •

(٦) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١١ الطبري : ج ٢ ص ٢٢٣ •

(٧) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٨٠ ، ٢٨٦ ج ٢ ص ٢٦ • الطبري : ج ٢ ص ٢١٨ ـ ٢٢١ تفسير الطبري : ج ٧ ص ٢٠٧ •

بني هاشم وبني المطلب ، فدعاهم الى ما هم عليه من منع رسول الله (ص) والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، وأجابوا الى ما دعاهم اليه من الدفع
والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، وأجابوا الى ما دعاهم اليه من الدفع
عن رسول الله (ص) الا ما كان من أبي لهب • فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جدهم معه ، وحدبهم عليه جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم[١] • ثم أن الحمزة عم النبي عندما سمع بتطاول أبي جهل على الرسول ، جاء يريد الانتقام لابن أخيه ثم أسلم[٢] •

لم تقتصر هذه المقاومة على الرسول وحده ، بل شملت بقية المسلمين أيضا ، حيث قام المشركون بعدة محاولات لايذائهم وفتنتهم ، وقد أشار القرآن الى ذلك ، كما ذكرت الكتب بعض الاخبار عنها فكان ( أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش ، اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك • وان كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك • وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به[٣] )• وهذا النص يشير الى الوسائل التي كانت تتخذ ، أو يراد اتخاذها من ضغط اجتماعي واقتصادي ، ومن ايذاء للضعفاء •

ومع وجود اشارات في الكتب الى الاذى الجسماني الذي وقع على بعض القرشيين ، كالتطاول على أبي بكر واقرانه بطلحة بن عبيدالله مرة ، الا ان الراجح ان هذا كان قليلا نسبيا ، وانه اذا حدث ضغط على مسلم فانه يحدث من قبل العشيرة ، لان العشيرة هي السلطة الوحيدة التي يمكن أن تفرض العقوبات على الفرد • وجدير بالملاحظة انه لم تذكر أية محاولة لنفيهم ، كما ان ما روي من ايذاء كان قليلاً نسبيا على الصلبية •

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٠ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٨١ •
(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ ـ ٣١٣ • الطبري : ج ٢ ص ٢٢٤ •
(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٤٢ •

غير انه رويت أخبار عن كثير من الاذى وقع على المستضعفين وهم على ما يقول الواقدي ( قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بأنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم[١] ) وقد رويت أخبار كثيرة عن تعذيب بعض هؤلاء أمثال عمار بن ياسر ، وصهيب الرومي وأبو فكيهة وبلال الحبشي[٢] .

ويلاحظ ان هؤلاء من العبيد الذين لأسيادهم الحق في عقابهم ، وانهم أبدوا تمسكا في دينهم ، وقد قام كثير من المسلمين يعملون على تحريرهم لتخليصهم مما ينالون من أذى ، فأعتق أبو بكر هلالا وعامراً بن فهيرة وأم عبيس وزنيرة والنهدية[٣] وابنتها . ويبدو ان الاعتاق كان يخلص العبد من الاذى .

ويظهر ان محاولاتهم قد ظفرت ببعض النجاح خصوصا فيمن لم يكن قلبه متمكناً فيه الايمان . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » (العنكبوت ١٠) .

**الهجرة الى الحبشة :**

لقد كان لهذه الازمة أثر على الجماعة الاسلامية ، وكان لابد للرسول من معالجتها . وقد أورد الطبري في تاريخه نص كتاب لعروة بن الزبير الى عبدالملك بن مروان قال فيه ( أما بعد فانه ، يعني رسول الله (ص) ، لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي انزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش

---

(١) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٧٧ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٣ . تفسير الطبري : ج ١٤ ص ١٠٥ . الجاحظ : العثمانية ص ٢٩ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ . الجاحظ : العثمانية ص ٣٣ ، ١٠٣ .

لهم أموال ، وانكروا ذلك عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال وأغروا به من أطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه الا من حفظه الله منهم وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث . ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم واخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله (ص) من أهل الاسلام ، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء . فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله (ص) أن يخرجوا الى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي لا يظلم أحد بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك صلاح ، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجرا حسنا فأمرهم بها رسول الله (ص) فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم . ثم انه فشا الاسلام فيها ودخل فيها رجال من أشرافهم[(١)] ) .

ويقول ابن اسحق ( فلما رأى رسول الله (ص) ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، لمكانه من الله ومن عمه ابي طالب وانه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم احداً وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله مخافة الفتنة وفرارا الى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الاسلام[(٢)] ) .

**المهاجرون :**

يروي ابن سعد ان الهجرة الى الحبشة كانت على دفعتين احداهما مكونة من إحد عشر رجلا ، وقد بقوا فيها أمداً حتى سمعوا بعقد الصلح بين الكفار والرسول على أثر قصة الغرانيق ، فعادوا وتبين لهم عدم صحة

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٢١ .
(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٤٣ .

ما سمعوا ، ثم حدثت الهجرة الثانية بعد ذلك ، وكانت تشمل ثلاثة وثمانين شخصا[١] .

أما ابن اسحق فيروي أسماء عشرة من المسلمين ، ويقول ( فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين الى أرض الحبشة فيما بلغني . قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مضعون فيما ذكر لي بعض أهل العلم . قال ابن اسحق ثم خرج جعفر بن أبي طالب (رض) وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه[٢] ) .

ومما يؤيد رواية ابن اسحق عن أن الهجرة حدثت تدريجيا ما رواه ابن سعد عن بنت خالد بن سعيد بن العاص ( وكانت وابوها من مهاجري الحبشة ) اذ قالت ( قدم علينا عمي عمرو بن سعيد أرض الحبشة بعد مقدم أبي بسنتين فلم يزل هناك حتى حمل في السفينتين مع أصحاب رسول الله (ص) فقدموا على النبي وهو بخيبر[٣] ) .

وقد كان هؤلاء المهاجرون من مختلف القبائل : فمن بني هاشم واحد ، ومن عبد بن قصي واحد ، ومن نوفل واحد (حليف) ، ومن عبدشمس اثنان ( واحد حليف ) ، ومن تيم اثنان ، ومن أسد بن عبد العزى أربعة ، ومن عدي خمسة ( منهم واحد حليف ) ، ومن امية سبعة ( منهم أربعة حلفاء ) ، ومن زهرة سبعة ( منهم ثلاثة حلفاء ) ، ومن عبدالدار سبعة ، ومن مخزوم ثمانية ( منهم واحد حليف ) ، ومن عامر سبعة ( منهم واحد حليف ) ، ومن الحارث بن فهر ثمانية ، ومن جمح اثنا عشر ، ومن سهم أربعة عشر ( منهم واحد حليف[٤] ) .

ويلاحظ ان عدد من هاجر من القبائل التي اشتركت في تكوين حلف

---

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣٦ ـ ١٣٨ .
(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٤٥ .
(٣) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ٧٣ .
(٤) أنظر قائمة أسماءهم في آخر هذا الفصل .

الفضول قليل نسبيا ، وان عدد من كان من قبائل حلف لعقة الدم ( وهم مؤيدو بني عبدالدار في خصومتهم ضد هاشم ) كبير .

**دوافع الهجرة :**

لقد ناقش مونتجومري وات خمسة افتراضات عن سبب الهجرة الى الحبشة وملخصها[1] :

(١) السبب الاول هو تجنب الاضطهادات والضغط الذي قام به المشركون على المسلمين في مكة . وهذا السبب هو الذي ارتآه كل من عروة ابن الزبير وابن اسحق في كتابيهما اللذين ذكرناهما آنفا . ومما يؤيد هذا السبب هو ان المسلمين الذين لم يهاجروا أكثرهم من بني هاشم والمطلب وزهرة وتيم وعدي الذين كانوا قد كونوا حلف الفضول ، اما الذين هاجروا فكان منهم كافة مسلمي بني مخزوم وعبد شمس ( الا اثنين هما الارقم المخزومي الذي كان قويا متنفذا ، وابا أحمد بن جحش حليف عبد شمس الذي كان أعمى ) .

ولكن يرد على هذا بالتساؤل عن سبب بقاء بعض المهاجرين في الحبشة الى السنة السابعة للهجرة[2] ، وعدم عودتهم الى المدينة بعد هجرة الرسول اليها حيث لقي ترحيبا وتأييدا ؟ مع انه لم يرو عن الرسول انه أوعز اليهم بالبقاء حتى ذلك الزمن المتأخر .

(٢) والسبب الثاني الذي يمكن أن تفسر به الهجرة الى الحبشة ، هو لتجنب احتمال فتنتهم نتيجة الاضطهاد . ولكن مما يضعف قيمة هذا السبب هو ان المهاجرين الى الحبشة هم من أول المسلمين ، وقد عرفوا بقوة ايمانهم ، الذي لا يقل قوة عن ايمان من لم يهاجر ، فلا يعقل أن يخشى الرسول عليهم دون غيرهم من الفتنة أو يحرص على تخليصهم من الاضطهاد

(١) كتاب « محمد في مكة » ص ١١٣ ـ ١١٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤١٧ ، الطبري ج ٢ ص ٢٢٩ .

الذي لو وقع عليهم وهم أقوياء الايمان ، لزاد من تمسكهم بعقيدتهم ولصاروا مثلا أعلى يستثيرهم الباقين وتقديرهم • ثم ما هي نتيجة الهجرة الى الحبشة ؟ وكيف تخلصهم وهم سيعودون ان عاجلا أو آجلا الى مكة •

(٣) والسبب الثالث الذي يمكن افتراضه هو انهم ذهبوا الى الحبشة للقيام بالتجارة بعد أن سدت أبوابها أمامهم في مكة • وقد يؤيد هذا الرأي ما رواه ابن اسحق من أن أبا جهل كان يهدد من يعتنق الاسلام باكساد تجارته واهلاك ماله[1] كما يؤيده ما جاء في رسالة عروة بن الزبير من انه ( كانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا ) • غير أنه لاشك ان الرسول كان يحرص على العقيدة أكثر من حرصه على أوضاعهم التجارية ، فلابد ان تكون هجرتهم لامر متعلق بالدعوة •

(٤) والافتراض الرابع الذي يمكن به تفسير الهجرة الى الحبشة هو ان أهل مكة كانوا رغم حيادهم ، يتاجرون مع الساسانيين الذين كانوا انذاك قد استولوا على سوريا وفلسطين ومصر ، ممـا جعل موقفهم ضارا بالروم ومؤيديهم من الاحباش ، لذلك أراد الرسول أن يقوي علاقته مع الاحباش الذين ربما لم يرضهم موقف القرشيين من الساسانيين • ولعل الرسول أراد أن يحول عن مكة بعض تجارتها ، ويعزلها في عالم التجارة الدولية ، فيجعل التجارة بيد المسلمين الذين يصبح مركزهم الحبشة مما تتضرر به مكة • وقد يؤيد هذا ان الآية الاولى من سورة الروم تظهر عطف المسلمين على الروم ذوي الصلة بالاحباش في صراعهم مع الفرس « الم • غلبت الروم • في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون • في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف الله وعده ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم ١ ـ ٦) • ويروي الطبري في تفسيره عدة روايات تبين ان المشركين كانوا يميلون الى الفرس ويتمنون انتصارهم وان المسلمين كانوا يريدون

---

(١) انظر ص ٣٦١ •

انتصار الروم[١] ، ولعل ارسال المشركين لوفد منهم يطلب من النجاشي[٢] رد المسلمين كان يدفعه خوفهم من احتمال تأثير المسلمين في سياسة الاحباش تجاه مكة مما يضر بموقف مكة • غير أن هذا الافتراض لا يفسر لماذا بقي بعض المسلمين في الحبشة الى السنة السادسة من الهجرة •

(٥) والافتراض الخامس الذي يرجحه وات هو أن الهجرة حدثت بسبب احتمال حدوث انقسام بين جماعة المسلمين في مكة ، ويعتمد في رأيه على أساس ان عثمان بن مضعون هو الذي قاد الجماعة الاولى من المهاجرين الى الحبشة ، وانه كان قد حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، ثم جاء الى الرسول على رأس جماعة ليعلن اسلامه ، وان لم تكن له مكانة كبيرة في المجتمع الاسلامي فيما بعد ، وقد روي عن عمر انه عابه على موته في فراشه[٣] • كما ان خالداً بن سعيد بن العاص وهو من أبرز أوائل المسلمين وابن أبي احيحة الذي كان من أغنى أهل مكة لم يعودا من الحبشة الا في سنة ٦هـ[٤] ، وان نعيماً بن عبدالله النحام العدوي كان من أوائل المسلمين البارزين لم يهاجر الى المدينة الا في السنة السادسة[٥] • ثم ان عبيدالله بن جحش وهو أحد مهاجري الحبشة تنصر هناك[٦] • والحق ان في القرآن آية توضح ان بعض المسلمين لم يهاجروا الى المدينة « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا • الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون

---

(١) تفسير الطبري : ج ٢١ ص ١١ ــ ١٦ أنظر أيضا ج ٨ ص ١٢ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٥٦ فما بعد •

(٣) انظر ترجمته في ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٨٦ ــ ٢٩١ • انظر كذلك تفسير الطبري ج ٧ ص ٦ •

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٤١٧ • ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ١٤٤ •

(٥) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١١٢ •

(٦) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٤١٧ •

سبيلا فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا » (النساء ٩٧ - ٩٩) •

يستنتج وات من هذه الاخبار القليلة التي ساقها حدوث خلاف في الرأي بين المسلمين ، وخاصة مع أبي بكر الذي كانت له مكانة قوية عند الرسول ، ويرى ان الرسول أوعز لمخالفي أبي بكر بالهجرة الى الحبشة تحاشيا للاخطار التي قد تنجم من هذا الخلاف •

غير ان الادلة التي يسوقها وات ليست قوية ، فان بعض من هاجر الى الحبشة كعثمان وطلحة كانوا من أصحاب أبي بكر ، وتروي بعض الروايات ان أبا بكر هو الذي جاء بهم الى الرسول ليسلموا كما ان اختفاء أسماء بعض المسلمين الاول المهاجرين وعدم لعبهم دورا رئيسيا في السياسة فيما بعد وخاصة في عهد أبي بكر لا يمكن أن يعزى الى خلافهم معه فقط ، بل قد يرجع الى انشغالهم بأمور أخرى في الحياة • والواقع ان أبا بكر استعان بكثير ممن أسلم عند فتح مكة أو بعدها ، وبأولاد كثير ممن قاوم الاسلام ، فجيوش الاسلام الكبرى في زمن أبي بكر كان يقودها عكرمة بن أبي جهل الذي أسلم بعد فتح مكة وكان أبوه على رأس المقاومين للرسول ، ويزيد وهو ابن أبي سفيان رئيس مكة وقائد جيوشها في أحد والخندق ، وعمرو ابن العاص الذي أرسله القرشيون الى النجاشي ليفاوضه على اخراج مهاجري المسلمين ، وخالد بن الوليد الذي كان قائد خيالة المشركين في غزوة أحد ، وهذا الاخيران أسلما في السنة السادسة للهجرة • فلو أهمل أبو بكر رجلا لماضيه ، لكان الاجدر به أن يهمل هؤلاء ولا يسلمهم قيادة الجيوش الاسلامية التي أحسنوا قيادتها •

والواقع ان الآيات القرآنية توحي بأن دافع الهجرة هو الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين والمحاولات التي بذلها المشركون لفتنتهم ، وانها هي التي دفعت الرسول الى الايعاز اليهم بالهجرة « ألم • أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم

فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (العنكبوت ١ ـ ٣) « ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » (البروج ١٠) « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » (العنكبوت ١٠) « وقالوا أن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً امنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون » (القصص ٥٧) « قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (الزمر ١٠) « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة والآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (النحل ٤١) « ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » (النحل ١١٠) .

انا وان كنا لا نستطيع التأكد من ان هذه الآيات نزلت في الهجرة الى الحبشة الا ان المؤرخين يجمعون على ان الاضطهاد الشديد والفتنة وقعت على المسلمين قبيل الهجرة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن معظم هذه الآيات تتعلق بالهجرة الى الحبشة ، وتحملنا على ترجيح الاضطهاد وخوف الفتنة كسبب رئيسي للهجرة الى الحبشة .

## حياة المهاجرين في الحبشة :

ليست لدينا معلومات وافية عن حياة المهاجرين في الحبشة . وتتفق الروايات على ان النجاشي وفر لهم ملجأ سياسيا ولم يضطهدهم ، ولكن ليس هناك دليل على انه قدم لهم منحا أو هبات . ولما كان هؤلاء المهاجرون من أهل مكة التي عرف أهلها بالنشاط التجاري ، فمن المرجح أنهم ، أو بعضهم ، ساهم بالتجارة وأعمال البيع والشراء ، واستطاع ان يكسب قوته منها . ولعل من أهم أسباب تأخر البعض عن العودة الى المدينة هو اشتغالهم بالتجارة .

**العودة من الحبشة :**

يروي ابن اسحق انه بلغ أصحاب رسول الله (ص) الذين خرجوا الى أرض الحبشة اسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى اذا دنوا من مكة بلغهم ان ما كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد الا بجوار أو مستخفيا فكان ممن قدم عليه مكة منهم فأقام بها حتى هاجر الى المدينة فشهد معه بدرا ومن حبس عنه حتى فاته بدر وغيره ومن مات بمكة ( ثم يذكر أسماءهم ) •• فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا[١] • ويؤيد الطبري في رواية عن ابن اسحق ذلك ويضيف انهم جاؤوا لما بلغهم من اسلام أهل مكة حين سجدوا مع رسول الله (ص) على أثر قصة الغرانيق[٢] •

وفي السنة السادسة للهجرة بعث رسول الله (ص) الى النجاشي عمرو ابن أمية الضمري فحمل من بقي من المسلمين في سفينتين وقدم بهم الرسول (ص) وهو بخيبر بعد الحديبية ، وكان عددهم ستة عشر رجلا ، عدا النساء[٣] •

ويذكر ابن اسحق أسماء من توفي في الحبشة وعددهم سبعة[٤] •

مجموع عدد من عاد قبل الهجرة ، وعند خيبر ، ومن توفى يبلغ ستاً وخمسين رجلا ، أما الباقون وهم جميع من تخلف عن بدر ولم يقدم على رسول الله (ص) مكة ومن قدم بعد ذلك ولم يحمل النجاشي في السفينتين أربعة وثلاثون رجلا ، واذا طرحنا من هذا الرقم من توفي وهم سبعة بقي سبعة عشر لا تذكر هذه الروايات متى عادوا • سوى أربعة منهم اشتركوا في

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩ ، ٣٩١ •
(٢) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٧ •
(٣) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٣١٧ ، ٤١٤ • الطبري : ج ٢ ص ٢٢٩ • ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ١٧٩ •
(٤) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٤٢٢ •

معركة احد مما يدل على أنهم عادوا الى المدينة في زمن لم تعينه المصادر وهم قيس بن عبدالله ، وأبو الروم بن عمير ، وأبو قيس بن الحارث ، وسليط ابن عامر •

**المقاطعـــة :**

لم تؤد الهجرة الى الحبشة الى حـل الازمة القائمـة بين المسلمين والمشركين ، اذ بقي الرسول والمسلمون الاول في مكة وهم ثابتـون على ايمانهم ومتمسكون بمبدئهم لا يحيدون عنه • كما ان المشركين لم يوقفوا أعمالهم العدائية تجاه الرسول والمسلمين • والواقع ان الاذى والاضطهاد من شأنه أن يصهر من يقع عليهم فيزيد من تماسكهم وتكتلهم ويثير عطف الناس عليهم ، والواقع ان الحمزة وعمر بن الخطاب أسلما في هذه الفترة فكان اسلامهما نصرا للمسلمين ، نظرا لما لهما من نفوذ وقوة وقدرة على معاونة المسلمين ، لذا يمكن القول بأن تلك المحاولات لم تحقق ما استهدفته من نجاح •

يقول ابن اسحق ( فلما رأت قريش ان أصحاب رسول الله قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا ( في الحبشة ) وان النجاشي قد منع من لجأ اليه منهم ، وان عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبدالمطلب مع رسول الله (ص) واصحابه وجعل الاسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا واتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ، على أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقـوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الـكعبة توكيدا على انفسهم • وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار بن قصي ( ويروي ابن هشام انه يقال النضر بن الحارث ) فدعا عليه رسول الله (ص) فشل بعض اصابعه • فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب فدخلوا

معه في شعبه فاجتمعوا اليه • وخرج من بني هاشم أبو لهب عبدالعزى بن عبدالمطلب الى قريش فظاهرهم[١] ) •

**دوافعهـــا :**

ويلاحظ ان هذا النص الذي لا نعرف نصا غيره عن المقاطعة ، يبين ان المقاطعة لم تكن موجهة للمسلمين ، بل الى بني هاشم ثم إلى بني المطلب • ولا ريب ان المسلمين لم يكونوا مقصورين على هاتين العشيرتين وحدهما ، بل كانوا من كافة العشائر ، كما ان بني هاشم وبني المطلب لم يكونوا كلهم من المسلمين • فلو كانت المقاطعة موجهة للمسلمين وحدهم ، لكان من الواجب أن تشمل كافتهم من مختلف القبائل ، وأن يخرج منها المشركون من بني هاشم وبني المطلب ، واذا كانت حماية بني هاشم للاسلام هي الدافع الرئيسي للمقاطعة فلماذا أدخل فيها بنو المطلب ؟ ان هذه الاسئلة تحملنا على الاعتقاد بأن هناك أسبابا أخرى للمقاطعة غير مجرد حماية بني هاشم للرسول •

ويمكننا أن نستنتج الدوافع الاخرى من دراســة نقض الصحيفة ، فيروي ابن اسحق ( ثم انه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش ، ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة •• بن عامر بن لؤي ، وذلك انه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لامه ، وكان هشام لبني هاشم واصلا وكان ذا شرف في قومه ، ثم انه مشى الى زهير بن أبي امية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ،وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب ، فقال ، يا زهير أقـد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قـد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ • الطبري : ج ٢ ص ٢٢٥ انظر أيضا ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٢٥ ، ١٣٥ •

منهم ما أجابك اليه أبدا ، قال ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى انقضها ، قال قد وجدت رجلا ، قال فمن هو ، قال أنا ، قال له زهير أبغنا ثالثا ، فذهب الى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعاً ، قال ويحك فماذا أصنع انما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا ، قال من هو ، قال أنا ، قال ابغنا ثالثا ، قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبي امية ، قال ابغنا رابعا ، فذهب الى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحوا مما قال للمطعم بن عدي ، فقال وهل من أحد يعين على هذا ، قال نعم ، قال من هو ، قال زهير بن أبي امية والمطعم بن عدي وأنا معك ، قال أبغنا خامسا ، فذهب الى زمعة بن الاسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له وهل على هذا الامر الذي تدعوني اليه من أحد ، قال نعم ثم سمى له القوم ،فاتعدوا له خطم الحجون التي بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير أنا ابدؤكم فأكون أول من يتكلم . فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي امية عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة انا نأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبايعون ولا يبتاع منهم ، والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، قال أبو جهل وكان في ناحية المسجد كذبت والله لا تشق ، قال زمعة بن الاسود أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت ، قال أبو البختري صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك ، قال أبو جهل هذا أمر قضي بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد . فقام

المطعم بن عدي الى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها الا ما كان باسمك اللهم وهي فاتحة ما كانت تكتب قريش تفتتح بها كتابا اذا كتبت[١] ) .

ومن هذا النص يتبين ان الذين قاموا بالدور الرئيسي في نقض الصحيفة هم هشام بن عمرو بن ربيعة ( عامر بن لؤي ) وزهير بن أبي امية ( مخزوم ) والمطعم بن عدي ( نوفل بن عبد مناف ) وأبو البختري بن هشام ( عبدالعزى ) وزمعة بن الاسود ( عبدالعزى ) ، وان هؤلاء استطاعوا أن يقنعوا الناس بوجوب ابطال المقاطعة ، ولعل اشارة أبي جهل الى أن هذا أمر قضي بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان ، يدل على أنه شعر بأنهم قد مهدوا له مع قبائلهم في ذلك ، كما أن قولهم بأنهم ما رضوا كتابتها حين كتبت يوحي بأنهم يكونوا متحمسين قلبيا لها ، لانها كانت تمس بالضرر بني هاشم وبني المطلب كلهم ، مع أن هؤلاء الذين مزقوا الصحيفة هم ممن ذكر اسمهم في عدة مناسبات كمعارضين للرسول ، مما يدل على أن الصحيفة لا يقتصر دافع كتابتها على المسلمين فحسب ، بل ان هنا كدوافع أخرى لها ، وان مسألة الاسلام هي حجة لتنفيذ سياسة ذات أهداف أخرى تصيب بني هاشم والمطلب ، ويلاحظ ان أشد المدافعين عنها هو أبو جهل (من مخزوم) ، ولعل الدافع اليها هو حسد بني هاشم على مكانتهم ومحاولة اضعافهم لتحل مخزوم محلها ، ثم اتخذ الاسلام حجة لتبرير هذا الحلف ضد هاتين العشيرتين ، وربما كان بنو امية ممن لعبوا دورا في انشاء هذا الحلف ضد بني هاشم وان كون معظم مهاجري الحبشة من بني امية ومن القبائل التي لم تشترك في حلف الفضول دليل على أن هذه المقاطعة هي حركة سياسية موجهة ضد بني هاشم الذين ستزداد مكانتهم بانتشار الاسلام وازدياد اتباع الرسول الذي هو منهم .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩ . أنظر أيضا الطبري : ج ٢ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١ .

**أثرهـــا :**

لقد دامت المقاطعة حوالي ثلاث سنوات[١] ، ولـكنها لم تكن ناجحة ، فقد كانت تصل اليهم سرا بعض الاشياء يخفيها من أراد صلتهم من قريش ، وقد روى من أسماء من كان يصلهم حكيم بن حزام[٢] ، وهو ابن أخي خديجة زوجة الرسول ، وكذلك أبو البختري الذي دافع عن عمل حكيم عنـدما أراد أبو جهل منعـه من امداد المسلمين[٣] ، والراجح ان هناك آخرين كانوا يمدونهم بالمساعدة •

ثم ان تجاراتهم لم تقف ، فقد كانوا يخرجون في المواســم ليتبايعوا مع القبائل[٤] ، الامر الذي جعل هذه المقاطعة غير تامة • ولما كانت هذه المقاطعة موجهة ضد بني هاشم والمطلب ، فان المسلمين من العشائر الاخرى لم يكونوا داخلين فيها ، فكانت لهم حرية التجارة ، ونظرا لروابطهم الدينية باخوانهم المسلمين ، فمن المحتمل انهـم كانوا يمدون اخوانهم ، وربمـا يتاجرون لهم ، مما جعل هذه المقاطعة لا تحقق أغراضها تماما ، فلم تقض على المسلمين ولا على مكانة بني هاشم •

ولـكن نظرا الى أن الحجة الرئيسية للمقاطعة هي حماية المسلمين ، وانه كان لها تأثير سيئ في أعمال بني هاشم ، فالراجح انهم ادركوا الاضرار التي تنجم عن استمرار حمايتهم للرسول • ويبدو انهم بعد موت أبي طالب بدأوا يتخلون عن حماية الرسول ، ويتجلى هذا من الاحداث التالية •

**وفاة خديجة وأبي طالب :**

لم تؤثر المقاطعة في الرسول مثلما أثرت فيه وفاة خديجة وأبي طالب

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧٥ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٥ ، ١٤١ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧٥ - ٣٧٦ •

(٣) مصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢١٣ •

(٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١ •

بعد انتهاء المقاطعة بأمد قصير[١] . وقد خسر في خديجة الزوجة الوفية المشجعة والمناصرة ، والتي كان من ثروتها وعشيرتها ما يعين الرسول . اما أبو طالب فقد كان عمه الذي رعاه وحامى عنه ، وصد كثيرا مما حاولت قريش والمشركون الحاقه به . ولعل أبا طالب هو العامل الاكبر في استنهاض همم بني هاشم لمساندة الرسول وحمايتهم له ، فلما مات خففت هاشم من تأييدها[٢] ، وربما أدركت بعد المقاطعة ما يصيبها من أضرار مادية ومعنوية اذا استمرت في حمايته ، لذا أخذت تتخلى عن ذلك ؛ ويتجلى هذا واضحا مما يرويه الطبري من ان الرسول بعد رجوعه من الطائف عرض على الاخنس بن شريق الثقفي ( حليف بني زهرة ) ، ثم على سهل بن عمرو ( بني عامر ) أن يجيراه فلم يوافقا ، فعرض ذلك على مطعم بن عدي ( بني نوفل ) أن يجيره عند رجوعه الى مكة[٣] . وهؤلاء الاشخاص كلهم ليسوا من بني هاشم ، الامر الذي يدل على انه كان يعلم أن بني هاشم قد تخلوا عن نصرته .

**محاولة بث الدعوة في الطائف :**

ان هذه الاحوال والاحداث اقنعت الرسول بعدم جدوى الاستمرار في الاعتماد على بث الدعوة في مكة ، وبضرورة البحث عن ميادين أخرى لنشرها ، لذلك التفت الى الطائف ، وهي بلدة تقع على مسافة ستين ميلا من مكة ، في أرض تتوفر فيها الينابيع والمياه ، وتكثر فيها المزارع والبساتين ، وخاصة الكروم والاعناب . وكان سكانها منقسمين على أنفسهم ، وفيهم عشيرتان بارزتان هم بنو مالك والاحلاف . فاما بنو مالك فكانت علاقتهم وثيقة بهوازن ، وأما الاحلاف فكانت علاقتهم أوثق بمكة .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) يروي ابن سعد ان أبا لهب ، الذي صار زعيم آل عبدالمطلب بعد وفاة أبي طالب وعد أن يؤيد الرسول ، ولكنه تخلى عنه بعد أمد قصير ( ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١ ) .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٣١ . المحبر : ص ١١ .

وللطائف أهمية تجارية نظرا لما تنتجه من محاصيل ، ولوقوعها على طريق التجارة اليمانية ، وكانت لأهل مكة علاقة وثيقة بها ، فلبعضهم بساتين فيها[١] وللبعض الآخر أموال موظفة وقروض تعطى بربا فاحش[٢]. وفي الطائف أيضا كانت اللات وسدنتها من بني مالك[٣] .

لا توجد نصوص صريحة عن الدوافع التي دفعت الرسول لاختيار الطائف دون غيرها لنشر الدعوة بعد ما لاقاه من عقبات ومصاعب في مكة . وربما شعر الرسول بسوء استغلال المكيين لأهل الطائف ، أو انه لاحظ مصالح المكيين فيها فأراد أن ينشر بينهم الاسلام ليفصلهم عن أهل مكة ويهدد بهم تجارة المكيين مع اليمن .

ومهما يكن الدافع ، فان الرسول وصل الطائف ، وفاوض ثلاثة من آل عبد ياليل ، فلم يلق منهم تأييدا ، بل ( اغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه[٤] ) .

**ايمان الجن :**

يتبين مما تقدم ان الطائف لم تكن خيرا من مكة في تلقيها الدعوة الاسلامية ، لذا عاد الى مكة . وفي طريق عودته اليها وصل الى نخلة فوقف يصلي ، وقد سمعه نفر من الجن فآمنوا به[٥] كما ذكر القرآن في سورة الجن « قل اوحي الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآناً

---

(١) أوفى بحث عن الطائف هو الكتاب الذي الفه عنها لامنس . أنظر أيضا مقاله عن الطائف في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) تفسير الطبري : ج ٣ ص ٧٠ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٨ ، ٢٣ .

(٣) أنظر ص ١٥٩ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠ . الطبري : ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٥) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣١ . الطبري : ج ٢ ص ٢٣١ .

عجبا ... « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا ، فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » (الاحقاف ٢٩ ـ ٣٢) .

ولابد ان ايمان الجن بالرسول ورسالته قد عوض له بعض ما لقيه في الطائف ، كما شجعه على عدم قصر بث الدعوة على مكة وحدها ، بل الى محاولة نشرها بين القبائل الاخرى .

**الاســـــراء :**

وبعد رجوع الرسول الى مكة اسرى به الله تعالى[1] ، كما جاء في القرآن الكريم « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » (الاسراء ١) . ويروي الطبري ان آيتين اخريين نزلتا في الاسراء « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى » (النجم ١٣ ـ ١٦)[2] « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن » (الاسراء ٦٠)[3]

**عرض الدعوة على القبائل :**

ثم ان الرسول أخذ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ويدعوها الى الاسلام ويروي ابن اسحق انه عرض الدعوة على كندة ، وبني عبدالله

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢ فما بعد .
(٢) تفسير الطبري : ج ٢٧ ص ٢٩ .
(٣) تفسير الطبري : ج ١٥ ص ٧٩ .

( احدى عشائر كلب ) ، وحنيفة ، وعامر بن صعصعة[١] ، وكل هذه القبائل تقيم في مناطق بعيدة عن مكة . ولا نعلم فيما اذا كان الرسول قد عرض نفسه على قبائل أخرى اغفل المؤرخون ذكرها لاسباب خاصة . ولكن المهم ان الدعوة لم تلق ترحيبا عندهم ، حتى لاقى فريقا من بني عبد الأشهل الخزرجيين القاطنين في المدينة ، فلقى منهم اذناً صاغية لدعوته[٢] ، وفي السنة التالية بايعوه على أن يهاجر الى بلدهم ، فأخذ المسلمون يهاجرون اليها ، ثم هاجر هو نفسه ، وبدأت في تاريخ الاسلام صفحة جديدة ، فلا عجب أن اعتبرها المسلمون نقطة حاسمة في تاريخ الاسلام ، واتخذوها بداية للتقويم الذي ساروا عليه منذ ذلك الوقت الى ما شاء الله .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣١ ـ ٣٤ . الطبري : ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣٦ فما بعد .

# أسماء المسلمين في مكة

ان القائمة التي نوردها أدناه تضم أسماء الرجال الذين أسلموا في العهد المـكي وهاجروا الى الحبشة والمدينة واشتركوا في بدر • ولا يدخل فيها أسماء من أسلم ثم فتن أو من تخلف عن الهجرة الى المدينة نظرا لعدم امكان حصرهم •

وتضم هذه القائمة أيضا أسماء المشركين الذين قتلوا أو أسروا في بدر ، وهم لا يمثلون كافة المشركين ، لان فريقا غير قليل آذى الرسول أو اشترك في الغزوات والحروب الاخرى ضد المسلمين ، ولـكن لم يساهم في بدر ، كما ان عددا غير قليل تراجع وانهزم من بدر دون أن يصيبه القتل أو الأسر •

لقد اعتمدت فيما أوردته من الاسماء على « سيرة الرسول » لابن هشام التي تضم ما أورده ابن اسحق مع اضافات كثيرة • وهي لا تختلف كثيرا عما أورده ابن سعد في كتاب الطبقات • وقد دققت قائمتي مع القائمة التي نشرها مونتجومري وات في الملحق الاخير من كتابه ( محمد في مكة ) وهي تعتمد على القوائم التي أوردها كايتاني في كتـابه « حوليات الاسلام » • ويعتمد كايتاني بدوره على ابن هشام وابن سعد مع بعض الاضافات الواردة في الـكتب الاخرى • وهي اضافات قليلة جدا •

لقد صنفت الاسماء في هذه القائمة حسب العشائر ، ورتبت العشائر تبعا لقرب صلتها من عشيرة الرسول ، وهو الترتيب الذي اتبعه المؤرخون الاول ، والذي هو أقرب الى روح ذلك العصر •

وقد رمزت لمهاجري الدفعة الاولى الى الحبشة (١) ، والى مهاجري الدفعة الثانية (٢) والى الذين عادوا قبل هجرة الرسول الى المدينة (ع) والى الذين عادوا في السنة السابعة ، عندما كان الرسول يغزو خيبر (خ) • أما الذين اشتركوا في بدر فقد رمزت اليهم (ب) • أما (ح) فتشير الى أن الشخص حليف للعشيرة •

| الاسم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| **بنو هاشم والمطلب :** | | | |
| الرسول | زهرة | | ب |
| علي بن أبي طالب | هاشم | | ب |
| الحمزة | زهرة | | ب |
| جعفر بن أبي طالب | هاشم | ١خ | ب |
| زيد بن حارثة • مولى | | | ب |
| أبو مرثد | ح (غني) | | ب |
| مرثد بن أبي مرثد | ح (غني) | | ب |
| أنسه • مولى | | | |
| أبو كبشة • مولى | | | |
| عبيدة بن الحارث بن المطلب | ثقيف | | ب |
| الطفيل » » | » | | ب |
| الحصين » » | » | | ب |
| مسطح بن اثاثة | المطلب | | ب |

وقد أسر من كفارهم في بدر السائب بن عبيد بن عبد يزيد ، ونعمان ابن عمرو بن علقمة ، وعبيـد بن عمرو بن علقمة ، وعقيل والعباس ، وأربعة من حلفائهم •

| الاسم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| **بنو عبد شمس :** | | | |
| عثمان بن عفان | عبدشمس | ١ + ٢ع | ب |
| أبو حذيفة بن عتبة | كنانة | ١ + ٢ع | ب |
| خالد بن سعيد بن العاص | كنانة | ٢خ | |

| الاسم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| عمرو بن سعيد | مخزوم | ٢خ | |
| عبدالله بن جحش | ح خزيمة | ٢ع | ب |
| أبو زيد بن رقيش | « « | | |
| عكاشة بن محصن | « « | | |
| أبو سنان بن محصن | « « | | |
| شجاع بن وهب | « « | | |
| عقبة بن وهب | « « | | |
| ربيعة بن اكثم | « « | | |
| محرز بن نضلة | « « | | |
| أربد بن حمير | « « | | |
| سنان بن أبي سنان | « « | | |
| مالك بن عمرو | ح سليم | | |
| مدلاج بن عمرو | « « | | |
| ثقف بن عمرو | « « | | |
| أبوأحمد بنجحش | ح خزيمة | | |
| عمرو بن محصن | « « | | |
| سعيد بن رقيش | « « | | |
| قيس بن خابر | « « | | |
| منقذ بن نباتة | « « | | |
| الزبير بن عبيدة | « « | | |
| تمام بن عبيدة | « « | | |

| الاســـم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| سخبرة بن عبيده | ح خزيمة | | |
| محمد بن عبدالله بن جحش | » | | |

قتل من مشركيهم في بدر حنظلة بن أبي سفيان ، وعبيدة بن سعيد بن العاص والعاص بن سعيد بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبه بن ربيعة والوليد بن عتبه • كما أسر منهم عمرو بن أبي سفيان ، والحارث بن أبي وجزة ، وأبو العاص بن الربيع ، وأبو العاص بن نوفل ، وخالد بن أسيد بن العاص واثنا عشر من حلفائهم ومواليهم •

**بنو نوفل :**

| | | | |
|---|---|---|---|
| عتبة بن غزوان | ح (سليم) | ٢ع | ب |
| جناب مولى عتبة | | | ب |

قتل من كفارهم في بدر الحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، وأسر منهم عدي بن الخيار واثنان من حلفائهم ومواليهم •

**بنو اسد بن عبدالعزى :**

| | | | |
|---|---|---|---|
| الزبير بن العوام | هاشم | ١ + ٢ع | ب |
| الاسود بن نوفل | عبدشمس | ٢خ | |
| عمرو بن امية بن الحارث | تيم | ٢ (توفى) | |
| يزيد بن زمعة بن الاسود | مخزوم | ٢ ؟ | |
| حاطب بن أبي بلتعة | ح (لخم) | | |
| سعد مولى حاطب | | | ب |

قتل من كفارهم في بدر زمعة بن الاسود بن المطلب ، والحارث بن زمعة ، وعقيل بن الاسود ، وأبو البختري بن هشام ، ونوفل بن خويلد • وأسر منهم السائب بن أبي حبشة ، والحويرث بن عباد •

| الاســـم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
| --- | --- | --- | --- |

**بنو عبدالدار :**

| | | | |
| --- | --- | --- | --- |
| مصعب بن عمير بن هاشم | عامر | ١ + ٢ع | ب |
| أبو الروم بن عمير | رومية | ٢ ؟ | |
| سويبط بن سعد | خزاعه | ٢ع | ب |
| فراس بن النضر | تيم | ٢ ؟ | |
| جهم بن قيس | المطلب | ٢خ | |
| خزيمة بن جهم | | ٢خ | |
| عمرو بن جهم | | ٢خ | |

قتل من كفارهم في بدر النضر بن الحارث ، وأسر أبو عزيز بن عمير ابن هشام ، وثلاثة من الحلفاء والموالي • كما قتل سبعة منهم في غزوة أحد •

**بنو عبد بن قصي :**

| | | | |
| --- | --- | --- | --- |
| طليب من عمير | هاشم | ٢ع | ب |
| عبدالرحمن بن عوف | زهره | ١ + ٢ع | ب |
| سعد بن أبي وقاص | عبدشمس | | ب |
| عمير بن أبي وقاص | عبدشمس | | ب |
| عامر بن أبي وقاص | عبدشمس | ٢خ | |
| المطلب بن أزهر | المطلب | ٢ ؟ | |
| مالك بن اهيب | | ٢ ؟ | ب |
| ذو الشمالين عمير بن عمرو | زهره | | ب |
| عبدالله بن مسعود ح (هذيل) | | ١ + ٢ع | ب |

| الاسـم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| عتبه بن مسعود ح (هذيل) | | ٢خ | |
| المقداد بن عمرو ح(قضاعه) | | ٢ع | ب |
| خباب بن الأرت ح (خزاعه) | | | ب |
| مسعود بن ربيعة ح (القاره) | | | ب |

**بنو تيم بن مرة :**

| | | | |
|---|---|---|---|
| أبو بكر الصديق | تيم | | ب |
| طلحه بن عبيدالله | حضرموت | | ب |
| الخارث بن خالد | تيم | ٢خ | |
| عمرو بن عثمان بن عمرو | تيم | ٢ ؟ | |
| صهيب مولى | | | ب |
| بلال بن رباح مولى | | | ب |
| عامر بن فهيرة مولى | | | ب |

قتل من كفارهم في بدر عمير بن عثمان بن عمرو ، وعثمان بن مالك ابن عبيدالله ، ومالك بن عبيدالله بن عثمان ، وعمرو بن عبدالله بن جدعان ، وأسر منهم مسافع بن عياض وحليف واحد .

**مخـــزوم :**

| | | | |
|---|---|---|---|
| أبو سلمة بن عبدالاسد | هاشم | ١ع | ب |
| الارقم بن عبد مناف | | | ب |
| شماس بن عثمان | عبدشمس | ٢ع | ب |
| عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة | تيم | ٢ع | ب |
| سلمة بن هشام بن المغيرة | ربيعة | ٢ع | |

| الاســـم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| الوليد بن الوليد بن المغيرة | بجيلة | ٢ع | |
| هاشم بن أبي حذيفة بن المغيرة | مخزوم | ٢ع | |
| هبار بن سفيان | عامر | ٢ع | |
| عبدالله بن سفيان | عامر | ٢ع | |
| عمار بن ياسر مولى | | | ب |
| معتب بن عوف ح (خزاعة) | | ٢ع | ب |
| عيهامة ح (خزاعة) | | | |

قتل من كفارهم في بدر أبو جهل بن هشام بن المغيرة ، والعاص بن هشام بن المغيرة ، ومسعود بن أبي امية بن المغيرة ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، ورفاعة بن أبي رفاعة ، والمنذر بن أبي رفاعة ، وعبدالله بن المنذر بن أبي رفاعة ، والسائب بن أبي السائب ، والاسود بن عبدالاسد ، وحاجب بن السائب بن عويمر ، وعويمر بن السائب بن عويمر ، وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وزهير بن أبي رفاعة ، والسائب بن أبي رفاعة ، وعائذ ابن السائب •

وقد أسر منهم في بدر خالد بن هشام بن المغيرة ، وأمية بن حذيفة بن أبي المغيرة ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وصيفي بن أبي رفاعة بن عابد ، وأبو المنذر بن رفاعة ، وأبو عطاء عبدالله بن أبي السائب ، والمطلب بن حنطب ، كما قتل وأسر ثمانية من حلفائهم •

**بنو سهم :**

| | | | |
|---|---|---|---|
| خنيس بن حذافة | سهم | ٢ع | ب |
| عبدالله بن حذافة | كنانة | ٢ ؟ | |
| أبو قيس بن حذافة | كنانة | ٢ ؟ | |

| الاســـم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| هشام بن العاص | مخزوم | ٢ ؟ | |
| عبدالله بن الحرث | كنانة | ٢ توفى | |
| السائب بن الحرث | كنانه | ٢ ؟ | |
| الحجاج بن الحرث | كنانة | ٢ ؟ | |
| أبو قيس بن الحرث | حضرموت | ٢ ؟ | |
| تيم بن الحرث | | ٢ ؟ | |
| سعيد بن الحرث | جمح | ٢ ؟ | |
| معمر بن الحرث | جمح | ٢ ؟ | |
| الحرث بن الحرث | | ٢ ؟ | |
| بشر بن الحرث | | ٢ ؟ | |
| عمير بن رئاب | جمح | ٢ ؟ | |
| عميرة بن جزء ح (زبيد) | | ٢ خ | |

قتل من كفارهم في بدر منبه ونبيه ابنا الحجاج ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، وأبو العاص بن قيس ، وعاصم بن أبي عوف ، وعامر بن أبي عوف ، والحارث بن منبه سن الحجاج •

واسر منهم أبو وداعة بن ضبيرة ، وفروة بن قيس بن عدي ، وحنظلة ابن قبيصة بن جذافة ، والحجاج بن الحرث • كما اسر أحد مواليهم •

**بنو جمح :**

| | | | |
|---|---|---|---|
| عثمان بن مضعون | جمح | ١ + ٢ع | ب |
| عبدالله بن مضعون | جمح | ٢ع | ب |
| قدامة بن مضعون | جمح | ٢ع | ب |

| الاســم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| السائب بن عثمان | سليم | ٢ع | ب |
| معمر بن الحرث | جمح | ٢ع | ب |
| حاطب بن الحرث | جمح | ٢ توفى | |
| حطاب بن الحرث | جمح | ٢ توفى | |
| محمد بن حاطب | | ٢ خ | |
| الحارث بن حاطب | | ٢ خ | |
| سفيان بن معمر | يمـن | ٢ ؟ | |
| جابر بن سفيان | | ٢ ؟ | |
| جنادة بن سفيان | | ٢ ؟ | |
| نبيه بن عثمان | | ٢ ؟ | |

قتل من كفارهم في بدر امية بن خلف ، وعلي بن امية ، واوس بن مسير •

واسر منهم عمرو بن أبي ، وعمرو بن عبدالله ، ووهب بن عمير ، وربيع بن دراج ، وأبي بن خلف وخمسة من حلفائهم ومواليهم •

**بنو عدي :**

| | | | |
|---|---|---|---|
| عمر بن الخطاب | مخزوم | | ب |
| زيد بن الخطاب | أسـد | | ب |
| سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل | خزاعة | | ب |
| عمرو بن سراقة بن معتمر | جمح | | ب |
| نعيم بن عبدالله | عدي | | |
| معمر بن عبدالله بن نضله | اشعر | ٢ خ | |
| عدي بن نضله بن عبدالعزى | سهم | ٢ توفى | |

| الاســـم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| عمرو بن أبي اثاثه | عزة | ٢ توفى | |
| عبد بن سراقة | جمح | | ب |
| خارجة سن حذافة | عدي | | |
| مالك بن خولى | | | ب |
| عامر بن ربيعه ح (عنزه) | | ١ + ٢ع | ب |
| عاقل بن المنكدر ح (كنانه) | | | |
| خالد بن المنكدر ح (كنانه) | | | |
| أياس بن المنكدر ح (كنانه) | | | |
| عامر بن المنكدر ح (كنانه) | | | |
| واقد بن عبدالله ح (تيم) | | | |
| خولى بن أبي خولى ح (مذحج) | | | |
| مهجع بن صالح مولى | | | |

**بنو عامر بن لؤي**

| الاســـم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| أبو سبرة بن أبي رهم | هاشم | ١ + ٢ع | ب |
| عبدالله بن مخرمة | كنانة | ٢ع | ب |
| أبو حاطب بن عمرو | أشجع | ١ خ | |
| عبدالله بن سهيل | نوفل | ٢ع | ب |
| سليط بن عمرو | يمـــن | ٢ع | |
| السكران بن عمرو | خزاعه | ٢ع | |
| مالك بن زمعه | | ٢خ | ب |

| الاســـم | عشيرة الأم | الهجرة الى الحبشة والعودة منها | الاشتراك في بدر |
|---|---|---|---|
| وهب بن سعد بن أبي سرح | | | |
| عمير بن عوف مولى | | | |
| سعد بن خوله مولى | | | |

وقد اسر من مشركيهم في بدر سهيل بن عمرو ، وعبد بن زمعة ، وعبدالرحمن بن منشوء ، وحبيب بن جابر ، والسائب بن مالك . واثنان من حلفائهم .

**بنو الحارث بن فهر :**

| | | | |
|---|---|---|---|
| أبو عبيده بن الجراح | الحارث | ٢ع | ب |
| سهيل بن بيضاء | الحارث | ١ + ٢ع | ب |
| صفوان بن بيضاء | الحارث | | ب |
| معمر بن أبي سرح | عامـر | ٢ع | ب |
| حاطب بن عمرو | | | ب |
| عياض بن أبي زهير | الحارث | ٢ ؟ | |
| عمرو بن أبي عمرو | | | |
| عمرو بن الحارث | عامـر | ٢ع | ب |
| عثمان بن عبد غنم | زهره | ٢ ؟ | |
| سعيد بن عبد قيس | | ٢ ؟ | |
| الحرث بن عبد قيس | | ٢ خ | |
| عمرو بن عبد غنم | | ٢ ؟ | |

اسر من كفارهم في بدر الطفيل بن أبي قنيع ، وعتبة بن عمر بن جحدم ، كما اسر حليفان لهم .

# المحتـويات

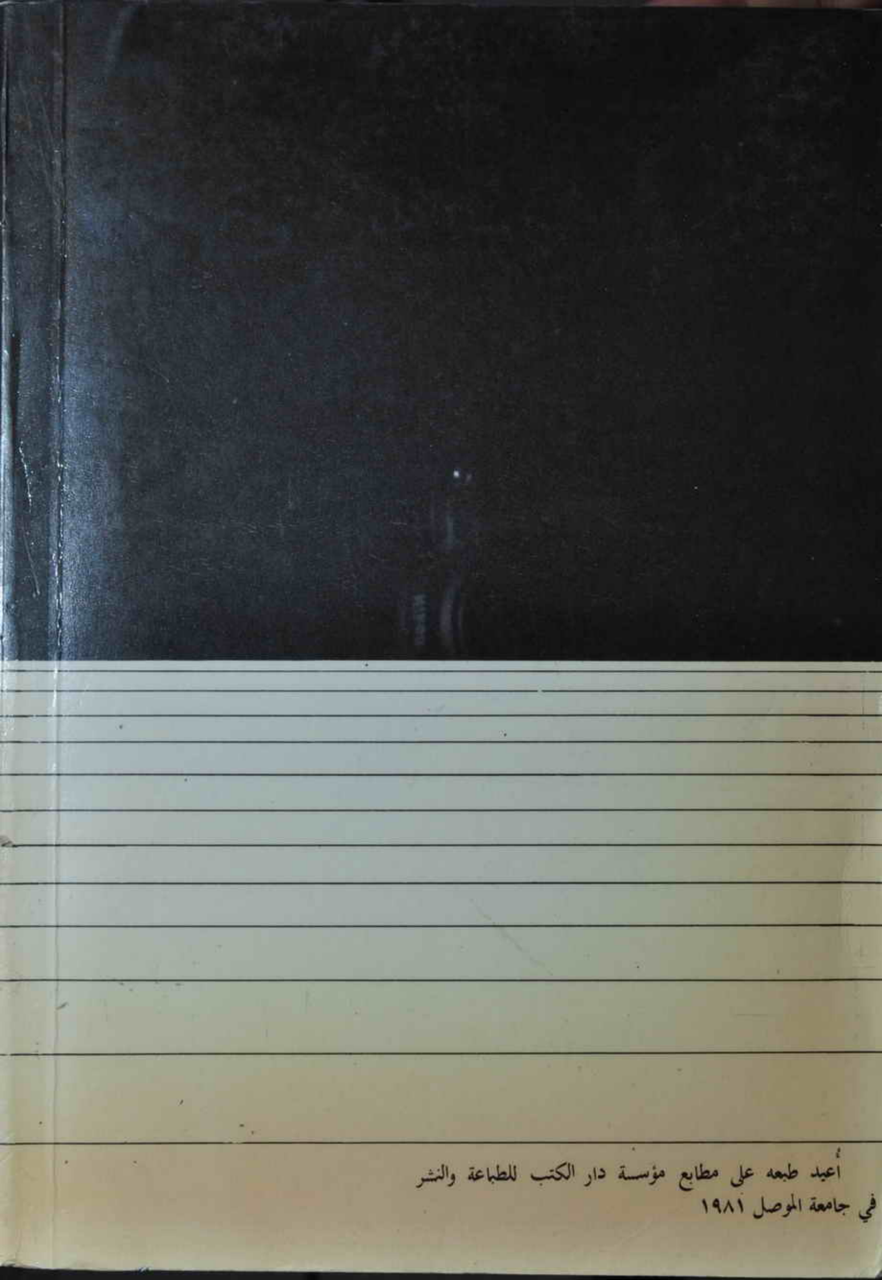
## القسم الثاني : الحياة البدوية ونظمها

# القسم الثالث : حياة الرسول والدعوة الاسلامية في مكة

# الفهرس الابجدي

(ح)

( و )


أُعيد طبعه على مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر
في جامعة الموصل ١٩٨١